رواية

مانويل بيلاس

مكتبة
Telegram Network

أورديسا

ترجمة:
مارك جمال

دار الآداب

مانويل بيلاس

أورديسا

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

«مكتبة ♔ النخبة»

أورديسا

مانويل بيلاس / كاتب إسباني

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

الطبعة الأولى عام 2021

ISBN 978-9953-89-708-0

حقوق الطبع محفوظة

ll rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means .without prior permission in writing of the publisher

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل م الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632 (03) فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com info@daraladab.com

الفهرس

كلمة الـمؤلِّف
ـ 1 ـ
ـ 2 ـ
ـ 3 ـ
ـ 4 ـ
ـ 5 ـ
ـ 6 ـ
ـ 7 ـ
ـ 8 ـ
ـ 9 ـ
ـ 10 ـ
ـ 11 ـ
ـ 12 ـ
ـ 13 ـ
ـ 14 ـ
ـ 15 ـ
ـ 16 ـ
ـ 17 ـ
ـ 18 ـ
ـ 19 ـ
ـ 20 ـ
ـ 21 ـ
ـ 22 ـ
ـ 23 ـ
ـ 24 ـ
ـ 25 ـ
ـ 26 ـ

- 27 -
- 28 -
- 29 -
- 30 -
- 31 -
- 32 -
- 33 -
- 34 -
- 35 -
- 36 -
- 37 -
- 38 -
- 39 -
- 40 -
- 41 -
- 42 -
- 43 -
- 44 -
- 45 -
- 46 -
- 47 -
- 48 -
- 49 -
- 50 -
- 51 -
- 52 -
- 53 -
- 54 -
- 55 -
- 56 -
- 57 -

- 58 -
- 59 -
- 60 -
- 61 -
- 62 -
- 63 -
- 64 -
- 65 -
- 66 -
- 67 -
- 68 -
- 69 -
- 70 -
- 71 -
- 72 -
- 73 -
- 74 -
- 75 -
- 76 -
- 77 -
- 78 -
- 79 -
- 80 -
- 81 -
- 82 -
- 83 -
- 84 -
- 85 -
- 86 -
- 87 -
- 88 -

- 89 -
- 90 -
- 91 -
- 92 -
- 93 -
- 94 -
- 95 -
- 96 -
- 97 -
- 98 -
- 99 -
- 100 -
- 101 -
- 102 -
- 103 -
- 104 -
- 105 -
- 106 -
- 107 -
- 108 -
- 109 -
- 110 -
- 111 -
- 112 -
- 113 -
- 114 -
- 115 -
- 116 -
- 117 -
- 118 -
- 119 -

- 120 -
- 121 -
- 122 -
- 123 -
- 124 -
- 125 -
- 126 -
- 127 -
- 128 -
- 129 -
- 130 -
- 131 -
- 132 -
- 133 -
- 134 -
- 135 -
- 136 -
- 137 -
- 138 -
- 139 -
- 140 -
- 141 -
- 142 -
- 143 -
- 144 -
- 145 -
- 146 -
- 147 -
- 148 -
- 149 -
- 150 -

_ـ 151 ـ_

_ـ 152 ـ_

_ـ 153 ـ_

_ـ 154 ـ_

_ـ 155 ـ_

_ـ 156 ـ_

_ـ 157 ـ_

خاتمة

العائلة والتاريخ

المحرقة

بورتريه

تاريخ إسبانيا

أويسكا، 1969

كمبريلس

كوكاكولا

دانييل

بابا

974310439

«أشكر الحياة، التي وهبَتني الكثير،

وهبَتني الضحك ووهبَتني البكاء.

هكذا أميِّز بين السعادة والأسى،

اللذَيْن تتألَّف منهما أنشودتي،

وأنشودتكم،

التي هي الأنشودة نفسها،

أنشودة الناس جميعًا،

أنشودتي أنا»

بيوليتا پارَّا

كلمة الـمؤلَف[1]

اسمي مانويل بيلاس، وأنا كاتب. [...] أنا نفسي لا أدري. لقد خلصتُ إلى نتيجة مؤدَّاها أنَّ هذا سؤال لا جواب له. أعرف أمورًا مقترنة بهذا السُّؤال. أعرف أنَّ في رواياتي الكثير من الأحداث الواقعيَّة. ولكنِّي أعرف أيضًا أنَّ تلك الأحداث تمرّ بتحوُّل أدبيّ كبير.

يُطرَح عليَّ هذا السُّؤال باستمرار: «إلى أيِّ مدى يُعَدّ [هذا الكتاب] سيرة ذاتيَّة، وإلى أيِّ مدى يُعَدّ عملًا أدبيًّا؟ أين الواقع وأين الخيال؟». أحيانًا أدلي بإجابات معقولة نوعًا ما. ولكن، إن شئت الصراحة، أعتقد بأنَّني لا أدري. أنا أعمل، وأكتب، وأحاول استخلاص خير ما في ذاتي، فيظهر ذلك على الصفحة، ولا أدري ما إذا كان خيالًا أم حقيقة.

الكتابة عندي عملٌ أؤدِّيه في العزلة، في البيت، أو في المكتب، حيث أسعى إلى الوقوف على كنه حياتي وحياة الناس. أستكشف المادة التي يستكشفها الكُتَّاب، التي هي الحياة... ذلك الفنّ الغامض، فنّ رسم خرائط الحياة.

أسعى إلى سرد الحكايات، لأنَّ الحياة عندي سرد حكاية. وأحاول الإفضاء إلى القارئ بحقائق إنسانيَّة، وتساؤلات عن حال البشر، الأمر الذي أمزجه بالحكايات دومًا. إليكم ما أفعله.

مانويل بيلاس

- 1 -

ليت المرء قادرٌ على قياس الألم البشريّ بأرقامٍ جليَّة، لا بكلماتٍ مُبهمة. ليتنا نملك طريقةً نعرف بها مقدار الشقاء الذي تكبَّدناه. ليت الألم كان مُؤلَّفًا من مادَّةٍ ملموسة، وقابلًا للقياس! في النهاية، كلُّ امرئٍ يواجه انعدامَ وزنِ خطواته عَبْر العالَم، في يومٍ أو آخر. مِن البشر مَن يملك احتماله، أمَّا أنا، فلن أتحمَّله ما حييت.

لن أتحمَّله ما حييت.

كنتُ أرنو إلى مدينة مدريد فتتسلَّل إلى كلّ جسدي تلك اللَّاواقعيَّة التي تميِّز شوارعها وبيوتها وكائناتها البشريَّة.

هُوَذَا أنا الإِنْسَان.

لم أفهم الحياة.

حتى الأحاديث التي جمعَتني بغيري من البشر صارَت ضجِرةً، وئيدةً، مؤذية.

آلمني الحديث إلى الباقين: ورأيتُ لاجدوى جميع الأحاديث البشريَّة، ما كان منها وما سيكون. رأيتُ نسيانَ الأحاديث وهي لا تزال حاضرة.

رأيتُ السقوطَ قبل السقوط.

رأيتُ عبثَ الأحاديث، وعبثَ المُتحدِّث، وعبثَ المجيب. ذلك العبث المُتَّفق عليه حتى يصبح وجود العالَم ممكنًا.

عند ذاك، عاودتُ التفكير في أبي. إذ خطر لي أنَّ شيئًا لا يستحقّ العناء سوى تلك الأحاديث التي دارَت بيني وبين أبي. رجعتُ إلى تلك الأحاديث، على أمل أن أنعم بلحظةٍ من الراحة وسط ذلك الأفول العام الذي طال كلّ الأشياء.

خلتُ عقلي مُتحجِّرًا، وبتُّ عاجزًا عن حلّ مسائلَ ذهنيَّةٍ يسيرة. كنتُ أجمع الأرقام المُدوَّنة على لوحات السيَّارات، فتغرقني تلك العمليَّات الحسابيَّة في حزنٍ دفين. كنتُ أخطئ عند الحديث بالإسبانيَّة. وأستغرق طويلًا في صياغة عبارةٍ واحدة، وأغرق في الصمت، بينما ينظر إليَّ مُحدِّثي آسفًا أو هازئًا، ثم ينهي عبارتي بنفسه.

كنتُ أتلعثم، وأردِّد الجملة نفسها ألف مرَّة. ربَّما كانت تلك التأتأة العاطفيَّة تنطوي على شيءٍ من الجمال. شرعتُ في محاسبة أبي، والتفكير

في حياته طوال الوقت. حاولتُ العثور على ما يفسِّر حياتي في حياته. بِتُّ كائنًا مُروَّعًا يستشرف المستقبل.

كنتُ أنظر إلى نفسي في المرآة فلا أرى شيخوختي، بل شيخوخة كائنٍ آخر سبق له أن كان في هذا العالَم. رأيتُ شيخوخة أبي. وهكذا تسنَّى لي ذكره على أكمل وجه. لم يكُن عليَّ سوى النظر إلى نفسي في المرآة، وإذا هو ماثلٌ أمامي، وكأنَّها شعائر مجهولة، طقوسٌ شامانيَّة [2]، منظومة ثيولوجية معكوسة.

أمَّا اللقاء بأبي على صفحة المرآة، فقد خلا من كلِّ بهجةٍ ومن كلِّ سعادة، بل كان اللِّقاء به ألمًا يُزاد على الألم، درجةً أدنى أنحدر إليها، انخفاضًا في حرارة جثماتَيْن يتجاذبان أطراف الحديث.

أرى ما لم يُقدَّر له أن يُرَى، أرى الموت يتمدَّد ويُرسي دعائم المادة، أرى انعدام الوزن الشامل الذي يعمّ كلّ الأشياء. قرأتُ سانت تريزا الأبيلاويَّة، تلك المرأة التي كانت تخطر على بالها أمورٌ مشابهة. وإن أطلق عليها كلٌّ منَّا اسمًا مختلفًا.

شرعتُ أكتب. بالكتابة وحسب، يمكنني الإفراج عن كلِّ هذه الرسائل القاتمة الآتية من الأجساد البشريَّة، من الشوارع، والمدن، والسياسة، ووسائل التواصل، ومن كياننا.

الشبح الأكبر، شبح ذلك الذي كُنَّاه: بنيةٌ نائية عن الطبيعة. الشبح الأكبر يحالفه النجاح: فالبشريَّة على قناعةٍ بوجوده. وهنا، تبدأ مشكلاتي.

انطوى عام 2015 على حزنٍ سرى إلى كلِّ أرجاء الكوكب، واستشرى في المجتمعات البشريَّة كالفيروس.

خضعتُ لمسحٍ دماغيّ. وزرتُ اختصاصي الأعصاب، ذلك الرجل الممتلئ البدن، الأصلع، الذي يُحسن العناية بأظفاره، ويرتدي ربطة العنق تحت البالطو الأبيض. أجرى لي الفحوصات الطبِّيَّة، ثم نفى وجود أيّ شيءٍ غريبٍ في رأسي. وقال إنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام.

فشرعتُ أكتب هذا الكتاب.

دار في خَلَدي أنَّ حالتي الرُّوحيَّة ذكرى مُبهمة، ذكرى شيءٍ جرى في مكانٍ يقع شمالي إسبانيا، ويُسمَّى أورديسا. مكانٌ حافلٌ بالجبال، وكانت ذكرى صفراء، فاللَّون الأصفر يغمر اسم أورديسا، وخلف أورديسا ترتسم هيئة أبي في صيف 1969.

إنَّها حالةٌ ذهنيةٌ تمثِّل مكانًا: أورديسا. وتُصطبغ بلون: الأصفر.

وإذا كلّ شيءٍ يغدو أصفر. أن تتلوَّن الأشياء ويتلوَّن البشر بالأصفر يعني أنَّهم قد بلغوا عدم الاتِّساق، أو الضغينة.

الألم أصفر! هذا ما أرمي إليه.

أكتب هذه الكلمات في التاسع من مايو عام 2015. مرَّ سبعون عامًا منذ وقَّعَت ألمانيا استسلامها غير المشروط. خلال يومَيْن، استُبدِلَت صور ستالين بصور هتلر.

التاريخ أيضًا جسدٌ يحسّ بوخزات الندم. أبلغ من العمر اثنيْن وخمسين عامًا، وهأنذا أمثِّل تاريخ نفسي.

يدلف ابناي إلى البيت في هذه اللَّحظة، كانا يمارسان رياضة الپادل تنس. يخيِّم على الأجواء قيظٌ مُروِّع. لجاجة القيظ، وزحفه المُستمِرّ على البشر، وعلى الكوكب...

ارتفاع درجات حرارة البشريَّة. الأمر لا يقتصر على التغيُّر المناخيّ وحسب، فذلك ضربٌ من رسائل التذكير التي يبعثها التاريخ إلينا، انتقام الأساطير العتيقة من الأساطير الجديدة. التغيُّر المناخيّ لا يعدو أن يكون نسخةً حديثةً من نهاية العالَم. تروق لنا نهاية العالَم. ونحملها في جيناتنا الوراثيَّة.

الشقَّة التي أسكنها قذرة، غارقةٌ في الغبار. حاولتُ تنظيفها عدَّة مرَّات، بَيْد أنَّ ذلك ضربٌ من المحال. لم أتقن التنظيف يومًا. وما هذا لأنِّي لم أُلقِ للأمر بالًا، فربَّما ترسَّبَت فيَّ جيناتٌ وراثيَّةٌ تصل بيني وبين الطبقة الأرستقراطيَّة. الشيء الذي يبدو لي بعيد الاحتمال إلى حدٍّ كبير.

أعيش في جادة رانِيَّاس، في مدينةٍ تقع شمالي إسبانيا، لا أذكر لها اسمًا في هذه اللَّحظة: ولقد خلا هذا المكان إلَّا من الغبار والقيظ والنمل. منذ فترةٍ، تعرَّضتُ لهجمات النمل، فقتلتُه بالمكنسة الكهربائيَّة التي سحبَت المئات من الحشرات، حتى شعرتُ وكأنِّي مُرتكِب إبادةٍ جماعيَّة مشروعة. أنظر إلى المقلاة في المطبخ، والدهون العالقة بالمقلاة. يجب عليَّ غسلها. لا أدري ماذا أقدِّم لابنَيَّ من الطعام. يا لتفاهة الطعام! من النافذة، تبدو دارُ عبادةٍ كاثوليكيَّة، تتلقَّى ضياءَ الشمس غير مُتهيِّبة، ونارها المُلحِدة. نار الشمس التي يرسلها الربُّ إلى الأرض مباشرةً وكأنَّها كرةٌ سوداء، قذرة، تعيسة، وكأنَّها مُجرَّد عفن، أو نفايات. ألا ترون نفايات الشمس؟

تخلو الشوارع من الناس. لا شوارع حيث أعيش، إن هي إلَّا أرصفةٌ خاوية، يكسوها التراب والجراد النافق. أمَّا الناس فقد سافروا لقضاء العطلة.

يقضون وقتًا طيِّبًا على شطآن البحر. الجراد النافق أيضًا كوَّن أسرةً وأمضى أيَّام العطلة، أيَّام الاحتفال بمولد المسيح، وأعياد الميلاد.

كلُّنا مساكين، زُجَّ بنا في نفق الوجود. والوجود تصنيفٌ معنويّ. يُرغمنا الوجود على العمل، عمل الأشياء، أيًّا كانت.

لو أنَّ هنالك ما أدركتُ في هذه الحياة، فلقد أدركتُ أنَّ جميعنا، رجالًا ونساء، وجودٌ واحدٌ فحسب. ولسوف يحظى ذلك الوجود الواحد يومًا بالتمثيل السياسيّ. يومذاك، نخطو خطوةً إلى الأمام. بَيْد أنِّي لن أشهد ذلك اليوم. ما أكثر الأمور التي لن أشهدها، ومع ذلك، أشهدها في هذه اللَّحظة!

لطالما رأيتُ أمورًا.

لطالما حدَّثني الموتى.

شهدتُ أمورًا بلغَتْ من الكثرة حدًّا سمح للمستقبل بالحديث إليَّ، كما لو كُنَّا جارَيْن، أو حتى صديقَيْن.

عن تلك الكائنات أتحدَّث، عن الأشباح، عن الموتى، عن أبي وأمي الراحلَيْن، عن الحبّ الذي شعرتُ به نحوهما، عن بقاء ذلك الحب.

لا أحد يدري ما الحبّ!

- 2 -

بعد طلاقي (الذي وقع منذ عام، وإن لم يكُن التوقيت معروفًا على وجه التَّحديد، لأنَّه عمليَّةٌ، لا تاريخٌ بعينه. مع أنَّه من المنظور الرَّسميّ يُعَدُّ تاريخًا واحدًا. ربَّما كان يومًا مُحدَّدًا من المنظور القانونيّ. على كلِّ حال، فلا بدَّ من الأخذ في الحسبان تواريخَ كثيرةً ذات دلالة: يومَ تفكِّر في الأمر لأوَّل مرَّة، ولثاني مرَّة، ثمَّ تتراكم المرَّات، وتتفاقم الأحداث المُفعمة بالخلافات والخصومات والأحزان التي تؤكِّد على ما فكَّرتَ فيه، وأخيرًا ترحل عن بيتك. ربَّما كان الرحيل هو الذي يُعجِّل بتداعي سيلٍ من الأحداث التي تنتهي بإجراءٍ قانونيٍّ لا رجعة فيه، يبدو أنَّه يمثِّل النهاية من منظورٍ قانونيّ! فالمنظور القانونيّ يكاد يكون بوصلةً يسترشد بها المرء في تلك الهاوية، يكاد يكون عِلمًا، ما دمنا في حاجةٍ إلى عِلمٍ من أجل إضفاء السمة العقلانيَّة، ومبدأ اليقين)، بِتُّ أنا الرجل الذي كنتُه قبل أعوامٍ طوال خلَت، أعني أنِّي اضطُرِرتُ إلى شراء ممسحةٍ وفرشاةٍ، ومُنظِّفات، الكثير من المُنظِّفات.

كان حارس المُجمَّع السكنيِّ عند الباب. تحدَّثنا قليلًا. قلنا شيئًا عن إحدى مباريات كرة القدم. أنا أيضًا أفكِّر في حياة الناس. الحارس ينتمي إلى عِرقٍ شرقيّ، وإن كان إكوادوريّ الجنسيَّة. يعيش في إسبانيا منذ أمدٍ بعيدٍ، وما عاد يذكر الإكوادور. أعرف أنَّه، في قرارة نفسه، يحسدني على شقَّتي. فمهما ساءت أحوالك في الحياة، هناك من يحسدك دومًا. إنَّه ضرْبٌ من السخرية الكَوْنية.

يساعدني ابني على تنظيف البيت، حيث تكدَّسَت المراسلاتُ الغارقة في الغبار.

كنتُ ألتقط مظروفًا فيتولَّد لديَّ ذلك الإحساس المُنفِّر الذي يتركه الغبار على الأنامل، الغبار الذي تراكم حتى كاد يغدو ترابًا.

كانت هناك رسائلُ باهتة، رسائلُ حبٍّ قديم، رسائلُ شبابٍ رقيقة، بريئة، رسائلُ من أمّ ابني التي كانت زوجتي. قلتُ لابني أن يضعها في صندوق الذكريات. وهناك أودعنا صورَ أبي وحافظةَ أمِّي أيضًا. فبات الصندوقُ ضربًا من مقابر الذاكرة. لم أُرِد إطالة النظر إلى تلك الأشياء، أو لم أقدر على ذلك. رحتُ أتلمَّسها بحبّ، بألم.

قال لي ابني: لا تعرف ما العمل بكلِّ هذه الأشياء، أليس كذلك؟

هناك المزيد والمزيد من الأشياء: الإيصالات والأوراق التي تبدو مهمَّة، كمستندات التأمين على سبيل المثال، ورسائل البنك، هكذا قلتُ له.

تغزو البنوك صندوق بريدك برسائلَ تبعث على الاكتئاب. أكوامٌ من كشوف الحسابات البنكيَّة. رسائل البنك تدفعني إلى التوتُّر، لأنَّها تصل كي تُخبرك مَن تكون. تدفعك إلى التأمُّل في انعدام المغزى من وجودك في هذا العالَم.

شرعتُ أطالع كشوف الحسابات البنكيَّة.

لماذا يروق لك تشغيلُ المُبرِّد بقوَّةٍ إلى هذا الحدّ؟ سألتُ نفسي.

أشعر بالهلع من القيظ، مثلما كان يشعر به أبي هو الآخر. أتذكر جدّك؟

إنَّه سؤالٌ يبعث على الضيق، إذ يفكِّر ابني أنِّي بتلك الأسئلة أسعى إلى الفوز ببعض المزايا، والمعاملة الحسنة من جانبه.

يتمتَّع ابني بالقدرة على الحسم والعمل. ساعدني على تنظيف شقَّتي مساعدةً شاملة.

وفجأةً، تراءى لي أنَّ شقَّتي لا تستحقّ ما أنفقه عليها من نقود. يُخيَّل إليَّ أنَّ ذلك اليقين هو البرهان الأكثر جلاءً على نضج ذكاء البشر ممَّن يرزحون تحت وطأة الرأسماليَّة. ولكنِّي، بفضل الرأسماليَّة، أمتلك بيتًا.

فكَّرتُ، كعهدي دومًا، في الإفلاس الاقتصاديّ. تمثِّل حياةُ المرء، في الأساس، محاولةً لتجنُّب الوقوع في الإفلاس الاقتصاديّ. فذلك هو الإخفاق الأعظم، أيًّا كان المجال الذي يعمل فيه. ما دمتَ عاجزًا عن إطعام أبنائك، فأنت لا تملك سببًا واحدًا للوجود في المجتمع.

لا أحد يدري إن كان العيش خارج الإطار المجتمعيّ ممكنًا. ذلك أنَّ تقدير الآخرين يُعَدُّ سندَ وجودِك الوحيد في خاتمة المطاف. فالتقدير اعتبارٌ يؤلِّف القيم والآراء التي يكوِّنها الناس عنك، ومن ذلك الرأي ينشأ موقعك في العالَم. إنَّه صراعٌ بين الجسد ـ جسدك أنت، الذي تسكنه الحياة ـ وقيمةِ جسدِك عند الآخرين. ما دام الناس يرغبون فيك، ويرغبون في حضورك، فلسوف تسير أمورك على ما يُرام.

وعلى الرَّغم من ذلك، فالموت ـ ذلك السيكوبَّاتي المجنون ـ يساوي بين جميع التَّقديرات الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة من خلال فساد اللَّحم، الذي ما زال نشطًا. كثيرًا ما يدور الحديث عن الفساد السياسيّ والفساد الأخلاقيّ، وقلَّما يدور عن فساد الجسد على يدَي الموت: عن الالتهاب، عن تفجُّر الغازات الباعثة على الغَثَيان، وتحوّل الجثمان إلى كتلةٍ من العفن.

قلّما تحدَّث أبي عن أمِّه. فما كان يذكر إلّا مهارتها في الطهي. رحلَت جدَّتي عن بارباسترو إلى غير عودة، والستينيَّات في أواخرها. لعلَّها رحلَت عن هناك عامَ 1969. ذهبَت برفقة ابنتها.

بارباسترو هي البلدة التي فيها وُلِدتُ ونشأت. كان تعداد سكانها يبلغ عشرة آلاف نسمة حين وُلِدت، والآن بلغ سبعة عشر ألف نسمة. بمضيّ الزمن، تكتسب تلك البلدة قوَّة القَدَر الكَوْني والقَدَر الخاصّ في آن.

لقد أطلق القدامى اسم «التمثيل» على تلك الرَّغبة في تحويل ما لا هيئة له إلى شخصيَّةٍ ذات هيئة. فعند أغلب البشر، يتجسَّد الماضي تجسّدًا خليقًا بشخصٍ في رواية.

أذكر صورةً لأبي تعود إلى الخمسينيَّات، حيث يظهر في سيَّارته السيات 600. يكاد يتعذَّر تمييزه، ولكنَّه هو. إنَّها صورةٌ غريبة، تنتمي إلى تلك الحقبة بشدَّة، حيث تبدو الشوارع وكأنَّها قد ظهرَت لتوِّها. في الخلفيَّة، تبدو سيَّارة رينو أوندين وحلقة من النساء اللَّاتي يولين الكاميرا ظهورهنَّ ويحملن الحقائب، لعلّهن الآن قد فارقن الحياة أو طعنَّ في العمر. أميِّز رأس أبي داخل السيات 600 التي تحمل لوحة أرقامٍ صادرة من مدينة برشلونة. لم يذكر أبي ذلك يومًا، لم يذكر أنَّ أوَّل سيَّارةٍ سيات 600 اقتناها كانت تحمل لوحة أرقامٍ صادرة من مدينة برشلونة. لا يبدو الوقت صيفًا ولا شتاء. ربَّما التُقِطَت الصورة في أواخر سبتمبر أو أواخر مايو، بالحُكم على الثياب التي ترتديها النساء.

لا يسعنا من القول إلَّا قليلًا عن تداعي جميع الأشياء التي كانت. وإن يكُن في وسعي الإشارة إلى افتتاني شخصيًّا بتلك السيَّارة، السيات 600، التي أشاعَت البهجة في نفوس الملايين من الإسبان، وبثَّت الأمل اللادينيّ، الماديّ، وكانت مدعاةً للإيمان بمستقبل الآلات الشخصيَّة، ومدعاةً للسفر، والتعرُّف بأمكنةٍ غير الأمكنة ومدنٍ غير المدن، والتَّفكير في متاهات الجغرافيا والطرقات، وزيارة الأنهار والشطآن، وانزواء المرء على نفسه داخل مساحته بمعزلٍ عن العالَم.

كانت لوحة الأرقام صادرةً من مدينة برشلونة، وأرقامها الضائعة: 186.025. لعلَّ شيئًا قد تبقَّى من تلك اللَّوحة في مكانٍ من الأمكنة، والتَّفكير في ذلك يشبه التحلِّي بالإيمان.

إنَّ وعي المرء بالطبقة التي ينتمي إليها هو الشيء الذي يجب ألَّا يغيب عنَّا أبدًا. لقد حقَّق أبي ما وسعه أن يحقِّق في إسبانيا: فوجد وظيفة، وأدَّى عمله، وكوَّن أسرة، وقضى نحبه.

أمَّا البدائل عن تلك الإنجازات فقليلة.

الأسرة ضربٌ من السعادة المُجرَّبة. أمَّا أولئك الناس الذين يستقرُّون على العزوبيَّة فيموتون مُبكِّرًا، كما أثبتَت الإحصائيَّات. وليس هنالك من يرغب في الموت قبل الأوان، لأنَّ الموت خالٍ من كلّ طرافة، ضاربٌ في القدم. إنَّ الرَّغبة في الموت تنطوي على مفارقة تاريخيَّة، وهو الاكتشاف الذي وقفنا عليه في الآونة الأخيرة. إليك آخر اكتشافات الثقافة الغريبة: خيرٌ للمرء ألَّا يموت.

مهما يكُن من شيء، لا تمُت، لسببٍ يسهل فهمه: ليس من الضروريّ. ليس من الضروريّ أن يموت المرء. فيما مضى، ذهب الناس إلى الاعتقاد بعكس ذلك، أي بضرورة الموت.

كانت الحياة أبخس قدْرًا فيما مضى، والآن صارت أعظم قدْرًا. ذلك أنَّ توليد الثروات ووفرة الخامات جعلا الصعاليك التاريخيِّين يحبُّون البقاء على قيد الحياة (أولئك الصعاليك الذين ما كانوا يحفلون بالبقاء على قيد الحياة من عدمه قبل عقودٍ من الزمان).

إنَّ الطبقة المُتوسِّطة الإسبانيَّة في الخمسينيَّات والستينيَّات قد أورثَت ذريَّتها طموحاتٍ أرفع شأنًا.

لا أدري في أيِّ عامٍ ماتت جدَّتي. ربَّما ماتت في العام 1992 أو 1993 أو 1999 أو 2001 أو 1996 أو 2000، أو شيءٍ من هذا القبيل. اتَّصلَت عمَّتي لتبلغنا خبر وفاة جدَّتي لأبي. كان أبي في خصامٍ مع أخته، فتركَت له رسالةً على جهاز الردّ على المكالمات. سمعتُ الرسالةَ، التي قالت فيها إنَّ أمَّهما واحدة، على الرَّغم من علاقتهما السَّيِّئة. هو ذاك: كانت أمَّهما واحدة، الأمر الذي يُعَدُّ سببًا للتقارب. استغرقتُ في التَّفكير حين سمعتُ الرسالة، لطالما كان الضوء الساطع يغمر بيت أبي وأمِّي ويُفقِد الأحداثَ سمةَ الاتِّساق، لأنَّ الضوء أعظم قوَّةً من أفعال البشر.

جلس أبي على أريكته. الأريكة الصفراء. لن يحضر الجنازة، كان ذلك هو القرار الذي استقرَّ عليه. ماتت جدَّتي في مدينةٍ نائية، تبعد نحو خمسمئة كيلومتر عن بارباسترو، عن المكان حيث تلقَّى أبي خبر وفاة أمّه في تلك اللَّحظة. ببساطة، لم يأبه للذهاب. لم يشعر برغبةٍ في الذهاب وقطْعِ كلّ هذه المسافة بالسيَّارة، أو ركوب الحافلة طوال ساعات، والاضطرار إلى البحث عن تلك الحافلة.

وعلى أثر تلك الواقعة، انهمر سيلٌ من الأحداث الأخرى. لا يهمُّني إطلاق حكمي على ما جرى، وإنَّما سرده أو ذكره أو الاحتفاء به. فلطالما كانت أخلاقيَّةُ الأحداث بنيةً وليدة الثقافة. الأحداث في حدِّ ذاتها آمنة. الأحداث طبيعة، أمَّا تأويلها فسياسة.

لم يحضر أبي جنازة جدَّتي. أيُّ صلةٍ جمعَت بينه وبين أمِّه؟ لم تجمع بينهما أدنى صلة. أو ربَّما كانت بينهما صلة في البدء، بطبيعة الحال، لا أدري! في عام 1935 أو 1940 على وجه التقريب. ولكنَّ تلك الصِّلة أخذَت في التبدُّد، والتلاشي، رويدًا رويدًا. في اعتقادي، كان ينبغي لأبي حضور تلك الجنازة. لا من أجل أمِّه الراحلة، بل من أجل نفسه، ومن أجلي أنا أيضًا. تنصَّل أبي من حضور تلك الجنازة، وإذا هو يستقرّ على التنصُّل من الحياة بوجه العموم.

اللُّغز الأعظم أنَّ والدي أحبَّ أمّه. رَفَض عقلُه الباطن جثمانَ أمّه الميِّتة، وعلى ذلك الأساس ارتكزَت الدوافع التي حالَت دونه ودون حضور الجنازة. بينما كان الأنا الواعي لأبي مُثقَلًا بخمولٍ لا سبيل إلى التغلُّب عليه.

تختلط في رأسي ألفُ قصَّةٍ مُتَّصلةٍ بالفقر، وكيف يسمِّمك الفقر في النهاية بحلم الثراء؛ أو كيف يؤدِّي الفقر إلى الجمود، والعزوف عن ركوب السيَّارة وقطع خمسمئة كيلومتر.

عام 2008، انهارَت الرأسماليَّة في إسبانيا، فتهنا، وما عدنا ندري إلامَ نطمح. ومع بدء الكساد الاقتصاديّ بدأت الكوميديا السياسيَّة.

كدنا نحسد الموتى.

أُحرِق جثمان أبي في محرقةٍ تعمل بوقود الديزل. لم يُفصح لنا يومًا عمَّا يريدنا أن نفعل بجثمانه بعد الموت. فاكتفينا بإزاحة الميِّت عن طريقنا (الجسد المُمدَّد، ذلك الذي كان. والآن لم نعُد ندري ما الذي آل إليه)، كما يفعل الجميع، وكما سيفعلون بي أنا الآخر. كلَّما مات أحدهم، استحوذ علينا الهوسُ بطمس جثمانه عن الخارطة. إطفاء الجسد. ولكنْ فيمَ كلّ هذا الاستعجال! أهو فساد اللَّحم؟ كلا، فلقد صارَت المشارح مُزوَّدةً بثلَّاجاتٍ مُتطوِّرة جدًّا في الوقت الحالي. بل إنَّ الجثامين تُفزِعنا، يُفزِعنا المستقبل، يُفزِعنا ما سوف نصير إليه. وتُرهِبنا العودة إلى الروابط التي جمعَتنا بذلك الجثمان. تخيفنا الأيَّام التي أمضيناها بجواره، والأشياء الكثيرة التي فعلناها برفقته: الذهاب إلى الشاطئ معه، تناول الغداء معه، السفر معه، تناول العشاء معه، بل وحتى النوم معه.

بانقضاء الأجل، تبقى مشكلةٌ واقعيَّة وحيدة: ما العمل بالجثامين؟ في إسبانيا احتمالان: إمَّا الدفن (inhumación) وإمَّا الحرق (incineración). كلمتان بديعتان جذورهما ضاربة في اللُّغة اللَّاتينيَّة: التحوُّل إلى تراب أو التحوُّل إلى رماد.

ها هي ذي اللُّغة اللَّاتينيَّة تضفي وجاهةً على موتنا.

أحرِق أبي في التاسع عشر من ديسمبر عام 2005. والآن أشعر بالندم، ربما كان قرارًا مُتعجِّلًا. ومن جهة أخرى، فامتناع أبي عن حضور جنازة أمّه، أي جنازة جدَّتي، مقترنٌ بإقدامنا على إحراقِ جثمانه. أيَّهما أكثر أهمِّيَّة: أن أشير إلى صلة القرابة التي جمعَتني بها قائلًا «جدَّتي»، أو أشير إلى صلة القرابة التي جمَعت والدي بها قائلًا «أمّه»؟ أتردَّد، لا أدري أيَّ وجهة نظرٍ أختار. جدَّتي أم أمُّه! كلُّ شيءٍ يكمن في ذلك الاختيار. لم يحضر أبي جنازة جدَّتي، الأمر المقترن بما فعلنا بجثمانه، واتِّخاذنا القرار بإحراق جثمانه، وإحالته رمادًا. ليس مقترنًا بالحبّ، وإنَّما بسَيْل الأحداث، التي تفضي إلى غيرها من الأحداث: سيل الحياة، مياهٌ تجري دومًا، بينما يدركنا الجنون.

تنبَّهتُ في هذه اللَّحظة إلى خلوّ حياتي من الأحداث الجسام؛ وعلى الرَّغم من ذلك، أشعر بشقاءٍ دفين في طيَّات نفسي. الألم ليس عائقًا يحول دون البهجة في المطلق، على حدّ فهمي للألم، ذلك أنَّه مقترنٌ عندي بتكثُّف الوعي.

الشقاء وعيٌ تمدَّد حتى طال جميع الأشياء، ما كان منها وما سيكون. إنَّه ضربٌ من المودَّة السرِّيَّة بين المرء وبين كلِّ الأشياء، ضربٌ من اللطف بينه وبين جميع ما كان.

ومِن المودَّة واللطف يتولَّد الرقيّ دائمًا.

إنَّها واحدةٌ من طرائق الوعي العام.

الشقاء يدٌ ممدودة. مودَّةٌ نحو الآخرين. نبتسم، بينما نتداعى من الداخل. إذا اخترنا الابتسام بدلًا من السقوط موتى على قارعة الطريق، فذلك ضربٌ من الرقيّ، والحنان، واللطف، وحبّ الآخرين ومراعاتهم.

لستُ أدري حتى كيف أرتِّب الزمن، كيف أوصِّفه. أعود إلى ذلك المساء من شهر مايو عام 2015، ذلك المساء الذي أعيشه في هذه اللَّحظة، وأرى كومةً من العقاقير المتناثرة على فراشي على نحوٍ فوضويّ، عقاقير بصنوفها كافَّة: مضادَّاتٍ حيويَّة، مضادَّات الهستامين، مُهدِّئات، مضادات الاكتئاب.

وعلى الرَّغم من ذلك، أحتفي بأنِّي على قيد الحياة، الأمر الذي سأظلّ أحتفي به على الدوام. يتساقط الزمن ويتراكم على موت أبي، حتى صار كثيرًا ما يشقُّ عليَّ تذكّره. غير أنَّ الأمر لا يحزنني. أن يمضي أبي صوب التحلُّل التام، بينما لا يذكره سواي، أنا وأخي، يبدو لي شيئًا فائق الجمال.

ماتَت أمِّي منذ عام. في بعض المرَّات، وهي لا تزال على قيد الحياة، شعرتُ برغبةٍ في الحديث إليها عن أبي، فكانت تأبى. كما لا يسعني الإفراط في الحديث عن أبي إلى شقيقي. لا ألومهما، مطلقًا. بل إنِّي أتفهَّم ما قد

يتسبَّب فيه مثل هذا الحديث من ضيقٍ، وخجلٍ، بطريقةٍ ما. فالحديث عن الموتى، طبقًا لبعض الأعراف الثقافيَّة، أو على الأقل من وجهة نظري أنا، يشير إلى درجةٍ شديدةٍ وحادَّةٍ من الوقاحة.

لذا بقيتُ وحدي مع أبي. وأنا الوحيد في هذا العالَم الذي يذكره يوميًّا (لا أدري ما إذا كان أخي يفعل بالمثل)، ويتأمَّل أفوله يوميًّا، أفوله الذي يغدو نقاءً في النهاية. ليس الأمر أنِّي أذكره كلَّ يوم، بل إنَّه يسكن في حنايا نفسي دومًا، حتى إنِّي قد انسلختُ عن ذاتي كي أفسح له مكانًا.

كما لو أنَّه لم يرغب في البقاء على قيد الحياة من أجلي، أقصد أنَّه لم يرغب في الكشف لي عن حياته، ومغزى حياته: لا أبَ يريد أن يكون بشرًا من أجل ابنه.

ثم غرق ماضيَّ كاملًا حين سارَت أمِّي على خطى أبي: وفارقَت الحياة.

- 3 -

ماتَت أمِّي في نومها. بعد أن سئمَت جرَّ جسدها من مكانٍ إلى آخر، لعجزها عن السَّيْر. لم أدرِ قطّ ما الأمراض التي أصابَتها على وجه الدقَّة. كانت أمِّي راويةً فوضويَّة. وأنا أيضًا. أخذتُ عن أمِّي الفوضى السَّرديَّة. لم آخذها عن أيٍّ من التقاليد الأدبيَّة، لا الكلاسيكيَّة منها ولا الطليعيَّة. إنَّما هو تداعٍ ذهنيٌّ يسفر عنه تداعٍ سياسيّ.

في أسرتي، لم تُروَ الأحداث الجارية بدقَّةٍ يومًا. ومن هنا، جاءت المشقَّة التي تواجهني إن تكلَّمتُ بما يجري لي. أُصيبَت أمِّي بعددٍ كبيرٍ من العلل التي تضاربَ وتصادمَ بعضها ببعض في حكايات أمِّي. فلم تكُن هناك وسيلةٌ واحدة لترتيب ما يجري لها. في النهاية، كشفتُ طلاسم مجريات الأحداث: كانت تودّ لو أدرجَت في حكاياتها ذلك القلق الشخصيّ، لو عثرَت على مغزى الأحداث المحكيَّة. كانت تدلي بتفسيرها، ولكنْ كلّ شيءٍ أفضى بها إلى الصَّمت في النهاية. كانت تنسى التفاصيل التي تحكيها بعد أيَّام، التفاصيل التي تجد أنَّها لا تنفعها بشيء.

كانت أمِّي تتلاعب بالأحداث، وتخشاها، وتخشى أن تكون واقعيَّةُ الأحداث تتعارض ومصالحها. بَيْد أنَّها لم تعرف أين مصلحتها، إلَّا في حدود ما تسمح به الغريزة.

أسقطَت أمِّي كلّ ما رأته غير ذي نفع. الأمر الذي ورثتُه عنها في سردي. وليس هذا كذبًا، إنَّما هو ببساطة خوفٌ من الوقوع في الخطأ، أو خوفٌ من إفساد الأمور، رعبٌ من الأحكام التأسّليَّة [3] التي يطلقها الآخرون، لأنَّك لم تفعل ما يُفترَض به أن يكون واجبًا عليك بموجب قانون الحياة في المجتمع، ذلك القانون العصيّ على الفهم. لا أنا ولا أمِّي فهمنا جيِّدًا ما يُفترَض به أن يكون واجبًا على المرء. ومن جهةٍ أخرى، فلا اختصاصي أمراض الشيخوخة ولا الأطبَّاء الذين فحصوا أمِّي نجحوا في التفوُّق على تلك التقارير الفوضويَّة الشاردة بتقاريرهم الطبِّيَّة. كانت أمِّي تضيِّق الخناق على منطق الطبّ، وتدفعه إلى الهاوية، أمَّا أسئلتها إلى الأطبَّاء فكانت مشهودة. ذات مرَّةٍ، استطاعَت أن تحمل طبيبًا على الاعتراف لها بأنَّه لا يعرف حقًّا ما الفارق بين الإنفلونزا البكتيريَّة والإنفلونزا الفيروسيَّة. في غمرة فوضاها المعنويَّة ورغبتها في التعافي، كانت ملاحظات أمِّي البديهيَّة والاستشرافيَّة تبدو أجدر بالاهتمام من تفسيرات الأطبَّاء. رأت الجسد البشريّ كالأفعى العدوانيَّة، المُتوحِّشة. وآمنَت بوحشيَّة الدورة الدمويَّة.

كان بها ميْلٌ إلى الدراما، يفوق صبر الأطبَّاء قوَّةً. لم يدرِ الأطبَّاء ماذا يفعلون بها. كانت عظام إحدى ساقَيْها في حالةٍ مُتردِّيةٍ للغاية. وأُصيبَ العظم الصناعيّ في ساقها بالتهاب. أجرى لها الأطبَّاء عمليَّة تركيب العظم الصناعيّ يومَ خضع ملك إسبانيا للعمليَّة نفسها، الملك خوان كارلوس الأول. أُذيع الخبر في التلفزيون. فرحنا نتندَّر بالأمر. حين أُصيب العظم الصناعيّ في ساقها بالالتهاب، لم يتمكَّن الأطبَّاء من انتزاعه وإلَّا اضطرُّوا إلى إجراء عمليَّةٍ جراحيَّة، علمًا أنَّها كانت تعاني من الأمراض القلبيَّة الوعائيَّة أيضًا.

عانَت أمِّي من أمراضٍ عديدة. فجعلَت تُحصي آلامها، التي كان بعضها عظيمًا في أصالته.

بقيت وحيدةً هناك في شقَّتها، في وحدةٍ مطبقة، تُحصي أمراضها.

أُصيبَت بالربو أيضًا، واضطرابات القلق. كانت هي خلاصة جميع الأمراض المعروفة أسماؤها. ولقد حوَّلَت وعيها بالحياة إلى مرضٍ طفيف. لم تكُن أمراضها قاتلة، بل كانت بالأحرى متاعب يوميَّة صغيرة، مُجرَّدً شقاء.

عاشَت أمِّي في شقَّة بالإيجار، أربعةً وخمسين عامًا. في شبابها، أكثرَت من التدخين. لعلَّها ظلَّت تدخِّن حتى بلغَت الستِّين من عمرها. لا أدري متى أقلعَت عن التدخين على وجه الدقَّة!

بإمكاني أن أحاول حساب التاريخ الذي أقلعَت فيه عن التدخين بالتَّقريب. كان ذلك عام 1995 تقريبًا، أو شيءٍ من هذا القبيل. أي كانت أمِّي في الثانية والستِّين آنذاك.

دخَّنَت أمِّي تدخينًا عصريًّا، بل وتميَّزَت بذلك عن المُسِنَّات في عصرها. أذكر طفولتي التي هيمنَت عليها أنواعٌ من السجائر بدَت لي مثيرةً وغامضة.

مثل سجائر كِنْت، التي أغوَتني دائمًا، ولاسيَّما بالنَّظر إلى جمال العلبة بيضاء اللَّون. دخَّنَت أمِّي سجائر وينستون وإل أند إم. أمَّا أبي فقد دخَّن سجائر لارك، وإن كان مُقِلًّا في التدخين.

ولقد اقترنَت تلك العلب جميعًا بشباب والدَيَّ، علب السجائر المُتراصَّة فوق المناضد والطاولات في بيتي. غمرَت بيتنا البهجة آنذاك، لأنَّ والدَيَّ كانا في عمر الشباب، ويدخِّنان. كان الآباء الشباب يدخِّنون. ومن العجيب مقدار الدقَّة التي أذكر بها تلك البهجة، بهجة الستينيَّات، ومطلع السبعينيَّات: 1970، 1971، 1972، وحتى 1973.

كانا يدخِّنان بينما أنظر أنا إلى الدخان.. وهكذا مرَّت الأعوام.

لم يدخِّن أبي ولا أمِّي التبغ الأسود يومًا.

لم يدخِّنا دوكادوس، ولا أيّ صنفٍ من التبغ الأسود. ولذا نفرتُ من ذلك الصنف ـ دوكادوس، إذ بدا لي تبغًا قذرًا، قبيحًا. لم يدخِّنه والداي. فاقترن التبغ الأسود عندي بالقذارة والفقر. رأيتُ بعض الأثرياء يدخِّنون دوكادوس، وإن لم يبدِّل ذلك نظرة الاستخفاف أو الخوف التي نظرتُ بها إلى التبغ الأسود. كانت بالأحرى نظرة خوف. والخوف يقترن بروح البقاء، لدى أمثالي على الأقل. فكلَّما زاد خوفك طال بقاؤك. لطالما شعرتُ بالخوف. ولكنْ، بطريقةٍ ما، لم يمنعني الخوف من الزجّ بنفسي في المآزق.

تنبَّهتُ الآن إلى صدعٍ عملاق. أعتقد أنِّي، عندما استحضرتُ صنوف السجائر التي كان يدخِّنها أبي وأمِّي، اكتشفتُ بهجةً غير مُتوقَّعة في حياتهما، حياة أبي وأمِّي.

أقصد أنَّهما، وفق ما أعتقد، كانا أكثر منِّي سعادة. وإن شعرا بأنَّ الحياة قد خذلَتهما في النهاية، أو ربَّما خذلهما التدهور الذي طرأ على جسدَيْهما.

لم يكونا والدَيْن عاديَّيْن، بل إنَّهما تميَّزا بأصالةٍ تاريخيَّة. أوه، أجل، أكاد أجزم بذلك. تميَّزا بالأصالة، فصدر عنهما الغريب من الأفعال، ولم يشبها الآخرين. أمَّا السَّبب في غرابة الأطوار التي اتَّسم بها أبي وأمِّي، أو السَّبب الذي جعل تلك الغرابة في الأطوار من نصيبي، وأنا ابنهما، فيبدو لعينيَّ لغزًّا مفعمًا بالحب. وُلِد أبي عام 1930. ووُلِدَت أمِّي عامَ 1932، بَيْد أنَّ هذا لا يعدو أن يكون افتراضًا، إذ راحَت أمِّي تبدِّل تاريخ ميلادها. أعتقد أنَّ الفارق بينهما عامان، أو ربَّما ثلاثة أعوام. في بعض الأحيان، كان الفارق بينهما يصل إلى ستَّة أعوام، إذ كانت أمِّي بين الحين والآخر تصرّ على أنَّها وُلِدَت عام 1936، الذي بدا لها عامًا مشهودًا، لأنَّه ذُكِر على مسمعٍ منها مرَّاتٍ كثيرة..، من يدري لماذا!

في الواقع، وُلِدَت أمِّي عام 1932.

- 4 -

وُلِدَت أمِّي لأسرةٍ من الفلاحين، ونشأت في قريةٍ صغيرة، على مقربة من بارباسترو. كان جدِّي لأبي تاجرًا، ثم اتُّهِم بعد أن وضعَت الحرب الأهليَّة أوزارها بانتمائه إلى الحُمْر، الجمهوريِّين، فحُكِم عليه بالسجن عشرة أعوامٍ لم يستطِع إتمامها بسبب حالته الصحيَّة. أمضى ستة أعوامٍ في سجنٍ بمدينة سالامانكا. لستُ مُلمًّا بالتفاصيل جيِّدًا. أحيانًا، كان أبي يشير إلى قصَّة الصداقة التي جمعَت بين أبي والميليشيات. طبقًا لما يبدو، جمعَت الصداقة بينه وبين عناصر من الجبهة الشعبيَّة. أُبلِغ عنه حين دخل القوميُّون بارباسترو. كان أبي يعرف من قدَّم البلاغ. ولكنَّ الرجل قد فارق الحياة.

لم يرث أبي أدنى قدرٍ من الكراهية. وإنَّما ورث صمتًا. لستُ أدري جيِّدًا ما طبيعة ذلك الصمت. أعتقد بأنَّه لم يكُن صمتًا ذا طبيعةٍ سياسيَّة، وإنَّما ضربًا من التخلِّي عن الكلمة. وكأنَّ جدِّي لم يرغب في الكلام، فوافقه أبي على ذلك الخرس.

سأموت وأنا لا أدري ما إن كان أبي وجدِّي قد تكلَّما ذات مرَّة. ربَّما لم يتكلَّما يومًا. ذلك أنَّ خمولًا آدميًّا قد استحوذ عليهما. سأموت وأنا لا أدري ما إن كان أبي قد قبَّل جدِّي ذات مرَّة. أعتقد بأنَّهما لم يتبادلا قبلةً واحدةً قطّ. إن تبادل قبلةٍ واحدةٍ يعني التَّغلُّب على الخمول. وخمول أسلافي بديع. لم أتعرَّف بجدِّي لأمِّي ولا بجدِّي لأبي. ليس لهما ولا حتى صورة. رحلا عن العالَم قبل وصولي إليه، ورحلا من دون أن يتركا صورةً واحدة. لم يتركا بورتريه حزينًا. وهكذا، لستُ أدري ماذا أنا فاعلٌ في هذا العالَم. لا أمِّي تحدَّثَت عن أبيها، ولا أبي. فبدا الصمت وكأنَّه وسيلةٌ للتمرُّد. لا أحد يستحقّ ذكر اسمه، وهكذا لن نكفّ عن الحديث عن ذلك «اللّاأحد» عندما يموت.

- 5 -

ما كان أبي وأمِّي يحضران القدَّاس الإلهي قطّ، بعكس آباء زملائي في المدرسة. الشيء الذي بدا لي في غاية الغرابة وأشعرني بالحرج أمام أصدقائي. لم يعرفا مَن هو الرَّب! ليس الأمر أنَّهما كانا لادينيَّيْن أو ملحدَيْن، بل إنَّ أبوَيَّ لم يكونا أيّ شيء. لم يفكِّرا في الأمر. لم يذكرا الدين في بيتنا قطّ. الآن، وأنا أسطِّر هذه الذكرى، تعتريني الدَّهشة. ربَّما كان أبي وأمِّي من الكائنات الفضائيَّة. لم يجدِّفا بالرَّب. لم يذكرا اسم الرَّب قطّ. عاشا وكأنَّ الديانة الكاثوليكيَّة ليسَت على قيد الوجود، وذلك شيءٌ يستحقّ ثناءً لا يُوصَف في إسبانيا التي كانت من نصيبهما آنذاك. كان الدين عند أبوَيّ شيئًا خفيًّا، لا وجود له. كان عالَمهما الأخلاقيّ خاليًا من «فيتيشيَّة» الخير والشرّ.

في إسبانيا الستينيَّات والسبعينيَّات، كان خيرًا لهما حضور القدَّاس. لطالما سارَت أمور أولئك الذين يحضرون القدَّاس في إسبانيا على ما يُرام.

ـ 6 ـ

بدأت أدخِّن بدوري، لأنَّ والدتي كانت تدخِّن. فصار التدخين هو الشيء الذي نقضي فيه وقتنا. عرَّفَتني أمِّي على تلك الآفة، وهي لا تعي ماذا فعلَت. لطالما أخطأت في تقدير أهمِّيَّة الأشياء: كانت تولي توافه الأمور أهمِّيَّةً كبيرة، ولا تلقي بالًا للأشياء الجسيمة. رحنا ندخِّن مدى الحياة، حتى قيل لنا إن جسدَيْنا يتعفَّنان من الداخل. كانت ترسلني حتى أشتري التبغ من الكشك، فانتهَت بي الحال وقد تعرَّفتُ بكلِّ أكشاك ارباسترو.

الموتى لا يدخِّنون.

ذات مرَّة، اكتشفتُ في أحد الجوارير سيجارة كِنْت تبلغ من القِدَم نحو ثلاثين عامًا، محجوبةً عن الأنظار. كان عليَّ الاحتفاظ بها في جرَّة رماد الموتى.

أفتِّش عن المغزى الذي تنطوي عليه الحقيقة التي مؤدَّاها أنَّ شيئًا واحدًا لا يبقى. فالكلّ يفقد أباه وأمّه، إنَّها بيولوجيا محضة. ولكنِّي أتأمَّل تحلّل الماضي أيضًا، وبالتالي، خلوّه من التعبير أخيرًا. أرى تشقُّق المكان والزمان.

الماضي هو الحياة وقد رضخَتْ لمحاكمَ تفتيش العتمة. الماضي لا يمضي أبدًا، ومن الممكن أن يعود في أيِّ وقت. الماضي يعود، أبدًا، يعود. الماضي ينطوي على بهجة. الماضي إعصار. الماضي كلّ ما في حياة الناس. بل إنَّ الماضي حبٌّ أيضًا. أن تعيش مهووسًا بالماضي لا يتيح لك أن تنعم بالحاضر، ولكنَّ التنعُّم بالحاضر من دون أن يثقله الماضي بوحشته لا يُعَدُّ لذَّةً، وإنَّما اغترابًا. أمَّا الماضي، فلا اغتراب فيه.

- 7 -

يبدوان على قيد الحياة. ولكنَّ الحياة قد فارقَتهما.

يحضرني ذلك اليوم، حين تعرَّف أحدهما بالآخر. في مساء يوم سبت من إبريل عام 1958. في مساءٍ نابضٍ بالحياة. إنَّ حضور ذلك المساء يواري خلفه حضورًا آخر أشدّ نأيًا.

الموت واقعيّ ومشروع. من المشروع أن يقضي المرء نحبه. هل مِن دولةٍ تقضي بعدم شرعيَّة الموت؟ أشعر بالطمأنينة لكَوْن الموت حقًّا مشروعًا تحميه قوانيننا. ليس الموت عملًا تخريبيًّا. حتى الانتحار لم يعُد عملًا تخريبيًّا.

ولكنْ ما بقاؤهما على قيد الحياة حتى الآن، كلاهما، أبي وأمِّي، وما تهرّبهما من شرعيَّة الموت! الحقَّ أنَّ الحياة لم تفارقهما تمامًا. فكثيرًا ما أراهما. من عادة أبي الحضور قبل أن آوي إلى الفراش، بينما أغسل أسناني بالفرشاة. يقف ورائي ويتحقَّق من صنف معجون الأسنان، يراقبه بفضول. أعرف أنَّه يرغب في سؤالي عن صنف المعجون، ولكنْ لا يُسمَح له بذلك.

ليسَت المسألة أنِّي أذكرهما، وأنَّهما يسكنان ذاكرتي، فالأمر مقترنٌ بتلك المنطقة التي هما فيها الآن، حيث ما زالَت الأرواح تتعذَّب. الأمر مقترنٌ بالموت الخبيث والحياة الكريمة.

ها هما. كلاهما روحٌ رهيبة، بطريقةٍ ما.

قضى أبواي، فباتَت ذاكرتي شبحًا غاضبًا، مذعورًا، حانقًا. متى زال ماضيك عن وجه الأرض زال عن الكَوْن أيضًا، وإذا كلّ شيءٍ هباء. فليس هناك ما هو أشدّ هباءً من رماديَّة اللّاوجود. إنَّ طمس الماضي هوان. وموت أبوَيْك هوان. إنَّه الواقع يعلن عليك الحرب.

في الطفولة (لأنَّ شخصيَّتي لم تكُن قد تشكَّلَت بعد، أو بسببٍ من خجلي) كنتُ أشقى بعجزي عن العثور لنفسي على مكان وسْط الآخرين، وسْط زملاء الدراسة. ولطالما فكَّرتُ في أبي وأمِّي، واثقًا من قدرتهما على تفسير اختفائي الاجتماعيّ. كانا هما اللذان يشملانني بالحماية، ويحرسان سرّ وجودي، السرّ الذي استغلق عليَّ أنا.

مات أبي فاندلعَت الفوضى، لأنَّ ذلك الذي يعرف مَن أنا، ويقدر على تولّي مسؤوليَّة وجودي وحضوري، لم يعُد في هذا العالَم. ربَّما كان ذلك من أكثر الأمور أصالةً في حياتي! إنَّ سبب وجودك في هذا العالَم، ذلك السَّبب

الوحيد، الأكيد، الثابت، يكمن في إرادة أبيك وأمّك. وأنت تمثِّل تلك الإرادة. الإرادة التي انتقلَت إلى اللّحم.

إنَّ هذا المبدأ البيولوجيّ للإرادة يفتقر إلى الطابع السياسيّ. ولذا يهمُّني ويثير عاطفتي إلى هذا الحدّ. ما دام يفتقر إلى الطابع السياسيّ، فذلك يعني أنَّه يهيم في طرقات الحقّ. الطبيعة شكلٌ وحشيٌّ من أشكال الحقيقة. والسياسة منظومةٌ مُتَّفقٌ عليها.. حسنًا، بَيْد أنَّها ليسَت هي الحقيقة. الحقيقة هي أبوك وأمّك.

فأنت من إبداعهما.

جئتَ من المنيِّ والبويضة.

لولا المنيّ والبويضة لما كان شيء.

أمَّا خضوع هويَّتك ووجودك لمنظومةٍ سياسيَّةٍ فلا يُخِلُّ بمبدأ الإرادة، السابق على المنظومة السياسيَّة. بل إنَّه، فوق ذلك، مبدأٌ لا غنى عنه. أمَّا المنظومة السياسيَّة، التي قد تكون جيِّدة جدًّا وما إلى ذلك، فيمكن الاستغناء عنها.

ـ 8 ـ

ندمتُ لأنِّي اخترتُ إحراق الجثمان. كنتُ وأخي وأمّي نودّ نسيان الأمر برمَّته، وإزاحة الجثمان عن طريقنا. كُنَّا نرتعد خوفًا، وإن تظاهرنا بأنَّ الوضع تحت السيطرة، حاولنا أن نضحك من بعض التفاصيل الهزليَّة التي كانت تحمينا من الرُّعب.

لقد ابتُكِرَت المقابر كي تلوذ بها ذاكرةُ الأحياء، لأنَّ الرفات مهمَّة، حتى وإن لم نرَها: حسبنا التفكير بوجودها. ولكنَّ المقابر في إسبانيا تتألَّف من مقصورات. المقابر ذات طابعٍ نبيل. بينما المقصورات موحشةٌ وباهظة الثمن وقبيحة، لأنَّ كلَّ شيءٍ قبيحٌ وباهظٌ عند الطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا في إسبانيا، تلك الطبقة الأقرب إلى المستوى الأدنى منها إلى المُتوسِّط. ويُعَدّ ذلك المصطلح المُركَّب المُكدَّس «الطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا»، ابتكارًا لئيمًا، زائفًا.

وعلى الرَّغم من انتمائنا إلى الطبقة الدنيا، كان أبي في غاية الأناقة دومًا. عرف كيف يرقى إلى مستوى الأمور. على الرَّغم من فقره. لم يظهر الفقر عليه، وهكذا كان هاربًا من المنظومة الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة في إسبانيا السبعينيَّات والثمانينيَّات من القرن الماضي. لم يكُن من المعقول أن يُزَجّ بك في السجن بهذه التهمة، بتهمة التحلِّي بالأناقة على الرَّغم من فقرك. لم يكُن من المعقول أن يُزَجّ بك في السجن بتهمة التهرُّب من مظاهر الفقر على الرَّغم من فقرك.

كان أبي فنَّانًا، وتحلَّى بالأناقة.

قبل إحراقه، وُضِع جثمان أبي في دار العزاء مكشوفًا لبضع ساعات، فأقبل الناس لرؤيته.

حين يُقدِّم مُتعهِّدُ دفن الموتى ذلك الاستعراض الصغير، كاشفًا الموت للعيان، فهو يداري كل شيءٍ عدا الوجه المُزيَّن بمساحيق التجميل. وهكذا لا ترى يدَي الجثمان ولا قدمَيْه ولا كتفَيْه. أمَّا الشفتان فتُطبَقان بالغراء. تساءلتُ عما إذا كان الغراء المُستخدم في إطباق الشفتَيْن صناعيًّا. تخيَّل أن يتحلَّل الغراء فينفرج فم الجثمان بغتةً!

جاء رجلٌ لا أعرفه. لم يكُن من أصدقاء والدي، بل من معارفه على أقصى تقدير. أدرك الرجل أنَّ وجوده ليس له ما يبرِّره. فاقترب منِّي قائلًا: «أنا وأبوك في عمرٍ واحد، ولذا جئتُ أرى كيف سأبدو مكشوفَ الجثمان». كان الرجل جادًّا في حديثه. ألقى نظرةً أخرى ثم رحل.

علمتُ في وقتٍ لاحقٍ أنَّ ذلك الرجل مات بعد والدي بشهرَيْن. أذكر اللَّفتة التي بدرَت منه، بل وأذكر نبرة صوته. أذكر كيف نظر إلى وجه أبي الميِّت من خلال زجاج الواجهة حيث استقرَّ النعش، محاولًا تبديل وجهه بوجه أبي ما وسعه الخيال، ليعرف كيف سيبدو ميِّتًا.

حتى أنا رحتُ أنظر إلى أبي ميِّتًا. هوذا قائدُ ساحة طفولتي، وحارسها، وخفيرها، في سبيله إلى الرحيل عن العالَم. رحتُ أتأمَّل تفتُّت البشريَّة. حضور الجثمان. مولد انعدام الوزن. الجنون. العظمة. الجثمان بكلِّ ما يلفُّه من غموض.

- 9 -

أفقتُ دفعةً واحدة، خارجًا من سباتٍ ثقيلٍ جدًّا. كنتُ قد تناولتُ مُهدِّئًا حتى أخلد إلى النوم. في تلك الأيَّام، أسرفتُ في تناول المُهدِّئات بكمِّيَّاتٍ تدعو إلى القلق، ومزجها بالكحول. عام 2006، مزجتُها بالكحول لأوَّل مرَّة، بعنف، في خضمّ الأزمة الزوجيَّة التي مررتُ بها، لأنِّي كنتُ على علاقةٍ بعشيقة. لم تكُن مُجرَّد عشيقة، بل كان لها ما يميِّزها، أو هكذا عشتُ التجربة آنذاك. ربَّما كان ذلك شيئًا خطر لي أنا وحدي، ولكنْ في الحبّ لا يكفي اعترافُ أحد الطرفَيْن، بل ينبغي سؤال الطرف الثاني أيضًا.

لطالما كانت الرَّغبة في العيش مُحيِّرة: ذلك أنَّها تبدأ بتفجُّر البهجة وتنتهي باستعراض الابتذال. مبتَذلون نحن، ومن لا يقرّ بذلك أشدّ ابتذالًا. إنَّ الاعتراف بالابتذال أوَّلُ خطوةٍ في سبيل التحرُّر والانطلاق نحو الاستثنائيَّة.

وهكذا، امتزج الكحول بالمُهدِّئات في جميع الأزمات الزوجيَّة التي مررتُ بها منذ ذلك الحين. تزول عنك آثار الكحول، فتُصاب بحالةٍ من الهلع. عند ذاك، تتناول جرعةً كبيرةً من المُهدِّئات.

المُخدِّرات هي العدوُّ الخطير الوحيد للرأسماليَّة، في قرارة الأمر.

كان حلمًا ثقيلًا، أفقتُ منه شاعرًا بفزعٍ خائرٍ أو متعب. حلمتُ بحجرة نوم، في بيتٍ كنتُ أسكنه منذ أمدٍ غير بعيد.

كان عليَّ إنجاز أمورٍ كثيرة يومذاك. شربتُ القهوة، واغتسلت. لطالما كنتُ مُتردِّدًا لا أدري بأيِّهما أبدأ: شرب القهوة أوَّلًا ثم الاغتسال، أم الاغتسال أوَّلًا ثم شرب القهوة. توتَّرَت أعصابي، وانفعلت. كان عليَّ ارتداء البدلة وحضور غداءٍ رسميٍّ في حضور ملك إسبانيا وملكتها. أغوَتني فكرة الذهاب وتحيَّة ملك إسبانيا تحت تأثير المُخدِّرات، ولكنَّ شيئًا كذلك يستلزم شجاعةً ثوريَّة. لم أكُن قد ارتديتُ البدلة منذ أعوامٍ طوال، ربَّما منذ زفافي. فمراسم الطلاق لا تقتضي الحضور بالبدلة.

ترك أخي ربطة العنق معقودةً من أجلي، لأنِّي لا أتقن عقدها. ارتديتُ بدلتي الزرقاء الداكنة. كانت تليق بي نوعًا ما. بل إنِّي بدوتُ وسيمًا بالقميص الأبيض. لقد أنقصتُ وزني. وعشتُ حياتي في حربٍ على الطعام. فالطعام يُدخِل البهجة على القلب، والرشاقة أيضًا. تأخَّر الوقت، أو هكذا خُيِّل إليَّ، من دون أن يكون الوقت قد تأخَّر فعلًا.

عند ذاك، جلستُ على مقعدٍ ورحتُ أفكِّر في شقاء نسيج ربطة العنق ـ التي كانت معقودةً منذ عدَّة أيَّام. تذكَّرتُ أبي. كان يُتقن عقد ربطة العنق حقًّا، وأيُّ إتقان! كان يتمكَّن من عقدها في ثانيتَيْن، مغمض العينَيْن.

لا يكاد الرجل يضع ربطة العنق حتى يتقدَّم في العمر تلقائيًّا.

حضرتُ الغداء الملكيّ، وذهبتُ بسيَّارتي الخاصة. قبل أيَّام، أبلغتُ السلطات المسؤولة عن الدار الملكيَّة برقم السيَّارة.

وجدتُ مدخل پلاثا دي أرماس بمشقَّة.

والتوتُّر يشتدّ أكثر فأكثر.

عند ذاك، بينما كان رأسي على وشك الانفجار، سمعتُ صوتًا يقول: «هدِّئ من روعك يا رفيق، فكلُّ شيءٍ تحت السيطرة، ما هي إلَّا دعوة على الغداء، والبدلة تليق بك. مات أبواك، أمَّا أنت فتبدو على قيد الحياة. تملك سيَّارةً لا بأس بها على الإطلاق، وما زلتَ تبدو شابًا. سيَّان عندك إن زادَت دعوةٌ على الغداء أو نقصَت في حياتك».

لطالما أفادني سماع ذلك الصوت الآتي من داخلي، وإن بدا نابعًا من ضمير الغائب. إنَّه الغائب الذي أحمله في طيَّات نفسي.

أقود السيَّارة عَبْر أنحاء مدريد. تتلمَّس إطارات سيَّارتي مدينةَ مدريد. وأنا أتلمَّس عقدة ربطة العنق. أرجع إلى الـ GPS. الزحام شديد. والـ GPS لا يعمل جيِّدًا، لأنَّه صار عتيقًا، لم أرغب في تحديثه لأنَّ تكلفة التحديث خمسون يورو. الناس أثرياء في مدريد، ذلك شيءٌ ملحوظ.

ـ 10 ـ

جميلةٌ هي مدريد.

إنَّ مدريد كلّ شيءٍ في هذا البلد. كلُّ شيءٍ هنا. جاء والدي عدَّة مرَّاتٍ إلى مدريد. جميع الإسبان من أهل الأقاليم ذهبوا إلى مدريد ذات مرَّة. وفي ذلك الصدد، كانت مدريد قاسية، تبثُّ الذعرَ في نفوس أهل الأقاليم من فرط ضخامتها.

وعلى الرَّغم من ذلك، فهي ليست على هذا القَدْر من الضخامة. ليستَ في ضخامة لندن أو باريس على سبيل المثال. ربَّما كانت تقاربهما. كان أمر «الأقاليم» عبثيًّا، ينطوي على احتقار. فتلك المدينة، مدريد، التي تترفَّع عن الأقاليم أرستقراطيًّا، كانت في أوَّل الأمر ابتكارًا ملكيًّا، ثم فرانكيًّا [4]، ولكنْ سيَّان.

يستوي كلُّ شيءٍ لأنَّ التاريخ قد مات، وأدرك الناس أنَّ ما يرويه التاريخ لا وجود له في الحاضر، وما عاد الناس يريدون أن يرثوا أحمالًا شبحيَّة تعود إلى أزمانٍ ماضية، أزمانٍ من نسج الخيال.

يشير أحد الحرَّاس إلى الموضع الذي يجب عليَّ ترك السيَّارة فيه، ثم يشير عليَّ حارسٌ غيره بأمرٍ آخر. يتمتَّع أولئك الحرَّاس بالأناقة، حرَّاس القصر الملكيّ في مدريد.

وأمامي، يترامى درجٌ فسيح، يحفُّه جنودٌ في ملابس التشريفات الرَّسميَّة، ممسكين برماحٍ لامعة، وإن لم تكُن مؤذية. لا أظنُّهم قد شحذوا نصالها منذ ما يربو على المئة عام. إنَّها رماحٌ مخصيَّة، رماحٌ ذات قيمةٍ تاريخيَّة، على أقصى تقدير، ولكنَّها بلا طائلٍ يُرتجَى متى حانَت ساعة تمزيق الأوصال.

أصعدُ الدَّرَج. أراقب الحرَّاس، أتفرَّس في عيونهم.

أشعر وكأنَّ الحرَّاس يعرفون ماضيَّ، ويعرفون أنِّي منتحل، ويعرفون أنَّ مكاني في واقع الأمر بجوارهم، حيث أرتدي زيًّا مبهرجًا وأمسك رمحًا بيدي. كم تبلغ رواتبهم؟ طبقًا لحساباتي، فقد يجني الواحد منهم 1450 يورو، وربَّما وصل راتبه إلى 1629 يورو لو حالفه الحظ. لا أظنُّه قد يصل إلى 1700 يورو.

نخفي عن الآخرين قيمة رواتبنا، وإن لم يكُن لدينا ما يُمكن الاعتراف به سوى رواتبنا. إنَّك متى عرفتَ راتبَ أحدهم، رأيتَه عاريًا.

ما زالت نوافذ القصر الملكيّ الكبيرة هناك، ترى الأشياء، وتصفِّي ضياءَ الأيَّام المتراكمة على هيئة قرونٍ من الزمان.

يبتسم المدعوّون.
تبدو مدريد وكأنَّها قلبُ وحش.

- 11 -

تبثُّ الملكيَّة دهشةً في النفوس، دهشةً لا تخلو من الاستهجان. ها هما، الملك فيليبي السادس وزوجته دونيا ليتيثيا، ملك إسبانيا وملكتها، اللذان لم يطلب أحدٌ منهما تولّي المُلك، ولكنَّ كليْهما يعرف أنَّ ذلك الطلب غير ضروريٍّ ما دام التاريخ عبارةً عن سلسلةٍ متعاقبةٍ من المناورات السياسيَّة المُروِّعة، والأفضلُ عدم خوض تلك الهاوية، لأنَّ كليْهما، فيليبي وليتيثيا، يمثِّلان حلًّا مضمونًا ومُحكمًا، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ كلَّ البدائل مُبهمة، وغير مضمونة، ومن المُمكن جدًّا أن تفضي إلى الدمار، والموت، والبؤس. يعرفان أنَّ الخدمة التي يقدِّمانها لإسبانيا موضوعيَّة، ويُمكن تقديرها وإحصاؤها، وقياسها. تُقدَّر تلك الخدمات بالمال، فهما يعقدان اتِّفاقيَّاتٍ دوليَّة، ويُقنعان شركاتٍ ودولًا أخرى بالاستثمار في إسبانيا. والفضل يرجع في ذلك إليهما، أجل. صحيح. لأنَّهما يوحيان للمستثمرين الدوليِّين بالثقة. والثقة تعني المال، وتعني حصول العاطلين على عمل.

وعلى الرَّغم من ذلك، فالناس ينظِّمون أنفسهم في النهاية، لهذا يجب توخِّي الانتباه، ولهذا تبدو على وجه فيليبي السادس فقاعةٌ من الظلال، ولهذا يتردَّد في نفس زوجته همسُ السياط. يجب عليهما توخِّي الحذر. من جهتها، تخلق ليتيثيا تلك المساحة الأخلاقيَّة التي يُمكن وصفها بالمعبد السياسيّ الذي يدور فيه «ما لا يُنتقَد من الأفعال».

إنَّهما زوجٌ وزوجة، وذلك يثير قدرًا من التعاطف. من المألوف أن يُبدي المرء تعاطفًا نحو الزواج، ولاسيَّما ذلك الذي تتراكم فيه أعوام الرباط الزوجيّ، فجميعنا يعرف أنَّ الزواج أفظع المؤسَّسات البشريَّة، لأنَّه يقتضي التضحية، والتخلِّي، وإنكار الغريزة، وتكديس الأكاذيب واحدةً فوق أخرى، وفي المقابل يمنحك السلامَ الاجتماعيّ والرَّخاء الاقتصاديّ.

تذهب دونيا ليتيثيا خطوةً أبعد من زوجها، وتشغل موقعًا تاريخيًّا أوفر قدرًا من الراحة، وأقرب إلى التبرئة. تدور في خَلَدها الفكرةُ النيِّرةُ الآتية: «لن يتمكَّن أحدٌ من انتقادي على أيّ شيء». كلاهما صامت. أراقب صمتهما، الذي يكسرانه من آنٍ إلى آخر بمقطعٍ تأكيديّ.

أحدهم قال لها: «اختاري الردّ بنعم دومًا».

يترأس الملكان الغداء الرسميّ المقام بمناسبة تسليم جائزة ثربانتس الأدبيَّة لكاتبٍ عجوزٍ يُدعَى خوان غويتيسولو، رجلٌ نابغة، وضع مُؤلَّفاتٍ عبقريَّة، خيرة ما كتب جيله، مُؤلَّفاتٍ مكتوبةً باللُّغة الإسبانيَّة. ولذا، فنحن

بصدد كاتبٍ إسبانيّ. لا يُعَدُّ ذكر جنسيَّته أمرًا واضحًا إلى هذا الحدّ. لطالما كانت إسبانيا بلدًا على وشك أن يقول «لا»، ولذا نُصِحَت دونيا ليتيثيا بأن تقول «نعم» دائمًا، ما وسعها ذلك.

إنَّه الثالث والعشرون من شهر إبريل عام 2015، وقد طلع صباحٌ ربيعيٌّ على مدريد، وبلغَت الحرارة في الخارج ست عشرة درجة. يُشكِّل المدعوّون حلقاتٍ يتجاذبون فيها أطراف الأحاديث بشيءٍ من المودَّة. أحاديثُ مُهذَّبة، سلسة. وإن كانت محسوبة. يعرف كلّ المدعوِّين أنَّهم يؤلِّفون جزءًا من هيكلٍ مشترك، من صورةٍ عائليَّة، من واقعٍ اجتماعيٍّ يمكن أن نسمِّيه «الثقافة الإسبانيَّة، والوسط الأدبيّ، عام 2015».

إنَّها صورةٌ مُهيَّأة حتى يخلع عليها الزمن سِمَة الفروسيَّة التي لا رجعة فيها، تلك السِمَة الخليقة بالموتى. في تلك اللَّحظة، أفكِّر بنفسي على أنَّني الرجلُ الذي عقد ربطةَ عنقه رجلٌ آخر. يبدو وكأنَّه لقبٌ من البلاط الملكيّ، وكأنَّه من إحدى روايات الفروسيَّة: «الرجل الذي عقد ربطةَ عنقه رجلٌ آخر».

لا تواجهني مشكلاتٌ كبيرة في الانضمام إلى مختلف الحلقات، أتنقَّل بينها، وأبادر الكُتَّاب البارزين بالتحيَّة في دماثةٍ ومودة. أشعر بالأناقة في بدلتي، وإن استحوذ الخوف على أعمق أعماق نفسي.

أشعر بالخوف. أخاف السلطة والدولة، أخاف المَلِك، ولا أستطيع من ذلك الشعور فكاكًا.

الخوف يسكن كلَّ مكان، في واقع الأمر، ويسكن حتى أولئك الذين لا يجدر بهم أن يخافوا شيئًا، كجلالة ملك إسبانيا وملكتها على سبيل المثال، فربَّما كان الخوف يسكنهما أيضًا. وربَّما زال الخوف عن غيري مِن قدامَى المدعوِّين، بحكم العادة والروتين!

يبدو قُدامى المدعوِّين كالسمك في الماء.

يتجلَّى أمرٌ جديد بوضوح: ما عاد المَلِك هو خوان كارلوس الأوَّل، وإنَّما ابنه. أمَّا في ما عدا ذلك فالمراسم متطابقة.

وإذا بي أغدو ضميرَ الغائب في طيَّات نفسي، وأطلق على ذاتي لقب: الرجل ذو ربطة العنق الزائفة.

وهأنذا أرى نفسي، أخيرًا ـ أرى نفسي ضميرًا للغائب.

ينبثق الطَّيْف. هوذا أنا الطَّيْف.

الرجل ذو ربطة العنق الزائفة حديث العهد، وهذا أوَّل غداءٍ له في حضرة الملك والملكة.

يخشى ألّا يكون على مستوى الحدث، ألّا يفي بما تقتضيه المراسم. زِد على ذلك أنَّه لا ينتمي إلى التدرُّج الهرميّ الأدبيّ في إسبانيا. يكافح في طبقةٍ مُتوسِّطةٍ مغمورةٍ بعض الشيء. والآن يفكّر في تلك الطبقة المُتوسِّطة، في صنفٍ من الكُتَّاب، ذلك الذي تفوح منه رائحة الإخفاق بالسُّرعة التي يُقال بها عنه «لا بأس بهذا الفتى»، كلّ ما في الأمر أنَّ هذا الفتى قد أتمَّ عامه الخمسين. ولكنْ سيَّان، لأنَّ العالَم بأسره، وبوجهٍ عام، يسير نحو أمكنةٍ حيث التدرُّجات الهرميَّة مُتقلِّبة وتعيسة ومائعة، يفوح منها عطنُ القِدَم، حيث لم يعُد هناك ما يعني أيّ شيء، أخيرًا، وذلك أمرٌ حديث العهد.

التدرُّجات الهرميَّة ينخرها الفساد. والأقدميَّة في المنصب ينخرها الفساد. فالتاريخ كالماء، يتَّخذ المسارات الأبعد عن التوقُّع.

الأشياء تفقد المعنى الجليّ، والأشخاص أيضًا، الأمر الذي ينطوي على التمرُّد، ويبعث على التحرُّر.

الكثير من الحضور تجاوز الخمسين عامًا، والستِّين، بل والسبعين. ربَّما كان مُتوسِّط عمر الحضور خلال هذا الغداء خمسةً وستِّين عامًا، ما يجعل أصغر الحضور عمرًا هما ملك إسبانيا وملكتها.

في عهدها، أرسَت حكمةُ المراسم الملكيَّة نهجًا يسمح لشخصَيْن اثنيْن بتحيَّة ما يربو على مئة أو مِئتَيْن شخص، بطريقةٍ مُنظَّمةٍ ومُتَّسقة. كانت فكرةً ثوريَّةً وديمقراطيَّة: ينبغي ألَّا يُحرَم شخصٌ واحدٌ من تحيَّة الملكَيْن.

وهكذا، يقابل صاحبا الضيافة جميعَ المدعوِّين بالتحيَّة.

تبدو فكرة جليلة.

فكرةٌ هي في حدِّ ذاتها تُحفةٌ فنِّيَّة.

وهكذا، يقف ملكا إسبانيا في صالةٍ مُلحقة، في ركنٍ غير مُتوقَّع، حتى يبدو وكأنَّهما قد انبثقا من العتمة، أو نزلا من السَّماء، ثم تُلتقَط صورةٌ لكلِّ واحدٍ من المدعوِّين برفقة الملكَيْن، ويُسمَح له بأن يبدو أمام الأسرة الملكيَّة لمدَّة ست ثوانٍ على وجه التَّحديد.

أمَّا الرجل ذو ربطة العنق المعقودة على ياقة سوقيَّة، فيتوصَّل إلى صيغةٍ للقلق التاريخيّ. إنَّه رجلٌ يتوصَّل إلى أفكارٍ أرقى من طبقته الاجتماعيَّة، بين الحين والآخر. الأمر الذي يُعَدُّ ضربًا من تسلية النبوغ الخارجة عن السيطرة، ويروق للتاريخ حدوثه على فتراتٍ متباعدة للغاية: أن تخطر فكرةٌ مهمَّة لأولئك الذين يفتقر أسلافهم إلى الأهمِّيَّة.

أمَّا الرجل ذو ربطة العنق الحزينة (كان الحزن من نصيب ربطة العنق، لا الرجل، لأنَّها استقرَّت حول عنقٍ لا يرقى إلى مستواها الجماليّ، فلربطات

العنق مصير، كما أنَّ للأفيال الآسيويَّة الكبيرة مصير) فتخطر له فكرةُ استخدام سلاحٍ جديد، ظهر في العالَم منذ وقتٍ قصير. إنَّه سلاحٌ سياسيّ. فيُبرز من جيب البنطال هاتفًا محمولًا، سامسونغ غالاكسي، ومن القائمة يختار ساعة الإيقاف. إنَّها خاصيَّةٌ تكنولوجيَّةٌ ثوريَّة.

يقيس الوقت الذي تستغرقه تحيَّة ملكَيْ إسبانيا. يقيسه بساعة الإيقاف الخاصَّة به. ست ثوانٍ واثنان وتسعون جزيئًا من الثانية. تلك هي المدَّة التي يُسمَح بها لكلِّ مدعوٍّ.

12

لم يستطِع أن يقول مساء الخير ولا طابت ليلتك ولا عمتَ صباحًا ولا أهلًا ولا كيف الحال لأيٍّ من الملكَيْن. ولكنَّ الخرس الذي نزل عليه طبيعيّ: نابعٌ من الليل الضنين، ليلِ الخبز واللَّحم في الريف الإيبيريّ، ليل المجانين والمُتخلِّفين عقليًّا، وقد خلَت جيناته الوراثيَّة إلَّا من الرُّعب والضيق والخطأ.

الرُّعب والضِّيق في مواجهة النور والثراء، في مواجهة الأمان والحبّ اللذيْن ينشرهما الملكان.

إنَّ ابتسامة الملكَيْن، على مسافة مترٍ واحد، من أضخم المشاهد الاستعراضيَّة التي يُمكن للمواطن الإسبانيّ أن يتأمَّلها، فبين طيَّاتها، حياة الملايين من الإسبان الذين فارقوا الحياة، الذين لا تشغل كرامتهم التاريخيَّة حيِّزًا أوسع من تلك الابتسامة. إنَّ كل ما تمكَّنَت إسبانيا من بنائه على الصَّعيد السياسيّ مُشفَّرٌ في تلك الابتسامة، وعلى حوافها تتَّخذ الملايين من الأفاعي المشتعلة أعشاشًا لنفسها.

تشتعل الأفاعي.

أمَّا الكاتب الفائز بالجائزة، ذلك الهرِم الغائب، الرجل الباهت، الكائن الذي يعود إلى زمنٍ غير الزمن، فيجوب المكان وذراعه في ذراع الملكة. وبفضل كعبها العالي المؤلم، تشرف علينا الملكة من فوق رأس خوان غويتيسولو شبه الأصلع، وتبدو أطول منه بشبرَيْن.

يتأمَّل الرجل ذو ربطة العنق المعقودة الحزينة في ذلك الاستعراض، حيث تُخضِع الملكة قدمَيْها للتعذيب على الملأ، إذ تنتعل حذاءً يبلغ طول كعبه شبرًا كاملًا (التواء العظام، آلام المفاصل، التهاب المفاصل، تشويه القدم، نخر العظام)، ويتأمَّل في الخواطر التي قد تتبادر إلى ذهن الكاتب الفائز بالجائزة. يبدو عليه شيءٌ من عدم الارتياح، شيءٌ من الخشونة. ربَّما لم يقرأه سوى قلائل بين الحضور. حتى وإن قرأه الكثيرون، فلن ينفعه ذلك إلَّا قليلًا في واقع الأمر، لأنَّ أحدًا لا يحبُّه، ومن ذلك المنظور، فهو كأنَّه لم يُقرأ.

لا حبَّ هنا، لا حبّ في أيِّ مكان. ربَّما كان يعرف ذلك ويتقبَّله. فكلنا نعرف ونتقبَّل، لأنَّ الأدب عديم الأهمِّيَّة ما دام خاليًا من الحبّ. لا وجود حبّ، هكذا يُفكِّر الرجل ذو ربطة العنق الصفراء، ويجب أن يكون للحبّ وجود، فليس لغير الحبّ معنى، أين حبّه؟ وماذا هو فاعل في هذا المكان ما دام لن يجد الحبّ هنا؟ عند ذاك يتذكَّر أباه، الذي جرَت حياته في ظلّ ذلك النظام الذي ترمز إليه تلك المرأة ذات الكعب المؤلم.

كان والده سيفرح برؤيته هناك، مع الملكَيْن، وسيرغب في سماع بعض الطرائف. ربَّما كان ذلك هو السَّبب الذي حدا به إلى الحضور، من أجل حبّ أبيه.

يسير الكاتب والملكة بحذاء المائدة، بينما المدعوُّون وقوف. يسيران ببطء، وقد تشابكَت ذراعاهما. تبطئ الملكة خطواتها لتجاري الكاتب المتعب في سيره.

يعود الصوت ويقول لذلك الرجل ذي ربطة العنق الحارَّة: «ها قد رأيتَ، إليك كلُّ شيء، هذه نهاية كبار الكُتَّاب الإسبان، جولة في أرجاء القصر للكاتب الذي يسير وذراعه في ذراع الملكة، مُجرَّد مراسم..ولكنَّ الناس على أهبة قتل أمهاتهم من أجل تلك المراسم الأخيرة، لأنَّ الحياة في غاية الخواء، الحياة خاوية حتى من ذاتها».

الرجل ذو ربطة العنق المذعورة لم تسبق له يومًا رؤية مائدةٍ بهذه الضخامة، مائدةٍ تتَّسع لأكثر من مئة شخص. يساوره حلمٌ بالاحتفال على تلك المائدة بعشيَّة عيد الميلاد، ويحلم بأن يكون الجلوس إلى المائدة هم الأشباح الذين لا حسب لهم ولا نسب، أشباحُ أسلافه، وأبوَيْه، وأجداده، وآباء أجداده، وأجداد أجداده.

يودُّ لو تحدَّث إلى جدّ جدِّه، لو كان له وجود! ربَّما كان على قيد الوجود رجلٌ يمكن اعتباره سلفه البيولوجيّ، ولذا فهو جدّ جدّه طبقًا لعلم حساب الأجيال، بَيْد أنَّ ذلك الرجل لم يفكِّر يومًا أنَّه سيكون جدًّا لجدّ رجلٍ آخر.

لا صلة بينهما.

ولا شيء.

أمَّا الملكيَّة فتُعَدّ صلةً بحقّ. لأنَّ لوحات أسلاف الملك تزيِّن متحف إل پرادو. وفي وسع الملك الذهاب لرؤية جدّ جدّه والحديث إليه متى شاء.

كلُّ شيءٍ أصفر، ولون الملكيَّة أصفر. إنَّ العائلة المالكة هي تلك العائلة المختارة كي تسقط عليها فقاعة الذاكرة الصَّفراء، تلك الذاكرة التي يفتقر إليها آلافٌ وآلافٌ من العائلات الإسبانيَّة، التائهة في أيَّام التاريخ المتعبة، التائهة في غمرة الجوع والحرب والبؤس.

الرجل ذو ربطة العنق المعقودة الحزينة لن يسعه الذهاب إلى متحف إل پرادو أبدًا من أجل معاودة اللِّقاء بأجداد أجداده، الذين رسمهم الفنان فرانثيسكو غويا. ولكنْ ما دامَت عائلةٌ واحدةٌ قادرةً على ذلك، فهذا يكفي. وذلك هو السرّ المعنويّ للملكيَّة. ذلك هو الرَّمز، والكشف العظيم.

الرجل ذو ربطة العنق المُهانَة يودُّ لو عرف ما إذا كان يمتّ لجدّ جدِّه بصلةٍ ما: لفتة، وجه شبه، أيّ شيءٍ ينطوي على ضرورة، على مغزى، على تفسيرٍ لهذا الحاضر التاريخيّ، البيولوجيّ، الوراثيّ.

بينما يتأمَّل كلّ المدعوِّين الملكة والهرِم، يغتنم الرجل ذو ربطة العنق المُدانَة هذه الفرصة حتى يتمكَّن من إلقاء نظرةٍ على المائدة، الآن، وقد تحوَّلَت عنها جميع الأنظار وما عاد ينظر إليها أحد.

المائدة العملاقة أيضًا تؤدِّي مهمَّتها، فهي باقيةٌ هناك، قطعةُ أثاثٍ تؤدِّي وظيفةً غير مرغوبة في تاريخ إسبانيا، وظيفةَ «البقاء هناك، والتحمُّل، وأداء العمل».

تبدو على وجه الهرِم الحائز على الجائزة رغبته في الإدلاء بأكثر ممَّا يدلي به في واقع الأمر، ويطلّ أنفه على حافَّة الهاوية، هاويةِ أعظم الأحزان التي يُمكن تخيُّلها. إنَّه استعراضٌ مُتوحِّش، يؤدِّيه ويده مُتشبِّثة بيد ملكة إسبانيا، وهي امرأةٌ جميلةٌ، وقور، لها غرورٌ صامت، غرورٌ خالٍ من الشعور بالذنب. يسير الشَّبَحان، في ظلّ ما يُفترَض به أن يكون النظام الديمقراطيّ الإسبانيّ، الذي لا يساعد المرء على الموت في سلام.

الديمقراطيَّة لا تساعد المرء على الموت في سلام.

لا شيء إنسانيّ يساعد المرء على الموت في سلام، ولكنَّ المُخدِّرات تساعد على ذلك، المُخدِّرات التي تحتكرها الدولة.

ومن تكون الدولة؟ إنَّها تَراكُبٌ يميل إلى الصفرة، تَراكُب الإرادات المتعبة، التي ما عادَت تفكِّر، التي فكَّرَت منذ عقودٍ طوال، وما زالَت مُستمرَّةً بفضل الخمول، والخمول أمّ الذكاء.

- 13 -

في الأوَّل من أكتوبر عام 1991، بعد اجتياز اختبار القبول بنجاح، حصل ذلك الرجل ـ الذي سوف يجلس بعد مضيِّ أربعة وعشرين عامًا قريبًا من ملك إسبانيا وقد لفّ حول عنقه ربطةً زائفة ـ على وظيفة مُعلِّمٍ في المرحلة الثانويَّة، وتحديدًا في تخصُّص اللُّغة والأدب، في معهدٍ بمدينةٍ تقع شمال شبه الجزيرة. أمَّا اسم المعهد، فالرجل الذي سوف يجلس بعد مضيِّ أربعةٍ وعشرين عامًا قريبًا من ملك إسبانيا لا يودُّ له ذكرًا.

كان ذلك أفضلَ ما جرى في الحياة من المنظور الاقتصاديّ لذلك الرجل الذي هو أنا.

بل إنِّي ذهبتُ إلى التَّفكير في وجود الرَّب، الذي قرَّر أن يرعى مسيرتي في هذا العالَم: هأنذا في سبيلي إلى الحصول على راتبٍ ثابت.

غمرَت البهجةُ قلبَ الرجل الذي سوف يجلس بعد مضيِّ أربعةٍ وعشرين عامًا قريبًا من ملك إسبانيا، وإن ليس قريبًا جدًّا، وليس أقرب ممَّا ينبغي، وهو يلفّ ربطةً كئيبةً حول عنقه، عنقه المحرج الذي علَته حُمرة.

كان ذلك الرجلُ في التاسعة والعشرين آنذاك، ذلك الرجل الذي بات اليوم ما أنا عليه، أيْ بات رجلًا آخر. رجلٌ يرتكز على رجلٍ آخر، أو عدَّة رجالٍ آخرين. إن بلوغ التاسعة والعشرين من العمر هو أشدّ آلة قتلٍ في العالَم بأسره. ولكنَّ أحدًا من أولئك الذين هم في التاسعة والعشرين لا يعلم ذلك. كانت تلك هي لحظةُ الاستمتاع بالحياة. كان جميعُ الشباب في ذلك العمر يطمحون إلى عملٍ ثابتٍ آنذاك، وهو الهَوَس الذي عمَّ إسبانيا الخارجة من الفترة الانتقاليَّة.

كان المعهد الذي التحقتُ بالعمل فيه يُدعَى پابلو سيرَّانو، على اسم مُعلِّمٍ بارز.

اقتنيتُ سيَّارة فورد فييستا. وبتلك السيَّارة، كنتُ أذهب حتى ألقي دروسي في ذلك المعهد، الذي ما زال قائمًا حتى يومنا هذا. ومن حسن الحظ، كان المعهد ملحقًا بموقف سيَّاراتٍ تحفُّه الأشجار، محجوز للمُعلِّمين، حيث الأشجار تلقي بظلالها على السيَّارات. فكنتُ أترك سيَّارتي في الظلّ. لسوف يرافقني ذلك الهَوَس بترك سيارتي في الظلّ مدى الحياة، ذلك الهَوَس الذي ورثتُه عن أبي. لطالما حاول أبي ترك السيَّارة في الظلّ، وإلَّا تعكَّر مزاجه. لم تفهم أمِّي سرَّ ذلك الهَوَس، كما لم نفهمه لا أنا ولا أخي في الصِّغَر. كان وجود الظلّ من عدمه يحدِّد وجهتنا بالسيَّارة. عندما توافرِ لأبي

قدرٌ من النقود، وصار في إمكانه أن يصطحبنا إلى الساحل صيفًا ـ في أواخر الستينيَّات ومطلع السبعينيَّات ـ كُنَّا نستيقظ مُبكِّرًا للذهاب إلى الشاطئ، وإلَّا ما وجدنا مكانًا نترك فيه السيَّارة تحت ظلال أشجار الكافور لو وصلنا مُتأخِّرًا. كنتُ صغيرًا جدًّا، ولم أفهم السَّبب الذي يدفعنا إلى الاستيقاظ في السابعة صباحًا ما دمنا في عطلة، وما دامَت الدراسة مُعلَّقة. حاولتُ التحقُّق من السَّبب. وإذا السَّبب هو ظلال الكافور، فكنتُ أستغرق في النظر إلى تلك الأشجار، حتى إنِّي في دخيلة نفسي، اعتبرتُ الظلّ شيئًا رائعًا مُؤلَّفًا من مادَّةٍ إلهيَّة. كان أبي يحزن، ويشقى، ويضيق ذرعًا، إن لم يترك السيَّارة في الظلّ. بعد مضيِّ سنوات، خُرِّبَت أشجار الكافور، وأُجرِيَت توسُّعات في الممشى البحريّ. ما عادَت تلك الأشجار على قيد الوجود.

ها أنا اليوم قد فهمتُ رغبةَ أبي في ترك السيَّارة في الظلّ، لأنَّ ذلك الهَوَس يكمن داخلي، برفقتي، وفي قلبي. أراعي ذلك الهَوَس لأنَّه ميراث أبي. كان أبي يتعذَّب لو سقطَت أشعَّة الشمس على السيَّارة، وهو الرجل الأصيل في كلِّ شيء.

التحقتُ بجيش المُعلِّمين في إسبانيا. لم يكُن التعليم المهنيّ قد تأسَّس بعد. أمَّا ظلال الأشجار في ذلك الموقف، عامَ 1991، فكانت تقودني إلى ذكرى أشجار الكافور عامَ 1971.

عُهِد إليَّ بتدريس أسوأ المجموعات في ذلك المعهد، لأنِّي مُعلِّمٌ مُستجَدّ. فكُلِّفتُ بإلقاء الدروس على طلبة قسم الكهرباء، وهم فتيانٌ في الرابعة عشرة من العمر لم يرغب فيهم أحد، فتيانٌ وجَّهَتهم الدولة إلى ما يُفترَض بها أن تكون دراساتٍ مهنيَّة، إلى ذلك التَّعليم المهني الشهير. كما عُهِد إليَّ بتدريس مجموعةٍ من مُصفِّفات الشعر، ومجموعةٍ من المساعدين الإداريِّين. فكنتُ أنفق يومي وأنا أشرح لهم النبرة في اللُّغة الإسبانيَّة. يتمكَّن جميع الإسبان الذين التحقوا بالمدرسة من التَّمييز بين الضَّمير «tú» (أنت) وضمير الملكيَّة «tu» (ـــك). فالضمير في عبارة «tú piensas» (أنت تفكِّر) يختلف عنه في عبارة «tu pensamiento» (تفكيرك). في الحالة الأولى، يُعَدُّ ضميرًا ويُكتَب مصحوبًا بنبرة، أمَّا في الحالة الثانية، فيُعَدُّ ضمير ملكيَّةٍ ويُكتَب من دون نبرة. كان ذلك هو العمل الذي عكفتُ عليه. أمضيتُ ثلاثةً وعشرين عامًا أتأمَّل في اللعينتَيْن «tu» و«tú». وعن هذا، كنتُ أتلقَّى راتبي. كنتُ أمضي يومي كاملًا وأنا ألقِّن الطلَّاب أنَّ «tú vienes» (أنت تجيء) تختلف عن «tu venida» (مجيئك). كان ضربًا من الهزل، ولاسيَّما حين لا يجيء أحد، سحقًا! غير أنِّي أدَّيتُ ذلك العمل، لأنِّي لم يسبق لي أن تلقَّيت أجرًا سخيًّا كذلك الذي تقاضيتُه هناك. حصلتُ على منصب مُعلِّمٍ تحت التَّدريب، وكُلِّفت بتدريس مجموعةٍ في الصفّ الأوَّل بقسم الكهرباء. في منظومة التَّعليم الحكوميّ

الإسبانيّ، يُفترَض بالمُعلَمين تحت التَّدريب أن يكونوا مُلمِّين بالتفاصيل التربويَّة والانضباطيَّة لمجموعةٍ من الطلَّاب. سرعان ما أدركت أنَّها مهزلة. كنتُ أدخل إلى الفصل في منتصف أكتوبر، والقيظ لا يزال مُخيِّمًا على الأجواء. ذات مرَّةٍ، سألني طالبٌ في الصفّ الثالث بالقسم الإداريّ عن واقعةٍ جرَت لتوِّها بالولايات المُتَّحدة. فخلتُه جادًّا في ما سأل.

في السادس عشر من أكتوبر عام 1991، قتل جورج هنارد ثلاثةً وعشرين شخصًا في مدينة كيلين، بولاية تكساس.

أدليتُ بتأمُّلٍ طويلٍ في العنف، فلم يعيروني سمعًا. لم يعِرني طلَّابي سمعًا. ولذا سمحتُ لهم بالكلام. فقال كاسترو، الطالب الأكثر حديثًا بحكم العادة:

ـ ظهرَت على شاشة التلفزيون جمجمةُ واحدٍ من أولئك الذين أُطلق عليهم النار، كان يحمل مُسدَّسًا ذاتي الارتداد، أطلق ذلك الرجل مئة رصاصة، أيّ شيء رائع! قتل ثلاثةً وعشرين شخصًا، بل إنَّه ما كان يترك الواحد منهم وينصرف إلى غيره قبل أن يموت ويشبع موتًا.

انفجرَت المجموعة في الضحك. وإذا بي أسمع ذلك الصوت، ربَّما كانت تلك واحدة من أولى المرَّات التي سمعتُ فيها ذلك الصوت، بل وربَّما المرَّة الأولى: «إنَّهم لا يعرفون الضحايا، لا يعرفون ما الموت، لا يعرفون ما القتل، ما إطلاق النار على جسدٍ آخر. لا هم يعرفون شيئًا، ولا أنت تعرف شيئًا. بل إنَّك في الواقع لا تعرف ما إذا كان يهمُّك أمر الأجساد الثلاثة والعشرين التي مزَّقها الرصاص. يجب عليك أن تستنكر العنف لأنَّك تتضوَّر جوعًا، وتشغل هذه الوظيفة لأنَّك تتلقَّى عنها أجرًا في نهاية الشهر. زِد على ذلك أنَّك مُرَبٍّ. وعليك أن تربِّيهم على القيم العقلانيَّة، يجب عليك إقناعهم بأنَّ قتل الناس ليس جائزًا. ولكنَّهم يستغرقون في النوم بمُجرَّد أن تبدأ في تأويل المسألة أخلاقيًّا. ابتكرْ قصةً أيُّها المُعلِّم اللَّعين. أنت لا تفكِّر في شيء سوى الراتب، ولكنِّي أتفهَّم. تظنّ أنَّك لو تحدَّثتَ كما يتحدَّثون لفُصِلتَ من عملك، وما تمكَّنتَ من تسلُّم راتبك في آخر الشهر. الأمر الذي سوف يقتلك في النهاية. من عادة الناس الإيمان بعملهم. ما لا يُعَدُّ اغترابًا على الإطلاق، لأنَّ الإيمان نافع، ويجعل حياة الناس أفضل ممَّا هي عليه. أمَّا أنت فقد عشَّش في داخلك منذ البدء ذلك الفيروس التاريخيّ الوراثيّ الذي أخذتَه عن أمِّك: عدم الرضاء الذي يتمدَّد مثل بقعة البترول على صفحة محيطات العالَم، يتمدَّد باستمرار، ولا يُمكن كبحه».

لبث المُعلِّم المُستجَدّ مكانه، المُعلِّم الذي كنتُه (هوذا الطَّيْف يظهر مرَّةً أخرى)، واستغرق في النظر إلى الطالب كاسترو. ثمَّ جعل يده على شكل مُسدَّس، وصوَّبها إلى كاسترو قائلًا: «بوم، بوم، بوم!»

قلتُ له:

ـ كاسترو، لقد فجَّرتُ رأسك من فوري.

وإذا الصمت يخيِّم على الجميع.

انتهى الدرس، فخرجتُ ومظهري يوحي بشيءٍ من الانتصار.

وقال لي الصوت: «لقد فعلتَها».

بعد مضيِّ أسابيع، وقف على أعتاب فصلي طالبٌ في الصفّ الأوَّل بقسم الكهرباء، كان من عادته التغيُّب عن الدروس، حتى إنَّ أحدًا ما كاد يتذكَّر وجهه. شعر المُعلِّم المُستجَدّ، الذي كنتُه، بالمفاجأة. فما كان من الطالب إلَّا أن قال:

ـ كلَّا، ما جئتُ أحضر درسك، بل جئتُ أضرب ابن العاهرة هذا.

وأشار بإصبعه إلى واحدٍ من زملائه.

أشار إلى مارايث، الذي كان يُعرَف بلقب كوليفلور [5].

ـ لقد أُلقِي القبض على كوليفلور الوغد في متجر إل كورتي إنغليس وهو يسرق، فادَّعى الكلبُ أمام ضابط الأمن أنَّه لا يحمل بطاقة الهويَّة، وعرض أن يعطيه عنوان بيته. ولكنَّه أعطاهم عنوان بيتي أنا، عنوان بيتي واسمي. وبالأمس، حضرَت الشرطة إلى بيتي سائلةً عنِّي، فضربني أبي وشجّ رأسي بقِدْر الحِساء.

ثمَّ أشار إلى جرحٍ مُتقيِّحٍ في رأسه.

ضحك كوليفلور. وضحك الجميع. بينما راح المُعلِّم المُستجَدّ الذي كنتُه ينظر إلى الجرح.

ما زلتُ أذكر ذلك الجرح إلى يومنا هذا، ذلك الجرح الذي شعرتُ أمامه بمزيجٍ من الغضب اللَّاواعي والعطف القاتم اليوم تخطر على بالي كلمةٌ شمسيَّة هي: «رأفة». يجب علينا جميعًا أن نتحلَّى بقدرٍ أكبر من الرأفة. ذهبتُ إلى التَّفكير بضرورة تأليف كتابٍ تحت عنوان «رؤوف». كنتُ أودُّ لو دسست يدي وأمعنتُ في فتح ذلك الجرح حتى ينزف الفتى، ثمَّ أرتشف تلك الدِّماء بعطف، وكأنَّه طقسٌ من طقوس اليأس.

رافقني ذلك الصنف من مشاعر اليأس الدَّفين طويلًا، مدى حياتي. لا أعرف لها مصدرًا. إنَّها مشاعرُ هجينة، مزيجٌ من العنف والوحشة، والنشوة، والفرح العارم أيضًا. أعتقد أنَّ هذه المشاعر مصدرها أسلافي الأشدّ بُعْدًا. لا بدَّ أنَّ في نفسي شيئًا جعلني صامدًا على الرَّغم من تشوُّه المشاعر

وانحدارها. وإلّا، ما كنتُ في هذا العالَم، صامدًا في وجه البكتيريا البيولوجيَّة والبكتيريا الاجتماعيَّة.

قلتُ له:

ـ حسنًا، بما أنَّك حضرتَ إلى هنا، فادخل إلى الفصل.

فما كان من أوركاس ـ وذلك هو اسم الفتى ـ إلَّا أن دخل إلى الفصل قائلًا: «سأنهش كبدك في الراحة يا كوليفلور».

فقال لي الصوت: «ها قد سمعتْ، يريد أن ينهش كبد كوليفلور. ما مذاق كبد فتى في الرابعة عشرة من العمر! انظرْ، فأمام عينَيْك الطبقة الدنيا الإسبانيَّة، إنَّه استعراضٌ تاريخيٌّ لا يملك تذاكرَ لمشاهدته سوى قلَّةٍ قليلة. مشاهدة مُمتعة! إنَّ هؤلاء الفتيان كأنهارٍ من الدِّماء الشابَّة البخسة، يعيشون في بيوتٍ رثَّة، وينامون على أسِرَّةٍ كريهة الرائحة، ولهم آباء بلا أدنى قيمة. مُنِيَتْ أمَّهاتهم بالحظِّ العاثر في أجسادهنَّ، ولم يملك آباؤهم أيّ مهاراتٍ مهنيَّة. ذلك عرضٌ لا يتمكَّن الجميع من الحصول على تذاكرَ لمشاهدته. وأنت لديْك تذكرة. انظرْ كيف يتقاتلون. لديك تذكرةٌ لمشاهدة العرض من مقصورةٍ خاصَّة. أنت كاتب، أو ستكون كاتبًا في النهاية. إنَّها إسبانيا العصيَّة على الخلاص. تتقاضى راتبك لتشرح لهم ترَّهاتٍ مثل النبرة، والفارق بين كيبيدو وغونغورا [6]، حتى لا يخلطوا بينهما! وأيُّ لعينٍ يهمُّه أن يعرف مَن هما كيبيدو وغونغورا! من المُؤكَّد أنَّ الشاعرَيْن لا يلقيان للأمر بالًا، فلقد ماتا وشبعا موتًا. إن أولئك الذين يهمُّهم ترديد ذلك النوع من الترَّهات وإرغام الطلَّاب على حفظها عن ظهر قلب ينتمون إلى أرستقراطيَّةٍ ثقافيَّةٍ إسبانيَّةٍ بعينها، لا تمتّ بصلةٍ لك أنت أو لأولئك التعساء الذين هجرهم المجتمع. وعلى الرَّغم من ذلك، ينبغي لهم أن يعرفوا من هما غونغورا وكيبيدو، فلو تلقَّى أولئك التعساء مساعدةً ذات يومٍ لتلقّوها من الموتى. وكأنَّ غونغورا وكيبيدو مُنظَّمةٌ غير حكوميَّة، لأنَّ المُنظَّمة غير الحكوميَّة تمثِّل التاريخ عند أولئك الأكثر حاجةً إليه، أي أولئك الذين لا يملكون شيئًا، سوى التاريخ. يجب عليك أن تكتب تاريخًا من أجل أولئك الذين لا يملكون شيئًا، سوى التاريخ».

بعد مضيِّ أعوام، قرأتُ في الصحف خبرَ مصرع كوليفلور. اصطدمَ بجدارٍ وهو يقود سيَّارته. كانت سيَّارةً عتيقة، ولكنْ مسروقة. كان في يده أن يسرقَ سيَّارةً حديثة لا عتيقة، ولكنَّ كوليفلور أنيق، ويتمتَّع بحسّ الدعابة فوق كلّ شيء. من المُؤكَّد أنَّ ابن العاهرة سرق سيَّارة زميله أوركاس.

رحل كوليفلور عن هذا العالَم وهو في السَّابعة والعشرين من العمر.

كوليفلور المسكين، الذي جرَت حياته في دقيقةٍ واحدة، الذي لم يعرفه أحد، ولا حتى هو نفسه، الأمر الذي ينطوي على نقاءٍ مدهشٍ أيضًا. عقد النقاء

والبؤس زواجهما في قلب الحياة الهزيلة، حياة كوليفلور الأبلَه.

هكذا يروق لي تذكُّره، على أنَّه كوليفلور الأبله، حيث توحي كلمة «الأبله» بالسلام والشرف والقداسة.

تعرَّفتُ على كوليفلور، لأنَّ الصحيفة ذكرَته بالاسم واللَّقب: إيبان مارايث.

إنَّه هو، كوليفلور.

كان وزنه قد زاد كثيرًا، كوليفلور المسكين. انتهَت الحال بجميع طلَّابي وقد زاد وزنهم. وصاروا جميعًا من السِّمان.

أيُّها الوغد الإسبانيّ الأعظم على مرِّ العصور: كوليفلور.

اختار لك أبواك اسمًا جميلًا في لحظة ميلادك يا كوليفلور، اسمًا يبدو أنَّه ثمرة دوافع بعيْنها. أيْ أنَّهما قد فكَّرا في اسمك، وذلك شيءٌ جديرٌ بأن يُؤخَذ في الحسبان.

سمّياك إيبان.

لا بدَّ أنَّه كان أفضل أيَّام حياتك، عندما قرَّر أبواك أن يطلقا عليك اسمًا. ولكنَّه ضربٌ من المُحال أن تذكر ذلك اليوم. لا أحد يذكر ذلك اليوم، يومَ يتلقَّى المرء ذلك الاسم الذي وقع عليه اختيار أبوَيْه. لا بدَّ أنَّه كان أفضل أيَّام حياتك وأنت لا تدري. لم تلمسه، ولم تنعم به.

حسنًا يا كوليفلور، أعتقد بأنَّك كنتَ محبوبًا في يوم معموديَّتك. لا أدري، يبدو وكأنَّ اختيار اسم إيبان من أجلك ينطوي على معنى من معاني الجمال، وقليلٍ من الإرادة، والرَّغبة في وجودك في هذا العالَم.

أو ربَّما غضب أبوك وأمّك يومذاك!

أو ربَّما كان أحد أجدادك هو الذي تولَّى أمر معموديَّتك، يا عزيزي كوليفلور، وخطر له أن يعمِّدك باسم إيبان لسببٍ هزليٍّ تافه.

أمَّا السَّبب وراء لقب كوليفلور فقد ذهب معك إلى القبر.

آه، يا كوليفلور! عليَّ أن أُخبرك بأمرٍ في غاية الطرافة: إنَّ ذلك الرجل الذي ألقى عليك دروس اللُّغة الإسبانيَّة عام 1991، استطاع أن يجلس قريبًا ـ وإن ليس قريبًا جدًّا ـ من ملك إسبانيا. ها، ما رأيك في هذا يا كوليفلور؟ ليس أمرًا مُهمًّا، فلا شيء يهمّ متى قضى المرء ورحل بائسًا بعد أن كان على قيد الحياة.

لا يهمّ، ولكنَّه شيءٌ طريف.

طريف حقًّا، ولقد خطر على بالي أنَّه قد يُضحكِك.

لأنَّك، بطريقةٍ ما، كنتَ ضحيَّة ترتيبٍ تاريخيّ، وبنية التدرُّج الهرميّ، والتَّأكيد على وجود الحتميَّة البيولوجيَّة. أمَّا أنا فكنتُ المُتحدِّث الرَّسميّ بأخبار الدولة الإسبانيَّة، كنتُ أنا ساعي البريد، وكاتب العدل. ولذا، سمح لي أحدُهم بالجلوس قريبًا من ملك إسبانيا بعد مضيِّ أعوامٍ طوال. وكأنَّ كلَّ شيءٍ قد اكتسب معنًى في خاتمة المطاف، وإن كان معنًى رديئًا.

آه، يا كوليفلور! لعلَّهم قد طمروا عظامك في المقبرة الجماعيَّة. أعتقد أنَّ الرُّفات تبقى في القبور خمسة أعوام. ولا أظنّ أبوَيْك سيدفعان مقابل خمسة أعوامٍ أخرى، لو أنَّهما لا يزالان على قيد الحياة.

آه، يا كوليفلور! لقد حدَّثتُ أبي عنك في عيد الميلاد، عام 1991. فشعر نحوك بالألفة. حكيتُ له عنك، فاستأثر به الفضول. كان أبي كالمغناطيس يجتذب إليه التعساء في هذا العالَم. أذكر كيف ضحك أبي ممَّا فعلتَ حين أُلقِي القبض عليك في متجر إل كورتي إنغليس، فأدليتَ باسم صديقك. كانت تلك أوَّلَ وظيفةٍ حقيقيَّةٍ أحصل عليها، وكان يروق لأبي أن أحكي له عمَّا يجري من الأمور. لقد خطرتَ على بال أبي يا كوليفلور. أتدري؟ في بلدة بارباسترو، كان المرضى والمُتخلِّفون والمساكين والمجانين والتعساء يحبُّون أبي، فهو كالمغناطيس يجتذب إليه التعاسة. من أين جاء بتلك المَلَكة الغريبة؟ انبثقَت تلك المَلَكة من أعماق الأرض التي شهدَت مولده، مِن هناك، مِن تلك الأرض، من سومونتانو. غريبٌ أمر أبي! ما الذي كان يجذب إليه الحمقى دومًا، ويحملهم على الحديث إليه؟ أعتقد بأنَّ السَّبب هو طيبته الجارفة.

كانت طيبته أسطوريَّة.

«احكِ لي المزيد عن كوليفلور، أيُّ فتى عظيم!»، قال أبي عشيَّة عيد الميلاد، عامَ 1991، أمام دجاجةٍ بلديَّةٍ طهَتها أمِّي.

لقد أحبّك أبي يا كوليفلور.

أمَّا أنا فلا.

لم أحبّك آنذاك، ولكنِّي أحبّك الآن يا كوليفلور. لأنَّ عينَيْك اللَّتيْن أذكرهما في هذه اللَّحظة، كانتا مفعمتَيْن بالطيبة، وعسى ألَّا يثنينا الحظُّ العاثر أبدًا عن التَّحديق بعيوننا إلى السَّماء امتنانًا، لأنَّنا قد تأمَّلنا تنهيدات جميع البشر المُكبَّلين في الهواء.

- 14 -

أذكر شهر أغسطس من عام 1983، حين سافرتُ من مدينة ثاراغوثا برفقة صديقَيْن بحثًا عن شقَّة طلَّاب. أذكر الشقق التي رأيناها.

أعتقد بأنَّ الإيجار كان يتراوح ما بين عشرين ألف وخمسة وعشرين ألف پيسيتا في الشهر. رحنا نبحث عن شقَّةٍ تضمّ ثلاث حجراتٍ وصالونًا ومطبخًا. وصل إيجار بعض الشقق إلى ثمانية عشر ألفًا، بل وخمسة عشر ألفًا، ولكنَّها كانت بعيدةً عن وسط المدينة.

تفجَّر سيلٌ من الشقق الرخيصة أمام عينَيّ.

كُنَّا ثلاثة طلَّاب فقراء، كلٌّ مُزوَّدٌ بمنحةٍ دراسيَّة، ثلاثة طلَّابٍ طيِّبين، وربَّما قباحًا. ربَّما كنتُ أقلّهم قبحًا. ولكنْ تطلُّعات المستقبل كانت مُفعمةً بالبهجة في نفوسنا.

استأجرنا شقَّةً بثمانية وعشرين ألف پيسيتا في الشهر، المبلغ الذي تجاوز ميزانيتنا، غير أنَّ الشقَّة أعجبَتنا، وجاء موقعها في وسط المدينة، في شارعٍ يُدعَى پامپلونا إسكوديرو، يقع قريبًا جدًّا من الجامعة، ومن كلِّ مكان. حتى إنَّ الذهاب إلى الجامعة كان يستغرق خمس دقائق.

في وقتٍ لاحقٍ، عرفتُ أنَّ ذلك السيِّد المدعو پامپلونا إسكوديرو سبق له أن شغل منصب عُمدة المدينة، ولا بدَّ أنَّه سعد كثيرًا بعمودية تلك المدينة. سألتُ نفسي عمَّا قد يكون رأي أمِّي في تلك الشقَّة، وعمَّا إذا كانت سوف تنال قبولها. من المُؤكَّد أنَّها ما كانت تروق لها. فقلَّما أُعجِبَت أمِّي بمنازل الآخرين. دار في خَلَدي أنَّ والدتي لم تكُن لتفهم ما أفعله في تلك الشقَّة، والسَّبب الذي حملني على العيش في بيتٍ من هذا القبيل.

جرى ذلك عام 1983، إبّان حقبةٍ كان أفراد الحرس المدنيّ يلقون خلالها مصرعهم في إسبانيا كلَّ يوم. لطالما لقي الناس مصرعهم في هذا البلد. وعلى الرَّغم من ذلك، فالعيش في شقَّتك الخاصَّة كان مدعاةً للبهجة! وهأنذا الآن أنفض الغبار عن جميع أسباب البهجة التي ربَّما كانت في حياتي.

شعرتُ بالخوف من تلك الشقَّة، من تلك المدينة. الخوف، الخوف دومًا، وكأنَّه طاعونٌ يلازمني. الخوف الذي يبحث في عقلك عن رفيقةٍ، وإن لم يجدها صنعها بنفسه. وأخيرًا، الخوف الذي يرافق اليأس، ذلك الكيان الأنثويّ الذي يقوم على التدهور والجنون. فكان ذلك جزءًا أساسيًّا آخر من شخصي: لقد رافقني مدى الحياة ذلك الخوف من الإصابة بالجنون، والعجز عن إعمال

العقل في ما يجري لي من الأمور، والفوضى التي قد تجرفني في طريقها. كانت أمِّي على شاكلتي، أمِّي التي أفضَت بأبي إلى اليأس، فغضب أبي من أمِّي غضبًا عارمًا، وورثتُ أنا عرشَ الصَّخَب والعنف، الذي لا يعدو أن يكون رغبةً في تحطيم الأشياء، تحطيم النوافذ، وتمزيق الأقمصة، وتحطيم الصحون، وتحطيم الأبواب، وركل قطع الأثاث، وأخيرًا القفز في الخواء.

رباه، كم يستهويني اليائسون! إنَّهم الأفضل.

- 15 -

كانت أمِّي ترى يدَ الشيطان في الضائقات اليوميَّة. كثيرًا ما قالَت إنَّ: «هذا البيت يسكنه الشيطان»، بينما هي تبحث عن شيءٍ ولا تجده. أو تختم حديثها صارخةً: «من المستحيل ألَّا يكون الشيطان ساكنًا في هذا البيت». كانت تبحث عن الشيء وهو أمام عينَيْها، فلا تراه. ولقد ورثتُ عنها بوادر الجنون تلك. أبحث عن الأشياء وهي أمام عينَيّ، عن كتابٍ أو رسالةٍ أو كنزةٍ أو سكِّينٍ أو منشفةٍ أو جوربٍ أو ورقةٍ من أوراق المصرف على سبيل المثال، فلا أتمكَّن من رؤيتها. كانت أمِّي على قناعةٍ بأنَّ الشيطان يحجب عنها الأشياء، بأنَّ الشيطان يحمل وزر تلك العقبات الصغيرة. وعاشَت كلّ هذه الحوادث المنزليَّة بعنفٍ يليق بامرأةٍ مجنونة. الآن، بِتُّ أنا هي، أمَّا الشيطان فلا يعدو أن يكون انحلالًا عصبيًّا وراثيًّا يصيب العصب البصريّ، ويتحوَّل إلى أمواجٍ من الروابط الكيميائيَّة المُطفأة أو المُتذبذِبة، ومن ذلك التدهور الكهربائيّ الذي يطرأ على الواقع فتتولَّد بكتيريا مرض الذّهان، ويتعفَّن الشَّكل العضويّ للإرادة، ويغدو كتلةً من الأوامر الغريبة عن العالَم الاجتماعيّ، وإذا بي أتحوَّل إلى متحف الجفاف، والصمت، والعزلة، والانتحار، والصمم، والشَّقاء. خلَتِ الحياةُ وما زالَت خاليةً من الحُجَج، عندي أنا وأمِّي.

ولم يحدث أيّ شيءٍ على الإطلاق.

- 16 -

في مطلع الثمانينيَّات، كان أبي يأتي إلى ثاراغوثا بين الحين والآخر لدواعي العمل، فنلتقي لتناول الغداء معًا. كان يحضر برفقة بعض أصدقائه، فأشعر خلال تلك اللِّقاءات على الغداء بأنِّي كائنٌ فضائيّ، لا أدري ماذا أقول! كان أصدقاؤه طيِّبين، ولكنِّي لم أشعر برغبةٍ في تمضية الوقت معهم، إذ بدا لي أنَّهم يبعثون على الضجر، وأنَّ مسافةً كبيرةً تفصل بيني وبينهم. وعلى الرَّغم من ذلك، كانت المطاعم في تلك الحقبة مفعمةً بالسحر والغموض. لطالما التقينا في مطاعمَ عتيقة، تضفي على ثاراغوثا طابعًا جذَّابًا، لا أدري ماذا كان من أمرها. في وقتٍ لاحق، صرتُ خبيرًا في تلك المدينة. ولكنِّي لم أملك أدنى فكرةٍ عن ثاراغوثا آنذاك. لم يكُن غوغل متاحًا. كان أبي يتَّصل بي على هاتف الجارة قائلًا: «أنا أبوك». إذ لم نملك هاتفًا خاصًّا في شقَّة الطلَّاب.

لطالما راق له أن يقول «أنا أبوك»، بصوتٍ مسرحيّ. ذلك هو الشيء الوحيد الذي امتلكناه: التَّأكيد ذو الطابع الكونيّ. والآن، صرتُ أفعل الشيء نفسه مع ابنَيّ، أتَّصل على الهاتف المحمول قائلًا: «أنا أبوك». الأمر الذي يبثُّ في النفس خوفًا شديدًا. لا يدري الواحد معناه حقّ المعرفة، وعلى الرَّغم من ذلك فهو شيءٌ مخيف، قويّ، يبدو كالدعائم، يبدو كالسحابة التي تملأ سماء وعيك بالدِّماء، يبدو وكأنَّه أصل العالَم.

كان أبي يُخبرني بالمكان الذي ينوي الذهاب إليه لتناول الغداء، فنأكل مع أصدقائه، طعامًا شهيًّا. ذات مرَّة، تناولنا الغداء في مطعمٍ يقع في جادة مدريد، لم يسبق لي التردُّد عليه قطّ. دلفتُ إلى المكان، وهناك وجدتُ أبي برفقة عمدة بارباسترو في ذلك الحين، ورجلٍ آخر. كانوا ثلاثة، وقد ظهر عليهم السرور.

راحوا يدخِّنون السيجار، ويحتسون شراب الكاراخيّو، ويضحكون، ويلقون النكات، بعد أن تناولوا طعامًا شهيًّا. ثلاثة رجال سعداء، أبناء بلدةٍ واحدة، أتراب، أبناء تجربةٍ واحدةٍ في الحياة، أبناء شارعٍ واحد، ثمار شجرةٍ واحدة.. ولذا، كانت تشعّ منهم الأخوية، تلك التي تمثِّل الجذور. كانوا ثلاثتهم رمز الجذور، والجذور هي ما أملكه اليوم. كانوا يمثِّلون الجذور في بلدة ألتواراغون، وسبيلًا من سبل البقاء على قيد الحياة. ولذا بدوا ضاحكين، سعداء، بجذورهم الضاربة في الأعماق.

قلتُ لأبي أن يَحضر لرؤية شقَّتي، فلم يَحضر. لم يرَ والدي أيًّا من الأمكنة التي عشتُ فيها طالبًا. لا أدري في أيِّ مكانٍ لعينٍ حسبني أعيش. لم

يرَ تلك الأسِرَّة التي كنتُ آوي إليها في تلك الأعوام. لا أدري لماذا لم يحضر. ربَّما لأنِّي لم أصرَّ على حضوره. وربَّما كان احتياجي لأن يرى والدي البيوت التي عشتُ فيها تلك الأعوام احتياجًا حاضرًا، لم أشعرِ به آنذاك. فأنا لم أقُل له على سبيل المثال: «بابا، أريد منك أن ترى أين أعيش». كلَّا. ولكنْ هأنذا أقولها الآن. حتى أبي لم يقُل: «أودُّ رؤية شقَّتك». يبدو أنَّ كليْنا كان يلائم الآخر: لم يقُل أحدُنا للآخر شيئًا.

الآن، أحمل والدي على أن يقول: «أودُّ رؤية شقَّتك، يا ابني». أعتقد بأنَّه ما كان يكترث للمكان الذي أعيش فيه. ولكنْ بمضيِّ الوقت، صار لا يكترث للمكان الذي يعيش فيه هو نفسه.

تضاءلَت أهمِّيَّة الأشياء عنده.

كان أبي فنَّان الصمت.

وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد أحضر من أجلي روبًا. أهداني روبًا. وحين مضيتُ بالروب إلى الشقَّة أجهشتُ بالبكاء. لم يشترِه بنفسه، بطبيعة الحال، بل اشترَته أمِّي. في ذلك الرُّوب الأزرق الداكن، المصنوع من القطن، الذي يدفِّئ البدن في الشتاء، أودعَت أمِّي كلَّ ما تملك من حنان. كان ذلك الرُّوب هو رمز الجذور. وعلى الرَّغم من ذلك، اضطُرِرتُ إلى الاحتفاظ به في حجرةٍ غريبة، في مكانٍ عدوانيّ.

بكيت.

حاولتُ الاحتفاظ بالرُّوب حيث لا يمسّه أيّ شيءٍ مادِّيٍّ في تلك الحُجرة. كلُّ ما في تلك الحُجرة كان يفتقر إلى النقاء. استغرقتُ في النظر إلى الرُّوب كمَنْ ينظر إلى الحبّ المطلق، أو كمَنْ ينظر إلى إقليم الحبّ المُهدَّد.

عرفتُ أنِّي وأمِّي نقول وداعًا، أحدُنا للآخر. كان وداعًا غير منطوق، بلا كلمات. فزمن حياتي وزمن حياتها بدآ يسلكان طرقاتٍ مختلفة.

كُنَّا نودِّع أحدنا الآخر.

لن أعاود الشعور بذلك الحنان ما حييت، ولكنْ لا يهمّ. هذا هو الشعور الذي يخامرني الآن: لا يهمّ. وتلك هي عظمة الحياة: لا سبب يدعو إلى البكاء أو الإدانة. فالشيء الذي جمعني وما زال يجمعني بأمِّي سرٌّ قد أفلح في كشفه قبل موتي بثانيةٍ واحدة، وقد لا أفلح في ذلك. فمن الوارد جدًّا أن يكون قبحُ الموت هو السرّ الوحيد.

وددتُ لو أنقذ حنان أمي وهي تساعدني في حزم الحقيبة عندما رحلتُ عن بارباسترو وذهبتُ إلى ثاراغوثا تلك الأعوام: 1980 و1981 و1982، بينما هي تضع الأشياء من أجلي في الحقيبة، وتساعدني في إعداد الثياب، وتضع

الطعام من أجلي في عبواتٍ من الزجاج، أمَّا أنا، فاستغرقتُ في تأمُّل كلِّ هذا لاحقًا، وقد غلبني الهجران.

في الواقع، الأمر كلُّه رهنٌ بالفقر. كان الفقر ـ فقرنا ـ هو الذي يجعلني أرتعد خوفًا. فأطلقتُ على الخوف اسم «الحنان».

لو كُنَّا أثرياء لصار كلُّ شيءٍ أفضل حالًا، وتلك حقيقة كلّ شيء.

لو امتلك أبواي المال، لصرتُ أفضل حالًا. ولكنَّهما لم يمتلكا أيَّ شيء، أيّ شيءٍ على الإطلاق. إنَّ الاعتراف بالفقر في إسبانيا يُعَدُّ شيئًا مُجرَّدًا من الأخلاق، كريهًا، مهينًا. وعلى الرَّغم من ذلك، كان أكثرنا من الفقراء.

كُنَّا فقراء، وإن لم يخلُ فقرنا من الرونق.

- 17 -

هناك وُلِدت، في بلدةٍ إسبانيَّةٍ تُدعَى بارباسترو، عام 1962، أو هكذا قيل لي. لا بدَّ أنَّه كان عامًا مشهودًا. تساورني شكوكٌ جادَّةٌ في حقيقة ميلادي عام 1962. لا أشكّ في المكان حيث وُلِدت، وإنَّما في العام. يجب على الجميع الشكّ في تاريخ ميلادهم، لأنَّها أوَّل حقيقةٍ مُتوارَثةٍ نُرغَم على الإيمان بها، مع أنَّنا لا رأيناها ولا أحسسناها ولا تحقَّقنا منها. أنت مُضطَرٌّ إلى الإيمان بأنَّهم يقولون لك الحقيقة، وأنَّ الأرقام التي يتألَّف منها تاريخ ميلادك ذات مغزى.

أنت لا تشهد ميلادك، ولكنَّك تشهد أمورًا أخرى، مثل: زفافك، إنْ تزوَّجت؛ كما تشهد ميلاد أبنائك. وعلى الرَّغم من ذلك، فأنت لا تشهد موتك.

لا تشهد ميلادك ولا موتك.

كثيرًا ما ارتبتُ في تاريخ ميلادي. ربَّما كان ذلك الشكّ نابعًا من الإحساس بأصل المادَّة التي يتألَّف منها جسدي وروحي، أو الإحساس بارتطام جسدي بالزمن، وضرورة أن يكون لذلك الارتطام تاريخٌ بعيْنه. إنَّما التاريخ اسمٌ، في واقع الأمر. التاريخ هو اسم ذلك الارتطام.

يجب على الجميع الشكّ في تاريخ ميلادهم، ذلك أنَّه خالٍ من اليقين المعيش، ولكنَّه يحدِّد مصيرك في بلادة، فتميل إلى الاهتمام به اهتمامًا لا ينبع من إرادتك أنت، بل من أعرافٍ اجتماعيَّةٍ سابقةٍ عليك. أعرافٍ وُضِعَتْ حين لم تكُن في العالَم، حين لم تكُن قد وُلِدت، ولا ارتطمت.

ربَّما كنتُ ضحيَّة خطأ، إذ عانَت أمِّي من ضعفٍ في الذاكرة. أذكر القليل من عقد الستينيَّات. فأولى ذكرياتي تعود إلى عقد السبعينيَّات، عدا ذكرى واحدة منها، لا بدَّ أنَّها قد جرَت عامَ 1966، ذكرى أمِّي وهي حُبلى بأخي. لا بدَّ أنَّها ذكرى سابقة على صيف 1966. إنَّه مشهدٌ حافلٌ باللَّاواقعيَّة. ولكنَّها ليسَت ذكرى جديرةً بالتَّصديق. في تلك الذكرى، أرانا في المطبخ، حيث تجلس أمِّي على مقعد، وهي ترتدي ثوبًا يكاد يكون بياضُه لامادِّيًّا. تقول لي «أخوك هنا». تشير إلى بطنها، ثم تأخذ يدي إلى بطنها. أمَّا أنا فتستحوذ عليَّ المفاجأة، وأرى ضياءً يتسلَّل عَبْر شرفة المطبخ، ضياءً آتيًا من النجوم. أنظر من النافذة، فأرى بُعْدًا مفعمًا بالعذوبة. تلك هي أولى ذكرياتي. بَيْد أنِّي لا أفهمها، ولا أدري لها كنهًا. إنَّها ذكرى أحاول استرجاعها طوال الوقت، فلا أسترجع إلَّا شعورًا بالسلام. أعتقد بأنَّ الشعور ذاته سوف يراودني متى حان موتي.

ـ 18 ـ

أنا الآن في الحمَّام، أغسل أسناني بالفرشاة، وأحسّ بوجود كائنٍ ورائي، يقتفي خطواتي. إنَّها بقايا أبي وأمِّي الراحلَيْن، بقايا تتشبَّث بعزلتي، وتتخلَّل شعري. بجزئيَّاتهما الشبحيَّة متناهية الصِّغر يتتبَّعان مسار يدَيّ وقدمَيّ في أرجاء الحمَّام، يمسكان الفرشاة بجواري، ينظران إليَّ وأنا أغسل أسناني، يقرآن اسم المعجون، يراقبان المنشفة، يتلمَّسان صورتي على صفحة المرآة. يتَّخذان لنفسَيهما مكانًا بجواري متى أويتُ إلى الفراش. وأسمع همساتهما متى أطفأتُ المصباح. أحيانًا، لا يكون الشبح لأبي أو لأمِّي، فهما قد يحضران مع أشباحٍ مريضة، أو قذرة، أو مُروِّعة، أو غاضبة، أو خبيثة، أو حميدة، لا يهمّ، لأنَّ كَوْنَ المرء شبحًا يتجاوز الخير والشرّ.

إنَّها أشباح تاريخ إسبانيا، التي هي شبحٌ بدورها.

يربِّتان على شعري بينما أخلد إلى النوم.

- 19 -

ما عاد أبي وأمِّي على قيد الوجود، بخلافي أنا، ولكنْ ها أنا راحل بعد خمس دقائق. كثيرًا ما ردَّدتُ في ذهني ذلك الاكتشاف الشفهيّ: «ها أنا راحلٌ بعد خمس دقائق». إنَّه شيءٌ مُبهم، فبتلك الدقائق الخمس أقيس زمنًا لا يعرفه سواي. فربَّما كانت خمسةً وعشرين عامًا، أو خمسة آلاف عام، أو خمس دقائق بالفعل، أو حتى خمس ثوانٍ. وكأنِّي إذ جهرتُ بأنِّي لا آبه للموت فورًا، أطالب بأحقيتي في الموت يومَ يحلو لي ذلك. ولأنِّي لا آبه للموت، فربَّما أذقتُ نفسي الموت في هذه اللَّحظة، أو بعد خمسين عامًا: أنا سيِّد الزمن المُتبقِّي لي. ينتهي الحال وقد صارت تلك وسيلة للهو بما لا يجب اللَّهو به، ولكن ما العمل بالموت إن لم نلهُ به! ما العمل بشيءٍ كالموت، يخلو من المحتوى، ويمثِّل نهاية كلّ شيء. هكذا يبدأ أولئك الذين يقتربون من الموت في إدراجه في ألعابهم، وخواطرهم، يضفون عليه معنى، بينما هو لا يعني أيّ شيء. ربَّما كانت فكرة السلام والراحة هي الأوفر حظًّا. فالكلّ يرغب في الراحة. الكلّ يحتاج إلى النوم. أمَّا الواقفون على أعتاب الموت فينشغل بالهم بأولئك الباقين، وبإحداث أخفّ ضررٍ مُمكنٍ على الباقين، وبترك كلّ شيءٍ مُيسَّرٍ من أجلهم، من أجل الأبناء، ثم الرحيل، والتبخُّر في الهواء. تتلاشى في سلامٍ إن تركتَ كلّ شيءٍ مُيسَّرًا من أجل أبنائك، وذلك هو الموت الهادئ.

- 20 -

أخاف المُسنِّين. لأنَّهم هم المستقبل الذي ينتظرني.

سأكون زومبي آخر في حُجرةٍ يتعذَّر العثور عليها في قسم رعاية المُسنِّين بمستشفى لا اسم له، مستشفى لا يحمل إلَّا رقمًا وحسب. رقم 7، على سبيل المثال. أجل، الآن صرتُ أطيل التَّفكير في الشيخوخة، والأوان الذي سوف أعجز فيه عن الاعتناء بنفسي وأبقى تحت رحمة غضب الشخص الذي يرعاني، أو إحسانه، ذلك الشخص الذي أستطيع رؤية حياته كاملةً في هذه اللَّحظة. إنَّها مَلَكة رؤية الحيوات، تلك المَلَكة التي حظيتُ بها.

درستُ في مدرسة إسكولاپيوس حتى الصفّ السابع الابتدائيّ. درستُ في مدرسة كهنةٍ لأنَّها كانت الوحيدة المتاحة. ذات يوم، في عام 1971، استدعاني أحد الكهنة. كان يريد منِّي الالتحاق بجوقة المدرسة. وأنا في الثامنة من عمري. كان يُدعَى «ج.»، أجل، لعلَّ بعض الناس ما زالوا يذكرونه، وإن كانوا قلَّة. دخلتُ إلى الفصل، والشمس تتجلَّى ساطعةً من خلال النوافذ. أذكر تونية الكاهن. تلك التونية التي برز بطنه تحتها. كان جميع أولئك الكهنة ضخام الجسد. راح يكلِّمني بحنان. كان نظام فرانثيسكو فرانكو حافلًا بالكهنة المخابيل. بدأ يداعب شعري. ثم أنشب يدَيْه في يدَيّ، وأنا لا أفهم أيّ شيء. لم أدرِ ماذا يجري.

بعد مضيِّ ثلاثين عامًا، طالعتُ نعي الكاهن «ج.» في صحيفة البلدة. قضى نحبُه. كان يدخِّن دوكادوس. لم أسرَّ بموته. وإنَّما استغرقتُ في التَّفكير. أعتقد بأنَّه لم يفعلها في النهاية، ولكنِّي أذكره. لو أنَّ شيئًا واحدًا أنقذني، فهو ضوء الشمس الذي غمر ذلك الفصل. تحت ذلك الضوء ذُعِر المخبول من أفعاله. مِن المُحتمَل أن يكون عقلي قد طمس الأمر برمَّته. لا أدري. لا أدري إلى درجة تمادى الكاهن. لا أذكر. ولا أملك للأمر ذكرًا. لا أعرف غير أنِّي أسير في رواقٍ ثمَّ أدلف إلى فصل، فأجده هناك، محشورًا في التونية، يبتسم لي، ويبدأ في مداعبةٍ لا أدري كيف أفسِّرها. أستغرق في النظر إلى التونية، إلى ردائه الأسود، ودكنته الرمزيَّة، ما الذي يعنيه ارتداء ثوبٍ كهذا؟ أبقى ناظرًا إلى زنَّار التونية، فلا يسعني التحقُّق من فائدته، أربط بينه وبين الحزام، ولكنَّه ليس حزامًا، لأنَّه خالٍ من الحلقة والثقوب، إنَّه كالزينة، ولكنْ ما الشيء الذي يزيِّنه؟ وما الدافع إلى تزيين أيّ شيءٍ في ذلك الموضع؟ تراه مُقترِنًا بعيد الميلاد، بميلاد الطفل الرَّب؟ هل أنا الطفل الرَّب؟ ولهذا استدعاني ذلك الرجل الذي يزيِّن بطنه المُسمَّن؟ يتداعى ذكائي، وتتوقَّف ذاكرتي. لم أدرِ ما ذاك، لم أدرِ إن كان شيئًا جيِّدًا أم سيِّئًا. لا طفل يدري ما ذاك حتى يمرّ الزمن.

أعود مرَّةً تلو أخرى إلى تلك الذكرى، محاولًا التحقُّق ممَّا جرى، وإذا الأنوار تنطفئ. بعد المداعبة، تنطفئ الأنوار.

عيناي في مستوى الزنَّار، تنظران إلى الزنَّار، في محاولةٍ لكشف طلاسمه. لم أدرِ إن كان عليَّ البوح لوالدَيَّ بما جرى. لم أقُل شيئًا، إذ فكَّرتُ أنَّ اللائمة تقع عليَّ أنا. وأني أنا الملوم. وأنَّهما لن يحبَّاني من الآن فصاعدًا. وأنِّي قد أسأت السُّلوك. ولم أحبّهما حبًّا كافيًا، ولذا جرى ما جرى.

ينطوي الشرّ على إشكاليةٍ مؤدَّاها أنَّه لو طالك جعل منك أنت الملوم. وذلك هو السرّ الأعظم للشرّ: إنَّ الضحيَّة تصبح هي الملومة دومًا، على شيءٍ يُدعَى الشرّ، مرَّةً أخرى. وهكذا، تتمرَّغ الضحيَّة في الخراء دومًا. فالناس يتصنَّعون الرفق بالضحيَّة، ولكنَّهم لا يضمرون لها في سرائرهم إلَّا الاحتقار.

لطالما كانت الضحيَّة عصيةً على الخلاص.

أي مُحتقَرة.

يحبّ الناس الأبطال، لا الضحايا.

- 21 -

ذات أمسيةٍ من أمسيات 2015، وشهر إبريل في أواخره، في التاسع والعشرين من الشهر، أقرِّر الذهاب لمشاهدة معرضٍ فنِّيّ عن كاتبةٍ قدِّيسةٍ من كُتَّاب الأدب الإسبانيّ. المعرض مُقام في المكتبة الوطنيَّة بمدريد. أحسُّ جوعًا شديدًا. ما كدتُ آكل شيئًا. أدخل إلى القاعات المقام فيها المعرض الفنِّيّ، الحافل بتلالٍ من اللَّوحات التي سعى رسَّاموها إلى تقديم صورةٍ شخصيَّةٍ للقدِّيسة. ألاحظ أنَّ المرأة والوجه يختلفان باختلاف اللَّوحة. كما لو كُنَّ نساءً كثيراتٍ ولا أحد في آن. ليس هناك من يعرف وجهها، أو يذكر قسماتها. وما الرسَّامون الذين رسموا صورتها الشخصيَّة إلَّا عصابةٌ من المُزوِّرين. عيناها، شكل أنفها، وجنتاها، قسماتها، ما هي إلَّا قبضُ الريح. لا نعرف وجهها معرفةً قاطعة. ولذا، فقد يكون لها أيُّ وجه، أو لا وجه على الإطلاق. أولئك الذين رسموا صورتها، رسموها من خلال ما سمعوا عنها.

لا شيء هنا.

أُلقي نظرةً على مخطوطات كتبها: كومةٌ من المداد الهاذي، والخطّ المبعوث من الجحيم. قلَّما دار الحديث عن مادِّيَّة الكتابة، وإن كان ذلك أهمّ من التأثيرات الأدبيَّة أو تجلِّيات الرَّب. فعلى سبيل المثال: تختلف الكتابة باختلاف لوحة المفاتيح، وباختلاف الأدوات التي يستعين بها الكاتب، سواء أكانت شاشة لابتوب أم شاشةً كبيرة، شاشةً مستطيلة أم مُربَّعة، طاولةً مرتفعة أم طاولةً منخفضة، مقعدًا ذا دواليب أم مقعدًا من دون دواليب.. إلخ، إلخ.

لأنَّ مادِّيَّة الكتابة هي الكتابة، بل إنَّ سانت تريزا، في واقع الأمر، كتبَت بتلك الطريقة لأنَّ التعب كان يتسلَّل إلى يدَيْها من فرط ما غمسَت الريشة في الدواة، ما يفسِّر ذلك الخطّ الفوضويّ الوحشيّ الرَّديء الذي يشي بأنَّ صاحبته كانت تكتب على مضض. لو امتلكَت قلمًا «بيك»، لتبدَّل أسلوبها.

ولذا، فالرؤى التي أبصرَتْ فيها الرَّب كانت رؤى مادِّيَّةً لكتابتها.

الكتابة يدٌ تتحرَّك على ورقة، أو رقٍّ من الجلد، أو لوحة مفاتيح.

يدٌ يتسلَّل إليها التعب.

أن يكتب المرء نصًّا أو آخر، ذلك شيءٌ رهنٌ بالورق، واليد، والقلم، والريشة، أو الكمبيوتر، أو الآلة الكاتبة.

لأنَّ الأدب مادَّة، مثله كمثل كلّ شيء. الأدب كلماتٌ منقوشةٌ على الورق. جهدٌ بدنيّ. عَرَق. ليس الأدب روحًا. حسبنا انتقاصًا من شأن المادَّة!

كتب موسى عشر وصايا، لأنَّه تعب من فرط ما ضرب الحجر بالإزميل. فراح يتفصَّد عرقه، وأدركه الإعياء. كان من المُحتمَل أن يصل عدد الوصايا إلى خمس عشرة، أو خمس وعشرين. ولكنَّها ما دامت عشرًا، فالأمر يُعزَى إلى تلك الأوضاع المادِّيَّة، أوضاع الكتابة على الحجر، تلك الكتابة الشاقَّة العسيرة. يرجع التاريخ الغربيّ بأسره إلى المثاليَّة مرَّةً بعد أخرى، ولكنَّ أحدًا لم يتمهَّل وينظر إلى الأمور بطريقةٍ أخرى، ولاسيَّما بأبسط الطرق، تلك التي تستحضر المادَّة والواقع الفارغ.

أهتمّ بتلك المرأة، تلك القدِّيسة. قد يطلق عليها الكثيرون، إن شاؤوا، لقب «الأمّ». ربَّما كانت أمّ الجميع: ولكنْ ما الذي يعنيه هذا؟ أمن الجائز أن تكون هي أمِّي الميِّتة؟ الموت في كلِّ مكان، والأمَّهات أيضًا. يبتهل الناس لسانت تريزا، التي توحي بالتقوى، وبهذا المعنى تبدو شبحًا خالدًا. أيكون هذا الشبح أفضل من شبح أمِّي؟ مِن الناس مَن يبتهل إليها في هذه اللَّحظة، معترفًا بألمه، وتعاسته، طالبًا منها العون. وأولئك الناس يؤمنون بأنَّ هناك من يقف على الجانب الآخر، بأنَّ القدِّيسة تنصت إليهم، ولكنَّ أحدًا لا ينصت إليهم، وذلك شيءٌ عجيب: ملايين من الكلمات يُلقَى بها عَبْر ذلك الثقب الأسود في جدران أدمغتنا. أيستوي ذاك والحديث إلى أمِّي الميِّتة؟ كلَّا، لا يستوي. فأمِّي حاضرة، لأنِّي أنا هي.

تلك المرأة، التي يذكرها الناس الآن في القرن الخامس بعد مولدها، ميِّتة. إنَّها ميِّتة تُقدَّر تجربتها بمئات الأعوام. لا يستوي الموتى جميعًا: فالأقدميَّة عاملٌ يُؤخَذ بعيْن الاعتبار بين الموتى. كانت تلك المرأة تقضي يومها كاملًا وهي تنادي بالحبّ. كانت عاشقة، وفق ما أعتقد. وعاشَت في هذا البلد. أطالع سيرتها: وُلِدَت في الثامن والعشرين من مارس عام 1515، الأمر الذي يستوي وعدم الميلاد من الأساس. من المستحيل أن يكون لذلك العام البعيد معنى في 2015. مِن الوثائق والأعمال الأدبيَّة والأعمال التصويريَّة والكنائس والحصون ما يثبِّت أنَّ تلك الأرقام، 1515، قد تضمَّنَت أشخاصًا كانوا بالضرورة على قيد الوجود. منذ خمسمئة عامٍ خلَت، في مكانٍ قاحلٍ يُدعَى غوتارّيندورا، وُلِدَت طفلة، سُمِّيَت تريزا دي ثِيبيدا. تدور في خَلَدي خاطرةٌ غبيَّة من هذا القبيل: في عام 1515، لم يكُن نادي ريال مدريد ولا نادي برشلونة على قيد الوجود، قوَّتا الجذب، الكتلتان الجاذبتان في الحياة الإسبانيَّة. قد لا تكون خاطرة غبيَّة!

كانت سانت تريزا ترسي دعائم الأديرة. لو عاشَت في يومنا هذا، لسجَّلَت الأسطوانات وظهرَت صورتها على الأغلفة. أو لعلَّها كانت ترسي

دعائم أندية كرة القدم. أنا نفسي سانت تريزا: فالألم يجعلنا واحدًا. كانت تسمِّي الألم والطموح باسم الرَّب، أمَّا أنا فأسمِّيه X. على الأقل، كانت تعرف اسم طموحها، ورغبتها العظمى. أمَّا أنا فلا أعرف لذلك اسمًا.

لا أحد يعرف وجه سانت تريزا الحقيقيّ. لم يتمكَّن أحدٌ من التقاط صورةٍ فوتوغرافيَّةٍ لها. أمَّا أبي وأمِّي فقد التُقِطَت لوجهَيْهما صورًا فوتوغرافيَّة.

يجب عليَّ تمزيق تلك الصُّوَر، حتى يكون أبي وأمِّي وسانت تريزا على قدم المساواة.

لو اختفى نادي ريال مدريد ونادي برشلونة، لصارَت إسبانيا ثقبًا أسود. فجاذبيَّة إسبانيا تتمثَّل في اثنَيْن من أندية كرة القدم.

لطالما استهوَت أمِّي العطورُ الطيِّبة، وأبي أيضًا، فورثتُ عنهما تلك الذائقة، التي لا تعدو أن تكون في قرارة الأمر رغبةً في إبعاد ذلك التجسُّد المستقبليّ، تجسُّدِ فساد اللَّحم.

ننفر من الرَّائحة الكريهة، لا لأنَّها رائحةٌ كريهةٌ (فلا وجود للرَّائحة الكريهة)، بل لأنَّها الرَّائحة التي سوف نتنشَّقها متى سقط لحمنا في براثن العفن.

منذ أيَّامٍ كنتُ في بارباسترو، المدينة التي فيها عاش ومات أبواي. فكَّرتُ في الروابط بين الأفعال والأحداث، الكلمات والأحداث، التي أفضَت إلى طلاقي. إنَّ تلك المعلومة الموضوعيَّة القائلة بأنَّ والدتي لم تعرف بشأن طلاقي، لا تُعَدّ عرضيَّة. إذ شعرتُ وكأنَّ وحشًا هائلًا من وحوش ما قبل التاريخ قد دسَّ يده في أيَّامي وراح يتلاعب بها. ديبلودوكوس. تيرانوصور. فيلوسيرابتور. سبينوصور. غاليميموس. ترسُّباتٌ من سقفٍ بشريّ، ترسُّباتٌ كانت هناك على الدوام. وقائعُ رسولٍ منتحل، استحالة تنقية الأحداث، ما يُفضي إلى استحالة العيش في سلام.

لقد أخذني طلاقي إلى أمكنةٍ في الرُّوح البشريَّة ما كنتُ أفكِّر بأنَّ لها وجودًا قطّ، وأفضى بي إلى إعادة كتابة التاريخ، والتوصُّل إلى تأويلاتٍ جديدة لاكتشاف أميركا، أو اعتباراتٍ جديدة بشأن الثورة الصناعيَّة. وإذا طلاقي يُضرم النار في الزمن الماضي أو يرفعه حتى يجعل منه مقصلة إعدام، حيث تُعدَم ذكرى من الذكريات كلَّ يوم.

أدركتُ أنَّ العيش يستحقّ العناء حتى وإنْ لم يعِش المرء لشيءٍ غير السكوت.

شقَّ عليَّ الحديث إلى أولئك الذين لم يتعرَّفوا بوالدَيّ، وبذلك أعني أكثر الناس الذين كنتُ ألتقي بهم. كان أولئك يبعثون الحزن في نفسي.

رأيتُ في الهوْلِ بهجةً.

متى سمحَت لك الحياة برؤية زواج الهوْل بالبهجة، فأنت مُستعدٌّ للرحابة.

الهوْل أن ترى هيكل العالَم.

- 23 -

كم مرَّةً عدتُ إلى بيتي، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، فلم أنتبه إلى حضور أبي، ولم أدرِ ما إذا كان أبي في البيت أم لا! انشغلتُ بالكثير من الأشياء، وفق ما تراءى لي في حينه، أشياء لم يكُن من بينها تأمُّل أبي في صمت. والآن أشعر بالندم لأنِّي لم أتأمَّل حياة أبي أكثر ممَّا تأمَّلتها. مشاهدة حياته، أجل، ببساطة.

مشاهدة حياة أبي. كان من الواجب عليَّ مشاهدة حياته كلّ يوم، طويلًا.

ـ 24 ـ

بعد طلاقي، اشتريتُ شقَّةً صغيرة.

أدعوه مسكنًا، ولكنَّ فكرة المسكن في إسبانيا لا معنى لها. فلا وجود هنا سوى للشقق. لا وجود لغير كلمة «شقة». بعضها كبيرٌ وبعضها صغير، وهذا كلُّ شيء. إنَّ فكرة المسكن تنطوي على رفاهةٍ تفتقر إليها الثقافة العقاريَّة الإسبانيَّة. لم يرَ أبي ذلك المسكن الذي ابتعتُه يومًا. رحل منذ تسعة أعوام، منذ زمنٍ طويل، أطول ممَّا ينبغي. لم يرَ بيتَ عزلتي. أعني أنَّه لم يرَ حاضري المجيد. أعني أنَّه لا يعرف ما الذي صرتُ إليه. أعني أنَّ ابنه قد مات ـ الابن الذي عرفه ـ وحلّ محلَّه رجلٌ لا يعرف أحدٌ من أين جاء، رجلٌ مجهول. أسائل نفسي عمَّا قد يكون رأي أبي في تلك الشقَّة؟ الأرجح أنَّه ما كان لينتبه إليها. ذلك أنَّه في أواخر أعوامه ما كان ينتبه إلى أيِّ شيء. كان يهيم في أرجاء الحياة، في انتظار شيءٍ لا يعلمه أحد. قلَّما أعرب عن شكواه، غير أنَّه ما كان يشكو المرض، بل متاعب يوميَّة صغيرة. بدا وكأنَّه لا يذكر الأشياء. وكدأبه دومًا، لم يتحدَّث عن أبيه ولا أمّه. لم يتحدَّث عن حياته. بدا أبي وكأنَّما قد وُلِد من تلقاء نفسه.

كانت أمِّي تفعل بالمثل، فهي بلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل. وكأنَّه اتِّفاقٌ بينهما. متى أقرَّا ذلك الاتِّفاق؟ متى عبَّراً عنه؟

لم تتحدَّث أمِّي عن الماضي. لم تعرف بوجود الماضي. لم تفهم الزمن. وخلا ذهنها من التصنيفات التاريخيَّة، فكان ذلك ابتكارًا جماليًّا غريبًا من ابتكارات أمِّي، وكأنَّها قد استحدثَت ضربًا من معاني الخزي التاريخيّ. أكانت تشعر بالخزي من أبوَيْها؟ لم تتأمَّل والدتي يومًا في الحياة. كانت تفعل ما تفعل مدفوعةً بالغريزة، الغريزة التي حجبَت وراءها الإحباط. أحيانًا، كانت تذكر أمّها قائلةً «ماما»، فتنطقها بلا نبر، على عكس النُطق المُشدَّد الآخر [الدارج في الإسبانيَّة]. كانت تلك الطريقة في نطق كلمة «ماما» تميِّز اللَّهجة الضاربة بجذورها في قرى سومونتانو، في بارباسترو. في شبابها، كان لأمِّي حسٌّ بالحياة مفعمٌ بالبهجة، أرادَت الوفاء به. أذكر أن أبي وأمِّي كانا يخرجان في نهاية كلّ أسبوعٍ تقريبًا، وأنا في أوائل عهد الطفولة. أتخيَّل أنَّهما كانا يذهبان لتناول العشاء مع الأصدقاء. وأنا أتحدَّث عن منتصف الستينيَّات وأواخرها. كانا يتركانني في عناية الخالة ريمي. أحيانًا، إن فكَّرتُ بتركيز، تمكَّنت من رؤية المطاعم التي كانا يتردَّدان عليها بعين الخيال. أتخيَّل المفارش ذات اللَّون الأبيض، وحلوى الكريم كراميل، والشامبانيا المُقدَّمة في الكؤوس العريضة، التي عُرِفَت باسم الكؤوس المفتوحة، وما عادَت

تُستخدَم. الآن تُقدَّم الشامبانيا في كؤوسٍ تُعرَف باسم «الناي». لماذا لم تعُد الشامبانيا تُقدَّم في الكؤوس المفتوحة؟ لماذا صارَت تُقدَّم في الكؤوس المعروفة باسم الناي؟ أعتقد أنَّ ذلك رهنٌ بفكرة «الأناقة»، تلك الفكرة المُتبدِّلة المُتقلِّبة.

تُعرَف الكأس العريضة أيضًا باسم «پومپادور». زِد عليها الكأس المُتوسِّطة، التي يقع حجمها بين الپومپادور والناي، وتُسمَّى كأس التوليپا أو التوليپان. كان أبي وأمِّي يحتسيان الشامبانيا في كؤوس پومپادور، خلال الستينيَّات من القرن العشرين الآخذ في الابتعاد شيئًا فشيئًا، كؤوس پومپادور التي اختفَت، والتي كانت ترمز إلى الحفلات والبهجة.

سأندم على إحراق جثمانَيْهما ما حييت.

25

منذ أقلعتُ عن الكحول، صرتُ أجدني رجلًا لا أعرفه. أحيانًا أخدش يدَيّ، وأقرص أصابعي بأظفاري، كي أتحمَّل الضجر والخواء. إن لم تشرب، سارَت الأمور ببطء. كان الشرابُ سرعةً، والسرعة سرّ الخواء.

الطلاق يوقظ الشعور بالذنب، لأنَّ الذنب يمثِّل بروزًا على الأرض الملساء. إنَّ حياة الكائن البشريّ بنيةٌ مُؤلَّفةٌ من المواضع البارزة التي يسوِّيها الموت والزمان في آخر المطاف. ويكمن واحدٌ من تلك المواضع البارزة في الاكتشاف التالي: لا يستوي اثنان من البشر. وهناك تتولَّد الرَّغبة في الانحلال. تتباين النساء جميعًا. وذلك يمثِّل اعتداءً على الحبّ الأفلاطونيّ. لن أقول إنَّ الجنس عديم الأهمِّيَّة في عمري هذا، وكأنَّك تكتشف بغتةً أنَّ الجنس ينطوي على بُعْدٍ ذي طابع غير جسديّ، ولا يقتصر على الشهوانيَّة البحتة. إنَّه إيروس [7]، أجل، إنَّه أمرٌ تمليه الرُّوح، يقوم على اشتهاء تفاصيل ما تحبّ. إنَّه انجذابٌ إلى الجمال. فتمضي من الشهوة إلى الجمال عَبْر دربٍ حافلٍ بالأشجار الوارفة، حيث الأشجار تمثِّل أعوام عمرك، الأعوام التي أتممتَها.

ولذا، وقع التضارب بين الأفلاطونيَّة والانحلال في حياتي، شأنهما في حيواتٍ أخرى كثيرة. الأمر الذي طالما كان مؤذيًا. ولكنَّ الطلاق في ظلّ الرأسماليَّة يُختزَل في النهاية إلى نزاعٍ على تقسيم المال، لأنَّ المال أقدر من الحياة والموت والحبّ.

المال لغة الرَّب.

المال شِعْر التاريخ.

المال حسّ دعابة الآلهة.

الحقيقة أجدر ما في الأدب بالاهتمام... أن نقول كلّ ما يجري لنا ونحن على قيد الحياة، لا أن نحكي الحياة، وإنَّما الحقيقة. الحقيقة منظورٌ لا يلبث أن يتألَّق من تلقاء نفسه. يموت ويعيش أكثر الناس من دون أن يشهدوا الحقيقة. والشيء الهزليّ في البشريَّة أنَّها لا تحتاج إلى الحقيقة. فالحقيقة زينة، زينة معنوية.

يمكن العيش من دون الحقيقة، فالحقيقة شكلٌ من أشكال البهتان الأكثر وجاهة.

أخلط بين طلاقي وبين الترمُّل أحيانًا. أعتقد بأنَّ الترمُّل سيكون أسوأ. بطلاقك، يتحوَّل ماضيك إلى شيءٍ يصعب تذكُّره، أو إعادةُ تمثيله أو تحديده أو امتلاكه. فمن أجل إعادة بناء ذلك الماضي، لا بدَّ من الرجوع إلى الوثائق: الصور، والرسائل، والشهادات، والأوراق. وكأنَّها حقبةٌ تاريخيَّة تنقضي. فمن أجل حفظ الذاكرة، لا يسعنا إلَّا استدعاء المُؤرِّخين. ولكنَّ المُؤرِّخين كسالى، مستغرقون في النوم، ولا يرغبون في العمل. يريدون أخذ حمَّام شمس.

ربَّما كان الذنب طريقةً من طرائق الاستمرار. قد يكتشف كبار المذنبين من خلال ذنوبهم طريقةً للدوام!

ذات مرَّة، قلتُ في نفسي عسى أن يجعل اللَّه أو الحظّ موتي قبل موت زوجتي السَّابقة. عند الفراق، يصبح زمن العيش المشترك، نهائيًّا. الفراق بعد عامَيْن من العيش المشترك، على سبيل المثال، قد لا يكون مؤذيًا. أما الفراق بعد ثلاثين عامًا من العيش المشترك، فيعني انقضاء حقبةٍ تاريخيَّة، كعصر النهضة، أو التَّنوير، أو الرومانسيَّة. منذ وقتٍ يسير، قال لي الكاتب ألخاندرو غاندارا إنَّ التعافي من الطلاق يستغرق خمسة أعوام. أعتقد بأنَّه كان مُحقًّا: خمسة أعوام.

آلمني أشدّ ما آلمني تداعي العاطفة. تحضر في رأسي عباراتٌ كانت تقولها، ملؤها الطيبة. عند ذاك، عرفتُ أنَّ موت الصلة يعني في الواقع موتَ لغةٍ سرِّيَّة. تموت اللُّغة بموت الصِّلة. ولقد قالها الكاتب جوردي كارّيون في منشورٍ له على الفيسبوك: «كلَّما وقع اثنان في الغرام وتعاملا وتعايشا وتحابَّا، خلقا بذلك لغةً لهما من دون غيرهما. تلك اللُّغة الخاصَّة، الزاخرة بالمصطلحات المُستحدَثة والتصريفات والدلالات والمعاني المفهومة ضمنًا، لا ينطق بها إلَّا اثنان. غير أنَّها تبدأ في الاحتضار متى افترقا. حتى تموت وتشبع موتًا حين يلتقي كلٌّ منهما بزوجٍ جديد، وابتكرا لغةً جديدة، وتغلَّبا على الحداد الذي يعيش أطول من كلّ موتٍ. إنَّها ملايين من اللُّغات الميِّتة».

حتى أبي وأمِّي كانت لهما لغة. أكاد لا أذكر أبي وهو يتفوَّه باسم أمِّي. كيف كان ينطق اسمها، وكيف تبدَّلَت طريقته في نطق اسمها رويدًا رويدًا! بَيْد أنِّي أذكر شيئًا رائعًا: ابتكر أبي طريقةً في الصفير. كان صفيره نداءً سريًّا، لا يعرفه إلَّا أبي وأمِّي. شيفرة. حتى أنا يمكنني إطلاق ذلك الصَّفير، لا أذكر متى ولا كيف تعلَّمتُه، ولا من أين جاء به أبي. من خلال ذلك الصَّفير، كانا يتواصلان وهما يبحثان، أحدهما عن الآخر في الشارع، أو في متجر، أو وسط حشد من الناس، ولاسيَّما في مهرجان بارباسترو الكبير الذي يوافق مطلع

سبتمبر، حين تكتظّ الشوارع بالناس، وتخرج التماثيل العملاقة والدمى ذات الرؤوس الضخمة والعربات ومواكب الموسيقى إلى الشوارع. كنتُ أرتعد خوفًا من العمالقة. كان أبي، إن غابَت أمِّي عن عينَيْه، يطلق ذلك الصفير، فتعرف أمِّي أنَّه قريبٌ منها. كانا شابَّيْن آنذاك، يهتديان إلى اللِّقاء على وقع ذلك الصفير.

لم أعاود سماع ذلك الصَّفير قطّ، ولا حتى شيءٌ يدانيه.

- 27 -

أذكر أنِّي، وأنا في السادسة أو السابعة من العمر، كنتُ أعاني من المخاوف الليليَّة وأعجز عن النوم، فأجهش بالبكاء. عندئذٍ، كانت أمِّي تأتي إلى فراشي وتنام بجواري، أو تنام هي في فراشي وأنام أنا بجوار أبي. أمَّا الشيء الذي يتعذَّر تفسيره فهو الصلاة التي كانت أمِّي تتلوها قبل النوم، في مزيجٍ من الخرافات والمخاوف الليليَّة وآثار التَّعليم الدِّيني. ولكنِّي الآن أعرف أنَّ تلك الصلوات كانت تطرد أرواح الموتى الطامعين في ذلك القلب البريء، قلب الطفل المسكين. كما أعرف أنِّي كنتُ طفلًا على الدوام، بكلّ ما للأطفال من أنانيَّة. الأطفال المرغمون على أن يكونوا رجالًا لن يحملوا الذنب على عاتقهم أبدًا. كنتُ متى عرفت أنَّ والدي بجواري في الفراش، أشعر بالحماية ويسترخي كياني كلّه، وأدرك السَّلام والهدوء والسعادة، وأستغرق في السُّبات.

كان عمري سبعة أو ثمانية أعوام آنذاك، وعلى الرَّغم من ذلك، كنتُ أنام بجوار أبي. أعني، بجوار ميِّت. الآن بلغتُ من العمر ما يربو على الخمسين عامًا، وما زال هذا الميِّت في الفراش كلَّما أويتُ إليه.

لا يرحل.

إذا تجاوز عمرُ أيّ رجلٍ أو امرأةٍ خمسين عامًا، تحوَّل ماضيهم إلى سرّ، كَشْفُه ضربٌ من المحال. فلا يبقى في الإمكان سوى الوقوع في حبّ السرّ.

- 28 -

ينام أبي الميِّت بجواري، ويقول لي: «تعالَ، تعالَ سريعًا». الموتى وحيدون، يريدون منك الذهاب إليهم. ولكنْ أين؟ فمكانهم لا وجود له. لا يعرف الموتى أين هم. لا يعرفون لمكانهم اسمًا. ولكنَّ جثمان أبي هو كلّ ما أحتفظ به وأمتلكه في هذا العالَم. إنَّه معي. جثمانه يوجِّه كبرى المصائب في حياتي. جثمانه يحكم جثماني. وفي عتمة جثماني تتنفَّس عتمةُ جثمانه بقوَّة. يتحكَّم جثمانه في ضوء جثماني. جثمانه مُعلِّم يلقِّن جثماني تلك البهجة الباعثة على الحيرة، بهجة الاستمرار على قيد الوجود من داخل الجثمان، تلك المنطقة الأوليمبيَّة، منطقة دوري الأبطال، Champions League، منطقة المشاعر التي لا زمان لها ولا تاريخ، مشاعرنا الميِّتة التي ما زالت تثابر من دون هدف.

بينما أنا منصرفٌ إلى أيِّ عمل، يتمثَّل أبي فجأةً، من خلال رائحة، صورة، أو أيِّ شيء. عند ذاك، ينقبض فؤادي وأشعر بالذنب.

ها قد جاء يمدّ لي يده، وكأنِّي طفلٌ تائه!

- 29 -

ربَّما كان أبي وأمِّي ملاكَيْن، أو ربَّما حوَّلهما الموت إلى ملاكَيْن في عينَيّ. لأنَّ كلَّ ما رأيتُهما يصنعان في حياتهما قد اكتسب مدًى سحريًّا بعد الموت. لم ينشأ ذلك المدى حتى وفاة أمِّي، الذي أقفل الحلقة.

تقوم دعائم المسيحيَّة على حديثٍ لا ينتهي بين أبٍ وابنه. والطريقة الوحيدة التي وجدناها قادرةً على الصمود بحقٍّ هي التالية: الصِّلة بين أبٍ وابن، لأنَّ الأب يستدعي ذرِّيته، وتلك هي الحياة المُستمرَّة.

الأمر الذي ينطبق على طقوس الأنظمة الملكيَّة: الأب والابن. وكذلك على طقوس المجتمعات في القرن الحادي والعشرين: الآباء والأبناء. لا أكثر. كلُّ شيءٍ إلى اندثار، وحده ذلك السرّ باقٍ، سرّ إرادة الكينونة، سرّ الإرادة والرَّغبة في وجود شخصٍ آخر يختلف عنِّي: وعلى ذلك السرّ ترتكز دعائم الأبوَّة والأمومة.

ربَّما لم يكُن أبواي حقيقيَّيْن. رويدًا رويدًا، تتناقص أعداد القادرين على الشهادة بأنَّهما كانا حقيقيَّيْن. لا وجود لجثمانَيْهما، لأنَّ نيران المحارق الإسبانيَّة الحديثة قد التهمَتهما. أمَّا ولم يعُد الجثمان على قيد الوجود، تغدو فكرةُ قيامة الموتى، وتفتّق جانبَي الهيكل العظميّ عن أجنحةٍ ملائكيَّة، فكرةً عسيرة. إحراق الجثمان لا ردّ له، إذ يُستبعد احتمالُ انتشال الرفات.

وعلى الرَّغم من ذلك، فما زال هناك مَن رآهما ومَن يقدر على الشهادة بذلك. منذ بضعة أشهر، قالَت لي امرأةٌ في الستِّين من العمر تقريبًا: «كان أبواك أشهر زوجَيْن جذَّابَيْن في بارباسترو، كانا أسطورة». أجل، عرفتُ ذلك بالحدْس. ذاع صيتهما في الستينيَّات. صحيح، كلاهما كان جذَّابًا. في شبابهما، كان أبي رجلًا فارع القوام، وسيمًا، وأمِّي شقراء، بديعة الجمال. عرفتُ ذلك في طفولتي، أجل. ولذا، كنتُ أريد منهما أن يصطحباني في نزهة، حتى يرى الناس أنِّي ابنهما. أمَّا إذا خرجتُ برفقة أعمامي فكنتُ أشعر بالمعاناة، وبأنَّهم ليسوا على القَدْر نفسه من الوسامة. أعتقد أنَّها تلك هي أوَّل مرَّةٍ تعشَّش فيها الخُيَلاء الاجتماعيَّة داخل نفسي، الخُيَلاء التي تدفع الواحد إلى استعراض ملكيَّته لما يطمع فيه الآخرون. أردتُ من الآخرين أن يحسدوني، أن يحترموني، أن يثنوا عليَّ، لأنَّ أبوَيَّ كانا مُميَّزَيْن. أعتقد بأنِّي انتشلتُ شعورًا كان غارقًا في أعماق ذاكرتي الدفينة، لأنَّ تلك الرَّغبة المُفعمة بالخُيَلاء، تلك الرَّغبة في أن يراني الناس ممسكًا بيدَيْ أبي أو بيديْ أمِّي قد اختفَت منذ أمدٍ بعيد. عثرتُ على تلك الذكرى فتملَّكني الهوْل والدَّهشة، وكأنَّني عالِمُ جيولوجيا يشاهد استعراض تكوين الأرض منذ ملايين السنين، فيثبت له أنَّ ميلاد الأرض خالٍ من أيّ معنى. ليست هذه تفاهة الشرّ، على حدِّ قول حنة آرنت [8]، وإنَّما تفاهة المادة والذاكرة.

كانا جذَّابَيْن. كلاهما كان جذَّابًا. ولذا أكتب هذا الكتاب، لأنِّي أراهما.

رأيتُهما وكلاهما جذَّابٌ آنذاك، وهأنذا أراهما الآن وقد فارقا الحياة.

إن وسامة أبي وأمِّي خير ما جرى لي مدى الحياة.

كلّ إنسانٍ في مُستهَلّ حياته يشعر بالبهجة. إنَّها البهجة النابعة من الشباب، من زمن الغفلة الكبرى عن الفناء. أرى ذلك الرجل الظاهر في مركز الصُّورة الفوتوغرافيَّة، مستغرقًا في تأمُّل يدَيْه، أنيقًا، جامدًا في الزمن، وقد تجمَّد الوجود، وتردَّدَت أصداء لحظةٍ من لحظات اللَّذة البصريَّة:

يبدو ممسكًا بسيجارة، مستغرقًا، بمنأى عن الأحاديث المحيطة به. وقد تحلَّق رجالٌ ونساءٌ حوله. كلّ مَن في هذه الصورة قد رحل، بعد أن تساقطوا ـ واحدًا تلو الآخر ـ واحتضروا في المستشفيات أو راحوا ضحيَّة موتٍ مُفاجئٍ تلَته جنازة، وجرَت الدموع عليهم جميعًا، زاد الحزن أم نقص. ولكنَّهم جميعًا تعرَّفوا بأبي قبل أن يكون أبي، وتسنَّى لهم الحديث إليه بهدوء، وتمكَّنوا من الوقوف على السرّ الذي سيظلّ مستغلقًا عليَّ إلى الأبد. جميع المدفونين

في هذه الصُّورة قد كشفوا السرَّ، إذ وقعَت أبصارهم عليه، وجمعَت المعاملة بينهم وبينه. أمَّا أنا، فلم يسعني التَّعرُّف بأبي إلَّا بعد أن صار أبي. لو تعرَّفتُ به قبل ذاك، لتعرَّفت بعدم الحاجة إليَّ أنا نفسي، وتعرَّفت بعالَمٍ خالٍ منِّي. لو خلا العالَم منك لتمكَّنتَ من تذوُّقه بلذَّةٍ أكبر. أتتغذَّى الملائكة على تلك اللَّذة؟

إن لم يعرف أحدٌ أنَّك على قيد الحياة صار موتك أهوْن، فهكذا لا تُثقِل على أحدٍ بالحزن على موتك وبالأوراق والنحيب والجنازة والشعور بالذنب والشياطين. أَهْونَ ميتةٍ هي تلك التي يلقاها مَن غفل عن كونه على قيد الحياة.

الحياة إمَّا أن تكون اجتماعيَّةً وإمَّا أن تكون طبيعةً خالصة، وفي الطبيعة لا وجود للموت.

إنَّما الموت تفاهةٌ من تفاهات الثقافة والحضارة.

جميع المحبوسين في هذه الصُّورة الفوتوغرافيَّة لا يعرفون أن مصيرهم الموت بوضوح. ليس مِن الأحياء مَن يعرف ذلك قبل الموت. وإن كان هناك مَن يعرف، فهم أولئك الأحياء الذين يرون الموتى، من دون سواهم.

لا أدري في أيِّ عامٍ التُقِطَت هذه الصُّورة. ربَّما كانت ترجع إلى أواخر الخمسينيَّات، وفق حساباتي. ولقد وصلَت إلى يدَيّ بمحض الصدفة، فهي جزءٌ من مجموعة صورٍ شخصيَّة، لم تكُن في بيتي، بل أعطانيها أخي الذي تلقَّاها بدوره من مالك تلك المجموعة الشخصيَّة. لا تنبض الصُّورةُ برغبة أبي في الاحتفاظ بها، حتى إنَّه لم يذكرها قطّ. إنَّها صورة الأب قبل أن يغدو أبًا، صورة رجلٍ بلا أبناء ولا زوجة ولا جذور، صورة رجلٍ لا يمتّ لي بصلة. لم يسمح لي برؤيتها، ولم يقُل يومًا «سأحتفظ بهذه الصورة من أجل الأعوام الآتية، ربَّما تركتُها لأبنائي إن صار لي أبناء، وإن كنتُ لا أعتقد». إنَّه رجلٌ عازب، حرٌّ من أيِّ صلة قرابة. ولذا، فأنا لا أدري مَن ذلك الرجل، ولن يعرف أحدٌ مَن هو يومًا.

وأخيرًا، تتهرَّب هذه الصورة من صلة القرابة، وتتركنا طليقَيْن. لطالما سعى جميع الآباء والأبناء إلى انتهاء صلة القرابة، وسقوط ذلك القيْد. إنَّه السَّعي إلى الحرِّيَّة. ولكنَّ الموت في النهاية هو الذي يفتِّت كلّ صلات القرابة، وكلّ صلات الرَّحم الثقيلة، مهما كان مقدار الحبّ الذي تنطوي عليه تلك الصِّلات. إنَّ صورة الأب قبل أن يكون أبًا تُحيلنا إلى لحظةٍ مشهودةٍ خاليةٍ منِّي، وأشعر ببهجةٍ عارمة لأنَّ تلك اللَّحظة قد خلَت منِّي، لأنَّ ذلك الرجل الظاهر في الصُّورة، مستغرقًا في تأمُّل يدَيْه، وقد ارتدى بدلةً بصفَّيْن من الأزرار، ووضع منديلًا في طيّة السترة، ما زال لا يبحث عنِّي، وما زالَت حياته تجري من دون حياتي.

يبدو مُتوحِّدًا في تلك الصُّورة، وعلى الرَّغم من ذلك فهو يتصدَّر المشهد. ولكنْ، ماذا يفعل؟ لم يعرف إلَّا في تلك اللَّحظة، لم يعرف ماذا كان يفعل إلَّا في تلك اللَّحظة. وفيمَ كان يرغب آنذاك؟ ما الشيء الذي كان من شأنه أن يُدخِل عليه السَّعادة المطلقة في تلك اللَّحظة؟

إنَّما الأبُ ـ قبل أن يصير أبًا ـ قوَّةٌ تسكن هذا العالَم وتبشِّر بوصول الابن، تبشِّر بوصولك أنت، ولكنَّك لم تصل بعد، وهنا تكمن الرَّوعة: لم تصل بعد، وهكذا تتَّسع هذه الصُّورةُ لاحتمال ألَّا تصل أبدًا. إنَّه احتمالٌ عظيمٌ في جماله، عظيمٌ في حسنه.

أيمكنك أن تتخيَّل عالمًا خاليًا منك، لا يترقَّبك فيه أحد، على الرَّغم من وجود أبيك؟

إنَّ أعظم أسرار المرء هو حياة الرجل الذي جاء به إلى العالَم.

التُقِطَت هذه الصُّورة حين لم أكُن ضروريًّا. ولذا أعشقها، لأنَّ فيها سرّي: فأنا لم أكُن حينذاك، بينما كان أبي رجلًا لا يرغب في الزواج ولا الإنجاب آنذاك. لا يأخذ الأمر بعيْن الاعتبار. تُلقَى عليه دعاباتٌ بهذا الشأن، الدعابات التَّقليديَّة، «دعنا نرَ من هي تلك التي سوف توقِع بك!»، أو «وأنت، متى تتزوَّج؟»، ولكنَّه لا يلقي للأمر بالًا. يفرض هيمنته على الحانة. إنَّها حانةُ الحياة، التي يقف في مركزها.

لستُ هناك. وأشعر بالراحة.

أحاول العودة إلى سلام العدَم.

بعد أعوامٍ من التقاط صورة الحانة، وجد لنفسه زوجةً، ثم وُلِدتُ أنا. لا بدَّ أنَّ أبي قد عرَف علَّةَ وجودي، فأنا ابنه (وما زلت ابنه حتى وإن لم يعُد كائنًا حيًّا)، ولكنَّه أخذ معه علَّة وجودي إلى مملكة الموتى. كلانا أحبَّ الجبال: كلانا أحبَّ تلك القرى الضائعة في جبال البرانسِ بمنطقة أويسكا، في إسبانيا مُتأخِّرة جافية، حيث كان ضَياعُ تلك القرى يُلطِّف من ضَياعنا. الثلوج، الصخور العالية، الأشجار التي لا ترتوي، الشمس المفعمة بالغموض، الأنهار التي تشقّ الوديان، الجبال الباقية في مكانها أبدًا، الصمت الذي لا يكسره شيء، لامبالاة الطبيعة، ذلك ما استهوانا. استهوانا جمود الجبال، «حضورها العابر». فالجبال حاضرةٌ حضورًا عابرًا، وليسَت موجودةً على الدوام. حياتنا هي الأخرى كانت حاضرةً حضورًا عابرًا. كان وجود أبي إقرارًا بسموِّ الحضور العابر على الوجود المُستمِرّ.

كُنَّا معًا، ومن هنا ينبع كلّ شيء، من كوننا معًا. كنتُ مع أبي طوال ثلاثةٍ وأربعين عامًا من حياتي. بعد ذلك، أمضيتُ عقدًا من الزمان من دونه، وتلك هي كبرى المشكلات المعنويَّة في حياتي: العقد الذي أمضيتُه على قيد الحياة ولم أتأمَّل خلاله أبي.

كان المسيح يطلب التأمُّل من أبيه دومًا. وكَوْن روايةِ يسوع المسيح مِن أكثر الروايات مبيعًا لا يُبطِل روايتي أنا.

كلّ ما أتى به المسيح في الحياة جرى تحت بصر أبيه. لو لم يتأمَّل أبوه حياته، لكانت حياة المسيح زائفة. أبوك يُضفي معنًى ومغزًى على كلّ المدن الصناعية، والطرق السريعة، والمطارات، ومراكز التسوُّق، ومواقف السيَّارات الواقعة تحت الأرض، والطُّرق الدائريَّة، والجادات، والتجمُّعات السَّكنيَّة، وغرف الفنادق المأهول بها هذا العالَم الزائف الذي نعيش فيه.

ربَّما كانت المساحة الإنسانيَّة الوحيدة كنيسةً رومانيَّةً أو بيت العائلة: فكلاهما واحد.

تكثَّف كل شيءٍ في اسمٍ واحد، اسم مكان: أورديسا. لأنَّ أبي كان مُتيَّمًا حقًّا بوادي أورديسا في جبالٍ البرانس، ولأنَّ في أورديسا جبلًا شهيرًا بديع الجمال يُدعَى الجبل الضائع (Monte Perdido).

فأبي ضائع، ذاهب، أكثر من كونه ميتًا. صار أبي جبلًا ضائعًا.

تلاشى أبي. إنَّ ما أقدم عليه أبي عملٌ من أعمال التلاشي. أذكر جيِّدًا: كان يرغب في الذهاب. الهروب. ولَّى أبي هاربًا من الواقع.

وجد بابًا، فرحل.

ـ 33 ـ

الطاولة التي أكتب عليها غارقةٌ في الغبار. ونظرًا لأنَّها من زجاج، يبدو عليها انعكاس الغبار وصورته تحت الإضاءة. وكأنَّ الغبار يتزوَّج الأشياء في هذا البيت. يتراكم الغبار على الحواف المُذهَّبة لآلة تحميص الخبز، هناك أيضًا يظهر الغبار. مِن الأمكنة ما يعجز فيه الغبار عن التخفِّي، وفي تلك الأمكنة يمكن القضاء عليه، وطمسه، ومحوه من على وجه بيتي. لا أشعر بأهليَّتي ولا قدرتي على تنظيف كلّ هذا الغبار، الأمر الذي يبثُّ في نفسي اليأس، ويفضي بي إلى خواطر موسوسة عن البؤس. يتراكم الغبار حتى على مُجفِّف المناشف داخل الحمام، وهناك تتَّحد الحرارة بالغبار، في زيجةٍ قائمة على المصلحة، شأنها شأن زيجات الملوك في القرن السادس عشر، تلك التي أرسَت دعائم الحضارة الغربيَّة.

لن آلف الفقر ما حييت. بل إنِّي أطلق على الفقر اسم «الهجران». خلطتُ بين الفقر والهجران: لأنَّ كليْهما له الوجه نفسه. ولكنَّ الفقر حالة معنويَّة، معنًى تكتسبه الأشياء، طريقةٌ غير ضروريَّة من طرائق الأمانة. الفقر تخلٍّ عن المشاركة في نهب العالَم، هكذا أراه. وقد لا يكون بدافع الصلاح ولا الأخلاق ولا أيّ مُثُلٍ عليا، وإنَّما بسبب العجز عن النهب.

لم ننهب العالَم، لا أنا ولا أبي. بل كُنَّا بهذا المعنى راهبَيْن في رهبنةٍ مجهولةٍ تعيش على الصدقة.

- 34 -

لم أعاقر الشراب منذ أمدٍ بعيد.

خلتُ أنَّني لن أفلح في ذلك، ولكنْ هأنذا قد أفلحت. في بعض المناسبات، أشعر برغبةٍ جارفة في شرب كأسٍ من البيرة، أو كأسٍ من النبيذ الأبيض البارد جدًّا. كان الشراب يقتلني، ويجتذبني إليه قهرًا، ماضيًا نحو النهاية. ثم بدر منّي ردّ فعل. والآن ما زلتُ أعاني، غير أنّي لا أعاقر الشراب.

أسرفتُ في الشراب، واحتُجِزتُ في المستشفى مرَّتَيْن. كنتُ أسقط على قارعة الطريق، فتحضر الشرطة.

كلُّ مُدمن كحول يصل إلى لحظةٍ يجب عليه فيها الاختيار بين الاستمرار في الشراب أو الاستمرار في الحياة. مسألة اختيارٍ لغويٍّ بين كلمتَيْن: فإمَّا الشراب وإمَّا الحياة. ولكنَّك في النهاية تحبّ حياتك حبًّا جارفًا، مهما كانت بائسة وغير مستساغة. بعض الآخرين لا يفلتون من قبضة الشراب، فيقضون نحبهم.

في قبول الشراب موتٌ، وفي رفضه موت. مَن شرب كثيرًا عرف أنَّ الكحول أداةً تكسر قفل العالَم. تسمح لك برؤية كلّ شيءٍ أفضل حالًا، هذا لو استطعتَ الإفلات من قبضة الشراب لاحقًا، طبعًا.

كان الشراب عندي أهمّ من العيش، كان هو الفردوس.

فالشراب جعل العالَم أفضل حالًا، الأمر الذي لن يتبدَّل أبدًا.

أذكر يومَ وافقَت إحدى الجهات المصرفيَّة على طلب القرض العقاريّ الذي قدَّمتُه من أجل الحصول على الشقَّة، بعد طلاقي. أذكر أنّي سُئِلتُ عمَّا إذا كنتُ أتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدة، فأجبتُ بالإيجاب. خرجتُ من البنك، بعد الموافقة على طلب القرض، فذهبتُ إلى حانةٍ قريبة، والساعة تشير إلى الواحدة والنصف أو الثانية ظهرًا. وفي تلك الحانة، رحتُ أشرب بلا هوادة. شربتُ نبيذًا. فغمرَتني سعادةٌ جارفة. خرجتُ من الحانة ومررتُ من خلف مقرّ البنك على وجه التَّحديد، وهناك، في إحدى الساحات، سقطتُ على الأرض بلا حراك، غائبًا عن الوعي بجوار طلب القرض العقاريّ الذي وافق عليه البنك. جاءت الشرطة كي تأخذني، لأنَّ هناك من يتَّصل بالشرطة دومًا. أفقتُ في المستشفى، وحين عدتُ إلى وعيي، هناك، على فراش قسم الطوارئ، تساءلتُ أوَّل ما تساءلتُ عمَّا إذا كان البنك سوف يسحب القرض العقاريّ، وإن كان مُوظَّفو البنك قد رأوني أسقط على الأرض بلا حراكٍ، مخمورًا حتى

النخاع. تلك هي القشَّة التي أفاضَت الكأس. وإن كان الأمر ذا طابعٍ هزليّ، يحمل بصمتي الغريبة، وحسّي الكوميديّ الدائم، الإرث الذي أخذتُه عن أمِّي، التي كانت تأتي بمثل هذه الأمور.

ها هي ذي أمِّي الراحلة تشاهد مسرحي المميت، استعراضي الكوميديّ. لا أدري إن كان ابناي سوف يُحبانني بقدر ما أحببتُ أبي وأمِّي. دعوني أسجِّل هذا التساؤل العابر، العبثيّ، الذي يراودني في هذه اللَّحظة، وأنا أتنزَّه في أنحاء ثاراغوثا كيفما اتَّفق. افتتنَت أمِّي بهذه المدينة، لأنِّي كنتُ أسكن على مقربةٍ من مركزٍ تجاريٍّ آنذاك. وهي شغوفةٌ بالمتاجر، شأنها في ذلك شأني. أحبَّت أمِّي متاجر العطور. ولقد خُضنا أكثر من جدالٍ حادّ، إذ كانت تذهب إلى أحد متاجر العطور في ذلك المركز التجاريّ، وتشتري كْريمات بقيمة ثلاثمئة يورو، أُضطرّ إلى تسديدها لاحقًا أنا وأخي. عجزَت أمِّي عن فهم ما يجري. فلماذا ربَّت ابنَيْها ما دامَت لا تملك شراء ذلك الكْريم! وكانت على صواب في حقيقة الأمر. لم نكُن قد نجحنا في الإفلات من الطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا. بل إنَّنا على الأكثر، سافرنا من الطبقة الدنيا إلى الطبقة المُتوسِّطة.

أحيانًا، يخطر لي أنَّ الفقر المدقع أفضل. لأنَّك ما دمتَ من الطبقة الدنيا، فالأمل باقٍ أمامك. كَوْنك شحَّاذًا يعني أنَّك قد أوصدتَ الباب في وجه الأمل. الأمر الذي ينطوي على قَدْرٍ من الشغف.

أفقتُ وأنا لا أزال مخمورًا في قسم الطوارئ بعيادة كيرون التي أخذَتني إليها الشرطة. كنتُ يائسًا، وأعاني من فجوةٍ في الذاكرة. لم أدرِ ماذا جرى. ولم يشغلني سوى أمر مدير البنك، الذي وافق لتوِّه على طلب القرض العقاريّ المزمع سداده على مدى ثلاثين عامًا، خشية أن يكون قد رآني وأنا أسقط مخمورًا على قارعة الطريق بعد ساعتَيْن من توقيع الطلب. طبقًا لحساباتي، فهو لم يرَني. أعتقد أنِّي قد وقَّعتُ طلب القرض العقاريّ قُبَيْل الثانية مساء، وسقطتُ بلا حراك في الرابعة تقريبًا، أو بعد الرابعة بقليل. ولكنَّ مُوظَّفي البنوك يعملون طويلًا، وربَّما خرجوا في وقتٍ مُتأخِّرٍ يومذاك. علقتُ في تكهُّناتٍ ذهنيَّةٍ محاولًا التحقُّق من ساعة خروج مُوظَّفي البنوك.

قابلَتني الطبيبةُ رئيسةُ قسم الطوارئ باحتقار، إذ لم أكُن مريضًا، بل مخمورًا يثير الاشمئزاز. أرادَت منِّي المغادرة في الحال، وأنا ما زلتُ أعجز عن الوقوف على قدمَيّ، وأتقيَّأ ما في جوفي. نظرتُ إلى القيْء، فوجدتُه نبيذًا خالصًا. قالت لي المُمرِّضة إنِّي تقيَّأتُ لترًا من النبيذ. فكَّرتُ في شربه مرَّةً أخرى، فهو نبيذٌ بُعِثَت فيه الحياة، نبيذٌ حيٌّ، حقيقيٌّ، طيِّب، من الممكن تناوله مرَّةً أخرى، وكأنَّه قد خرج من القنينة، لا من جوفي. غضبَتْ رئيسة قسم الطوارئ منِّي لأنِّي لم أنصرف. قالَت إنِّي أضايق باقي المرضى وأزعجهم. كان بجواري كثيرٌ من كبار السنّ. قلتُ لتلك المرأة إنَّ مُنظَّمة

الصحَّة العالميَّة تصنِّف إدمان الكحول مرضًا، ولذا يجب عليها أن توفِّر لي المعاملة التي تليق بمريضٍ، لا بمُنحَلّ، لا «بمُنحرِف ابن عاهرة». فطلبَت منِّي الانصراف، لأنِّي لا أعاني من أيّ شيء، ولستُ مريضًا.

حاولتُ الاستقامة في جلستي، فعاجلَتني دفعةٌ جديدةٌ من القيْء، غير أنِّي لم أتقيَّأ في الدلو تلك المرَّة، وإنَّما على امرأةٍ عجوز بجواري. شتمَتني الطبيبة. فقلتُ لها إنَّها هي الملومة، ثمَّ طلبتُ تقديم شكوى. وإذا بي أغدو أنا الموبوء في قاعة الطوارئ. أخذ الجميع ينظر إليَّ شزرًا. في مُخيِّلتي أنَّ تلك هي المعاملة التي يلقاها مدمنو الكحول في إسبانيا. رحت أعتذر إلى المرأة العجوز، حتى أدركتُ فجأةً أنِّي أحدِّث نفسي. كانت المرأة ميِّتة. «لا تشغل بالك، فهي لا تسمعك»، هكذا قالَت لي المُمرِّضة. «اذهب، الآن صار في وسعك الذهاب».

عدتُ إلى بيتي وتناولتُ ثلاثة أقراص من Tranxilium/15. شعرتُ بالغمّ، واليأس، والذعر، وبالموت من الداخل. ثمَّ استغرقتُ في النوم. أفقتُ في الثالثة مصابًا بنوبة هلعٍ لن يسعني وصفها، فتناولت ثلاثة أقراصٍ أخرى من Tranxilium/15، وعدتُ إلى النوم.

في التاسع من يونيو عام 2014، أقلعتُ عن الشراب.

- 35 -

يجب عليك الذهاب إلى مكانٍ آخر من أجل الإقلاع عن الشراب. الخير والشرّ من أفضل القصص الخياليَّة تأليفًا في حضارتنا. فلا الخير له وجود، ولا الشرّ. فكَّرتُ في فوضويَّة القلب، هناك حيث يتبخَّر الخير والشرّ، وتعود الحياة بلا سمات. وهكذا، استقللتُ سيَّارتي وذهبتُ إلى الجبال. عبرتُ الحدود مُتَّجهًا إلى فرنسا، عَبْر مرفأ سومبورت.

لقد تجمَّد الزمن بالقرى الفرنسيَّة. مَن عرَّج على قرى أوردو وبِيدو ولِسْكون، وقاد سيَّارته عَبْر تلك الطرقات، عرف أنَّ تلك الأمكنة ما زالَت على حالها منذ خمسين عامًا. هناك، في تلك الوديان، وديان البرانس، رأيتُ بهتان الحياة الاجتماعيَّة، رأيتُ الأنهار في أوج الذوبان، في شهر يونيو.

دخلتُ إلى حانةٍ في لِسْكون، فرأيتُ بعض الناس يشربون البيرة.

ودخلتُ إلى فندق في كانفرانك، فرأيتُ بعض الناس يشربون النبيذ.

أمَّا أنا، فكنتُ أتناول القهوة بالحليب أو المياه الغازية، وأستغرق في النظر إلى المياه الغازيَّة والفقاعات داخل الكوب.

متى أمسكتَ عن الشراب طالت الأيَّام، وتثاقلَت الأفكار، واستغلقَت الأمكنة. متى أمسكتَ عن الشراب ما عدتَ تنسى شيئًا في حجرات الفنادق، أو تخدش السيَّارة، أو تكسر المرايا الجانبيَّة عند رَكْن السيَّارة، أو تُسقِط الهاتف المحمول في المرحاض، أو تخلط بين وجوه الناس!

رحتُ أتوغَّل في الغابات. تلمَّستُ الحياةَ من جديد. سافرتُ وصولًا إلى أورديسا، وهناك مكثتُ أتأمَّل الجبال. رأيتُ الأخطاء التي ارتكبتُها في حياتي بوضوح، وغفرتُ لنفسي ما وسعني ذلك، وإن لم أغفر لنفسي كلّ شيء. كنتُ لا أزال في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت.

الشيخوخة مستقبلنا. نُقنِّعها بكلماتٍ من قبيل «الوقار»، و«الرصانة»، و«الوفاء»، و«الحكمة»، ولكنْ أيّ مُسِنٍّ على أهبَّة التخلّي عن تلك المسمَّيات مقابل أن يصغر خمسة أعوام، أو حتى خمسة أشهر. لم تقبل أمِّي الشيخوخة قطّ. لا أدري أيَّ صنفٍ من صنوف المُسنِّين سوف أكون، ولا يشغلني الأمر إلَّا قليلًا. الطبيعيّ أن أفارق الحياة قبل بلوغ الشيخوخة. يموت الناس دومًا، جميعنًا نموت في خاتمة المطاف. وهكذا، يثأر جميع الخائبين على وجه الأرض، وجميع المعوزين، وجميع الأمِّيِّين، إذ يأخذون بالثأر مِن أولئك الذين يكدِّسون النجاح والسُّلطة والمعرفة والثقافة والحكمة!

تضعنا الشيخوخة على قدم المساواة.

إنَّ مشاهدة ذلك الاستعراض شيءٌ مُسلٍّ: فهو خالٍ من المحتوى الأخلاقيّ، دع عنك المحتوى الدِّينيّ. إن هو إلَّا استعراضٌ عصيٌّ على التوقُّع، مُحفِّزٌ جدًّا، ومُدهشٌ جدًّا. يقضي العالَمُ والطبيعةُ على الضواري التي خلقاها، جزافًا. يطوِّقنا الحاضرُ، بقدرته العنيفة على إقناعنا بأنَّ الحياةَ مُتَّسقة. لا بدَّ من تقدير جهود الزمن الحاضر، ومساعيه الحثيثة إلى إضفاء السِّمَة الحضاريَّة. فهذا ما نملكه. وإن كُنَّا نملك أشياءَ أخرى: كاللَّوز. أعشق اللَّوز. زد على ذلك شيئًا أدعى إلى الحَيْرة: زيت الزيتون. فزيت الزيتون يجعلني أميل إلى تعظيم الحاضر.

المادَّة ولا شيء سواها.

أقصد أنِّي أذكر زيت الزَّيتون كلَّما حضر طيْف أمِّي إلى ذاكرتي.

ربَّما كان زيت الزيتون هو المادَّة العضويَّة الأوثق صلةً بجسد أمِّي. كانت أمِّي تقضي وقتها كاملًا في الطهو. وما دامت تقضي وقتها كاملًا في الطهو، فأيُّ شيءٍ قد يخطر على البال؟ الطحين؟ الخبز؟ البيض؟ الخضروات؟ الأعشاب؟ اللُّحوم؟ الأرز؟ المرق؟ السمك؟

كلَّا.

بل زيت الزيتون.

لطالما عاشَت أمِّي محاطةً بزيت الزيتون.

ولقد أورثَتني ذلك الإيمان السرّيّ بزيت الزيتون، ذلك الإيمان الذي لم يُعرَب عنه قطّ. أعتقد بأنَّ زيت الزيتون ثقبٌ دوديّ، فجوةٌ زمنيَّة، تحملني

مباشرةً وتضعني بجوار أول أسلافي، الذي ينظر إليَّ عارفًا من أكون. يعرف أنِّي في حاجةٍ إلى الحبّ، حبِّ واحدٍ من أسلافي.

لا أعرف السَّبب الذي جعلني أنظر إلى شيخوخة البشر بذلك القَدْر من الازدراء.

متى صرتُ شيخًا هرمًا، سأرغب في حبِّ الآخرين، وعند ذاك، سوف يذكر أحدهم كلماتي هذه. ولكنْ شتَّان بين الكلمات الواردة في كتاب وكلمات الحياة، وفق ما أرى.

محتوى الكتاب ومحتوى الحياة حقيقتان متباينتان، مع أنَّ كلتَيْهما حقيقة.

ومعًا تؤلِّفان أكذوبةً واحدة.

- 37 -

عمَّدَت أمِّي العالَمَ، وكلّ ما لم تسمّه أمِّي يبدو لي مصدر تهديد.

خلق أبي العالَمَ، وكلّ ما لم يقرّ به أبي يبدو لي خاويًا، غير آمن.

ولأنِّي لن أسمع صوتهما مرَّةً أخرى ما حييت، أمتنع أحيانًا عن فهم اللُّغة الإسبانيَّة، وكأنَّما الإسبانيَّة قد احتضرَت بموتهما، وصارَت الآن لغةً ميِّتة، شأنها شأن اللَّاتينيَّة.

لا أفهم لغةَ أحدٍ، لأنَّ لغةَ أبوَيّ ما عادَت تُسمَع في هذا العالَم.

وهذه طريقةٌ من طرائق الحِداد.

أتناول قرص Espidifen لتسكين الصداع. وطبعًا، أظنّ بأنَّ الصداع الذي أحسّه عَرضٌ من أعراض ورمٍ في المخ، يشقّ طريقه داخل جسدي؛ ورمٍ قاتلٍ لن يسعني التَّعرُّف به أبدًا؛ ورمٍ يشبه الصخرة أو النيزك، حيث يتكثَّف ماضيَّ كاملًا وحياتي كاملةً؛ ورمٍ سوف يميط اللثام عن مشاهدَ وفصول مُحدَّدة في حياتي بمُجرَّد فحصه وتحليله ودراسته؛ ورمٍ تتبدَّى فيه وجوهُ كائناتٍ بشريَّة، وجوهُ أفراد أسرتي، أصدقائي، زملائي في العمل، أعدائي، وجوهُ كائناتٍ مجهولة التقيتُ بها؛ ورمٍ تتبدَّى فيه مدنٌ، أمورٌ عشتُها بلا أدنى مغزى؛ ورمٍ فيه مُتَّسعٌ لهذا الكتاب الَّذي أكتبه؛ ورمٍ هو عملٌ فنّيٌّ عظيمٌ تؤلِّفه بما لك من جسدانيَّة وروحانيَّة، سيقتلك في النهاية، ويقدِّم لك مفاجأةً سارَّة مُؤدَّاها أنَّه هو جميع ما فتَّشتَ عنه، ورغبتَ فيه وكتبتَ عنه، ورمٍ هو في حدِّ ذاته شبه جزيرة إيبيريا التي تؤلِّف بلدًا آخر يُدعَى إسبانيا، وكأنَّنا أمام وضع خارطةٍ بديلةٍ للتاريخ؛ ورمٍ جديرٍ بالإعجاب والحبّ. وهأنذا، على رجاء أن يظهر الورم ويخلق فضاءً كاملًا من السرد الجديد عن حياتي، حيث تندرج، بطبيعة الحال، تلك اللَّحظة التي أقرع فيها بابًا أبيض، هو باب رئيس قسم الأعصاب في أحد مستشفيات مدريد، فيتمثَّل أمامي رجلٌ جالسٌ في الخلفيَّة، يداه على الطاولة، يطلب منِّي الدخول. ويشتمل الورمُ على كلمات ذلك الرجل، كلماته التي تحدِّثني عنه بدقَّة، عن الورم ذاته، كلماتٍ تبعث حياةً خارجيَّة لتلك الكتلة، بكتيريَّةً كانت أو فيروسيَّة (سيَّان)، وفي ذلك الورم مُتَّسع للمشهد حيث أبدو جالسًا في ركنٍ من أركان الفراش، مُتأمِّلًا في الكلمات التي أدلَى بها اختصاصيّ الأعصاب مُتحدِّثًا عن ذلك النتوء الأسود الذي يندرج فيه هذا المشهد، كما يتَّسع الورم للمشهد حيث لا يزال الورم مُتشبِّثًا برأسي وإن انقطع عنه الغذاء تمامًا، وإذا هو الذي يتملَّكه الفزع من اختفائه الآن، بعد أن هجر لتوِّه البيتَ الذي كان يمدّه بالغذاء.

في وسواس المرض جمالٌ، لأنَّ كلّ كائنٍ بشريّ، بعد أن يتجاوز منتصف العمر، يكرِّس وقته لتوهَّم صنوف الأمراض التي سوف تمحوه من العالَم (لعلَّه ينصرف إلي ذلك في اللَّيل، قبل أن يخلد إلى النوم، أو بينما هو في المواصلات العامَّة، أو بينما هو جالسٌ في عيادة الطبيب). يؤلِّف القصص وينسج خيوطها، قصصًا عن موته تتراوح ما بين السرطان والنوبة القلبيَّة، ما بين الموت المفاجئ والشيخوخة التي لا تنتهي.

لا يدري أحدٌ بأيّ طريقةٍ يموت. أمَّا التوجُّس الذي يعترينا فلا يعدو أن يكون كآبة. ولا بدَّ من عودة تقاليد الكآبة إلى العالَم. إنَّها كلمةٌ ما عاد

يستخدمها أحد. والآن، صار يُطلَق على الكآبة اضطراب الوسواس القهريّ.

كانت أمِّي تشعر بالكآبة، وعاشَت مدى الحياة غارقةً في المياه الورديَّة، مياه اضطراب الكآبة.

ماتَت أمِّي وهي لا تدري أنَّها تموت. لا تدري أنَّها قد ماتَت. وحدي أعرف. أمَّا هي فلا تعرف.

- 39 -

حين أقود سيَّارتي، يبدو إلى جواري. أسمع «الكليك» آتيًا من حزام الأمان، من المقعد المجاور لمقعد قائد السيَّارة. تروقني قيادة السيَّارة في أرجاء مدريد. لم نحضر معًا إلى مدريد قطّ. كان سيعشق المجيء معي إلى مدريد، أعرف ذلك. ليت أبي يعود من بين الأموات ويتمكَّن من الجلوس بجواري: لو عاد لقضيْنا يومنا ونحن نقود السيَّارة في أرجاء مدريد.

استهوَت مدينةُ مدريد أبي. كثيرًا ما حدَّثني عنها. ولذا أُحبُّ مدريد، من أجله.

ما كُنَّا لنتجاذب أطراف الحديث، لو عاد وجلس إلى جواري، بينما أقود السيَّارة.

بل كان أبي، على الأكثر، سيكتفي بقوله «حذارِ، أحدهم قادمٌ من الجانب الأيسر»، أو «في هذا الشارع اتِّجاهٌ محظور»، أو «أرأيتَ هذا الأحمق الذي تقدَّم من الجانب الأيمن من دون استخدام الإضاءة المُتقطِّعة!»، أو «تقود السيَّارة بمهارةٍ فائقة. الطقس جميل»، أو «كان لي صديقٌ في مدريد، خيَّاط، لعلَّه قد فارق الحياة، كان يُدعَى روفينو».

روفينو، أجل، ليتني أعرف أين يعيش! فأتمكَّن من الذهاب إلى بيته في مدريد، وهناك أتقدَّم بطلب لجوءٍ سياسيٍّ من الموت، من الهجران.

كويتُ ثيابي. كويتُ قميصَيْن. كان لأبي الكثير من البدلات، لا أعرف ماذا جرى لها. كان يحتفظ بها في خزانةٍ حمراء، لعلَّها انتهَت في مكبّ النفايات. لماذا كانت تلك الخزانة حمراء؟ لا بدَّ أنَّها كانت فكرةً من أفكار أمِّي، هذيانًا زخرفيًّا. حسنًا، لعلَّها كانت سعيدةً يومَ قرَّرَت دهان الخزانة بذلك اللَّون.

لا أدري أين ينتهي المطاف بِقِطَع الأثاث العتيقة. ولا أدري ماذا كان من أمر بدلات أبي. أحبَّ أبي بدلاته. كانت هي العمل الذي أنجزه في حياته. أحيانًا، كنتُ أفتح الخزانة الحمراء وأنظر في الداخل: فأجد تعاقُبًا من البدلات، يمثِّل تعاقُبًا من الرجال الأقوياء: كلُّ بدلةٍ مُعلَّقةٍ من مشجبها: وكلُّها مكويَّةٌ على أكمل وجه: كنتُ على استعداد أن أبذل عامًا ممَّا تبقَّى في حياتي مقابل رؤيتها مرَّةً أخرى: إنَّها صورةٌ بصريَّةٌ مُقطَّرة لأبي: طريقة أبي في الظهور الاجتماعيّ: وسيلة أبي في المجيء إلى العالَم: بريق حياة أبي: شبابه، نضجه، لامبالاته: مملكته التي تسمو فوق كلّ الأشياء: فوق كلّ الأجناس: الشيء الذي ميَّزه في قلب الطبيعة.

كان أبي يتأمَّل بدلاته بتروٍّ وتأنٍّ، وأنا أتحدَّث عن الستينيَّات والسبعينيَّات من القرن الماضي.

في عهد فرانكو، تسنَّى للطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا امتلاك البدلات، أيْ القميص الأبيض والسترة وربطة العنق والبنطال المصنوع من قماش التِّرْجَال.

- 41 -

في أواخر الستينيَّات، كان أبي يأخذنا إلى نُزُلٍ في بلدةٍ جبليَّة لقضاء العطلة، بلدةٍ تُدعَى خاكا. عرف ذلك النُّزُل بفضل عمله مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا. قال إنَّ الطعام هناك طيِّبٌ جدًّا، وتحمَّس لاصطحابنا، حتى يكون هناك برفقة أسرته، برفقة أهله، في المكان الذي دَرَج على النزول فيه وحيدًا، حتى يهدينا اكتشافه.

وذلك ما فعل: قدَّم إلينا اكتشافه، انتصاره.

والحقّ أنَّ الطعام كان طيِّبًا. كانوا يصنعون عجَّةً على الطريقة الفرنسيَّة، شهيَّةً، غامضة، لها مذاقٌ لم أجده بعد ذلك في أيِّ عجَّةٍ أخرى. كنتُ في السابعة من عمري آنذاك، أي في عام 1970، على وجه التَّقريب. أمَّا الصُّورة المنطبعة لديَّ عن تلك الأعوام فلقد سرى إليها تشوُّهٌ غير مادِّيّ: أرى أشياءَ لامعة، أرى غبارًا أصفر، قِطَع أثاثٍ ضخمةً، عتيقةً، في حالةٍ سائلة، أرى أجسادًا لاواقعيَّة، أتنشَّق روائحَ سليمة، ولكنَّها ميِّتة. قديمًا، كانت الروائح أطيب منها الآن، وفق ما أعتقد. لا أطيب، بل ربَّما أكثر طبيعيَّة. تميَّز مطعم النُّزُل بلمسةٍ من لمسات القرن الثامن عشر، أو هكذا أذكره. كانت مفارش الطاولات من القماش الجيِّد، ناصعة البياض، والدَّرَج المُؤدِّي إلى الحُجرات من الخشب، وأبواب الحُجرات عالية، والأسِرَّة تبعث في نفسي شعورًا بالرَّهبة. على العشاء، كانت تُقدَّم حلوى كْريم كراميل بيتيَّة، شهيَّةٌ حقًّا. سُمِح لي بالدخول إلى المطبخ، وأنا لم يسبق لي الدخول إلى مطبخٍ مُلحَقٍ بمطعمٍ قبل ذاك، فانبهرتُ من ضخامة المكان، ومن عدد المقالي والقدور والعاملين. كُنَّا نتنزَّه في أنحاء خاكا، التي بدَت لي مدينةً بديعة الجمال، وإن خلَت من الشطآن. لم أفهم كيف يخلو المكان من الشطآن ما دمنا في عطلة. كانت أمِّي تأخذني إلى مسبح البلديَّة. هناك تعلَّمتُ السباحة، وهناك ابتلعتُ من الماء الكثير. في تلك الأعوام، شهدَت المسابح البلدية ازدهارًا مدوِّيًا. فتحرَّرَت من الأنهار جميع القرى التي يربو عدد سكانها على عشرة آلاف نسمة.

صارَت إسبانيا عبارةً عن بلديَّاتٍ تنشئ المسابح. ونسينا الأنهار، التي أصبحَت في أواخر أيَّامها مكبَّاتٍ للنفايات.

منذ أعوامٍ طوال، أُوصِدَت أبواب ذلك النُّزُل. لا أدري ماذا فعلوا بتلك المفارش الناصعة البياض، ولا المقالي، ولا الأسِرَّة، ولا قطع الأثاث، ولا الفضيَّات، ولا الملاءات!

حتى الأشياء تموت.

وموت الأشياء مُهِمّ، لأنَّه اختفاء المادَّة، المادَّة المتواضعة التي رافقَتنا وكانت بجوارنا بينما الحياة تجري.

- 42 -

أحطِّم الأشياء بينما أحاول فتحها. فيدور في خَلَدي أنَّ الشيطان هو الذي يصنع بنفسه تلك العبوات العسيرة جدًّا على الفتح.

سرعان ما أحاول إزاحة كلّ الأشياء عن طريقي وإلقاءها في حاوية النفايات. فهكذا لا أراها. يرتكز صراعي على دعائمَ تتمثَّل في إزاحة الأشياء بعيدًا عن ناظري. وخير موضعٍ لذلك حاوية النفايات، حليفتي. ولذا، يروق لي أن تكون كبيرة. كما أشعر بشغفٍ تجاه سلال المهملات. إنَّها مواضع تصلح لإزاحة كلّ ما يحول دونك ودون النظر إلى الهواء والفضاء بلا عقبات.

يستهويني امتلاءُ حاوية النفايات إلى الحافَّة.

يستهويني التخلُّص من الأشياء، البرطمانات، الصفائح، البلاستيك، والإلقاء بكلِّ شيءٍ داخل الحاوية.

في السوبرماركت، دائمًا ما ألقي نظرةً على عروض حاويات النفايات. يروق لي عقد كيس النفايات، وشدّ العقدة، لئلَّا تتسلَّل إلى الخارج الفضلات، النفايات.

المكواة يلفُّها الغموض. أنظر الآن إلى المكواة مرَّةً أخرى. كان أبي يكوي الثياب، رغبةً منه في تهيئة بدلاته بطريقةٍ مُعيَّنة. ليس من المعتاد أن يعرف الناس قيمة المكواة، ولاسيَّما الرجال. تعلَّمتُ كيّ الثياب مُتأخِّرًا. الآن وقد تعلَّمتُ قليلًا، يروق لي فرد ثنايا القمصان والسَّراويل. لا أكوي الثياب الداخليَّة لأنَّ أحدًا لا يراها. فنحن لا نعتني بما يعيش في العتمة مِن الأشياء. لا أكوي سروالي الداخليّ. ليس الجميع يكوي ثيابه. الآن، صرتُ أسأل الناس عمَّا إذا كانوا يكوون ثيابهم. فلا يدري أحدٌ لسؤالي سببًا. إنَّ كيّ الثياب في غاية الصعوبة، ولاسيَّما القمصان. أمَّا السراويل الجينز فيسهل كيُّها نوعًا ما.

كي الثياب يرخي الأعصاب. فبذلك، تضفي شكلًا على الثياب التي تراها أمامك ساكنةً، تتلقَّى الحرارة، وتكتسب شكلًا ومنظرًا وترتيبًا. أمَّا التجاعيد المُتوحِّشة التي تخرج بها الثياب من المغسلة فتتحوَّل إلى سهول، ورُقَعٍ مستوية، وحقيقة. تفكِّر أنَّ جسدك سوف يتسلَّل إلى داخل الثياب، فيصبح على ما يرام، ويكتسب الأمر مغزًى، وحبًّا.

لم أرَ أبي يرتدي قميصًا مُجعَّدًا قطّ. في أيِّ وقت. لم يرتدِ الجينز قطّ، مدى الحياة. وكانت ثيابه مكويّةً بإتقان، دومًا.

أحاول استعجال الوصول. أقود السيَّارة من مدريد إلى ثاراغوثا. أعرف تلك الطريق، التي يقطع سالكُها جزءًا من إسبانيا، في مشهدٍ ضاربٍ إلى الحُمرة، صحراويّ، حيث الجسور الضخمة، والأعمال الهندسيَّة المجهولة. من شيَّد كلّ هذا؟ تلك الطريق السَّريعة، وتلك الجسور. أستغرق ثلاث ساعاتٍ في الذهاب من مدريد إلى ثاراغوثا. أقصد سوبرماركت هيبركور مباشرةً لشراء الطعام، ثمَّ أذهب حتى أقدِّم الطعام لابنَيّ. أتخيَّر الجيِّد من الطعام، ولكنِّي منفعلٌ، انفعالًا عريضًا مجهولًا كتلك الجسور التي أقطعها بسيَّارتي.

أصطفّ في المجزر، حيث أشتري طعامًا باهظ الثمن. تشتري امرأةٌ عجوزٌ ثلاثمئة جرام من خامون دي بيّوتا [9]، في حين أنظر بوجهٍ خالٍ من التعبير. تقطع العاملة الخامون، بينما أستغرق أنا في النظر إلى الظلف الأسود الذي تنتهي به الفخذ.

هوذا نحن قد صرنا مجهولين.

أعددتُ الطعام من أجلهما. حاولتُ معانقتهما، ولكنَّ الأمر برمَّته يغدو طقسًا باعثًا على الضيق. لا أدري أين أضع وجهي، ولا أين أضع ذراعَيّ. كلاهما كَبُر، وهذا كلُّ ما في الأمر.

ليس العناق ضرورةً، فأنا وأبي لم نتعانق يومًا. وإن كنتُ أصرّ، أصرّ على اكتساب عادةِ تبادل الأحضان والقبلات. وسوف أنجح في ذلك. بل إنِّي في سبيلي إلى النجاح بالفعل. حين وُلِد ابني البكر، دعَت الضرورة إلى إخضاعه لجراحة تضيّق البوَّاب، وهو لم يمضِ على وجوده في العالَم خمسة عشر يومًا. كان يتقيَّأ كلّ ما يدخل جوفه من طعام، فهزل حتى صار جلدًا على عظم. أمضيتُ ليلتي كاملةً وأنا أتعذَّب. بينما انخرطَت في البكاء والدته، أيْ زوجتي السَّابقة، فأشعرني بكاؤها بعطفٍ أليم، لأنِّي تفهَّمتُه. راحَت تقول «ابني المسكين»، فبدا لي وكأنَّها ليسَت هي المُتكلِّمة، بل إنَّ ريح الأسلاف العاتية هي التي نطقَت بهاتيْن الكلمتَيْن من خلال فمها. خطر لي بيرغوليزي، والستابت ماتر [10]. وإذا هاتان الكلمتان، «ابني المسكين»، تنبثقان من ليل الأزمان، من ليل الأمومة. لا أدري أيَّهما كان أشدّ تجريحًا، حنان الأم أو الخطر المُحدق بابني، أو كلا الأمرَيْن مجتمعَيْن، وقد أضيف أحدهما إلى الآخر، حتى صنعا نهرًا عميقًا من الحبّ والحنان والخوف!

لم يتَّصل بي والدي في اليوم التالي. ليس هذا من قبيل اللَّوم، فأنا أعرف حقّ المعرفة أنَّه أحبّ ابني. ليس هذا من قبيل اللَّوم، ولكنَّه سرٌّ غامض.

لا يحالفني التوفيق عند العناق، فيبدو وكأنَّ جسديْنا لم يلتقيا في المكان.

ربَّما كان أبي يعرف. كان يعرف استحالة المعانقات. ولذا، لم يتَّصل سائلًا عمَّا إذا كان حفيده لا يزال على قيد الحياة. سار كلُّ شيءٍ على ما يرام، ونجحَت العمليَّة الجراحيَّة، ثمَّ أُخلِي سبيله من المستشفى بعد يومَيْن.

أطهو اللَّحم على الشوَّاية. أنفقتُ ثروةً على هذه الشريحة من لحم الخاصرة، أخاف ثمنها، وأخاف ألَّا تعجبهما. البيت قذرٌ وغير مُرتَّب. والطابعة لا تعمل.

فيفالدي، الصَّغير، نحيفٌ جدًّا، ولكنْ تروق لي نحافته. أمَّا برامز، الكبير، فصار يتحدَّث عن السياسة ولا يحتمل التناقض. كما لو كنتُ سأهدر طاقتي في جدالٍ سياسيٍّ معه، وأنا الذي لا أرغب إلَّا في الاعتناء به وإسعاده. قرَّرتُ الإشارة إلى ابنَيّ بهذيْن الاسمَيْن النبيلَيْن اللَّذيْن استقيتُهما من تاريخ الموسيقى [11]. سأعمِّد كلَّ أحبائي بأسماء كبار الموسيقيِّين.

أمَّا وقد أرسلتُ جثمانه إلى المحرقة، لم يعُد لديَّ مكانٌ أقصده لأكون برفقة أبي، ولذا ابتكرتُ مكانًا: شاشة هذا الكمبيوتر.

إحراق الموتى خطأ. والامتناع عن إحراقهم أيضًا خطأ.

شاشة الكمبيوتر هي المكان الذي يرقد فيه جثمانه الآن. يتقدَّم العمر بالشاشة، ولن ألبث أن أضطَرّ إلى شراء كمبيوتر جديد. ما عادَت الأشياء تتحمَّل كما في الماضي، حين كان عمر الثلَّاجة أو التلفزيون أو المكواة أو الفرن يصل إلى ثلاثين عامًا، وذلك هو سرّ المادَّة. لا أحد يدفن الأجهزة المنزليَّة العتيقة، وإن كان بعض الناس في هذا العالَم يمضي بجوار التلفزيون أو الثلاجة وقتًا أطول ممَّا يمضيه بجوار إنسانٍ آخر.

كان الجمال في كلِّ شيء.

ـ 47 ـ

يكاد فيفالدي لا يخبرني بشيءٍ عن حياته. أحاول الحديث إليه عن المعهد. أتمَّ فالدي ـ اختصارًا لاسم فيفالدي ـ عامَه الأوَّل في المرحلة الثانويَّة. يشتبه فالدي في عبثيَّة التَّعليم الحكوميّ في إسبانيا، أو عدم جدواه.

أحمّص الخبز. اشتريتُ زيت زيتون فائق الجودة ـ يُذكِّرني بأمِّي، التي كان دمها وجسدها وروحها من زيت الزيتون.

فيمَ يفكِّر فالدي؟ كم هو غامض، في قرارة نفسه! وما أقلّ الأمور التي تظهر على سطح شخصيَّته! يحاول أن يصنع لنفسه هويَّة. يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، ويخطو أولى خطواته في الحياة. قلَّما نتحدَّث أنا وفالدي وبرا ـ اختصارًا لاسم برامز ـ يكاد ينحصر عملي في تحضير الطعام.

قالَت المحامية التي تولَّت طلاقي إنَّ مستقبلًا مشرقًا ينتظر هذين الفتيَيْن. إنَّهما فَتَيان صالحان، وهذه هي الحقيقة.

إنَّهما فَتَيان صالحان. يعيرانني من الاهتمام قليلًا، أو بقدر ما كنتُ أعير أبي. فَتَيان صالحان، أجل، أو بالأحرى موسيقيَّان صالحان. إنَّهما تاريخ الموسيقى. مُؤلِّفان عظيمان، كلاهما يؤلِّف حياته. أيّ موسيقارٍ كنتُ أنا عند أبي؟ لم يكُن أبي شغوفًا بحبّ الموسيقى. على عكس أمِّي، التي كانت تحبّ خوليو إغليسياس كثيرًا، وتهرول إلى التلفزيون كي تنصت إليه متى غنَّى. لمسَت أغنياته قلبها. ولقد سعدتُ بنجاح خوليو إغليسياس عالميًّا، لأنَّه المُغنِّي الأثير لدى أمِّي.

أعتقد بأنَّها، في قرارة نفسها، كانت مغرمةً بخوليو إغليسياس، الذي كان عندها رمزًا من رموز حياة النجاح والترف الذي لن تعيشه أبدًا.

الذي لم تعِشْه قطّ.

48

وقعتُ تحت تخدير الراتب زمنًا طويلًا. زمنًا طويلًا: يربو على العقدَيْن. أذكر أنِّي أفقتُ في السابعة والنُّصف من صباح العاشر من سبتمبر عام 2014. كنتُ مرتبطًا بموعدٍ في الثامنة والنُّصف مع رؤسائي في العمل. كنتُ أنوي تقديم الاستقالة، والرحيل. ظللتُ أُدرِّس طوال ثلاثةٍ وعشرين عامًا في معاهد التعليم الثانويّ، وما عدتُ أحتمل المزيد.

لم أدرِ كم عدد الأعوام المتبقِّية لي في الحياة، ولكنِّي أردتُ أن أعيشها مُتحرِّرًا من تلك العبوديَّة. خطر لي أنَّ الأعوام المُتبقِّية لي في الحياة ليست كثيرة، وشعرتُ بالرَّغبة في تكريسها لتأمُّل موتاي، ولأيِّ شيء، بما في ذلك الشحاذة.

والآن، سوف أعيش على الهواء. العيش على الهواء. تروقني هذه العبارة، فهي ذات طابعٍ إسبانيٍّ جدًّا. أذكر أنَّ زملائي راحوا يتأمَّلونني كما لو كنتُ انتحاريًّا مُختلًّا. وداعًا أيُّها الراتب.

وُلِدَت الحياة من جديد. وأدركتُ أنِّي لم أتمتَّع بالحريَّة المهنيَّة قطّ. شعرتُ بالسَّعادة الغامرة، والزهو بنفسي.

عدتُ إلى سكني ورحتُ أنظر عَبْر النافذة طويلًا: ها هي ذي الحياة تعود. حياةٌ غير مُكرَّسة لتحويل كلّ يومٍ فيها إلى راتب، وإلى التَّفكير في تقاعدي مليًّا كلّ ساعة.

ما عادَت ساعاتي تساوي شيئًا. بل إنَّها صارَت مُجرَّد حياة، حياةٍ خاليةٍ من الحقوق المهنيَّة.

التنزُّه، تأمُّل السحاب، القراءة، الجلوس، البقاء وحيدًا في صمتٍ مطبق، كانت تلك مكاسبي.

في اليوم التالي، لم أستيقظ مُبكِّرًا. ما عدتُ ألقي الدروس على مرحلة التَّعليم الثانويّ. والآن، يخطر لي أنَّه لم يكُن عملًا مقبولًا، كما ظننتُ في حينه، بل إنَّه عملٌ آخر من شأنه الإفضاء بالواحد إلى الاغتراب، وإن يكُن الاغتراب فيه أقلَّ وضوحًا.

يستتر الاغتراب المهنيّ، ولكنَّه باقٍ، مثلما كان في القرن التاسع عشر. مدارس، معاهد، مستشفيَّات، جامعات، سجون، ثكنات، أبنية مكاتب عملاقة، أقسام شرطة، مجلس النوّاب، عيادات، مراكز تجاريَّة، كنائس، أبرشيَّات، أديرة، مصارف، سفارات، مقرَّات المُنظَّمات الدوليَّة، مكاتب تحرير الصحف،

دور سينما، ساحات مصارعة الثيران، ملاعب كرة القدم، كلّ هذه الأمكنة التي فيها يُحتفَى بالحياة القوميَّة، ماذا تكون؟ إنَّها أمكنة ينشأ فيها الواقع، معنى الجماعة، معنى التاريخ، الاحتفاء بالأسطورة الزاعمة بأنَّنا حضارة. جميع أولئك الفتيان والفتيات الذين ألقيتُ عليهم دروسًا، ماذا كان من أمرهم؟ ربَّما رحل بعضهم إلى الأبد. وأولئك الزملاء الذين اتَّفق لي العمل معهم، سيموتون بدورهم. تتلاشى وجوههم في ذاكرتي. كلٌّ منهم في سبيله إلى الظلام. تحضرني ذكرى مُبهمة، ذكرى بيتٍ للشاعر الإنجليزيّ ت. س. إليوت، حيث يقول إنَّ العظماء يسقطون في ظلمة الخواء. مات بعض الزملاء بمُجرَّد تقاعدهم. إنَّه عقاب الحظّ. يُنزل القدر عقابه بأولئك الذين يحسبون حساب الأمور، أولئك الذين حسبوا حساب تقاعدهم. أمَّا المعاهد فلا تحتفظ بذكرى تلك الأجساد. كانت معاهد التعليم الثانويّ الإسبانيَّة عبارةً عن أبنيةٍ لا رونَق لها، منشآتٍ معيبة، تنعدم الجاذبيَّة في أروقتها، وتسود البرودةُ فصولها شتاءً، ويخيِّم عليها القيظ حتى في فصل الربيع. الطباشير، السبّورات، قاعات المُعلِّمين، نسخ الأوراق، الجرس الذي يُقرع بانتهاء كلّ درس، القهوة برفقة الزملاء، الأكلات الخفيفة غير المستساغة، الأكلات رديئة الإعداد، الحانات القذرة.

كلُّ شيءٍ في سبيله إلى الفساد. كانت أروقة المعاهد خاليةً من صور المُعلِّمين المتقاعدين. لم تكُن هناك ذاكرة، إذ لم يكُن هناك ما يُذكَر.

أمَّا أولئك الزملاء فجُنّ جنونهم من فرط الضحالة والراحة في مناصبهم. كانوا يحتقرون التلاميذ ويوجِّهون لهم الإهانة. تجرَّع أولئك الفتيان المذلَّة والمهانة على أيدي المُعلِّمين الغارقين في الضحالة، الحاقدين على الحياة. لم يكُن هذا حالهم جميعًا. فمِن المُعلِّمين مَن عشق الحياة، وحاول أن يمرِّر ذلك الحبّ إلى تلاميذه. إنَّه واجب المُعلِّم الوحيد: أن يلقِّن طلّابه حبّ الحياة وفهمها، فهم الحياة بالذكاء، بذكاءٍ احتفاليّ. ينبغي له أن يلقِّنهم معنى الكلمات، لا تاريخ الكلمات الخاوية، بل معناها، حتى يتعلَّموا إطلاق الكلمات كما يُطلَق الرصاص، رصاص الرماة الأسطوريِّين.

الرصاص العاشق.

ولكنِّي ما رأيتُ أحدًا يؤدِّي ذلك الدور.

يكابد المُعلِّمون اغترابًا أشدّ كثيرًا من ذلك الذي يعانيه تلاميذهم. في اجتماعات التقييم، شهدتُ إهانة التلاميذ، وعقابهم، لأنَّهم كانوا مَن كانوا، وإيقافهم، في ممارساتٍ ساديَّةٍ للسُّلطة. آه، يا لساديَّة التَّعليم! التلاميذ فتيانٌ شباب، حديثو العهد. ولكنَّ المُعلِّمين الإسبان يشقُّون ثيابهم استنكارًا لمُجرَّد أنَّ تلاميذهم غير مُلمِّين بشيءٍ أو آخر. لا أدري... قد لا يعرفون من هو خوان

رامون خيمينيث [12]، قد لا يعرفون كيفيَّة حلّ مسائل التكامل، أو الصيغة الكيميائيَّة لثنائي أكسيد الكربون، وأشياء من هذا القبيل. لا يُدرك المُعلِّمون أنَّ ما يبدو لهم مُهمًّا لا يعدو أن يكون عُرفًا من الأعراف، بنية ثقافيَّة، اتفاقًا جماعيًّا لا يُلقي إليه التلاميذ بالًا، ببساطة. لا يعاني الفتيان من الاغتراب في ظلّ تلك الأعراف الرَّماديَّة، بل إنَّهم يرون تلك الأعراف كما يراها كائنٌ فضائيّ. لا أحد قد يفرض الرقابة على كائنٍ فضائيّ، لأنَّه يجهل بديهيَّاتنا وخرافاتنا في التاريخ والعلوم والفنّ. ينتمي أولئك الفتيان، وهم في عمر الخامسة عشرة، إلى عالَمٍ غير العالَم، ومكانٍ غير المكان.

منهم تعلَّمتُ معنى الحرِّيَّة.

وأذكر أنِّي تأمَّلتُ في المراهقة التي خرَّبها أولئك المُعلِّمون المجانين. إنَّهم يقضون على أولئك الصغار. يروق لهم إيقاف التلاميذ. أمَّا أنا فلم أوقف أحدًا. لم يسعني إيقاف أحد. ربَّما أوقفتُ بعض أولئك الصغار في البدء، عقابًا لهم على إخفاقهم في تحليل الجُمل. في البدء، عندما تتخرَّج من الجامعة وتكرِّر الحماقات التي لُقِّنتَ إياها كالببَّغاء، مثل الجُمَل الموصولة، التي كانت أثيرةً عندي آنذاك: في حنايا تلك الجُمَل مرونة، وأشجار، وأزهار، وسماوات. كنتُ وتلاميذي نستغرق في تأمُّل الجُمَل الموصولة. أذكر الجملة التالية: «قرأتُ الكتاب الذي أعرتَني بالأمس». غير أنِّي أكاد أفضِّل الامتناع عن تحليلها. كُنَّا نستغرق في تأمُّل الجملة على السبّورة. أيُّ كتابٍ عساه يكون؟ مَن الشخص الذي استعار الكتاب؟ هل كانت قراءة ذلك الكتاب تستحقّ العناء؟ ألم يكُن من الأفضل لك أن تستعير شيئًا آخر بدلًا من الكتاب؟

كُنَّا نضحك ملء أفواهنا من المفعول به في جملٍ مثل هذه: «خوان أحرق السيَّارة».

مَن هو خوان اللَّعين؟ هل السيَّارة جيِّدة؟ ما السَّبب في إحراق السيَّارة؟ أمَّا القطرة التي أفاضَت الكأس فهي صيغة المبني للمجهول، لأنَّ تلك هي الطريق التي لجأنا إليها للتأكُّد من أنَّ «السيَّارة» هي المفعول به اللَّعين. فنقول مثلًا: «السيَّارة أُحرِقَت على يد خوان».

وما دامَت الجملة مفيدة، «فالسيَّارة» الكارثيَّة مفعولٌ به. كنتُ وتلاميذي نستغرق في التَّفكير، من عساه يكون صاحب السيَّارة التي أحرقها خوان؟ كنتُ أفكِّر في سيَّارتي، وأفكِّر أنَّني سأقتل خوان لو أحرق سيَّارتي.

كان المفعول به يمثِّل بروليتاريا القواعد اللُّغويَّة، فعليه أن يتحمَّل كلّ شيء، عليه أن يتحمَّل كلّ ما يترتَّب على الفعل.

كثيرًا ما كنتُ أنا نفسي مفعولًا بي، رازحًا طوال الوقت تحت وطأة الفعل، واستبداد الفعل، الذي يمثِّل عنف التاريخ.

كنتُ أقدِّم تأويلًا ماركسيًّا للقواعد اللّغويَّة. ماركسيَّة هزليَّة، ولكنَّنا كُنَّا نضحك ملء أفواهنا على الأقل.

أنا مُجحفٌ في ما ذهبتُ إليه: فلا أحدٌ يدافع بوفاء عن الخلاص الاجتماعيّ للإسبان المعوزين سوى المُعلِّمين. بينهم وجدتُ خيرَ أصدقاء. رأيتُ مُعلِّمين ممتازين، ولكنَّ المنظومة التَّعليميَّة تلفظ أنفاسها الأخيرة. وذلك ما كنتُ أرمي إليه في واقع الأمر، أنَّ المنظومة التَّعليميَّة ما عادَت تعمل لأنَّ الزمن قد تجمَّد بها.

أذكر الأمر برمَّته في هذه اللَّحظة، الآن وقد صار الوقتُ ليلًا، ليلًا يمضي حثيثًا نحو الفجر، وفي دخيلة نفسي نشوةٌ تعتمل بينما أفكِّر في قنِّينة الويسكي التي في المطبخ.

لا أملك العودة إلى الشراب.

- 49 -

كانت أمِّي تستيقظ من نومها مُبكِّرًا في الصيف لتناول الفاكهة. وكأنِّي أراها الآن.

كانت تقول: «إنَّه أفضل وقتٍ يقضيه الواحد».

كانت تأكل كمثرى سان خوان والمشمش والكرز والبطيخ.

أحبَّت فاكهة الصيف.

كانت تستيقظ مُبكِّرًا لتتنسَّم هواء الصباح المنعش، في شقَّة بارباسترو، شديدة الحرارة صيفًا، شديدة البرودة شتاءً، إذ لم تكُن جدرانها معزولةً بإحكام، لأنَّها رديئة البناء. أين عساهم أن يكونوا الذين شيَّدوها؟ لعلَّهم ماتوا! وعلى الرَّغم من ذلك، فما زال في إمكاني سماعهم، سماع أصواتهم وهم يعملون ويقيمون الجدران، ويصبُّون الإسمنت، ويتعلَّقون بالسقالات، ويدخِّنون التبغ الأسود.

أمضَت أربعين صيفًا وهي تستيقظ مُبكِّرًا، لتنعم بهواء الصباح المنعش. كانت تحافظ على التواطؤ بينها وبين تلك النهارات الصيفيَّة. السابعة والرُّبع صباحًا، كانت تلك ساعة الذروة، التي تمثِّل بهجة فصول الصيف، بهجة تلك النهارات، وعمري لا يتجاوز الحادية عشرة أو الثانية عشرة، عندما كنت أجهل الأثر المُدمِّر الذي يُحدِثه الأرق، وأستطيع الاستيقاظ معها في السابعة صباحًا، ثمَّ العودة إلى الفراش مرَّةً أخرى حتى التاسعة.

وإذا الصوت يعود، قائلًا في مسمعي: «فلنعقد اتفاقًا، أتريد الاستمرار في رؤيتها؟ أتريد رؤيتها من الحاضر الذي تعيش أنت فيه؟ آه، يا رفيقي.. تلك التيَّارات العاتية، تيَّارات الزمن، كلّ ما يمضي، لقد صرتَ مُتخصِّصًا في الأشياء الضائعة، وها أنت تقضي حياتك مُفكِّرًا في أمّك الميِّتة وأبيك الميِّت، وكأنَّك لا تريد الانتقال إلى مكانٍ آخر من أمكنة التجربة البشريَّة، لا تريد الانتقال لأنَّ الحقيقة تعيش بين الموتى على وجه التَّحديد، تعيش مشرقةً، لا محزونةً ولا جديرةً بالشفقة، ولا جديرةً بالرثاء، بل في بهجةٍ مُعلَنة، كخاتمةٍ يلفُّها الطرب الزاخر بالأغاني والشموس والأشجار والفاكهة الصيفيَّة، الكثير من الفاكهة الصيفيَّة التي تقضمها أمُّك في هذه اللَّحظات.. انظر إليها، ها هي ذي هناك، إنَّه الرابع والعشرين من يونيو عام 1971، وها هي ذي تقضم شريحةً من البطيخ، في السَّابعة والربع صباحًا، بينما أنت على قناعةٍ بأنَّ الموت لا وجود له، ولا وجود لشيءٍ سوى الخلود وأغنية الصيف.. وها أنت ذا تعيش فوضى زوال كلِّ شيء، لأنَّ كلَّ شيءٍ إلى زوال، وأنت لا تحتمل هذا».

أجل، لقد علقَتْ أغنيةُ الصيف ببشرتي، ابتداءً من الستينيَّات.

كانت أمِّي تعشق أغاني الصيف والبطاطس المقليَّة المُعبَّأة في أكياس. كم كانت سعادتنا آنذاك!

لم تعُد أكياس البطاطس المقليَّة المعروفة باسم ماتوتانو متوافرة. أعتقد بأنَّها صارَت الآن تُدعَى باسمٍ آخر. لطالما كان أبي يطلب ذلك الصنف عندما نتردَّد على الحانة.

كان يقول للنادل، بابتسامةٍ هادئة: «البطاطس، اجعلها ماتوتانو».

- 50 -

أعثرُ على صورةٍ تعود إلى منتصف الستينيَّات.

كُنَّا أطفالًا وسط الثلوج، ننصتُ إلى إرشادات المشرف على التزلُّج، ونحاول أن نتعلَّم التزلّج على المنحدر، قرب الجبال الساكنة، والبرد يهبّ على وجوهنا، وقد تزوَّدنا بمُعِدّات التزلُّج، الاقتصاديَّة. كنتُ أرتدي سترةً من المشمَّع، سترةً صفراء. كان الأثرياء يرتدون المعاطف، أمَّا أولئك الأكثر تواضعًا فيرتدون السترات. كدتُ أموت غضبًا لأنِّي لا أملك معطفًا كالأثرياء.

هوذا الطفل وسط الثلوج، يرتدي سترةً صفراء مصنوعةً من المشمَّع.

من بين جميع أولئك الذين شهدوا ميلاد محطّة ثيرلير للتزلّج على المنحدرات الثلجيَّة، في عام 1972، تقدَّم البعض في العمر، ومات الكثيرون.

أقيمَت محطَّة ثيرلير في بلدةٍ تحمل الاسم نفسه، مُطلَّةً على جبال البرانوس، في إقليم أويسكا، وهو إقليمٌ مجهولٌ في إسبانيا، دع عنك أن يكون معروفًا على مستوى العالَم. تملَّكنا الذهولُ أمام تلك المقاعد الآليَّة بلونها الأخضر، تلك التي كانت تعبر الجبال من فوق أشجار الصنوبر السامقة، فوق وِهاد الأحجار الداكنة. الثلوج المتساقطة بقوَّةٍ على الأبراج الصناعيَّة، والكهرباء، والمُتزلِّجون على الثلوج بمُعدَّاتهم العصريَّة، والزلَّاجات الحديثة جدًّا المصنوعة من الفايبر، ووحدات التثبيت الأوتوماتيكيَّة، والفنادق، والسياحة الناشئة، والسيَّارات المُصطفَّة عند سفوح الجبال، وحاملات الزلَّاجات المُثبَّتة فوق أسقف السيَّارات، التي كانت اختراعًا حديثًا آنذاك؛ أمَا الزلَّاجات الخشبيَّة فلم يَعُد أمامها سوى أيامٍ معدودة.

كان كلُّ شيءٍ صناعةً ناشئة.

كان كلُّ شيءٍ في العالم يتحسَّن. إنَّ فكرة التَّحسُّن عَصَبُ التاريخ، إنَّها بهجةٌ عامَّة. أشرقَت التَّحسينات على الرُّبع الأخير من القرن العشرين وكأنَّها دربٌ مُفضٍ إلى السَّعادة والرحابة. وكان ذلك صحيحًا، أخذ كلُّ شيءٍ يتحسَّن: السيَّارات، والاتِّصالات، والعدالة الاجتماعيَّة، والتَّعليم، والطبّ، والجامعة، وعمَّت التدفئة المركزيَّة كلّ البيوت، وتحسَّنَت دور الديسكو، والحانات، وصنوف النبيذ الإسبانيّ، وتكنولوجيا التزلُّج على الثلوج في الجبال.

«لن يتعرَّض المُتزلِّجون للمزيد من كسور العظام»، هكذا راح يبشِّر المشرفون على التزلُّج. وعلى الرَّغم من ذلك، ظلَّت السيقان تتعرَّض للكسور. لم يُقابَل مجيءُ وحدات التثبيت الأوتوماتيكيَّة بالحفاوة في أيّ كنيسة. وعلى الرَّغم من ذلك، أذكر ذلك الحدث المدهش، ذلك التطوُّر.

أجل، ما زال المُتزلِّجون يتعرَّضون للكسور حتى يومنا هذا، حتى باستخدام وحدات التثبيت الأكثر تطورًا على وجه الأرض، لأنَّ الثلوج والجبال تحصِّل الثمن على هيئة عظامٍ مكسورة.

لمعَت أسماءٌ أسطوريَّةٌ في تلك الصناعة الناشئة، صناعةِ وحدات التثبيت في الستينيَّات: ماركر، لوك، تيروليا، سالومون. إنَّ وحدات التثبيت تؤدِّي مُهِمَّةً حيويَّةً في التزلُّج على المنحدرات الثلجيَّة: إذ تتولَّى تثبيت قدم المُتزلِّج إلى الزلَّاجة. في وحدات التثبيت وهجٌ روحانيّ: فهي لا تسمح لك بالسُّقوط، وتحافظ على الترابط بينك وبين الجبال، تبقيك على مقربةٍ من الجبال، في رقصةٍ مع الجبال. تساندك، وتلك هي مهمَّة وحدات التثبيت. إذ

تضفي عليك جاذبيَّةً، وتمنحك جذورًا، وتبقيك واقفًا على قدمَيْك، وتحول دون سقوطك في الهاوية.

ظللتُ أذهب لممارسة التزلُّج في محطَّة ثيرلير، ولكنِّي لم أذهب منذ زمن. لا يسعني ذلك. فلقد صار التزلُّج حكرًا على الأثرياء.

أنظر إلى نفسي في مرايا حمَّامات المقاهي بمحطَّة ثيرلير للتزلُّج، على ارتفاع ألف وثمانمئة متر، وإذا بي أرى والدي.

«أهلًا، بابا، ما زلتُ أتزلَّج، كما كنتُ أفعل طفلًا».

تسطع شمس عيد الميلاد على ثيرلير.

كُنَّا نصعد بسيَّارتك السيات 1430 للتزلُّج على الثلوج، وقد ثبَّتَّ حامل الزلَّاجات فوق سقف السيَّارة. كم كلَّفك؟

بعد قليل، شهدنا ميلاد فندقٍ فخمٍ على مقربةٍ من مُدرَّج التزلُّج. كان وما زال يُدعَى فندق مونتي ألبا. لم ننزل هناك يومًا.

بعد ذلك، تعثَّرَت أمورك، وما عدنا نصعد إلى ثيرلير حتى نتزلَّج على الثلوج.

ألملم الثلجَ بيديَّ، وألملم رمادك. وهكذا تبقى الحال أبدًا، إلى أن يتبدَّد كلُّ شيءٍ وتخور الجبال.

ظللتُ أصعد إلى هناك حتى أتزلَّج على الجليد، ولكنَّ الأمر لم يَعُد كما كان في عهد الطفولة. فصرنا نذهب على فتراتٍ آخذةٍ في التباعد، وظلَّت الأسعار في ارتفاعٍ متزايد، حتى بات على الواحد أن يدَّخر طوال ستَّة أشهرٍ من أجل التزلُّج يومَيْن. زد على ذلك أنَّ جسدي ما عاد يحتمل كلّ هذا الجهد البدنيّ.

- 51 -

عقدا زواجهما في الأوَّل من يناير عام 1960.

لم أرث عنهما سوى أقلِّ القليل من الأغراض المادِّيَّة، القليل من قوى الجذب المادِّيَّة، كالصُّوَر على سبيل المثال. صورٍ قليلةٍ جدًّا. تولّى أحدهما طمس أيّ أثرٍ لهما، أيّ امتدادٍ لحياتهما في المستقبل. ربَّما لم يفعلها مع سبق الإصرار. لم يحدث أن فكّر أيٌّ منهما في مستقبلي، في مستقبلي الذي أذكرهما الآن منه، والذي بقيتُ فيه وحيدًا.

عثرتُ على هذه الصورة:

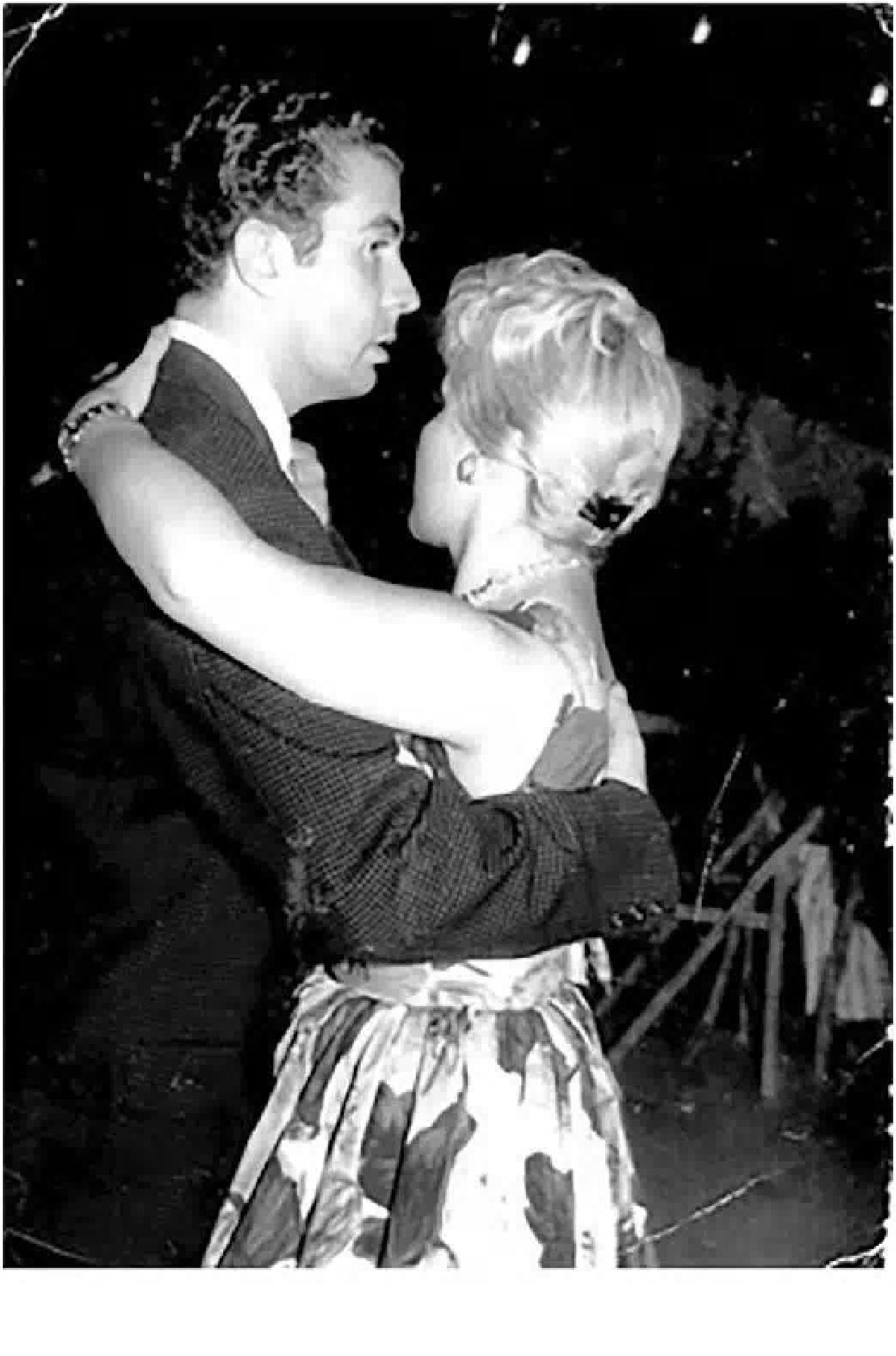

لم تسبق لي رؤيتها قطّ. كانت أمِّي تخفيها. الطريف أنِّي خلتُ نفسي مُلِمًّا بكلِّ ركنٍ من أركان شقَّة أمِّي، الشقَّة التي كانت بيتي أنا الآخر. خلتُ نفسي مُلِمًّا بمحتويات كلّ جارور، ولكنَّ الواضح أنَّ هذا غير صحيح. كانت أمِّي تخفي الصُّوَر التي لم يعلم بوجودها ولا حتى أبي. يبدو لي مدى غفلة أبي وأمِّي عن حياتهما لغزًا غامضًا. أمَّا كوني أنا الذي أحاول معرفة مَن كان أبي وأمِّي في حياتهما، الآن وقد فارقا الحياة، فيبدو أكثر وأكثر غموضًا. بل إنَّ قدر الإغفال في حياتهما يبدو لي ضربًا من الفنون. كلاهما كان رامبو [13]، أبي وأمِّي: إذ لم يرغبا في الذكرى، لم يفكِّرا في نفسَيْهما. كانا غافلَيْن، ولكنَّهما أنجباني أنا، وألحقاني بالمدرسة، فتعلَّمتُ الكتابة، وهأنذا الآن أكتب عن حياتهما. وهنا مكمن السهو الذي وقعا فيه، إذ كان يجب عليهما تركي غارقًا في الأمِّيَّة الأشدّ ثوريَّة وراديكاليَّة، الأمِّيَّة التي لا ردّ لها.

أمَّا عجزي عن العودة إلى الحديث إليهما أبدًا، فيبدو لي هو الحدث الأكثر مدعاةً للدَّهشة في الكَوْن بأسره، تبدو لي حقيقةً عصيَّةً على الفهم، بحجم غموض أصل الحياة الذكيَّة. يؤرِّقني أنَّهما قد رحلا. فمنذ رحلا، بات كلُّ شيءٍ لاواقعيًّا، مبهمًا، مُتملِّصًا، مُتبخِّرًا.

لطالما تميَّزَت الصُّوَر الفوتوغرافيَّة بدقَّةِ الواقع. الصُّور فنّ الشيطان. إنَّ العالَم المسيحيّ بأسره على استعداد لأن يقتل من أجل الحصول على صورةٍ واحدةٍ ليسوع المسيح. لو كانت لدينا صورةٌ ليسوع المسيح، لعدنا إلى الإيمان بالقيامة من بين الأموات.

كان أبي وأمِّي يخفيان زفافهما. لا أعرف لذلك سببًا، ولن أعرفه ما حييت. أعلم أنَّهما قد تزوَّجا في الأوَّل من يناير عام 1960 طبقًا لما ورد في البطاقة العائليَّة، التي كانت مخفيَّةً عن العيون هي الأخرى. لا أدري كيف كان الناس آنذاك، في عام 1960. أستطيع مشاهدةَ أفلامٍ وثائقيَّة أو أفلامٍ سينمائيَّة من تلك الحقبة. لا أرى أدنى صلة بين شخصي الحالي وتلك الصُّورة الفوتوغرافيَّة التي يظهر فيها أبواي وهما يرقصان.

لا بدَّ أنَّها كانت ليلةً رائعة.

لا تُوجَد صورةٌ واحدةٌ على وجه كوكب الأرض من زفاف أبي وأمِّي الذي أُقيم في الأوَّل من يناير عامَ 1960. هل التُقِطَت صُوَرٌ في ذلك الزفاف؟ الكلّ يحتفظ بصورةٍ من زفافه. أمَّا أبواي، فلم يفعلا. لو كانت هناك صورةٌ ما، فلقد مزَّقَتها أمِّي. لماذا؟ من باب الترفُّع، لأنَّ كليْهما كان مُترفِّعًا.

لم يبقَ واحدٌ من بين أولئك الذين حضروا زفاف أبوَيّ على وجه الأرض، بل إنَّهم صاروا جميعًا تحت الأرض.

سافر أبي وأمِّي لقضاء شهر العسل في بلدة لورد الفرنسيَّة. لم يحدِّثاني يومًا عن تلك الرِّحلة بالتَّفصيل. كان أبي يملك سيَّارته السيات 600 آنذاك. كثيرًا ما أتخيَّل تلك الرِّحلة. كان عليهما أن يعبرا الحدود، من خلال مرفأ بورتاليه. ولكنْ، لعلَّ المرفأ كان مُغطًّى بالثلوج، لأنَّهما سافرا في شتاء 1960. لا أدري كيف تمكَّن أبي من عبور ذلك المرفأ بسيَّارة سيات 600. لطالما حضرَتني تلك الذكرى كلَّما قدتُ سيَّارتي عَبْر الطرق الجبليَّة الفرنسيَّة المُؤدِّية إلى لورد!

«كانا هنا»، أقول.

أقولها لغير أحد.

لا أملك لمس تلك الظلال أبدًا. هذان الطَّيْفان. أين عساهما قد نزلا؟ كنتُ سأطرح السؤال على أبي، ولكنِّي لا أستطيع. يبدو أمرًا ساذجًا، تقول لنفسك: «آه، يجب عليَّ سؤال أبي عن هذا الأمر، فهو سيعرف الإجابة جيِّدًا». ثمَّ يتَّضح أنَّ والدك قد رحل عن الحياة منذ تسعة أعوام. وهكذا، لن أعرف أبدًا أين نزلا في تلك المدينة غير المعهودة، مدينة لورد. إنَّها مدينة المُقعَدين، والمعجزات، والعذارى، والقدِّيسات، وهي في الوقت نفسه مدينةٌ خصبةٌ بالمساحات الخضراء، كلُّها خضراء وارفة.

لمَ سافرا لقضاء شهر العسل هناك؟

كان في مقدورهما الذهاب إلى برشلونة، أو مدريد، أو سان سباستيان. أمَّا باريس، فذلك ضربٌ من المحال، إذ لم تكُن لديْهما النقود اللَّازمة. أيُّ اختيارٍ غريب، لم يَعُد هناك من يستطيع إيضاحه من أجلي! مَن مرَّ بتلك المدينة، أيًّا كان، أقرّ بأنَّه مكانٌ لا يُنسَى، مسيحيّ، شعائريّ، غيبيّ، مجنون. كيف لم أسأل وأنا لا أزال قادرًا على ذلك؟ كيف لم أسأل عن السَّبب الذي دفعهما إلى اختيار تلك المدينة لقضاء شهر العسل، تلك المدينة التي ظهرَت فيها العذراء مريم ثماني عشرة مرَّة للراعية برناديت سوبيرو؟ الجواب واضح: لم أسأل وأنا لا أزال قادرًا على ذلك، ظنًّا منِّي بأنِّي سوف أسألهما ذات يوم، وكأنَّهما باقيان أبدًا. ربَّما كرهتُ سؤالهما عن تلك الرِّحلة، إذ تبدو مسألةً شخصيَّةً جدًّا. على كلِّ حال، فالشيءُ الوحيد الذي يبدو جليًّا هو الآتي: ما دام عليك سؤالُ أحدِهم عن شيء، فاسأله.

لا تنتظر حتى الغد، لأنَّ الغدَ للأموات.

لو أتيحَت لي فرصةٌ أخرى، ما أفلحتُ في سؤالهما عن أيِّ شيءٍ مُتعلِّقٍ برحلة شهر العسل. فأنا لم أسأل حينذاك، لعلمي بعزوفهما عن الحديث في الأمر.

أستطيع أن أتخيَّل سبب عزوفهما عن الحديث في ذلك الأمر. لم ترُق لهما كلمة «زواج». هكذا كان أبي وأمِّي في الواقع. إنَّه ببساطةٍ شيءٌ غريزيّ.

كان الأوَّل من يناير يومًا مُهمًّا في بيتنا، في طفولتي، ولكنَّ أبوَيّ لم يخبرانا بالسَّبب كاملًا قطّ. قال أبي: «إنَّه عيد القدِّيس الذي سُمّينا تيمُّنًا باسمه»، وذلك هو التَّفسير الوحيد الذي أدلى به. كُنَّا نحتفل بعيد القديس مانويل في الأوَّل من يناير، لأنَّ كليْنا يُدعَى مانويل. وبتأثير التشبُّع والفكر السِّحريّ، وُلِد فالدي، ابني الثاني، في الأوَّل من يناير أيضًا. في التقويم السنويّ ثلاثمئة وخمسة وستون يومًا. وعلى الرَّغم من ذلك، وُلِد فالدي في اليوم الذي يوافق ذكرى زواج جدّه وجدته. تراه الحظ؟ لو أنَّ القدر حُبًّا، فهو القدر.

حضر أصدقاء والدَيّ إلى البيت في الأوَّل من يناير، عام 1965 و1966 و1967، وحتى منتصف السبعينيَّات وأواخرها على وجه التَّقريب. ثمَّ طرأت بعض التغيُّرات. بات لأبي وأمِّي أصدقاء غير الأصدقاء. وفي الثمانينيَّات، صار يحضر صنفٌ آخر من الأصدقاء. أدركتُ بالبداهة أنَّها لم تكُن تغيُّرات جيِّدة. في أوائل التسعينيَّات، ما عاد يحضر أحد، واقتصر الاحتفال على الإطار العائليّ.

كنتُ أشعر بسعادةٍ غامرة يومذاك، وإن لم أدرِ جيِّدًا ما الذكرى التي نحتفل بها. لطالما شعر والدي بالسَّعادة في الأوَّل من يناير. أتساءل عن الأصدقاء الذين كانوا يحضرون لرؤيته على مدى ثلاثين عامًا. ثمَّ أمسكوا عن الحضور.

وحدها الجدران كانت شاهدة. تلك الجدران ذات الانحناءة، في الشقَّة التي قد تُرمَّم إذا حالفها من الحظّ الكثير.

ماذا كان من أمر راميرو كروث، الذي كان أوَّل المُتَّصلين عَبْر الهاتف عام 1968؟ ماذا كان من أمر إستيبان سانتوس؟ وماذا عن أرماندو كانثِر؟ وماذا عن خوسيه ماريا غاباس؟ وماذا عن إرنستو خيل؟ أولئك الذين ماتوا واحدًا تلو الآخر.

حفظتُ أسماءَ أصدقاءِ والدي عن ظهر قلب، لأنَّ جميعهم كانوا من الأبطال في عقل الطفل الذي كنتُه. ما داموا أصدقاءَ والدي، فهم مثله. ولذا، فهم خيرةُ رجال العالَم.

كانوا يتَّصلون بالرَّقم التالي: 310439. آنذاك، لم تكُن إضافة الكود المحلّي ضروريَّة، الكود الذي سوف يُزاد على الرَّقم بعد حين.

كثيرًا ما راق لأبي تلقِّي اتِّصال إرنستو خيل، لأنَّه كان عمدة بارباسترو. راق له أن يتلقَّى اتِّصال العمدة تهنئةً بمناسبة العام الجديد، وعيد القديس الذي سُمِّي والدي تيمُّنًا باسمه.

أذكر كيف كان أبي يلتقط الهاتف، وهو لا يزال بالروب. كانت المكالمات تأتي مُبكِّرًا، وتبدو لي باعثةً على القلق، إذ تراوحَت ما بين الوقار والغموض.

ربطني زواجي بأبوَيّ على نحوٍ عقلانيٍّ أو اجتماعيٍّ أو استنباطيٍّ أو مُتَّسِق، ولكنْ في أعقاب طلاقي، الذي تزامن وموت أمِّي، الشاهدة الأخيرة، نشأت صلةٌ جديدةٌ جمعَت بيني وبين حياة أبوَيّ. بدَّل طلاقي مسار علاقتي بأبوَيّ اللذيْن فارقَتهما الحياة. وإذا علاقةٌ جديدةٌ تنشأ لتبقى، علاقةٌ شبحيَّة، ملأى بالأحجيات والتبصُّر.

حضر الروحان. وبات أبي هو الأكثر حضورًا. هو الذي يرقد بجواري ويتلمَّس يدي.

وها هو ذا، مُتفحِّم.

«لماذا طلبتَ إحراق جثماني يا بنيَّ؟»

بعد زمنٍ قصير، سأكون أبًا ميِّتًا أنا الآخر، وسيُطلَب إحراق جثماني. سيراني فالديٍ وبرا ميِّتًا.

من الخطأ التَّفكير بأنَّ الموتى يُثبِّطون العزيمة، ويبعثون على الحزن والاكتئاب. كلَّا، فالموتى هواء طلق مبعثه الماضي، هواءٌ يصل إلى الحاضر من خلال صيحةٍ عاشقة.

أؤمن بالموتى لأنَّهم أحبُّوني أكثر كثيرًا من أحياء اليوم.

لم يخبرني أبوايَ قطُّ بما جرى في الأوَّل من يناير، ولم يقولا: «إنَّه اليوم الذي عقدنا فيه زواجنا».

وعندما تحقَّقتُ من الأمر على سبيل المصادفة، بالنَّظر إلى البطاقة العائليَّة، تملَّكَتني الدَّهشة. حينئذٍ فهمتُ كلَّ شيء.

- 53 -

ما زال اسم أبي يظهر على الإنترنت، في موقعٍ قديمٍ للوكلاء التجاريِّين. أَمِنَ المُمكن أن يكون هناك مَن يرجع إلى ذلك الموقع مِنَ البشر؟ الانقراض التامّ على المدى القصير ضربٌ من المحال، ولا بدَّ من الانتظار عقودًا، بل قرونًا. ما زال من الممكن أن تتَّصل شركةٌ أو شخصٌ للاستعانة بخدماته. بعد مضيِّ عشرة أعوام على موته، ما زالَت خدماته مُقدَّمةً على الإنترنت بصفته وكيلًا تجاريًّا ناشطًا. الإنترنت يراهن على الخلود، ومن بين الرهانات المُتاحة للبشر على الخلود، ذلك هو الأشدّ رسوخًا.

أفتح الموقع بين الحين والآخر. أستغرق في النظر إلى اسم أبي ورقم الهاتف المُرفَق.

على أحدهم أن يحذفه، أو بالأحرى يضع رقم هاتفي المحمول بجواره، حتى يهاتفني المُتَّصل إن لم يتلقَّ جوابًا على الرَّقم الأرضيّ، فلا يضيع ذلك الاتِّصال.

عسى ألَّا يضيع ذلك الاتِّصال الذي يأمل بلوغ الحيَّ حيث الأموات. عسى ألَّا يتلاشى ذلك الإيمان.

كثيرًا ما أتَّصل بهذا الرَّقم: 974310439. إنَّه طقسٌ دينيّ.

كثيرًا ما خطر لي وشم هذا الرَّقم على ذراعي، وسأفعلها في النهاية.

لا أريد الموت ما لم أشِم هذا الرَّقم على ذراعي أوَّلًا، حتى يلتهمه الموت.

هذا الرقم: 974310439.

- 54 -

لا مانع لديَّ في إماطة اللِّثام عن حياة أبي. وإن لم يكُن في إسبانيا مَن يريد إماطة اللِّثام عن أيِّ شيء. سيكون من المفيد لنا أن نكتب عن عائلاتنا كتابةً مُجرَّدةً تمامًا من الخيال، مُجرَّدةً من الروايات، فلا نحكي سوى ما جرى، أو ما نحسب أنَّه قد جرى. يُخفي الناس حياة أسلافهم. كلَّما تعرَّفتُ بشخص سألتُه عن أبوَيْه، أي عن الإرادة التي جاءت به إلى العالَم.

يستهويني كثيرًا أن يحكي لي الأصدقاء عن حياة آبائهم. فأصير كلّي آذانًا صاغية، وأستطيع رؤيتهم. أستطيع رؤية أولئك الآباء، وهم يكافحون من أجل أبنائهم.

وأجمل ما في العالَم ذلك الكفاح. ربَّاه، ما أجمله!

ـ 55 ـ

ذات يومٍ من أيَّام الصيف، في عام 2003، طلب الأطبَّاء الحديث إلينا ـ أنا وأمِّي.

لم يرغبوا في حضور أبي.

أشار الطبيب إلى مقعدَيْن حتى نجلس. وإذا هو يصيبنا إصابةً مباشرةً بقوله إنَّ أبي مريضٌ بسرطانٍ في القولون، ويبدو في حالةٍ حرجةٍ للغاية. طلب منَّا الطبيب أن نوطِّن النَّفس على تلك الفكرة. كان طبيب أورامٍ، وبدا واضحًا عليه أنَّه تدرَّب على تلك اللَّحظات، لحظات الانكسار، التي يُبلَّغ فيها أحدهم بقرب الموت. تأثَّرتُ بأسلوبه، لأنَّ ذلك الرجل كان راضيًا عمَّا يفعل، على نحوٍ ما، لا بطريقةٍ غير أخلاقيَّة، ولا لأنَّه يتلذَّذ بنقل خبر الموت المحتوم أو بإذاعة نبأ المصيبة، وإنَّما لاعتقاده بأنَّه يؤدِّي عمله بإتقان. وكأنَّ في رأسه معملَ كلماتٍ مُتخصِّصًا في إذاعة الأخبار الحتميَّة. وكأنَّه خاض الاختبارات بأنواعها كافَّةً، وتدرَّب على الكلمات بصنوفها كافَّة. كانت في رأسه البلاغة اللَّفظيَّة المصيريَّة، ولكنَّه لم يكُن شاعرًا، بل مغتربًا آخر في هذا العالَم، حيث أولئك الذين يفنون سدًى، لا يُحصَى لهم عدد.

مات أبي بعد أن أصدر الطبيب ذلك الحكم الأحمق بعامَيْن وبضعة أشهر. وإن كنتُ أعتقد بأنَّ والدي قد فارق الحياة، لأنَّ تكهُّنات طبيب الأورام بدَت له جديرةً بالاهتمام، لأنَّه لم يرِد لذلك الطبيب أن يبدو بمظهرٍ سخيف، مات من باب المجاملة المهنيَّة.

بدَت حماقة طبيب الأورام لأبي وكأنَّها ذريعةُ القَدَر التي تسمح له بالخروج من هذا العالَم تلبيةً لدعوةٍ من أحدهم.

لا أؤمن بالأطبَّاء، وإنَّما بالكلمات. لا أؤمن بأنَّ الأطبَّاء يعرفون ما نحن حقَّ المعرفة، لأنَّهم يجهلون عالَم الكلمات. ولكنِّي أؤمن بالمُخدِّرات. أوكل العلمُ الحديث إلى الأطبَّاء سلطةَ تصنيف المُخدِّرات ووصفها. والطبُّ ذو قيمةٍ ما دام يزوِّدنا بالمُخدِّرات، أي بما يقتل. المُخدِّرات هي الطبيعة، ذلك أنَّها كانت هناك منذ الأزل. وعلى الرَّغم من ذلك، لا يُسمَح لنا تعاطيها وفق هوانا.

خيَّم الصمت، ثم عاودتُ النظر إلى طبيب الأورام. وبينما راحت أمِّي تسأله عن شيءٍ خطر لها، تألَّمتُ فجأةً لحياة الطبيب أكثر ممَّا تألَّمتُ لحياة أبي.

وبدَت لي حياةُ ذلك الرجل أشدَّ مدعاةً للاكتئاب من خبر مرض أبي.

- 56 -

لا نحن قلنا لأبي أيّ شيء، ولا هو سأل في أيٍّ وقت. قرَّر أبي أن يحتقر مرضه. أعتقد بأنَّه سلك مسلكًا روحانيًّا. اكتفى بالتزام الصمت.

خضع للجراحة عدَّة مرَّات، في الصَّمت، وكأنَّه لا يمانع أن يقتحموا جسده لتنفيذ مهمَّاتٍ مبهمة، مراسميَّة، مُتبلِّدة. لم يكترث بأن يزور الجرَّاحون أعضاءه الداخليَّة، وبأن يقضوا هناك مواعيد عملهم الرَّسميَّة التي حدَّدَتها النقابة والإدارة بصرامةٍ بالغة.

مضى أبي في سبيله إلى الموت، بينما الأطبَّاء يتقاضون رواتبهم الشهريَّة. وكان الاغتراب في موت أبي أخفَّ منه في رواتب تلك الكائنات المنعدمة الجاذبيَّة.

استهوَته مشاهدة التلفزيون. أعتقد بأنَّه قضى ملايين الساعات أمام التلفزيون. شهدتُ بعينيَّ تطوُّر تكنولوجيا أجهزة التلفزيون. كان شراء جهاز تلفزيون في الستينيَّات والسبعينيَّات من القرن الماضي حدثًا مُهمًّا يشيع البهجةَ والخوْف.

أذكر أوَّل تلفزيون يدخل بيتنا. في صِغَري، أذكر أبي وهو يشاهد برنامج مسابقات من الستينيَّات، بحماسةٍ جارفة، كان البرنامج يُدعَى «واحد، اثنان، ثلاثة... أجِب مرَّةً أخرى». كان أبي يدمن ذلك البرنامج، حيث يُفترَض بالمتسابقين أن يجيبوا عن أسئلةٍ غير مُتوقَّعة، تحت شعار «واحد، اثنان، ثلاثة... أجِب مرَّةً أخرى».

كان أبي يجيب عن الأسئلة مع المتسابقين، ويربح كعادته.

كان في يده المشاركة في تلك المسابقة.

غير أنَّه لم يشارك فيها يومًا.

لعلَّه فكَّر أنَّه سوف يُضطَرُّ إلى ركوب الحافلة. لم يرُق لأبي ركوب الحافلات، ولا القطارات. وحدها السيَّارات كانت تروق له، لأنَّ سيَّارته امتدادٌ له، لأنَّ سيَّارته هي نفسه. ولذا، كان يتركها في الظلّ، في فصول الصيف الحارقة، لأنَّ والدي ما كان يحبّ البقاء في الشمس.

كرهتُ تلك المسابقة، مع أنَّها عُرِضَت أيَّام الجمعة، والكلّ في حالة استرخاء، لأنَّ اليوم التالي عطلةٌ دراسيَّة.

لا أدري كيف يمكنك الإعجاب بذلك البرنامج. كان بشعًا. اعلمْ أنَّه ما كان يعجبني البتَّة، بأسئلته البلهاء، وعزائي الوحيد أن يموتوا جميعهم، واحدًا تلو الآخر، جميع المتسابقين والمذيعين والمنتجين والمضيفات في ذلك البرنامج الذي لا يعدو أن يكون كومةً هائلةً من الخراء، ليس لك أن تتخيَّل كم كنتُ أعاني أمام ذلك الشيء المبتذل على شاشة التلفزيون، بينما أنت هناك، تجيب عن الأسئلة مع تلك الكائنات البشريَّة المُختزَلة في ابتسامةٍ صفراء. أعتقد بأنَّهم كانوا يعرضون إسبانيا مُتخلِّفة. حسنًا، كان ابنك في نسقٍ آخر من تاريخ إسبانيا بالفعل. من حسن الحظّ أنَّ الكلّ بات الآن شبحًا. ماتَ مُقدِّمو البرنامج، أو كادوا يموتون عن آخرهم. حانَت راحة الموت ونقاؤه لأولئك الذين التقط التلفزيون صُوَرَ وجوههم: الفكاهيُّون، والمطربون، والمذيعون، كلّ هذه الوجوه الإسبانيَّة على نحوٍ عنيد، لأنَّ التغلُّب على الابتذال في إسبانيا

لا يكون إلّا بالموت. في وسعي أن أتخيَّل صُوَرًا في أطَرٍ تبدو عليها الفخامة بوضوح، صُوَرَ أولئك المتسابقين مُعلَّقةً على جدران بيوتهم، صُوَرًا يتوارثها الأبناء عن آبائهم، «إنَّها صُوَر ماما وبابا في برنامج: واحد، اثنان، ثلاثة... أجِب مرَّة أخرى»، «شارك بابا وماما في المسابقة عامَ 1977 مع كيكو ليدغارد». أتذكرون كيكو ليدغارد؟

أين عساه يكون قد دُفِن، كيكو ليدغارد، ذلك المذيع الأسطوريّ، مذيع التلفزيون الإسبانيّ في منتصف السبعينيَّات؟ هل أنجب أبناءً؟ أيذكره أبناؤه؟ كنتُ وأبي نشاهده كلّ جمعة. في الواقع، كنتُ أشاهد أبي وهو يشاهده. أذكر أنَّ كيكو ليدغارد كان يضع حول معصمَيْه عدَّة ساعات يد، إيمانًا منه بالخرافات.

لعلَّ تلك الساعات، في مكانٍ ما، كانت جيِّدة.

ولكنِّي الآن أذهب إلى شيءٍ يُدعَى يوتيوب يا بابا، وأبحث عن تلك البرامج التي عُرِضَت على شاشة التلفزيون الإسبانيّ في السبعينيَّات، فأشاهدها وقد استحوذَت عليَّ مشاعرُ حبٍّ وحنينٍ لا تُوصَف، لأنَّها كانت برامجك أنت. ليس حقًّا أنِّي كرهتُ تلك البرامج، كلّ ما في الأمر أنِّي كنتُ أريد منك أن تأخذني من يدي، وتخرج معي إلى الشارع في نزهة، أن تكون معي، لا مع مذيعي التلفزيون الإسبانيّ، الذين هم الآن معي، على شاشة الكمبيوتر، وأنا الذي أُدمِن الحنين، أُدمِنك أنت، أُدمِن اليوتيوب، أُدمِن الماضي.

أحلم بأنَّنا، أنا وأنت وماما، نرتدي ثيابًا رسميَّة، من ماركاتٍ معروفة، وننتعل الأحذية اللَّامعة، ونذهب إلى حيث ينتظروننا في أفضل مطاعم باريس، إلى مطعمٍ يطلّ على نهر السين.

أحلم بأنَّنا ضحكنا وشربنا الشامبانيا وأكلنا الكافيار والحلزون، وبأنَّ ماما أشعلَت سيجارةً بقدَّاحة دوپون من الذهب، أهديتَها إياها لتوِّك.

أحلم بأنَّنا أثرياء.

أحلم بأنَّك تلقي النكات باللُّغة الفرنسيَّة، أحلم بأنَّنا في عام 1974، وبأنَّ العالَم لنا.

أحلم بأنَّنا لم نشاهد التلفزيون قطّ.

أحلم بأنَّنا كُنَّا نسافر طوال الوقت، ليلةً في باريس، وأخرى في نيويورك، وبضعة أيَّامٍ في موسكو، وبضعة أيَّامٍ أخرى في بوينوس آيرس، أو روما، أو لشبونة.

أحلم بالهيمنة على العالَم.

أحلم بأنَّ ثلاثتنا نتناول العشاء في أفضل مطاعم العالَم، ونلقي النكاتَ باللُّغات كافة: بالروسيَّة، والإنجليزيَّة، والإيطاليَّة، والبرتغاليَّة.

أحلم بأنَّك تشتري بيتًا كبيرًا على مقربةٍ من لشبونة. أحلم بأنَّ ثلاثتنا نتأمَّل المحيط الأطلنطي.

لأنِّي أعرف كم أحببتَ الحياة.

مرَّت الأعوام، وصار أبي يدمن برامج الطهو في أواخر التسعينيَّات. كان يمضي الساعات في مشاهدة طهاةٍ يعدُّون عجين البونيويلو المقلي أو سمك الباكالا أو أرز الپاييا على شاشة التلفزيون. كان يرتدي روبًا أخضر اللَّون في غاية الرقَّة، روبًا من الحرير، ويضع النظّارة، ويجلس أمام التلفزيون لمشاهدة برامج الطهو.

كان أبي يبدو ملاكًا، ملاكًا باسمًا، وهو يتأمَّل منظومةَ التذوُّق الواقعيَّة.

كان يبدو مبعوثًا، مُهمَّته تقديس الطعام بحاسَّة البصر.

خلَت تلك البرامج من أيّ حبكة، أو اقتصرَت الحبكة ببساطةٍ على طريقة طهو سمك النازلي بطريقة مايوركا. وأعتقد بأنَّ ما كان يخلب عقل أبي في الواقع هو الرصد الجغرافيّ لوصفات الطعام الإسبانيَّة. وأنَّ طريقة إعداد الطبق تختلف باختلاف المكان. ربَّما كان في قرارة نفسه يتخيَّل ذاته وهو يعيش في مايوركا، أو بِلباو، أو مدريد، ويتناول سمك النازلي، أو سمك الباكالا، أو اليخنة. كان يجيد الطهو، ويُتقن إعداد كلّ هذه الأطباق، ولكنَّ التعرُّف على طرق إعداد أطباقٍ أخرى هو ما راق لأبي.

استهوَته البهجة التي ينشرها أحدهم بينما هو يطهو. لأنَّ الطاهي، في طيَّات نفسه، يحمل مقترحًا من أجل المستقبل. فكلُّ شيءٍ سوف يكون، كلُّ شيءٍ مُهيَّأً من أجل المستقبل، وإن يكُن المستقبل الآتي بعد خمس عشرة دقيقة.

ذات يوم، توقَّف عن القلق بشأن سيَّارته، السيات مالاغا العتيقة. لطالما انشغل بسيَّارته، بطريقةٍ موسوسة، وانشغل بالعناية بها، والاحتفاظ بها على أكمل وجه.

ولكنَّه هجرها في المرأب، وما عاد يقودها. ذهبتُ ألقي على السيَّارة نظرةً بنفسي، فوجدتها غارقةً في الغبار.

قلتُ له: «بابا، السيَّارة يكسوها الغبار».

فنظر إليَّ، وبدا أنَّه قد تأثَّر بالأمر حقًّا.

قال: «كانت سيَّارةً جيِّدة، افعلْ بها ما يحلو لك».

حين تخلَّى أبي عن الاهتمام بسيَّارته، عرفتُ أنَّه لن يلبث أن يموت. عرفتُ أنَّها النهاية.

كانت واحدةً من أحزن اللَّحظات في حياتي، وودَّعني أبي من خلال تلك الآلة.

فبدلًا من أن يقول: «علينا أن نتحدَّث، النهاية وشيكة»، قال: «كانت سيَّارةً جيِّدة». رباه، أيُّ جمال! تحلَّت روح أبي بمَلَكة الرقيّ، مَلَكة اللامُتوقَّع، والأصالة البسيطة، أيًّا يكُن المكان الذي جاءَت منه روحه.

إنَّه الترفُّع.

جلستُ على مقعدٍ في المطبخ، واستغرقتُ في النظر إليه. توتَّرَت أعصابي. شعرتُ بضيقٍ عارم. وحدي في الكَوْن بأسره عرفتُ معنى كلماته، «افعلْ بها ما يحلو لك».

وكأنِّي به يقول شيئًا يمزِّق الفؤاد: «افعل بي ما يحلو لك، فأنا لا ألمس حبّك».

لا ألمس حبّك.

لا أنا أحببتك بالقدر الكافي، ولا أنت أحببتَني بالقدر الكافي.

لقد حُكِم علينا بالتساوي.

ذهبتُ ألقي نظرةً على السيَّارة.

تهبّ رياح أبي الرُّوحيَّة على كلِّ موضعٍ في السيَّارة. يداه الضخمتان على المقود، نظَّارته، الحقيبة الخاوية، الغطاءُ المفروش داخل حقيبة السيَّارة لحمايتها من شيءٍ لا أدري له كنهًا (وطبعًا، فرشتُ في حقيبة سيَّارتي بدورها غطاءً لحمايتها من شيءٍ لا أدري له كنهًا)، صندوق المقصورة بما حوى من مستنداتٍ مُرتَّبة. عرف أبي كيف يرى الاندماج الروحانيّ الذي نشأ بين الطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا في إسبانيا وبين السيَّارات التي استطاعَت تلك الطبقة اقتناءها.

كانت صناعةً سياسيَّةً روحانيَّة: مؤاخاة سلفيَّة بين الصفيح والطِّلاء واللَّحم والدم.

تبدو لي طريقته في الرَّحيل عن هذا العالَم فنًّا راقيًا. لقد رحل في تكتّمٍ جديرٍ بالإعجاب.

لم يأبه للموت، ولم يأخذه في الحسبان. تألَّم للسيَّارة. من المُؤكَّد أنَّ الذعر قد تملَّكه، لأنَّ ما شكَّل عنده مصدرَ قلقٍ دائمٍ طوال الحياة ـ وبالتالي أساسًا ومغزًى لتلك الحياة ـ ما عاد يهمُّه. كان تحوُّلًا راديكاليًّا.

مضيا في سبيلهما إلى الموت في آنٍ واحد، هو وسيَّارته.

يومَ هجر سيَّارته، شعرتُ بغُصَّةٍ في قلبي.

كنتُ أعرف ما الذي تعنيه له السيَّارة. كانت السيَّارة عنده تمثِّل جذورًا مادِّيَّةً تصله بالعالَم، مِلْكيَّة. جاءت روح أبي من زمنٍ موغلٍ في البُعد، من تلك اللَّيلة القديمة الكوكبيَّة، إنَّها روح بشرٍ بلا جذور ـ حيًّا كان أو ميِّتًا، سيَّان ـ من هناك جاءت روح أبي. تلك الأرواح لا تمدّ جذورها في الأرض، إنَّها فائقةُ الجمال والتذبذب.

صرنا لامرئيِّين في عينيْ أبي.

أُصيبَت أمِّي بنوبات هلع.

كانت تخشى الأطوار الأخيرة من المرض.

أسرةٌ كارثيَّة، ولكنَّها أصيلةٌ في الوقت نفسه.

كُنَّا نروح ونغدو إلى المستشفيات ومنها.

من دون كلام.

لا أفهم ماذا جرى! أعتقد بأنَّ قدرًا من المسؤوليَّة يقع على عاتقي. إذ شعرتُ في دخيلة نفسي باستياءٍ حال دوني ودون تولِّي زمام الأمر برمَّته. كنتُ أُصاب بنوبات اكتئابٍ في المستشفيات. ولم أحتمل ذلك.

تعثَّرَت حياتي، بينما أخذَت حياة أبي تخبو.

أخذ كلٌّ منَّا يُلقي باللائمة على الآخر. فكان أبي يلوم أمِّي، وأمِّي تلومني، وأنا ألوم أبي، وأبي يلومني، وأمِّي تلومني، إلخ. اندلعَت فوضى عارمةٌ مُؤلَّفةٌ من اللَّوم والاستياء.

لم نهنأ بدقيقةٍ واحدة من الراحة.

ـ 61 ـ

في الواقع، حدث شيءٌ خارقٌ لأسرتي: لم يقُل أحدنا يومًا «نحن أسرة». لم ندرِ ما الذي كُنَّاه. ولذا، أرغب الآن في استحضار ذكرى عشيَّة عيد ميلادٍ مُروِّعة، منذ قرابة نصف قرن، لعلَّها كانت عام 67 أو 68. ليلتذاك، استشاط أبي غضبًا بسبب شيءٍ مُتعلِّقٍ بتحضير العشاء، شيءٍ لم يوافق هواه.

فطفق يحطِّم الصحون.

داهمته نوبة غضب، فألقى بالصحون على الحائط، والأرض، كما في الأفلام.

أوينا إلى الفراش.

لم نهنأ لا بعشيَّة عيد الميلاد ولا بأيِّ شيء. انطبع الأمر برمَّته في ذهن أسرتي، حتى خيَّمَتْ علينا أجواءٌ من الحزن العصيِّ على البوح.

اختار أبي عشيَّة عيد الميلاد كي يحطِّم الصحون ويفتِّتها إلى شظايا.

لم أدرِ ماذا جرى. كلَّ ما هنالك أنِّي رأيتُ الصحون تحلِّق في الهواء. ولم تعُد فوق الطاولة.

يُفترَض أنَّها كانت عشيَّة عيد الميلاد، سحقًا! أقدَس ما تملكه الأسرة. لم أسأل عن تلك الواقعة قطّ، وكان يجدر بي أن أفعل، فلربَّما كنتُ أفهم شيئًا يتعلَّق بأسرتي، ولذا فهو يتعلَّق بمستقبلي.

كيف لي بالسؤال عن تلك الواقعة وقد مضَت بخطًى حثيثة إلى غياهب اللَّامذكور والشبحيّ! كيف أسأل وقد أردتُ محوها، وتحطيمها! بل إنِّي كدتُ أنجح في ذلك حين أضفتُ إليها آلاف القطرات من الاستحالة، ومن أدمعي، وصدمتي، كتلك الصدمة الأخرى، الصلبة، التعيسة، التي أورثني إيَّاها الكاهن «ج.» حين دلفتُ إلى الفصل الذي غمره الضوء السَّاطع.

إنَّ ما نشهده في الطفولة يقرِّر حياتنا المستقبليَّة، كما يُعرَف جيِّدًا. على الرَّغم من ذلك ـ وهنا تكمن مساهمتي ـ فهو لا يقرِّر حياتنا المستقبليَّة وفقًا لأيِّ إطارٍ اجتماعيٍّ أو سياسيّ، بل من خلال صفقٍ تأسُّليٍّ للدماء. أمَّا في حالتي، فما شهدتُه في الطفولة قرَّر حياتي المستقبليَّة انطلاقًا من المعرفة المُثقلَة بنعمة المصير، لأنَّها نعمةٌ أن يكون لك مصير.

أغلب البشر بلا مصير.

ومن المُذهِل أن الماضي يحرث المصير في التجاويف الآليَّة لأنفاسي، لأنَّ أغلب الرجال والنساء بلا تاريخ. لهم حياةُ بلا تاريخ. حتى ذلك شيءٌ بديع. وفي النهاية، يُعَدُّ كوكب الأرض مقبرةً عامةً تضمّ الملايين من الكائنات البشريَّة الذين كانوا هنا، ويفتقرون إلى التاريخ. وما دمتَ بلا تاريخ، فمن المُمكن سؤالك عمَّا إذا سبقَتْ لك الحياة ذات مرَّة.

تُرتَّب الفصول والعقود، تُرتَّب اليد والسنّ المعطوبة، أمَّا بقايا الرفات العظميَّة لأولئك المشنوقين فتتبعثر، وفي النهاية، لا يسع المرء إلَّا التَّفكير في «مكروهيَّة» الرَّب.

إنَّه رَبٌّ مكروه، تفتَّق ضجرُه عن أوديسا البشر.

لا يجب على الابن أن يشهد اللَّحظة التي تغدو فيها أمّه طفلةً صغيرة.

أعتقد بأنَّ أمِّي أجهشَت بالبكاء في عشيَّة عيد الميلاد المشؤومة تلك. أمِّي، التي كانت متى هبَّت العواصف، تحبس نفسها في خزانة المؤن داخل المطبخ. أمِّي، التي كانت تفزع من العواصف. كنتَ تفتح بابَ خزانة المؤن داخل المطبخ، تلك الخزانة التي تشبه النعش، فتجد أمّك هناك. إن هبَّت عاصفةٌ، فإلى أين كانت تذهب أمِّي؟ كانت تختفي، وتولِّي هاربةً من العالَم كلَّما ضربَته الرعود والصواعق والأمطار الغزيرة. فتتوارى عن الأنظار في خزانة المؤن داخل المطبخ. كان الهروب من العواصف يمثِّل شبابها.

كنتُ أخالها لعبةً، فأفتح باب الخزانة، حيث أجد أمِّي، جامدةً، شابَّة، وقد شُلَّت كالتمثال. ولكنَّ وجهها الشاب قد تلاشى من ذاكرتي، وما عاد يسعني إلَّا تذكّر العجوز الهرمة التي صارَت إليها، فهالها ذلك أكثر ممَّا هالني. كانت شاهدًا مسؤولًا عن هوْلها. لأنَّها تميَّزَت بتكوين الملائكة. فوحدها الملائكة قد لا تغفر لنفسها هوْل الشيخوخة.

الشيخوخة لا تُغتفَر. فهي تمثِّل «المكروهية» والإخفاق.

عن الوعي بالشيخوخة أتحدَّث. فكلَّما زدتَ وعيًا بالشيخوخة اقتربتَ من «مكروهيَّة» الرَّب.

كانت أمِّي ملاكًا. رأت شيخوختها، فقابلَتها بالرفض. عندئذٍ صارَت شهيدة، وإن ظلَّت عبادة الحياة تخفق بين جوانحها في كلِّ شيء. لا أنا ولا هي احتملنا المرايا. فالمرايا للشباب. وما دمتَ تحترم الجمال، لا يسعك احترام التقدُّم في العمر.

صارت مطابخ البيوت الإسبانيَّة المعاصرة تخلو من مخازن المؤن. غير أنِّي كدتُ أنسى حجرةً أساسيَّةً في بيت أبوَيَّ، حجرةً بلا نوافذ، في نهاية الرواق، كانا يطلقان عليها «خزانة الثياب». كان الباب المُؤدِّي إليها يعلق، ولذا فلطالما شقَّ الدخول إليها. في الداخل، احتفظنا بحقائب العمل الخاصَّة بأبي، حيث كان يحتفظ بعيِّنات الأقمشة التي يبيعها لأصحاب الأنشطة الصَّغيرة في قرى أويسكا وتيرويل وليريدا. فضلًا عن تلك الحقائب، احتفظنا بثيابٍ وأشياء غامضة. كان الدخول إلى تلك الحجرة محظورًا علينا ـ أنا وأخي. أعرف أن والدتي قد أخفَت هناك أشياءَ من الماضي، أشياءَ لم تجترئ على التخلُّص منها، وإن تخلَّصَت منها رويدًا رويدًا، بمضيِّ الزمن. لم أدرِ يومًا ما الذي تحويه خزانة الثياب! كان يرد ذكرها في الحديث أحيانًا، في عباراتٍ من قبيل: «لعلَّه في خزانة الثياب» أو «سنحتفظ به إن وجدنا له مُتَّسعًا في خزانة

الثياب»، ولكنَّها كانت حُجرةً غريبة، تقع في زاويةٍ مُثلّثة الشَّكل، جدرانها يكسوها ورقٌ مُزيَّنٌ بنجومٍ في سماءٍ زرقاء داكنة. أعتقد بأنَّ ورق الجدران كان أشدّ ما يبثّ الاضطرابَ في نفسي. كان الورق يكسو جدران البيت كلَّه فيما مضى، فأُزيل إلَّا عن جدران تلك الحُجرة. راحَت أمِّي تبدِّل شكل الجدران، فاختارت الطِّلاء، والزخارف الجصِّيَّة، غير أنَّها تركَت خزانة الثياب مثلما كانت منذ الأزل، منذ عام 1960. ولذا، مثَّلَتْ خزانة الثياب رحلةً في الزمن. باتَت صيحةُ ورق الجدران من الماضي. وعلى الرَّغم من ذلك، احتفظَت جدران خزانة الثياب بالورق: حيث النجوم في سمائها، والحقائب، والثياب، والأشياء الخفيَّة، وأمِّي المختبئة كلَّما هبَّت عاصفة. كانت تختبئ في خزانة الثياب أو في خزانة المؤن. في اعتقادي، أنَّها آثرَت خزانة المؤن كثيرًا، إذ كانت خزانة الثياب مكانًا محفوفًا بالمخاطر، تسكنه قوَّةٌ معتمة. أمَّا أنا، فعشقتُ خزانة الثياب، لأنَّ فيها تكاثفَت جاذبيَّة أبي وأمِّي. بعد أن كان ورق الجدران صيحةً مدوِّية، بات من الماضي. لم تكُن سيِّئةً تلك الجدران التي اكتسَت بالورق بجميع ألوانه.

كانت أمِّي، كلَّما هبَّت عاصفة تعود طفلةً، وتختبئ عن الأنظار. لا في خزانة الثياب وخزانة المؤن فحسب، بل وتحت الفراش أيضًا. كنتُ طفلًا يرى كيف تذوب أمّه في المكان والزمان بفعل السحر، فلا تعود هناك. وإذا بي أبحث عنها في أرجاء البيت، وعواصف الصيف تزيد من اتِّساع السماء، وتفتِّت قبَّةَ السماء إلى ألف شظيَّةٍ من الضوء المصمت. فنغدو طفلًا وطفلة، تجمع بينهما صلةُ قرابةٍ عصيَّةٌ على الفهم، تكاد تكون ملعونة. «تعالَ، تعالَ واختبئ هنا مع ماما، ضع يدك في يد ماما، فالعالَم شرِّير».

كان لتعاستنا ما يبرِّرها.

لطالما فكَّرتُ في ذلك.

كانت تعاستنا فنًّا طليعيًّا.

لعلّها تعاسةٌ وراثيَّة، ضربٌ من العجز عن العيش. وإن مرّ أبي بلحظاتٍ هانئة.

حين اختير نائبًا في أوَّل المجالس البلديَّة الديمقراطيَّة في إسبانيا، كانت تلك لحظةً هانئة. هكذا أمضى أبي وقتًا هانئًا، وصفا مزاجه، في مطلع الثمانينيَّات، حين كنتُ أقيم وأدرس في ثاراغوثا. بين الحين والآخر، كان يحضر إلى ثاراغوثا لمقابلتي، وإن كُنَّا لا نزال فقراء. لم يتوَّصل أبي والنقود إلى تفاهم. ولطالما كانت أحوالنا الماليَّة مُتردِّية. في العشرين من عمري، فزتُ بجائزةٍ أدبيَّة، فاحتفظَت أمِّي بقيمة الجائزة، وأتَت عليها كاملةً. عشرون ألف بيسيتا عام 1982، أنفقَتها أمِّي، ولم تقُل لي يومًا فيما أنفقَتها. تلقَّتها بنفسها، لأنَّ القائمين على الجائزة أرسلوا النقود عَبْر حوالةٍ بريديَّةٍ على عنوان الأسرة، لا عنواني في ثاراغوثا.

أعتقد بأنَّها أنفقَتها على لعبة البينغو. كانت أمِّي تلعب البينغو. أذكر أنَّها كانت تأخذني إلى مباريات البينغو حالما أتممتُ الثامنة عشرة من عمري.

كلاهما، أبي وأمِّي، كانا يلعبان البينغو، ويربحان في بعض الأحيان. كانا يذهبان كلَّ سبت. في أواخر السبعينيَّات، صارَت اللُّعبة شرعيَّةً في إسبانيا. خلبَت البينغو عقل أمِّي. أذكر عندما كان ينقصها رقمٌ واحدٌ على الفوز، فتهزّ الورقة مدفوعةً بإيمانها بالخرافات، مبتهلةً إلى قوًى لا أعلم لها كنهًا، مغمغمةً بكلماتٍ عجيبة، وأدعيةٍ لجلب الحظّ، مُطلقةً أسماء على الأرقام، من قبيل «الصبيَّة الجميلة»، وأحيانًا كانت تفوز بالفعل، على الرَّغم من خسارتها في غالب الأحوال. كانت تقول: «دعونا نلعب خمس مباريات ثمَّ نرحل»، فتغدو الخمس مباريات خمسين.

لم نجد إلى كسب المال سبيلًا، الأمر الذي أعتقد بأنَّه وراثيّ. فأنا أيضًا فقير، لا أملك مثوًى حتى أسقط فيه ميِّتًا. الشيء الإيجابي أنَّ أحدًا ما عاد يملك مثوًى حتى يسقط فيه ميِّتًا. ولربَّما كانت تلك وسيلةً للتحرُّر. ليت الشباب يسعون إلى حياة التِّيه، والفوضى، وعدم الاستقرار المهنيّ، والحرِّيَّة،

والفقر المصحوب بحسن التَّدبير. الفقر المُعطّل معنويًّا، أي الفقر المجتمعيّ. إنَّه حلٌّ جيِّد: الفقر بوصفه أساسًا جماعيًّا، وعدم الامتلاك المُشترَك.

تكمن مشكلة الفقر في تحوّله إلى بؤس، والبؤس حالةٌ معنويَّة.

ما كانت أمِّي تحتمل سأم الحياة. ولذا، كانت تتردَّد على المسابح والأنهار. لذا، كانت تلعب البينغو، وتأخذ حمَّام الشمس، وتدخِّن.

هي والشمس، تكاد أمِّي والشمس تكونان واحدًا.

تحدَّثتُ إلى طبيبة الأورام التي تولَّت حالة أبي في أواخر أيَّام حياته. دارت بيننا محادثةٌ قاسيةٌ مثيرةٌ للأعصاب. كانت طبيبةً شابة، تعاني من الضغوط. لعلَّها كانت ضحيةَ أوضاعٍ مُزريةٍ في العمل، كما دار في خَلَدي. من المُؤكَّد أنَّ راتبها هزيل. يتولَّى أطبَّاء الأورام حالاتٍ كثيرةً أصحابها على مشارف الموت، ولا بدَّ أنَّهم يتقاضون الراتب الذي يتقاضاه أطبَّاء النساء، الذين يؤدُّون واجبًا مهنيًّا أكثر بهجةً، إذ يُحضِرون المواليد إلى هذا العالَم. الرحيل عن العالَم من جهة، والمجيء إليه من جهةٍ أخرى، أمَّا الراتب فواحدٌ في كلتا الحالتَيْن.

طلبتُ من تلك المرأة أن تحاول إعفاء والدي من المعاناة في أواخر لحظاته. لم تفهم جيِّدًا ما قلتُ لها. خالَتني أقترح عليها القتل الرَّحيم أو شيئًا من هذا القبيل، ضربًا من القتل. بدا كلُّ شيءٍ وكأنَّه بحرٌ من الحيْرة. غضبَت منِّي، فلم آبه لغضبها. تراءى لي وكأنِّي أعيش قصَّةً من نسج الخيال، هذيانًا، عملًا مسرحيًّا لا ينتمي لهذا العالَم. ولكنِّي حرصتُ على ألَّا يتجشَّم أبي المعاناة. وآمل أن ألقى المعاملة نفسها: وأن يحرص أحدهم على تخديري، تخديري حتى النخاع.

أمضى يومًا كاملًا وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. رأيتُه يلفظ أنفاسه الأخيرة. جاء صوت أنفاسه كما لو كانت عاصفةً، أو محيطًا من الأنَّات الغامضة الطويلة. تهالك جسده. ولكنَّ الأصوات ما برحَت تصدر من أبي، والموسيقى تنساب من جسده. بدَت على أصابع قدمَيْه مسحةٌ دينيَّة، تليق بالمسيح المصلوب، وكأنَّها لوحةٌ إسبانيَّةٌ تعود إلى القرن السابع عشر. قدمان مُشوَّهتان، ولكنَّهما مُترقِّبتان. وإذا كلُّ شيءٍ محاولةٌ لالتقاط الأنفاس. كانت محاولةً ذكيَّة. راح أبي يصدر أصواتًا هادرة، تعِسة، كارثيَّة. فبدا حلقه وكأنَّه عشٌّ لملايين الطيور الصُّفر، التي راحَت تكسر جدران الهواء. صار أبي هو الباروك [14] الإسبانيّ. عند ذاك، فهمتُ الباروك الإسبانيّ، ذلك الفنّ القاسي، فنّ الافتتان بالموت، ما دام الموت هو التَّعبير الأسمى لسرّ الحياة.

منذ بلغتُ عمر المراهقة، بمتاعبها العصيبة، صرتُ أعرض عن أيِّ تواصلٍ بدنيٍّ يجمع بيني وبين أبي أو أمِّي. لم أحبّ لمسهما. ليس الأمر أنِّي لم أحبّ لمسهما، ليس هذا ما أرمي إليه. غير أنَّنا لم نكتسب ذلك التَّقليد. لم نرسِّخ ذلك الطقس. بصعوبةٍ كنتُ أطبع على وجنتَيْهما قبلتَيْن من باب الروتين. فدع عنك أن ألمس أبي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. قلتُ إنَّنا كُنَّا أسرةً غريبة، «مُتفكِّكة»، على نحو ما قد يُقال الآن. لا أعتقد بأنَّه أمرٌ جيِّدٌ أو سيِّئ.

لم يذهب أبي حتى إلى جنازة أمِّه، جدَّتي، ولا حتى أجرى اتِّصالًا هاتفيًّا. في حين تكفَّلَت أمِّي بزرع الديناميت في علاقة أبي بأشقائه، ولكنْ لا يهمّ.

زعم والدي أنَّ أمِّي تخفي عنه الأوراق. ولكنَّ التخلُّص من كلِّ ما يقع بصرها عليه من أوراق وإلقاءه في حاوية النفايات كان هو الأسلوب الذي اتَّبعَته أمِّي في ترتيب البيت. أذكر أبي وهو يضرب أحد الأرفف برأسه، لأنَّه عجز عن العثور على نسخةٍ من إحدى فواتير البيع. كثيرًا ما تبادلا الصياح، ولكنَّهما لم يتبادلا السُّباب قطّ. لم يوجِّه أبي السُّباب لأمِّي قطّ. بل كان ببساطةٍ يغضب ويضرب الأشياء والأغراض. هكذا كانت غضبة والدي. من ذلك الحين، كنت كلَّما مررتُ بالرفّ أنظر إليه بشدَّة: إنَّه الموضع حيث ضرب أبي رأسه. وبطبيعة الحال، يومَ أخليتُ الشقَّة، بعد موت أمِّي، استغرقتُ في النَّظر إلى الرفّ، ورحتُ أربِّت عليه مرَّةً أخيرة. لم يكُن حتى من الخشب الأصيل. لعلَّه كان من الصَّفيح أو الميلامين. لطالما ظننتُه من الخشب، ولكن لا.

لقد نسيتُ تلك الصيحات. كنتُ صغيرًا، ضئيلًا، في منتهى الضآلة، ولكنَّ ذكائي الهشّ كان ينشط ويصوغ سؤالًا في منتهى الدقَّة: لماذا لا تترك أمِّي أوراق أبي في سلام؟

كانت أمِّي تعمى عنها، ذلك هو التَّفسير الوحيد. ولكنَّه عمًى جريح. لم تدرك أمِّي أهمِّيَّة الأوراق، فكانت تتخلَّص من كل ما يقع تحت يدَيْها، ولا تحتفظ بأيِّ شيء. تخلَّصَتْ من مجلَّاتي الهزليَّة، وأوراق أبي. كانت تشتري مجلَّةً هزليَّةً من أجلي، فلا يكاد يمرّ أسبوعٌ حتى تخفي أمِّي كلَّ أثرٍ للمجلة، قائلةً: «ماذا تريد منها ما دمتَ قد طالعتَها!» أرادَت التخلُّص من الكُتب أيضًا، ثمَّ اكتشفَت أنَّها لا تملك ما يكفي من التماثيل والزخارف الرَّخيصة لتزيِّن بها الأرفف، ولذا قرَّرَت أن تمنح الكتب فرصة. وهكذا تمَّ للكتب الخلاص.

لا ألقي عليها باللّائمة. فكلّ امرئٍ وشأنه، وكفى. لا شيء يهمّ بعد أن يموت الجميع، لأنَّ جميع الموتى، نساءً ورجالًا، من العظماء. إذ يضفي الموت عليهم معنًى نهائيًّا، كريمًا، مُوفَّقًا.

لأنَّ الحياة الاجتماعيَّة والعائليَّة والمهنيَّة والعاطفيَّة بلا أهمِّيَّة، فكلُّها اختراعٌ يُكتشَف لدى لموت. ولذا أكتب كما أكتب. فكلُّ حياةٍ تنطوي على مليون خطأ من الأخطاء التي تؤلِّف الحياة نفسها. تتكرَّر الأخطاء مرةً تلو الأخرى. ويتكرَّر الخداع. وتتكرَّر الخيانة. ويتكرَّر الكذب. ليس من المُثبَت في أيِّ مكانٍ وجود سِجلٍّ تُدوَّن فيه عمليَّات التكرار. أن تروي ما جرى شيءٌ حسن، وعملٌ جيِّد. أعني، أن تحاول رواية ما جرى، بطبيعة الحال. وربَّما كان ذلك هو السَّبب الذي جعل التأمُّل في الصُّور العائليَّة يضرم النار في نفسي إلى هذا الحدّ. لأنَّ الصُّوَر تمثِّل ما رأيناه تحت ضوء الشمس، وما كان تحت أشعة الشمس، وكيف شكَّل الضوء حياة الرجال والنساء. لذا تبعث الصور في النَّفس كلّ هذه الحيْرة، إنَّها أكثر الأشياء بعثًا على الحيْرة: لقد استطعنا إدراج الضوء في ورقة. سطع ضوء الشمس على أبوَيّ، وما زال ذلك الضوء باقيًا على الورق المُقوَّى، في تلك الصور المهترئة.

الضوء، الذي حُكِم عليه بالنزول من الشمس وانتهى إلى مصارعة الأجساد البشريَّة، هنا، في الحياة.

تُؤكِّد صُوَر أبوَيّ، على نحوٍ عنيد، أنَّهما كانا على قيد الحياة ذات مرَّة. وتلك الذكرى، ذكراهما النائية، أهمّ من الرأسماليَّة الحاضرة، ومن توليد الثروات الكونيَّة.

لم تحبّ أمِّي تبادل القبل على الوجنتَيْن ولا المصافحة باليد قطّ. لم ترُق لها ملامسة الناس. أعتقد بأنّي ورثتُ عنها ذلك. وبالتأمُّل مليًّا، فربَّما كانت تلك وصيَّةً وراثيَّةً لوقايتك من العدوى التي قد يحملها الآخرون.

حين مات أبي، قبَّل جبينه بعضُ الأقارب والأصدقاء، قلائلُ منهم.

أمَّا أنا فلم أفعل.

ولا أمِّي.

في تلك اللَّحظة، عرفتُ أنَّ ابنَيّ بدورهما لن يطبعا قبلةً على جبيني. تلك البرودة التي تسري إلينا متى حان وقت لمس أجساد الآباء، ما مصدرها؟ في تلك البرودة، في ذلك التَّعقيم، درجةٌ فائقةٌ من اللَّاإنسانيَّة، أو الخوف، أو الجبن، أو الأنانيَّة. إنَّه استعدادٌ وراثيّ. لم يولِ أبي وأمِّي أدنى أهمِّيَّةٍ لموت آبائهما ـ أجدادي ـ، كما لن يولي ابناي أدنى أهمِّيَّةٍ لموتي. ويبدو لي ذلك شيئًا أصيلًا.

ينطوي ذلك على شيءٍ يسمو بنا.

ضربٌ من أرستقراطيَّة التباعد.

لم ألمس جسدَ أبي ميِّتًا.

لم أرَ الورم الذي أصابه قطّ، لم يطلعني أحدٌ عليه قطّ، لم تُعرَض عليَّ رؤية تلك النتفة، نتفة اللَّحم التي كانت في سبيلها إلى قتله.

وددتُ لو أمسكه بيدي، لو أمسك ذلك الورم بيدي.

ما الورم السرطانيّ؟

إنَّه ريحٌ مُتعَبة، تاريخٌ عامٌّ للهواء المُلوَّث، والقاذورات التي تشتمل عليها الأطعمة ـ وهي أورامٌ أخرى أشدّ هوْلًا ـ بما في ذلك اللحوم المُصنَّعة من منتجات الأبقار والخنازير والدجاج وسمك النازلي والخراف وسمك السَّيف والأرانب والثيران.

في الكِبَر، ما عدتُ أقرب جسدَ أبي ولا جسدَ أمِّي، ولا ألمسهما، باستثناء القبلات الروتينيَّة التي كانت تبعث فينا كلّ هذا التوتُّر، القبلات التي يسبح فيها حوت الشيطان، لأنَّها صنفٌ من الضِّيق أقدم من البحار.

في أيِّ عمرٍ تكفّ عن التعلُّق بيد أمِّك وأبيك؟

تُخالجني مشاعر العطف بينما أذكر اهتمام أمِّي بالاستمرار في طِلاء أظفارها باللَّون الأحمر، قبَيْل الموت بزمنٍ يسير. كنتُ أتأثَّر بذلك.

كنتُ أستغرق في النَّظر إلى يدها العجوز، التي ما زالَت تحمل معنًى من معاني الجمال والذاكرة، وتلك الأظفار المطليَّة في صالون التَّجميل. ألفيتُ دلالَ أمِّي في شيخوختها مرهفًا، مُحبَّبًا. أرادت أن تبدو أنيقةً للآخرين، الأمر الذي بدا لي رائعًا. كان طِلاء أظفارها موهبة. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يحدث أن أخذت بيدها طوعًا قطّ، لم آخذ بيدها ما لم أكُن مُضطَرًّا إلى مساعدتها على السَّير، عندئذٍ وحسب.

كنتُ ممتنًّا لذلك الواجب، لأنَّه سمح لي بالأخذ بيدها من دون التخلِّي عن الخجل، والمسافة، والبعد. كنتُ آخذ بيدها تلبيةً لواجبٍ اختياريّ، لا طواعيَّة.

لم آخذ بيد أبي وهو يُحتضر. لم يعلِّمني أحدٌ كيف أفعل. فذلك شيءٌ يبثّ في نفسي الهلع، والخوف، الذي يؤدِّي إلى تضخُّم عزلتي. إنَّ الخوف من اليد هو الذي يؤلِّف العزلةَ المطبقة حيث أعيش، في آخر المطاف.

- 68 -

أتى السرطانُ عليه. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يتفوَّه باسم المرض الذي أصابه قطّ. لم يتحدَّث عن السرطان أو الموت يومًا. لم نسمع كلمة «السرطان» من شفتَيْه يومًا. يبدو لي من المذهل أنَّه لم يتفوَّه بتلك الكلمة قطّ.

لا سأل ولا تكلَّم.

كان فوضويًّا من الأعماق.

لم يقُل لنا قطّ فيما يفكِّر وفيمن يفكِّر، بينما هو ماضٍ في سبيله إلى الموت.

ذلك سرٌّ أخذه والدي معه.

لم يقُل حتى «طابَت ليلتكم».

راح يتلاشى. تلاشَت حياته، تلاشى حديثه، وبات صمتًا. قد يغدو المرء صمتًا. وأبي، الذي هو الآن صمتٌ، كان صمتًا قبل ذاك. وكأنَّه يعرف أنَّ الصمت مصيره، فقرَّر أن يكون صمتًا قبل أن يحين الصمت، وبذلك لقَّن الصمتَ درسًا، فخرج منه الصمتُ مُغلَّفًا بالموسيقى.

لقد عقد أبي اتِّفاقًا سرِّيًّا واهنًا مع جسده، الذي كانت تُولَد منه الموسيقى.

كان أبي موسيقى يوهان سباستيان باخ.. هكذا كان أبي.

أعرف أنَّ طبَّ المستقبل سوف يسمح لأولئك المحتَضرين بإجراء أحاديثَ مُطوَّلةٍ ومُعقَّدةٍ مع الأورام التي هي في سبيلها إلى قتلهم، عندما يخطو الطبّ خطوةً نوعيَّة تكاد تكون عصيَّةً على التخيُّل في يومنا هذا: عندما يدرك الطبّ أنَّ الجسد هيكلٌ مُقدَّس، بنيةٌ روحيَّةٌ من أصل الكَوْن، عندما يتحلَّى الطبّ بالذكاء أخيرًا. ما زال الطبّ يفتقر إلى الذكاء، بل إنَّه ما زال مُجرَّد ممارسة، مُجرَّد إثباتٍ لوقائعَ بعيْنها. ويجب عليه اكتشاف ما يكمن في الورم السَّرطاني من جمالٍ وتنوُّعٍ لاماديّ، فالورم السرطانيّ أيضًا ينطوي على إرادة الحياة، حياة الإنسان الذي يحمل الورم في جسده.

ذلك هو السَّبب الذي أفضى بأبي إلى اختيار الصَّمت. لم يكُن هناك ما يُقال، فالطبّ خاوٍ، والدِّين لم يكُن على قيد الوجود يومًا، وأبي قد هجر سيَّارته. خيَّم على البشر الخفاء. ولم يَعُد لديْه ما يقوله لنا.

لم يقُل لي أيَّ شيء.

لم يقُل لي «وداعًا».

لم يقُل لي «أحبّك».

لم يقُل لي «أحببتُك».

بل إنَّه سكت.

وفي حنايا الصَّمت كانت كلّ الكلمات.

وكأنَّه بومرانغ [15] ميتافيزيقيّ، احترقَت في صمته النجوم المرسومة على جدران خزانة الثياب. وعند ذاك، بِتُّ أنا الذي أفتِّش عن مكانٍ للاختباء من موضعي في غرفة المستشفى حيث رقد أبي، وكان ذلك المكان هو خزانة الثياب بجدرانها الضيِّقة التي يكسوها الورق المُرصَّع بالنجوم.

كانت خزانة الثياب «أَلِفنا»، «أَلِف» الطبقة المُتوسِّطة ـ الدنيا الإسبانيَّة الخارجة من حقبة ما بعد الحرب الأهليَّة. وكانت حُجرات الثياب مأوًى تأمُّليًّا لنا.

- 71 -

لا أبي ولا أمِّي قالا إنَّهما يحبَّانني يومًا. وأرى في ذلك جمالًا. لطالما رأيتُه، ما دمتُ مُضطرًّا إلى اختلاق الحبّ الذي شعر به والداي نحوي.

يُحتمَل أنَّهما لم يحبّاني، ويُحتمَل أن يكون هذا الكتاب ثمرةَ خيالِ رجلٍ مُتألِّم، بل مذعورٍ أكثر من كونه مُتألِّمًا. ليس مؤلمًا ألَّا يحبّك أبواك، بل إنَّه مثيرٌ للذُّعر، أو الرُّعب!

وهكذا، تنتهي بك الحال إلى التَّفكير بوجود سببٍ قهريٍّ يبرِّر عدم حبّهما لك.

ما داما لم يحبَّاك، فأنت الذي أخفقت.

منذ تزوَّجتُ وكوَّنتُ أسرةً أخرى، ما عادا يحبَّانني كما في سابق عهدهما، وأخذ حبُّهما نحوي يتضاءل. وما عدنا نكافح في الحياة على جبهةٍ واحدة.

لم يكُن أبي يهاتفني قطّ، في حين كانت أمّي تتَّصل بي في كلِّ وقت، من أجل راحة بالها. كنتُ أرى رقمها ظاهرًا على شاشة هاتفي المحمول: 974310439. لاحقَتها الوساوس، الوساوس نفسها التي تحملني على الاتِّصال بفالدي وبرا، فيتجاهلان الاتِّصال. كانت أمِّي القدِّيسة موسوسةً: أذكرها في أواخر الستينيَّات عندما كان الخوف يستحوذ عليها كلَّما اضطُرّ والدي إلى العمل، لأنَّ العمل في حالة أبي يعني السفر. كانت تخشى أن يقع له حادثٌ على الطريق. وهكذا، تحوَّل الهاتف إلى أداةٍ ذات قوى تنبُّؤيَّة. كانت تفزع كلَّما تلقَّت اتِّصالًا هاتفيًّا. كرهَتْ أمِّي الأسفار الطويلة، ولاسيَّما إذا تعيَّن على أبي السفر إلى مدينة تيرويل لبيع النسيج، إذ كانت تلك هي الرِّحلة الأطول، التي تضطرُّه إلى قضاء أسبوع في الخارج، والنوم في فنادقَ من الدرجة الثانية، حتى يبيع النسيج الكاتالاني للخيَّاطين في تلك القرى الواقعة بتيرويل. ربَّما كان أبي يتحوَّل إلى رجلٍ غير الرجل في تلك الأسفار التي تستغرق خمسة أيَّام. ليته كان يفعل! غير أنِّي لن أعرف ما حييت، لأنَّه لم يحكِ لي أي شيءٍ قطّ، ولأنَّه لم يقُل لي «أحبُّك» قطّ.

لم يحدث قطّ أن حكى لي شيئًا أطول من دقيقةٍ واحدة.

ليتني كنتُ قادرًا على فعل الشيء نفسه.

في اليوم التالي على موت أبي، أعني في الثامن عشر من ديسمبر عام 2005، أرسلَت طبيبة الأورام في طلبي. دلفتُ إلى مكتبها، حيث كانت جالسةً على المقعد وتنظر إلى الكمبيوتر. كان نهارًا حافلًا بالزينة، وأعياد الميلاد تقرع الأبواب. أعربَتْ لي عن أسفها. شعرَت بأنَّها كانت فظَّةً معي في اليوم السَّابق على وفاة أبي، طبقًا لقولها. استخدمَت كلمة «وفاة»، الكلمة التي أمقتُها. كنتُ سأقول: «الكلمة التي يمقتها كلانا، الموت وأنا». رحتُ أنصتُ إلى اعتذارها، بينما هي تتكلَّم، ولكنِّي وجدتُها تتكلَّم من مسافةٍ بعيدة، وكأنَّها ميِّتةٌ هي الأخرى، أو مُتوفَّاة. كانت القوَّة الكامنة في موت أبي تقتلها، وتجرفها، وكأنَّ أبي قاتل.

أعتقد بأنِّي لم أقُل لتلك الطبيبة إلَّا وداعًا، لعلَّها ما زالت على قيد الحياة، والأرجح أنَّها تزاول عملها في إحدى مستشفيات الأقاليم الإسبانيَّة، وقد شُدَّ وثاقها إلى بضع عشراتٍ من الموتى، الباقين بجوارها إلى الأبد.

في أعياد الميلاد من ذلك العام، عام 2005، لا أدري أيَّ هدايا شبحيَّة خطر لنا شراؤها.

إعلانات التلفزيون، طبيبة الأورام التي قالت لي كلماتٍ بلا صوت، أبي الميِّت، أمِّي التي أرادَت شراء خامون دي بيّوتا، لأنَّها فقدَت رشدها، ولم تفهم شيئًا، ولم تدرِ ماذا يجري. كانت ترغب في التسوُّق استعدادًا لأعياد الميلاد وكأنَّ كلَّ شيءٍ باقٍ على ما هو عليه! ولقد ظلَّ كلُّ شيءٍ باقيًا على ما هو عليه في قرارة الأمر. لم تتفهَّم أمِّي ضرورة تخلِّيها فجأةً عن الأشياء القليلة التي تُدخِل سعادةً طفيفةً على نفسها، كالأشياء القليلة التي كانت تشتريها استعدادًا لأعياد الميلاد.

كلَّما زاد المرء فقرًا في إسبانيا، زاد حبّه لأعياد الميلاد.

«ولكنْ، أيُّ شيطانٍ جعلكِ تفكِّرين أنَّنا سوف نشتري خامون دي بيّوتا ما دام أبي قد مات، ومن الواجب علينا مراعاة الحداد!»

فقالَت أمِّي: «كان أبوك يحبّ الخامون دي بيّوتا». وحقًّا، كان أبي يعشقه، ولطالما ذكرتُه كلَّما تناولتُ خامون دي بيّوتا، وذكرتُ مدى حبِّه له.

قالت أمِّي: «رجلٌ مسكين، لن يتذوَّقه مرَّةً أخرى أبدًا».

بعد ذلك الحين، كثيرًا ما استحضرَت أمِّي ذكرى والدي بتلك الصيغة: «رجل»، أو «رجل مسكين». كانت تراه وقد اختُزِل إلى أساسه الأنثروبولوجيّ: رجل. لا زوجها، وإنَّما «رجل». لم تقُل يومًا: «زوجي». أمَّا أنا فتملَّكَتني الدَّهشة.

كان في الأمر برمَّته تفاهةٌ يشقّ تفسيرها: تلك المرأة المُتأسِّفة، وأبي الهارب من العالَم، وزينة أعياد الميلاد الرَّخيصة في أروقة المستشفى، آلة القهوة، المُمرِّضون يحرِّكون المُسنِّين من جانبٍ إلى آخر في رقصة الأسِرَّة، أمارات الذعر المرتسمة على وجوه أولئك المُسنِّين، أمارات الألم الدَّفين، والخوف البطيء، والهجران، وفقدان الإرادة. ربَّما كان خيرًا للواحد ألَّا يبلغ تلك الحالة. إنَّ وجه المُسنِّين يطلب الرَّحمةَ من الشباب.

رحتُ أرتشف القهوة: كان ثمنُ تلك القهوة خمسين سنتًا. سكرتُ من كثرة القهوة المُعَدَّة آليًّا في المستشفى. راق لي التخلُّص من الأكواب المصنوعة من البلاستيك البخس في سلَّة مهملاتٍ عملاقة. راق لي تلويث العالَم بالنفايات. إنَّها رفاهية الفقراء. هكذا يفعل الفقراء: يلقون النفايات.

أجسادنا نفايات.

لقد اصطبغَت نهايةُ أبي كاملةً بأخيلة الظلّ والحقيقة.

تلقَّيتُ اتِّصالًا على هاتفي المحمول في الثالثة فجرًا. كان الطبيب الشرعيّ هو المُتَّصل. قال لي إنِّي لم أقدِّم إقرارًا بمُنظِّم ضربات القلب الخاصّ بأبي. كما لو كان من واجبي تقديم إقرارٍ بشيءٍ من هذا القبيل. أيّ ابن عاهرةٍ ذاك الذي اتَّصل بي! بدا وكأنَّه أمين سجلّ الموتى. لم أعرف بوجود سجلٍّ يُدوَّن فيه الموتى، وظننتُ السجلّات قاصرةً على الممتلكات وحسب.

منزعجًا، قال لي إنَّ إحراق الجثمان غيرُ مُمكنٍ في حالةِ وجود مُنظِّم ضربات القلب. وإنَّ عليَّ توقيعَ ورقةٍ أصرِّح فيها باستخراج مُنظِّم ضربات القلب من جسد أبي. خلاصة القول إنَّ تشريح جثمان أبي صار ضروريًّا، ما يترتَّب عليه دفع ثلاثمئة يورو أخرى.

في الرأسماليَّة، كلَّما زاد الحديث بمقدار كلمتَيْن، خلال أيّ معاملةٍ تجاريَّة، كان ذلك مُؤشِّرًا على وجود مشكلة، ما يترتَّب عليه تضخُّم الفاتورة. المعاملات التجاريَّة المُتعلِّقة بالموتى تبعث على الخجل، ولكنَّ الموتى يتطلَّبون العمل، والعمل يقتضي الوفاء بالثمن. المشكلة تكمن في الثمن. مذهلةٌ هي قدرة الرأسماليَّة على تحويل أيّ حدثٍ إلى مبلغ من المال، إلى ثمن. إنَّ تحويلَ كلِّ الموجودات إلى مُجرَّد ثمنٍ هو حضور الشِّعر، لأنَّ الشِّعر دِقَّة، مثله كمثل الرأسماليَّة. الشِّعر والرأسماليَّة واحد.

في اليوم التالي، وقَّعتُ التَّصريح. طلبتُ الاحتفاظ بمُنظِّم ضربات القلب، ولكنَّ أحدًا لم يعرني سمعه. ظنُّوا أنِّي قد أُصِبتُ باختلالٍ تحت وطأة الألم. ولكنِّي وددتُ لو أحتفظ بشيءٍ كان في جسد أبي، وفي لحمه. أتخيَّل أنَّهم غسلوا مُنظِّم ضربات القلب أو نظَّفوه أو طهَّروه، وبعد ذلك وضعوه في جسدٍ آخر. أو ربَّما وضعوه في جسدٍ آخر على حاله، من دون غسله، بما علِق بالأجزاء البلاستيكيَّة من بقايا عضويَّةٍ خلَّفها أبي. من المُؤكَّد أنَّه ما زال ينظِّم ضرباتِ قلبِ شخصٍ آخر تعيس، يعيش في العالَم سعيدًا مسرورًا، والبطَّاريَّة في داخله.

البطَّاريَّة التي تنتقل من جسدٍ إلى جسد في ليل العالَم.

بعد ذلك، شعرتُ بحضور أبي في جميع الأمكنة، وكأنَّ كهرباء ذلك المُنظِّم أعادَت تفعيل الدِّماء المتلاشية. هأنذا أشعر بها في هذه اللَّحظة.

تحوَّل أبي إلى كهرباء، وسحابة، وطائر، وأغنية، وبرتقالة، وثمرة يوسفيٍّ، وثمرة بطيخ، وشجرة، وطريقٍ سريعة، وأرض، وماء.

كلّما أردتُ رؤية نفسي، رأيتُه.

قهقهته المجلجلة تتساقط على العالَم.

رغبته في تحويل العالَم إلى دخانٍ ورماد. هكذا هي الأشباح: إنَّها قوًى وأشكالٌ من الحياة السَّابقة على حياتنا، التي ما زالت هناك، مُتوَّجةً، مُنقَّاة.

أبي كالبرج المأهول حتى آخرهِ بأجساد الموتى. كثيرًا ما أشعر به خلفي متى نظرتُ إلى المرآة.

«هذا ما صرتَ إليه الآن»، يقول أبي، ثمَّ يخيِّم صمتٌ مطبق.

لا يقول سوى تلك الكلمات الخمس.

الآن، صرتَ أنت «الرجل»، أو بالأحرى «الرجل المسكين».

هذا ما صرتَ إليه الآن.

وبعد موته، أنتقلُ إلى موتي، إلى ترقُّب موتي. إنَّ موت أبي ينادي موتي. ومتى حان موتي، لن تسعني رؤيته. عندما تأمَّلتُ احتضار أبي، شعرتُ بالرُّعب. ابتلعني ذلك الاحتضار، وجرفني. هل كان أبي هو الذي راح يلفظ أنفاسه الأخيرة في ذلك المستشفى؟

راح جسده يتمزَّق.

بدا رَجُلًا غير الرَّجل.

بدا أسطورةً. بطلًا.

ربًّا.

بابا، لقد مضيتُ قدمًا ما وسعني ذلك. أعرف أنَّك بجواري دومًا، تأمَّل هذا البيت الخرِب الذي فيه أعيش، تأمَّل شقَّتي الواقعة في جادة رانيّاس: تتكوَّم الأوراق، والغبار يجتاح الطاولات، ورائحةٌ غريبةٌ تفوح من الثياب، والأرضُ قذرة، ومائدةُ المطبخ غير مُنظَّمة، والفراشُ لا هو مُرتَّبٌ ولا هو مُبعثَر. أمَّا الفراش الآخر فمزدحم بالثياب المبعثرة والأوراق، ذلك الفراش المُعَدّ لابنَيّ اللذيْن لا يحضران للمبيت (لو كنتُ مكانهما لما حضرتُ أيضًا). الثياب متناثرة، رائحتها عطنة. يتسلَّل الغبار إلى الثياب، القذرة دائمًا، حتى وإن كانت نظيفة. أنا أيضًا عاجزٌ عن العثور على أيِّ ورقة، وأذكر نوبات اليأس التي كانت تنتابك، فتضرب رأسك بالجدران، وتتَّهم أمِّي بأنَّها تخلَّصَت من نسخ الفواتير. وهذه هي النقطة التي كنتُ أودُّ الوصول إليها، لأنِّي ما دمتُ لا أعثر على أوراقي، فالسَّبب في ذلك عجزي عن ترتيب أيّ شيء، ولقد دار في خَلَدي أنَّك عانيتَ من الأمر نفسه، وأنَّ أحدًا لم يتخلَّص من أوراقك في حقيقة الأمر. كنتَ أنتَ الذي تطمر الأوراق بعضها تحت بعض، عجزًا منك عن إرسال البريد وإنجاز الأمور. لم يَعُد في وسعنا الوقوف على حقيقة الأمر.

أبدًا.

ـ 77 ـ

بعد الطلاق، احتفظتُ بخزانةٍ كانت في حُجرة المهملات، في البيت الذي كان بيتي، والآنَ تفوح من ثيابي رائحةُ رطوبةٍ عطنة. أنت لا تعرف كم يبعث على الكَدَرِ أن تفوح الرائحة العطنة من ثيابك بعد أن غسلتَها لتوّك. إنَّها الخزانة التي ظلّت اثني عشر عامًا في حُجرة مهملات.

أتعرف ماذا الذي يعنيه أن تعلق بك رائحةُ الخزانةِ المختمرة طوال اليوم، أينما ذهبت، أن لا تملك النقود الكافية لشراء خزانةٍ جديدة، بعد أن بقيتَ مشدود الوثاق ثلاثةً وعشرين عامًا إلى عملٍ حافلٍ بالصيحات، حافلٍ بـ «اخرسوا»؟

ثلاثة وعشرون عامًا أمضيتها في تدريس المراهقين، وما زلتُ لا أملك خزانة. لا أملك خزانةً تعيسةً أحتفظ فيها بالثياب لتكون رائحتها لائقة.

وأبي يقول لي: «قلتُ لك ألَّا تتزوَّج، أن تنتظر، قلتُ لك إنَّك أصغر ممَّا ينبغي، وتنقصك أمورٌ ما زلتَ لم تعِشها بعد، قلتُها لك منذ أعوامٍ طوال، ولكنَّك لم تلقِ إليَّ بالًا».

فأجيبه: «اليوم قلتَ كلماتٍ كثيرة».

هوذا شبحُ الفقر ماثلٌ أمامي.

لم تكُن رائحة النظافة سهلةَ المنال قطّ.

تاريخيًّا، لم تكُن سهلةَ المنال.

ما دامَت رائحتك زكيَّة، فالسَّبب وجود آخرين قذرين، لا تنسَ.

بعد طول تردُّد، اشتريتُ كرسي مكتب من سوبرماركت هيبركور، فتولَّى برا تركيب أجزائه، لأنِّي عاجزٌ عن تركيب أيّ شيء. لم أتمكَّن من فهم الإرشادات يومًا. بل إنِّي أستشيط غضبًا، وأفقد السيطرة على نفسي، وألقي بكلِّ شيءٍ من النافذة في آخر الأمر. حاولتُ أن أتحدَّث إلى فيفالدي العظيم. حدَّثتُه عن المستقبل، وقلتُ إنَّه سوف يُضطَرُّ إلى اتِّخاذ القرارات. فالمستقبل أمامه، أمَّا أنا فبلا مستقبل.

تذكَّرتُ حين كان أمامي، حين كان المستقبل أمامي.

إنَّه الشعور الأجمل في الحياة، قبل البدء في أيِّ شيء، والستار لم يُرفَع بعد، تلك اللَّحظة.

أعرف أنَّ هناك أشخاصًا لن أعاود رؤيتهم ما حييت، كانوا مُهمِّين في حياتي، ولن أعاود رؤيتهم، لا لأنَّهم قد ماتوا، ولكنْ لأنَّ الحياة لها قوانينها الاجتماعيَّة والثقافيَّة، لا أدري، إنَّها في الواقع قوانين سياسيَّة، قوانين تأسُّليَّة، قوانين ساعدَت على إقامة ما نسمِّيه حضارة.

هكذا هي حالنا، نحن البشر: لن نعود إلى معاملة بعض الأشخاص أبدًا، مع أنَّهم ما زالوا على قيد الحياة، وهكذا يصبحون هم والموتى في منزلةٍ واحدة.

ولكنْ، ما زالَت هناك درجةٌ أشدّ من درجات الألم: العلم بأنَّك تفكِّر في شخصٍ على قيد الحياة كما لو كان ميِّتًا، كما هو حالي مع الخالة ريمي: لم أزُرها قطّ. لم أقدر على الذهاب لرؤيتها. كنت أشعر بالذنب. فإن ذهبتُ لرؤيتها، شعرت بالذنب، وإن لم أفعل أيضًا. ولكنَّ الامتناع عن الذهاب لرؤيتها كان أيسر. وحين فارقَت الحياة، كنتُ في بداية مغامرةٍ خضتُها مع امرأةٍ في مدريد. كان لديَّ مُتَّسعٌ من الوقت، وفي يدي حضور الجنازة، وركوب القطار. ولكنِّي كنتُ على موعدٍ يومذاك مع تلك المرأة التي أُعجِبتُ بها إعجابًا جارفًا. عجزتُ عن كبح جماح نفسي، وكانت ليلةً حاسمة. قلتُها لخالتي ريمي عَبْر التخاطر الذهنيّ. قلتُ لها إنِّي لن أحضر جنازتها لدوافع إيروتيكيَّة، وإنَّ مراعاة الإيروتيكيَّة واجبٌ على الموتى. أعتقد بأنَّها قد تفهَّمَت. فهي لا تظهر أمامي ليلًا ولا تلومني، لأنِّي تغيَّبتُ عن جنازتها. أعتقد بأنَّها تفهَّمَت ما يجري، وتفهَّمَت أنَّني واقع في هوَّةٍ سوف يستغرق الخروج منها طويلًا، ولقد استغرق الخروج منها طويلًا.

لو كانت جنازتها اليوم لحضرتُ.

يتطوَّر البشر. وما كان بالأمس مُهمًّا، يفقد اليوم أهمِّيَّته. لم أحضر تلك الجنازة. وبينما أنا برفقة تلك المرأة، فكَّرتُ في جنازة الخالة ريمي، ولذا تكلَّفتُ التوغُّل في العلاقة حتى أشاركها الفراش ليلتذاك، فلو شاركتها الفراش صار للتغيُّب عن جنازة خالتي مغزى. كلّ هذه الخواطر طافَت في ذهني بواقعيَّة، كما لو كانت استنتاجاتٍ لا يعيبها شيء، تقوم على منطقٍ لا سبيل إلى دحضه. كان ما بدر منِّي خطأً، الآن عرفت، بل وجحودًا أيضًا. غير أنَّه لم يبدُ لي كذلك في حينه.

أجل، تماديتُ في الجنون، ولكنْ بالتأمُّل في الأمر مليًّا، فربَّما لم أكُن مجنونًا إلى هذا الحدّ! كنتُ أعاقر الشراب آنذاك، بالطبع، وأُكثِر من الشراب، وأقضي الساعات في المسير على الكثبان اللَّامعة في جنَّة السكارى. عند السكّير، لا يعدو الجنس أن يكون من الكماليَّات، مُجرَّد زينة، ربَّما كان أفضل زينةٍ تُضاف إلى الكحول، ولكنَّه مُجرَّد زينة. السَّفر، وتأمُّل البحار، والضحك، والأكل، واقتحام أجساد النساء العارية، كلُّها مُجرَّد كماليَّات. أمَّا الغرض الأساسيّ فهو الكحول. إنَّه البُعْد المثاليّ، اليد الذهبيَّة التي تلتقط الكأس.

والآن، ببساطة، ما عاد يجديني ما فعلتُه آنذاك.

فكَّرت في جثمان خالتي وأنا مع تلك المرأة. كان ذلك شيئًا مُروِّعًا، إذ اضطُرِرتُ إلى مداراة ما يعتمل في نفسي، فشعرتُ بالذنب، وطفق عقلي ينزف. لو كانت تلك المرأة قد تعرَّفَت على خالتي، لما شعرتُ بالذنب إلى تلك الدَّرجة. ولكنَّ الشعور بالذنب تولَّد من الغربة. كانت عشيقتي مجهولةً لدى عائلتي، وهنا تكمن المشكلة. لقد رافقني ذلك الصنف من الأحمال مرَّاتٍ كثيرةً مدى الحياة. كنتُ في حاجةٍ إلى موافقة أمِّي على كلِّ شيء. ثمَّ ألقيتُ بتلك المسؤوليَّة على عاتق زوجتي السَّابقة. لو اتَّصلت بأمِّي أو زوجتي السَّابقة طالبًا الإذن لأفعل ما فعلت، لكانت تلك هي القطرة التي تفيض الكأس. ولكنِّي لو حصلت على إذنٍ بذلك، لارتاح بالي.

كنتُ أفتِّش عن حضور أمِّي في كلّ الأرجاء، لم أكُن قد تجاوزتُ الطفولة: بل كنتُ أشعر بخوفٍ شديد. حضور مَن؟

لقد سمَّيتُ سرَّ الحياة العام «الأمّ». الأمّ هي الموت الحيّ. حتى الكينونة سمَّيتُها «الأمّ». فأنا روحٌ بدائيَّة. لو غابَت أمِّي عنِّي، صار العالَم عدوانيًّا. ولذا كنتُ أُفرط في معاقرة الشراب إلى تلك الدَّرجة، وانجرفتُ إلى سلوكٍ جنسيٍّ تائهٍ ومُنحَلّ. ما زلتُ لا أدري عمَّا كنتُ أفتِّش. سأحتاج إلى استشارة الأطبَّاء النفسيِّين حتى أعرف ما الذي كنتُ أريده. ما حدث أنِّي لم

أحضر جنازة خالتي: غيابٌ آخر في قائمة الغيابات عن الجنائز في عائلتي، أو التهرُّب منها.

إن تغيَّبتَ عن جنازة شخصٍ سبق أن شغل موقعًا مُهمًّا في طفولتك، شرع الطفلُ الذي كنتَه في تمزيقِ الأوردة المُخِّيَّة لذلك الكبير الذي صِرتَ إليه، وتمثَّل أمامك منقبضَ الوجه، طالبًا منك تفسيرًا لما بدر منك، وقال إنَّه عاجزٌ عن النوم، عاجزٌ عن إقفال الحلقة الملعونة، حلقة التجربة البشريَّة.

عسى أن يكون الجميع بخير.

ـ 79 ـ

حين شرعتُ أبحث عن شقَّة، وأنا في خضمِّ إجراءات الطلاق، لم أعثر على أيِّ شيء. والتقيت بمخابيل يبيعون شققًا لا تصلح للاستخدام، ولا السكن، بل إنَّها تتمرَّد على كلّ منطقٍ معماريّ. كانت حاجتي إلى العثور على بيتٍ مُلِحَّة. في تلك الفترة، نزلتُ في فندقٍ بضعة أسابيع. كنت أقضي يومي في معاقرة الشراب، غافلًا عن كلِّ شيء. كان فندقًا جيِّدًا إلى حدٍّ كبيرٍ، حيث كلَّفَتني اللَّيلة الواحدة خمسةً وثلاثين يورو. نزلتُ في حُجرةٍ ذات شرفة، في المدينة العتيقة بثاراغوثا. كنتُ أحمل قارورةً من الچين واثنتَيْن من البيرة إلى الحُجرة، فتنازعني رغبةٌ في الاتِّصال عَبْر الهاتف، بينما تتساقط القوارير واحدةً تلو الأخرى، رغبةٌ تدفعني إلى الاتِّصال بالأصدقاء، والصديقات، والناس. وفي اليوم التالي، لا أذكر أيّ شيء، فأشعر بحَرَجٍ شديد. كنتُ أخسر كلَّ شيء. وأمِّي قد فارقَت الحياة: فلم تتزامن رغبتي ورغبتها في الحديث عَبْر الهاتف. عندما كانت ترغب في ذلك، كنتُ أعزف عنه. وحين تملَّكَتني الرَّغبة في الحديث عَبْر الهاتف، لم تكُن أمِّي في هذا العالَم. من المؤسف أنَّ والدتي لم ترَني أكثِر من الاتِّصال إلى هذا الحدّ، وقد تملَّكَتني تلك الرَّغبة العارمة في الحديث عَبْر الهاتف.

إنَّه شيءٌ طريف: كان بيني وبين أمِّي تفاوتٌ هائل، وموضوع ذلك التفاوت هو الهاتف. الآن كُنَّا نستطيع الحديث عَبْر الهاتف ساعاتٍ وساعات. التفاوت بيني وبين أمِّي مقترنٌ بالرَّغبة في الحديث عَبْر الهاتف، وأكاد أقولها من دون سخريَّة.

أرادت هي الحديث، فوجدَتني غائبًا. وأردتُ أنا الحديث، فوجدتُها ميِّتة.

نظرًا لموقع الفندق في منطقةٍ حافلةٍ بالحانات الرَّخيصة والملاهي الليليَّة، كان من عادتي النزول إلى الشارع والخروج في جولةٍ قرابة الواحدة فجرًا في شوارع سان پابلو، وپريديكادوريس، وكاستا ألباريث، فكنتُ أتسلَّل

إلى أحد الملاهي حيث يطغى حضور الأجانب إلّا فيما ندر، على الرَّغم من تواجد المومسات وأهل اللَّيل في تلك الأمكنة بحكم العادة. غير أنِّي كنتُ أرغب في شرب البيرة وحسب!

هناك، كُنَّا جميعًا في عزلةٍ مطبقة، وقد خيَّم علينا شعورٌ جارفٌ باللَّاواقعيَّة. في واحدة من تلك اللَّيالي، التقيتُ ببطل العالَم السَّابق في الوزن الخفيف، الملاكم پيريكو فرنانديث، الذي كان يحجّ إلى الحانات، مُتنقِّلًا من حانةٍ إلى أخرى، في تلك الشوارع الضيِّقة، المعتمة، القذرة، هناك حيث تتحوَّل ثاراغوثا إلى مدينةٍ من الماضي، وكأنَّها مُحنَّطة. تجاذبنا أطراف الحديث قليلًا، ثمَّ دعوتُه إلى البيرة. رحتُ أشرب، كما هو دأبي. ولكنَّ رؤيته على تلك الحال، في غاية الهزال، وقد انتهى أمره تمامًا، واهترأ رأسه تحت وطأة اللكمات والزهايمر، أورثَتني شعورًا جارفًا بالأسى، وبالعطف أيضًا. الأسى والعطف معًا. كان پيريكو رجلًا آخر مهجورًا، بلا أسرة، مهزومًا، يتنقَّل من حانةٍ إلى أخرى، ويقيم حول نفسه صمتًا من الرصاص. كان هناك، على البار، في تلك الحانة القذرة، حيث البيرة تُقدَّم في أقداحٍ عتيقة. التقطنا صورةً لنا معًا. أحتفظ بالصورة. نبدو فيها ملاكَيْن. كان پيريكو فرنانديث بلا أسرة، مع أنَّه تزوَّج ثلاث مرَّاتٍ وأنجب خمسة أبناء. أين كان أبناؤه الخمسة وزوجاته الثلاث ليلتذاك؟ لقد هجروه، طبعًا. كانت الابتسامة لا تزال عالقةً بوجهه المُهشَّم، ابتسامةً عذبةً، هادئة، متثاقلة. شبّ پيريكو في ملجأ. ولقد اشتهرَت مقولته: «إن لم ترِدني أمِّي، فلماذا أنجبَتني!» لم يتعرَّف بأمّه قطّ. وُلِد عام 1952 من رَحَمٍ مجهولة. وذلك سرٌّ عظيم.

في ليلةٍ تالية، عدتُ لرؤيته في حانةٍ رثّةٍ أخرى، حيث تُقدَّم المقالي والشاورما والبطاطس المقلية، ويزدحم البار ببقايا الطعام. كان أكثر حيويَّة، ويمكن للمرء قراءةُ قصَّةِ حياته مكتوبةً على عينَيْه. بدا أعزل، مهجورًا، إلى حدٍّ جعله يبدو طفلًا تائهًا. كان في تلك المنطقة حيث يغدو التيه رحابةً مُتوهِّجة. قال لي إنَّه كان بطلَ العالَم، فقلتُ له إنِّي كنتُ بطل العالَم أنا الآخر، في نوبةٍ من نوبات السكر. ضحك، واستطرف قولي. ابتسم ابتسامةً ودودًا، لأنَّ قلبه كان مفعمًا بالخير، ذلك الخير الغريب الذي يتَّسم به البسطاء، أولئك الذين سقطوا في العالَم وفعلوا كلّ ما في وسعهم. كان ابن البلدة، بتلك اللكنة الأراغونيَّة التي بدَت كالزخارف الصوتيَّة حين تكلَّم بها پيريكو، وأظهرَت ذكاءً موغلًا في القِدم، جوهريًّا، مفعمًا بحسّ الدعابة. كان ابنًا أصيلًا من أبناء شعب أراغون، كما لم يكُن أحدٌ سواه. بدا الإنصات إليه طريفًا وهو يروي قصَّة حياته. تذكَّرتُ عندما أحرز لقبَ بطل العالَم عام 1974، تذكَّرتُ لأنِّي سمعتُ أبي يقولها فرحًا. تُوِّج پيريكو ملكًا آنذاك. وكانت إسبانيا كلّها عروسه. في مطلع السبعينيَّات، كان پيريكو محبوبًا في كلّ مكان. وفي

تلك الأعوام، كان لي أبٌ، يحبُّني حبّ العبادة. كلانا حالفه التوفيق في تلك الحقبة.

وها نحن الآن، في عام 2014، كلانا بطلُ العالَم. كنتُ في سبيلي إلى النجاة، على الرَّغم من جهلي بذلك في تلك اللَّيالي، أمَّا هو فلا، لن ينجو. مات بُعَيْد زمنٍ قصير. طالعتُ الخبر في الصحف.

يموت من لا أهل له مثلما يموت من له أهل، هكذا دار في خَلَدي.

ربَّما كان پيريكو يعرف ذلك!

رأيت شققًا بدَت وكأنَّها كومةٌ من الخراء. غير أنِّي عثرتُ على واحدةٍ تقع في جادةٍ بدا لي اسمها وكأنَّه إشارة. كان لقب العائلة الثاني لأبي أرنيَّاس، والشقَّة التي وجدتُها تقع في جادة رانيَّاس، على مقربةٍ من نهر إبرو.

خطر لي أنَّ أبي يخاطبني، ويبعث إليَّ رسالة. فكنتُ مثل يسوع المسيح، الذي راسله أبوه بالإشارات هو الآخر. لا أدري ما الشيء الخارق في حياته، وفي الأحاديث المُسهبة التي دارت بينه وبين أبيه! فجميع الآباء يتحدَّثون إلى أبنائهم، بوجهٍ عام. لعلَّ أبا يسوع الناصريّ بدا أجدر بالاهتمام، وأشدّ بطشًا، وأكثر شاعريًّةً.. أو لعلَّ يسوع المسيح عرف كيف يُظهِره أكثر فتنةً للألباب، مستعينًا على ذلك برونق الأدب.

وهكذا، نزلتُ في تلك الشقَّة الواقعة في جادةٍ يتشابه اسمها واللَّقب الثاني لعائلة أبي. في تلك الشقَّة، تظهر الأعطال متى خيَّم الظلام. سقط مسمارٌ من ألواح الشبَّاك، فانخلعَت قطعةٌ تشبه العازل (أعرف أنَّ لها اسمًا بعينه، ينبغي لي البحث عنه في القاموس، لأنَّ لكلّ شيءٍ اسمًا، وإن لم نعرفه أحيانًا). لم يُؤدِّ أحدٌ عمله بإتقان في هذه الشقَّة، التي تُذكِّرني بحياتي.

أترقَّب مجيء فالدي، الذي خرج برفقة أصدقائه لبعض الوقت.

عانى أبي من الحرّ الشديد في أغسطس. وفي أواخر أعوام حياته، اشترى مُكيِّفَ هواءٍ محمولًا. لم يكُن بالشيء العظيم، وإن نجح في تبريد الحُجرة، أو ربَّما نصفها، مُحدِثًا ضجيجًا عاليًا. دعَت الضرورة إلى تمرير أنبوب المُكيِّف من خلال النافذة. وهكذا استُدعِي أحدُهم لعمل فتحةٍ في زجاج النافذة بحُجرة المعيشة. لم أسأل يومًا عن الشخص الذي صنع تلك الفُتحة على أكمل وجه لتمرير أنبوب مُكيِّف الهواء من خلالها. كان ذلك هو زجاج البيت الأصليّ، الذي يعود إلى عام 1959.

لا بدَّ أنَّ أحدهم قد أخذ ذلك الجهاز الذي عفا عليه الزمن حين ماتَت أمِّي. اتَّصل شقيقي بنَفرٍ من العمَّال الذين يتولّون إخلاء البيوت من محتوياتها. أتذكَّر الثلَّاجة والغسَّالة. بينما لا يسعني تذكُّر غسَّالة الصحون، لأنَّ أمِّي لم تملك واحدةً يومًا. أخذتُ اللَّافتة المُثبَّتة إلى الباب التي تحمل اسم أبي، وهي واحدةٌ من تلك اللَّافتات التي درَج الناس على تثبيتها إلى أبوابهم، كما جرَت العادة في حقبة ما بعد الحرب حتى أواخر الستينيَّات ومطلع السبعينيَّات، تلك العادة المُتوارَثة عن أصحاب المهن الحرَّة، عن الأطبَّاء والمحامين، التي أخذها عنهم المشتغلون بمهنٍ أقلّ شأنًا بكثير. ربَّما كان ذلك تحذيرًا من الديمقراطيَّة القادمة، أو ربَّما كان مُجرَّد انتحال!

خلعتُ اللَّافتة بسهولة، وإن ظننتُ الأمر سيكون أشدّ صعوبة. ربَّما كان لتلك السهولة مغزى، فمن الغريب ألَّا ينكسر أيُّ شيء، وأن أتمكَّن من إنجاز تلك المهمَّة اليدويَّة، فغالبًا ما يتحطَّم كلّ شيءٍ بين يدَيّ.

من المُؤكَّد أنَّ تلك اللَّافتة تكاد تبلغ من العمر خمسين عامًا. وها أنا الآن قد ثبَّتُّها إلى باب شقَّتي في رانيَّاس، كي تحتمل الأعوام المتبقِّية من عمري، فأنا وأبي نشترك في اسمٍ واحد. ربَّما ظنَّ الحارس الإكوادوريّ أنَّ اللَّافتة حديثة، وأنِّي طلبتُ صنعها من فوري. التَّفكير بأنَّ خاطرةً كهذه قد تخطر على بال الحارس أشعرني بالرَّهبة. بل وبالرُّعب.

لا تخلو اللَّافتة التي تحمل اسم أبي من لمسةٍ جنائزيَّة، فخلفيَّتها سوداء، من الزجاج المقاوم، تلك الخامة الثوريَّة التي ترجع إلى الستينيَّات. تحمَّلَتْ أعوامًا طوالًا، ولم تعلن عن أيِّ رخاء، بل إنَّها ظلَّت هناك جانحةً، كالحوت الأسود، في منتصف الباب. كانت تلك اللَّافتات تعلن عن النجاح، والازدهار. وتصرِّح بأنَّ الأسرة التي تعيش خلف الباب قد تحقَّق لها النجاح، وتمَّ لها الرخاء. أمَّا اللَّافتة التي كانت لأبي، والآن صارَت لي أنا، فلم تعلن عن أيِّ شيء. كانت تمرينًا من تمارين فنّ الخط على خشب الباب. لذا أشعر بالدَّهشة، وأحار في حياة أبي كلّ هذه الحيْرة.

أستغرق في النَّظر إليها متى وصلتُ إلى البيت. أشعر بالخوف والألم كلَّما رأيتُها، والحنين الجارف، والطِّيبة الغامرة. إنَّه الشيء الأكثر عزلةً في العالَم. تبدو لي الرحلة التي قطعَتها تلك اللَّافتة عَبْر الزمن رحلةً هوميريَّة. لا يسعنا أن نتخيَّل كيف تنتهي الحال بالأشخاص والأشياء! ما كان أبي ليتخيَّل يومًا أنَّ تلك اللَّافتة، التي لا أدري ممَّن طلبها (لا أملك أدنى فكرة عن الشخص الذي قد يكون صنعها)، سوف تنتهي في شقَّة ابنه المُطلَّق في شارعٍ يتشابه اسمه واسم لقب عائلته الثاني. فلا معنى لوجود تلك اللَّافتة حيثً تُوجَد الآن، ولكنَّ ذلك الغياب، غياب المعنى، ضربٌ من المعجزات.

أنا محاطٌ بالمعجزات الرَّخيصة. وعلى الرَّغم من رخصها، فهي تنطوي على قوًى خارقة للطبيعة. وكأنَّما القوى الخارقة للطبيعة قد اختارَت التواضع كي تتجلَّى من خلاله، أو كأنَّما القوى الخارقة للطبيعة والتواضع شيءٌ واحد.

لا معجزة أرستقراطيَّة، لا معجزة نخبويَّة، إن هي إلَّا معجزات منبثقة من الطبقة المُتوسِّطة ـ الدُّنيا الإسبانيَّة في الستينيَّات، البديعة، التي تمثِّل مرآة روحي.

سرعان ما تحلّ أعياد الميلاد. في زمن طفولتي، كان أبي يعشق أعياد الميلاد، ويشتري شجرة الميلاد وحلوى التورّون والكثير من بطاقات اليانصيب. كان أبي، الشغوف بأعياد الميلاد، يشتري شجرة شوحٍ حقيقيَّةٍ تبلغ السقف من بائع حطبٍ في ساحة سوق بارباسترو يبيع أشجار الميلاد بأحجامٍ شتَّى. في نهارات الثاني والعشرين من ديسمبر، كان يتحقَّق من نتائج أرقام اليانصيب التي اشتراها، لعلَّها تربح. ابتداءً من العاشرة صباحًا، في الثاني والعشرين من ديسمبر من كلِّ عام، كان أبي يفتح التلفزيون ويدوِّن الأرقام الرَّابحة بخطِّه الرشيق المائل، الأرقام التي يُعلن عنها أطفال مدرسة سان إلديفونسو.

لم يربح قطّ، باستثناء بعض البطاقات التي استرجع قيمتها. ولكنِّي كنتُ أشعر بالسَّعادة لرؤيته وهو يدوِّن الأرقام في مُفكِّرته، تلك الأرقام المرسومة بعنايةٍ فائقة. كان ينحت «5» ملؤها الزخارف، حيث تتحوَّل الشَّرطة العلْويَّة إلى قلنسوةٍ مائلةٍ نحو السماء. الـ «4» والـ «7» أيضًا كان يطعِّمهما بالزركشة والنقوش. استهوَتني مشاهدة أبي وقد انصبّ تركيزه واندمج بالأجواء الاحتفاليَّة تمامًا. كان يصفِّر احتفاءً بالطعام الشَّهيِّ. في اعتقادي أنَّ والدي قد شعر بالسَّعادة من الأعماق، وبحسن الحظّ، والبهجة، والعزيمة.

إنَّ خطّ أبيك مُهمٌّ دائمًا. فلا خطّ سواه يهمّ في هذا العالَم. يكاد توقيعي يطابق توقيع أبي. حتى توقيعي له هو! كثيرًا ما رأيتُه يوقِّع، بحروفٍ مُطوَّلةٍ تلفُّها السُّحب، ويزخرف اسمه بخطوطٍ دائريَّة، في رسمٍ يمثِّل هويَّة ملاك.

لماذا كان يوقِّع هكذا إن لم يكُن ثريًّا؟

بدا وكأنَّه توقيعُ عظيمٍ من عظماء إسبانيا. وكأنَّه توقيعُ دوقٍ، أو ماركيز.

كان توقيعه قوطيًّا، باروكيًّا. وتوقيعي يشبهه كثيرًا، وإن كان أقلَّ زخرفًا، وأكثر تقشُّفًا، أكثر فقرًا.

وقعتُ في غرام توقيع أبي. بدا حبّه لاسمه وكأنَّه استعراض. رأى والدي نفسه غنيًّا بالبهرج والتيجان والكبرياء. كانت له كبرياءٌ كَوْنيَّة.

أنا أيضًا شغوفٌ بأعياد الميلاد، الأمر الذي ورثتُه عنه. إذًا، فلماذا ثارَت ثائرة أبي ليلتذاك، حين تملَّكه الحَنَقُ العارم واستبدَّت به نوبة غضب، وطفق يحطِّم الصحون؟ فعلًا، استبدَّت به نوبةُ غضب. ربما شعر برغبةٍ في تهشيم وجوهنا فاستعاض عنها بالصحون. ربما سئم أن تكون له أسرةٌ فأراد أن يعود مرَّةً أخرى الرجل الوسيم ذا السبعة وعشرين عامًا، الذي يرتدي بدلةً بصفَّيْن من الأزرار، الرجل الطليق، الحرّ من الالتزامات، ذلك الذي التُقِطَت له صورةٌ على بار إحدى الحانات، بارٍ تاريخيّ مصنوعٍ من الرخام، بينما هو مستغرقٌ في تأمُّل يدَيْه!

اشترى أبي مغارة الميلاد وأنا في الخامسة أو السادسة من العمر، أو دون ذلك. لا أدري كم كنتُ أبلغ من العمر آنذاك! اشتراها من قرطاسيةٍ في بارباسترو، ماتَت مالكاتها، ولا شاهدٌ يذكر متجرهنَّ سواي. كان مزهوًا بمغارة الميلاد، التي أنفق عليها مبلغًا كبيرًا. لعلَّه اشتراها عام 1966. أذكر الحنان الذي كان يضع به التماثيل التي بدَت عليها لمسةٌ باروكيَّة من بلد الوليد. لم تكُن تماثيلَ ضئيلة، إذ بلغ طولها شبرًا كاملًا على أدنى تقدير، أو أطول بقليل. أذهلني الثور والبغل.

ولكنَّ التماثيل تهشَّمَت واحدًا تلو الآخر.

احتفظَت بها أمِّي في خزانة الثياب، ولكنْ في غير اعتناء، لأنَّ والدتي كانت تهشِّم كلَّ شيءٍ في النهاية. أعتقد بأنَّ أمِّي هي التي هشَّمَتها رويدًا رويدًا، ابتداءً بالبغل. بترَت رأس البغل. كانت الأشياء تتساقط من بين يدَيْ أمِّي، فهي لم تعرف كيف تمسك شيئًا بيدها، ما جعل كلّ شيءٍ على حافة السُّقوط، والتهشُّم. عجزَت عن إحكام قبضتها على الأشياء.

ألصق أبي رأس البغل بلاصق إميديو. ولكنَّه صار بغلًا مصابًا. بعد ذلك، هشَّمَت أمِّي الثور، ثمَّ القديس يوسف، الذي بترَت يده. وهكذا، عامًا بعد عام، شهدَت مغارة الميلاد تدهورًا لا سبيل إلى إيقافه. تساقط الخدم. وحتى الجِمالِ ولم يصمد سوى الطفل يسوع والعذراء مريم. ولكنَّ مغارة ميلادٍ خالية إلَّا من ناجيَيْن اثنيْن لا معنى لها، بل إنَّها تكاد تكون هرطقةً شيطانيَّة. جمعيَّة أخويَّة للمصابين.

في النهاية، ما عدنا نملك مغارة ميلاد، ورفض أبي شراء مغارةٍ أخرى، لأنَّ حماسته قد خبَت، ولأنَّه كان زمنًا عصيبًا، ولأنَّنا قد كبرنا أنا وأخي. كان في يد أمِّي الاحتفاظ بالمغارة بقدرٍ أكبر من العناية. ولكنَّها لم تُدرك لتلك التماثيل

مغزى. وتلك هي أشدّ سمات أمِّي بعثًا على الدَّهشة والضِّيق في آن: كانت تجد كلَّ شيءٍ فائضًا عن حاجتها، تافهًا، يستحقّ أن يُلقَى في حاوية النفايات. ومهما كان السَّبب، لن يفيدها الاحتفاظ بتلك المغارة. لم تفهم مَن هو الطفل يسوع، ولم تفهم ما الذي يفعله ملوك المجوس هناك. تراءى لها الأمر برمَّته بلا مغزى. كان إلحادًا طبيعيًّا، إلحادًا فريدًا، لأنَّه فطريّ. لقد اغتالَت أمِّي تلك المغارة، كغيرها من الأشياء. اغتالَت كلّ مجلَّاتي الهزليَّة، وتخلَّصَت منها جميعًا. لم تترك لي ولا حتى مجلَّةً واحدة.

كانت إعصارًا مُدمِّرًا.

تلقَّيتُ مُشغِّل أسطواناتٍ هديةً حين أتممتُ الثانية عشرة من عمري. كان مُشغِّل الأسطوانات مُدمجًا في حقيبة. عليه استمعتُ إلى أولى أسطواناتي، ورأيتُ شفائي كامنًا في الموسيقى، وشعرتُ بالقوى الشافية للموسيقى. لذا أطلقتُ على ابنَيَّ فيفالدي وبرامز. ليت كلَّ الأسماء تغدو موسيقى. آه، الآن أدرك أنِّي لم أختر لأبوَيّ اسمَيْن من الأسماء المهيبة في تاريخ الموسيقى. ربما كان عليَّ أن أطلق على أبي اسم غريغوري، وعلى أمِّي اسم يوتيربي. يجب عليَّ اختيار اسم موسيقارٍ شهيرٍ من أجل كلِّ شخصٍ أحببتُه، وهكذا تمتلئ قصَّة حياتي بالموسيقى.

رأيتُ كيف اشتريا مُشغِّل الأسطوانات. كنتُ قد طلبتُه هديَّةً بمناسبة أعياد الميلاد. رأيتُهما يدخلان إلى المتجر، إذ تصادف مروري من هناك، من ذلك الشارع الذي يقع فيه متجر الأجهزة الكهربائيَّة. طبقًا لحساباتي، جرَت تلك الواقعة في عام 1974. ربما كانت صورتهما وهما داخلان إلى المتجر تمثِّل تخوم الذاكرة. بدا أبي في معطفٍ واقٍ من المطر. لماذا دخلا إلى ذلك المتجر؟ ابتهج قلبي. كنتُ أعرف سبب دخولهما إلى ذلك المتجر: ذهبا لشراء هديَّتي. لماذا ارتدى معطفًا واقيًا من المطر وهو ذاهبٌ لشراء مُشغِّل أسطوانات؟ هل طلبتُه هديَّةً بمناسبة أعياد الميلاد أم لأنِّي حصلتُ على تقديرٍ جيِّدٍ في الاختبارات؟ لا أدري. لا أرى غير صورةٍ واحدة: صورتهما وهما يدخلان إلى ذلك المتجر. ولكنِّي الآن، أشكُّ في أمر المعطف الواقي من المطر.

مات أبي وهو في الخامسة والسبعين من العمر، هل أعيش سنوات أطول ممَّا عاش أبي؟ أنا على قناعةٍ بأنَّ عمري سوف يكون أقصر من عمره، أو ربما عشتُ بقدر ما عاش على وجه التَّحديد: خمسة وسبعون عامًا. لا أظنّ. أعتقد بأنِّي سأرحل قبل ذاك.

يبدو لي من سوء التهذيب أن تعيش أطول ممَّا عاش أبوك. يبدو لي ضربًا من عدم الوفاء، تجديفًا، خطأً كَوْنيًّا. إن عشتَ أطول ممَّا عاش أبوك ما عدتَ ابنه، ذلك ما أرمي إليه.

وإن لم تعُد ابنًا، فأنت لا شيء.

كان أبي واعيًا بأنَّه يُفرط في الطعام، ويأكل أكثر ممَّا ينبغي، فيزيد وزنه. صارت علاقته بالطعام علاقةً مؤذية. أحبَّ الطعام، والعيش. فمَن أكل كثيرًا، حتى وإن لم يبدُ عليه، اختار بذلك الموت، وتدمير أعضاء الجسد، وإساءة استغلال الغريزة، والاستغلال الجائر للبنكرياس، والكبد، والمعدة، والمستقيم، والقولون. الكلّ يزيد وزنه عن المطلوب. فلقد دَرَجنا على النظر إلى مَن يزيد وزنهم عن المطلوب سبعة كيلوجرامات نظرةً طبيعيَّة، وما عاد يلفت انتباهنا سوى أولئك الذين يزيد وزنهم عن المطلوب عشرين أو خمسة وعشرين أو أربعين أو ستِّين كيلوجرامًا. يزيد وزن الغالبية العظمى. حتى الزيادة بمقدار كيلوجراميْن اثنيْن يُعَدُّ شيئًا مُعيبًا. لقد نسينا مزايا الجوع.

اليوم لا تشوب الأجواء قطرةٌ واحدةٌ من القيظ. إنَّه يومٌ مثاليٌّ لطرح سؤالٍ بسيط. لتأمُّل مدى الحبّ الذي أضمره لي أبي وأمِّي.

ذلك الحبّ لا يرحل عن العالَم.

لماذا أحببتماني كلّ هذا الحبّ؟

هل أحببتماني حقًّا أم أنَّني أختلق ذلك الحبّ؟

لو أنِّي اختلقتُ حبّكما، فذلك شيءٌ جميل. ولو كان حقيقيًّا، فهو شيءٌ جميلٌ أيضًا. فمن أجل انتشال ذلك الحبّ من وسطٍ الظلال، يجب عليَّ الذهاب في رحلة، هي أبطأ رحلةٍ في العالَم، وأوفرها حظًّا من الإعجاز.

منذ أيَّام، انتحر المُمثِّل والكوميديان الأميركيّ الشهير روبن ويليامز، عن عمرٍ يناهز الثالثة والستِّين. ما يعني أنَّ والدي قد عاش اثني عشر عامًا أطول ممَّا عاش روبن، الذي شنق نفسه بالحزام. لم يكُن هذا ضروريًّا، يا رفيق، لم تكُن بك حاجةٌ إلى الانتحار. فأبي، الذي لم يملك شيئًا، عاش اثني عشر عامًا أطول ممَّا عشتَ أنت؛ اثني عشر عامًا، إنَّه دهرٌ كامل. كنتَ ثريًّا يا روبن، واخترتَ الموت. وكان أبي فقيرًا، فجاء الموت يفتِّش عنه. ما هذا من العدل في شيء.

كان في يدك أن تترك لنا مالك، فيتمكَّن أبي من العلاج على أيدي روَّاد الأبحاث من أطبَّاء الأورام، القادرين على إنقاذ حياته، تلك الحياة التي لم تردِها أنت. لو فعلتَ لكان أبي معي الآن، في الرابعة والثمانين من العمر. مِن الناس مَن يبلغ أربعة وثمانين عامًا وهو بكامل صحَّته. لو كان أبي يملك ثروتك، لنجا بحياته.

الموت ليس ضروريًّا، أبدًا.

لطالما جاءنا الموت من تلقاء نفسه، أو فوق البيعة. ولا داعي للسَّعي إليه. الموتُ خدمةٌ تصلك إلى المنزل. لستَ مُضطرًّا للانتقال إلى أيِّ مكانٍ من أجل تنفيذ هذا الإجراء. فهو الذي يأتي إليك في بيتك. الموت مُريح. إنَّها خدمةٌ جيِّدة تُقدَّم إليك. لا سخرية في الأمر، بل إنَّه كما قلت.

نمرّ بالعالَم، ثمَّ نرحل، تاركين العالَم لآخرين، يأتون ويفعلون ما في وسعهم. تعمِّر المدن أطول منَّا كثيرًا، ولكنْ يُعاد تأسيسها بطبيعة الحال، أو تتحوَّل، أو تتلاشى. حتى جدِّي لأمِّي انتحر، كما انتحر روبن ويليامز لتوِّه. ربَّما كان أخبثُ أمراض الأرض مُؤلَّفًا من اليأس والخواء والغثيان المعنويّ المفضي إلى الانتحار. فيما يلي وجه جدَّتي، برفقة واحدٍ من أبنائها، يحمل كعكةً بيده:

في تلك النظرة يتجلّى شقاءٌ عظيم، داءٌ داخليٌّ مقترنٌ بالأهوال. في عينَيْ تلك المرأة تبدو عيناي وعينا أمِّي. حين التُقِطت هذه الصورة، كان زوجها قد انتحر، وابنها البكر قد مات. ولذا يستحوذ عليها الهوْل: فهي لا زوج لها ولا ابنًا بكرًا. وتظنُّ بأنَّ الذَّنب يقع على عاتقها.

لقد شهدَت تلك المرأةُ موت ابنها في حادث سيرٍ مُفجعٍ أفضى بزوجها إلى الجنون ثمَّ الانتحار برصاصةٍ من بندقية صيْد، عام 1957. لا أعرف التاريخ على وجه التَّحديد، ولكنِّي أحاول حسابه. ربَّما وقع الحادث عام 1955، أو 1951، لا أدري! في الخمسينيَّات كثُرَت حوادث السَّير.

استرجعتُ هذه البيانات ما وسعني ذلك، لأنَّ أحدًا لم يتكلَّم، والآن باتوا جميعًا من الموتى. لا سبيل إلى التحقُّق من البيانات والتواريخ، فجميعهم قد رحلوا. وكأنِّي بهم يقولون لي: «اختلقِ الأمر برمَّته، فنحن ذاهبون. افعلْ بماضيك ما يحلو لك، لا يهمّ، فنحن لم نعُد على قيد الحياة».

في هاتيْن العينَيْن، عينَيْ جدَّتي، تكمن قرونٌ من الفِلاحة الإسبانيَّة، والأيدي المُتعبة، ورائحة العرق، والحلاقة الرديئة، والقيظ اللَّعين صيفًا، والحيوانات التي تلتقط أنفاسها قرب فمك، والكهنة الذين يرفعون القدَّاسات الإلهيَّة، والمزيد من الكهنة الذين يرفعون المزيد من القدَّاسات الإلهيَّة، سبعمئة مليون كاهنٍ يرفعون القدَّاسات الإلهيَّة. في إسبانيا، لم يكُن الحزب الشيوعيّ هو عدو الرَّب اللَّدود، وإنَّما الكنيسة الكاثوليكيَّة.

سبعمئة مليون كاهنٍ يرفعون القدَّاسات الإلهيَّة.

أنهى زوجُها حياته.

وابنها أيضًا، بل إنَّ ابنها قد أنهى حياته قبل ذاك. عيناها تفنِّدان معنى الحياة، الذي لا يعدو أن يكون هو معنى الأرض، أرضٌ لا اسم لها. فلا اسم ولا شهرة ولا وجاهة ولا ثراء ولا نجاح ولا كرامة ولا قوَّة عسكريَّة ولا قوَّة اقتصاديَّة ولا عالميَّة سوى لمدينتَيْن في إسبانيا: مدريد وبرشلونة.

أمَّا باقي المدن والقرى، فلم تَعْدُ أن تكون أقاليمَ مهجورة، وأمكنةً خاوية.

جدَّتي التي لا اسم لها (سأدعوها ثيثيليا، تيمُّنًا بالقدِّيسة ثيثيليا، التي طوَّبها البابا غريغوري الثالث عشر شفيعةَ الموسيقى عام 1594)، كانت ابنة أرضٍ منسيَّة، أرض سومونتانو. الآن أسمِّي تلك الأراضي والقرى بأسمائها، والفضل في ذلك يرجع إلى التحاقي بالجامعة، أي أنَّ الفضل يرجع إلى الديكتاتور فرانثيسكو فرانكو باموندي، الذي أرسى الدعائم اللَّازمة حتى

نتعلّم القراءة والكتابة، نحن، أحفاد ثيثيليا، وأرسى دعائم الطبقة المُتوسِّطة الإسبانية، وأخَّر الحداثة السياسيَّة في إسبانيا بضعة عقود، عن جهلٍ وسذاجة.

أكتب لأنَّ الكهنة علَّموني الكتابة.

سبعمئة مليون كاهن.

أيُّ سخريَّةٍ عظيمةٍ تنطوي عليها حياة الفقراء في إسبانيا: فأنا أدين للكهنة بأكثر ممَّا أدين به للحزب الاشتراكيّ العمَّاليّ الإسبانيّ. لطالما كانت السُّخرية في إسبانيا عملًا فنِّيًّا!

اكتُشِف ورمٌ سرطانيٌّ في جسد ثيثيليا. فتجنَّبَتها أمِّي ظنًّا بأنَّ السرطان قد يكون مُعديًا. ولذا صارَت جدَّتي مجهولةً عندي بحقّ. لا أذكرها كثيرًا، إلَّا من خلال الصورة، ولكنَّ عينَيْها هما عيناي أنا اليوم. «لا تلمسها»، هكذا قالَت لي أمِّي. إن قلتَ لطفلٍ شيئًا من هذا القبيل عن جدَّته، حسبها كتلةً جسمانيَّةً مُعدية، قارضًا مريضًا، جرفًا تستقرّ في أعماقه الأحجار السود. لم تكُن أمِّي سيِّئةَ النِّيَّة على الإطلاق، وإنَّما يائسة. وذلك هو الشعور الذي سكن قلب أمِّي وقلبي دائمًا. كانت تريد منِّي البقاء بمأمنٍ من السرطان، لأنِّي أنا الأحبّ إليها في العالَم بأسره. ومُجرَّد فكرة إصابتي بشيءٍ بدَت لها مُروِّعة. إنَّه حبٌّ سابقٌ على التاريخ، مُتَّشحٌ بثياب الحِداد، مصابٌ برهاب الأمكنة الضيِّقة، استحواذيٌّ، خانق.

كانت أمِّي تتحدَّث إلى أختها ريمي وأبي عن موت ثيثيليا المحتوم، فأنصتُ أنا إلى تلك الأحاديث. اتُّخِذَت الاستعدادات اللَّازمة، ودُرِس الوضع. الأمر برمَّته خلق أجواءً عشتُها بطريقةٍ مُميَّزة، إذ كنتُ ملكًا على كلِّ شيء، وبهجةً عوَّضَتهم عن اختفاء ثيثيليا الوشيك. كنتُ الأمل والمستقبل، أمَّا ثيثيليا فكانت الوداع. عوَّضنا أحدُنا الآخر، وارتبط أحدُنا بالآخر، فمستقبلي ضروريّ حتى يكتسب وداعها مغزًى، والعكس يصحّ.

بعد مضيِّ خمسةٍ وأربعين عامًا على كل هذا، ما زالَت ذكرى تلك الأحاديث التي دارت من وراء ثيثيليا توقظ في نفسي رؤًى لم أعرف بوجودها في عقلي: إنَّ تخوم الذاكرة مائعة. أرى أشياءَ جديدة. لطالما رأيت المشاهدَ القديمة وكأنَّها جديدة. الصنابير المُذهَّبة ذات المواسير النحاسيَّة المكشوفة في ذلك البيت العتيق، بيت خالتي ريمي، ثيثيليا التي اشتدَّ عليها المرض وهي تشرب كوبًا من الماء.

أحاول التَّفكير في اللَّحظات المبهجة في حياة ثيثيليا. ربَّما كانت الأيَّام التي وُلِد فيها أبناؤها. كيف عساه يكون صوتها؟ لَم يُسجَّل ذلك الصَّوت في أيِّ مكان. كيف كانت في شبابها؟ لو أتَّك التقيتَ بأجدادك في محطَّات القطار، أو الأوتوبيس، أو في صالات المطارات، لما تعرَّفتَهم. لا مُتَّسع لليقين إذا اقترن الأمر بموتاك، لأنَّ موتانا كائناتٌ مجهولة، لا أيقونات لها، ولا شهرة. لو قام أمواتك من قبورهم لصاروا مجهولين. فلا يمكن التأكُّد إلَّا من هويَّة المشاهير إذا قاموا من بين الأموات، من أمثال إلفيس بريسلي، وأدولف هتلر، ومارلين مونرو، وتشي جيفارا.

ما كنتُ لأتعرَّف بأجدادي لو بُعِثَتْ فيهم الحياة، لأنِّي لم أرَهم قطّ وهم على قيد الحياة، ولأنِّي لا أملك ولا حتى صورةً تعيسة لهم، ولأنَّ أحدًا لم يحدِّثني عنهم. والآن أفتِّش عنهم بين الموتى، فتمتلئ يديَّ بالرماد والفضلات، رمز الطبقة العاملة في العالَم وشعارها: الرماد والفضلات. والنسيان.

لا وجود لصلة قرابةٍ كهذه.

لا وجود للعائلة.

لا شيء هناك... إنَّها الخُيَلاء المُتمثِّلة في قول: «أجدادي».

لا أدري من كانوا. لا أدري أيَّ حياةٍ عاشوا، إن كانوا طوال القامة أم قصارها، إن كان شعرهم أسود أم أشقر! لا أدري شيئًا. لا أعرف حتى أسماءهم. لا أعرف من كان جدِّي لأبي. دع عنك أن أعرف من كان جدِّي لأمِّي. حتى تاريخ موتهم لا أعرفه. ولن أعرفه ما حييت، فلا يُمكنني سؤالَ أحدٍ، كائنًا من كان.

ماذا أنا فاعلٌ في ليل العالَم ما دمتُ لا أملك اللَّيلةَ الأولى من ليالي عالَمي؟

- 90 -

كانت أمِّي تقول لي: «لا تلمسها، لا تلمسها». أُصيبَت ثيثيليا بسرطانٍ تحت ثيابها السود، في جنبها. كنتُ أتخيَّل السرطان وكأنَّه شيءٌ أبيض مُختبئٌ في طيَّات ثيابها السُّود، وكأنَّه جرذٌ أبيض ينهش أذرع الناس. لم نتحدَّث عن سرطان ثيثيليا قطّ. ماتَت، وقد لا تنتهي حجَّتها إلى النقاء حتى يحين موتي. يسعني التَّفكير في موتي أنا الآخر.

كم من الوقت قد يتبقَّى أمامي؟

لا يفكِّر الناس في هذا السُّؤال، لأنَّه عصيٌّ على التَّفكير، خالٍ من المحتوى، خالٍ من كلِّ شيء، ولاسيَّما الآداب الاجتماعيَّة.

وعلى الرَّغم من ذلك، فثمَّة رقمٌ واحدٌ يترقَّب: خمسة أعوام، ثلاثة أيَّام، ستة أشهر، ثلاثون عامًا، ثلاث ساعات.

ثمَّة رقمٌ، يتحيَّن تمامه.

ولسوف يتمّ ذلك الرَّقم. لأنَّ جميعنا يحمل ذلك الرَّقم. تبدو وكأنَّها سخريةٌ دمويَّةٌ من جانب الرَّب: الولع بالأرقام. عاش أبي خمسةً وسبعين عامًا. الأرقام تمثِّل الحياة بدقَّة. يسأل الناس عن عمر شخصٍ قضى لتوِّه بينما هم يجرون حساباتهم.

الموت دون العشرين عامًا يكاد لا يكون موتًا، إذ لم تسبقه حياة.

الموت دون الخمسين عامًا حزين.

أمَّا أبي فاختار رقمًا غامضًا: 75.

ليس رقمًا كبيرًا، ولكنَّه ليس بالقليل أيضًا. يبدو كالتخوم. يبدو رقمًا جيِّدًا. سرِّيًّا. كالحدود الفاصلة. رحيلٌ قبل الطعن في الشيخوخة، قبَيْل ذلك بوقتٍ قصير. وإن ليس أقصر ممَّا ينبغي.

ليلةَ مات أبي، استغرقتُ في التَّفكير بذلك الرَّقم، محاولًا التَّحقُّق ممَّا إذا كان أبي يريد إبلاغي شيئًا من خلاله.

جميع كلمات السرّ التي أستخدمها على الإنترنت تحمل رقم 75.

في ذلك الرَّقم سِمَة الكمال. كان من الجائز أن يعيش عشرة أعوامٍ أطول ممَّا عاش وهو بأحسن حال، أو حتى خمسة عشر عامًا!

وكان من الجائز أن يموت في الخامسة والستِّين، أو الثامنة والستِّين، أو الثالثة والسبعين.

بَيْد أنَّه تخيَّر ذلك الرَّقم المُحكم المُفعم بالرَّسائل. إنَّه فيضٌ من الرَّسائل، سيمفونيَّةٌ من الرُّموز.

أسير وثيثيليا في الشارع. تمضي وقد غطَّت جسدها كاملًا، وسترَته بالأحجبة تمامًا. نسير نحو الكنيسة، ثمَّ ندلف إليها. هناك نجد شموعًا مضرمة، وتقول لي ثيثيليا: «أنا جدَّتك». أرغب في استحضار ذكرى ذلك القول، بَيْد أنَّها لم تقُل لي شيئًا في واقع الأمر. لم تنبس ولا حتى بمقطعٍ صوتيٍّ واحد. إنَّ الاعتراف بالحبّ حلمٌ يراودني في حاضري. أرنو إليها، فلا أرى سوى أحجبةٍ من الحديد، سجونٍ يسكنها الموتى الذين لا يذكرهم أبناؤهم الأحياء، جدرانٍ، نعوش.

اجتمع أبناؤها يومَ جنازتها ودفنها. لعلَّه كان عام 1967 أو 1968، أو 1969، أو 1970، أو 1966، لا أدري. ولا يسعني سوى التكهُّن. لم يُبلِغني أحدٌ بالتواريخ، لأنَّ أحدًا لم يَعُد بعد سنواتٍ ليُخبرنا بتاريخ موته بصوتٍ عالٍ.

اجتمع الأبناء للحديث عن تقسيم التركة القليلة. أتخيَّل أنَّها كانت ستحبّ رؤيتهم مجتمعين كلِّهم يومَ دفنها. أرى أبناءها جلوسًا حول مائدةٍ طويلة، وقد دبَّت فيهم الحركة، لعلَّهم احتدُّوا في كلامهم. ثمَّ نسوا أمرها بعد يوم الجنازة!

كادَت أمِّي لا تتحدَّث عنها. وإنِ كنتُ أتخيَّل أنَّها قد حملَتها في حنايا القلب. لا أدري. لو صحَّ ذلك، فلقد حملَتها أمِّي في حنايا قلبها في صمت.

أوه.. يا ثيثيليا الشبحيَّة! ليس الأمر أنَّ أبناءك لم يحبُّوك، بل إنَّك صرتِ ذكرى تبعث على الغضب أو الضِّيق. لم يكونوا مُهيَّئين للتَّفكير في الموتى بعقلانيَّة. لا أحدَ مُهيَّأً لذلك، لأنَّكِ عشتِ في إسبانيا فقيرةً للغاية، إلى حدٍّ لم يسمح ولا حتى بالاحتفاظ بالذاكرة مُتَّقدة. كان بلدًا مُتأخِّرًا، ولكنْ فيمَ كلّ ذلك التأخُّر؟ لا مُؤرِّخٌ واحدٌ يعرف الإجابة.

لا مُؤرِّخٌ واحدٌ يملك أدنى فكرةٍ عن الأمر. إنَّه اللُّغز الإسبانيّ، هكذا أُطلِق عليه.

لم يرِد لكِ ذكرٌ في الأحاديث. لا أعرف عنكِ أيّ شيء، لأنَّهم لم يُخبروني بشيء. نسوْا أمركِ على نحوٍ بائس. لا شكّ أنَّكِ عشتِ، وخضتِ أحداثًا.

عندما جاء ذكركِ في بعض الأحاديث، في مناسباتٍ معدودة، ظهرتِ كالظلّ البعيد، غير مُجسَّدة، ولكنَّ واحدًا من أبنائك أحبّكِ حبًّا جمًّا.

إنَّه ألبرتو، الابن الأصغر.

كان يذكر اسمك، وصوته يشي بالهجران.

سوف أطلق على ألبرتو اسمَ مونتيفيردي، لأنَّه يستحقّه، ربَّما كان اسمًا لائقًا به، وهو الذي لم يزهر بعدُ على الجبال، بل تاه على جبلٍ منسيّ، فلا نَضَج ولا ازدهر يومًا [16].

مونتيفيردي هو الذي تذَّكركِ. هو الذي بقي وحيدًا في الحياة، ولم ينشئ أسرة، ولم يمدّ جذوره في أيِّ مكان، بل إنَّه كان مُتَّكلًا عليكِ، مبتهلًا إليكِ، مُفتِّشًا عن الحبّ.

كان يستحضركِ في معرض حديثه إلى أبنائك، أشقائه، بَيْد أنَّه بقي وحيدًا، مهجورًا، إذ لم يجارِه في ذلك أحد. رحتُ أنظر من غفلتي، غفلةِ طفلٍ في السَّابعة من العمر لا يسترعي انتباهه إلَّا الحماسةُ التي كان مونتيفيردي ينطق بها كلمة «ماما»، فلا يضع النبر على آخر الكلمة، وإنَّما ينطقها بلا نبر، نطقًا خاليًا من العزاء، وسمْعي يسجِّل ذلكَ النطق الغريب النابع من هجرانٍ بدائيّ زادكِ بُعدًا على بُعد، لأنَّ اسمكِ لا يُنطَق مثلما يُنطَق اسم أمِّي.

ظلَّ مونتيفيردي يفتِّش عنكِ وسط الغائبين، وحده بحث عنكِ دونًا عن أشقائه.

أمَّا الباقون فصاروا آباءً وأمَّهات، وتركوكِ في سلامٍ وسط الذاهبين.

بينما راح مونتيفيردي يقول: «أما عُدتم تذكرون ما كانت تقوله ماما دائمًا؟». هأنذا أراكِ الآن، يا ثيثيليا، وأنتِ تشملين أبناءك بالرعاية، ومنهم الابن الأشدّ احتياجًا إليكِ، مونتيفيردي.

لم أرَ عائلتكم، لم أرَها قطّ.

وهأنذا أراها الآن، وسط الموتى. حسبي العلم بأنَّ تلك العائلة كانت على قيد الوجود يومًا. حسبي العلم أنِّي لم أختلقها من وحي الخيال. لا بدَّ أنَّ تلك العائلة كانت على قيد الوجود يومًا، ولا بدَّ أنَّها كانت عائلةً رائعةً، نبيلةً، مُتَّحدةً، قويَّةً، ومبتهجة.

لأنَّ الفارق بين الأحياء والموتى مُقترنٌ بالسَّوائل والحركات السريعة، حركاتِ شروقِ الشمس ومغربها، مقترنٌ بالضوء ومساره فوق رؤوس البشر.

عرف مونتيفيردي أنَّكِ أنتِ الشخص الوحيد الذي أحبّه. وكان يهرع إليكِ مثل الطفل الذي يطارده الرجال، أولئك الذين لم يحبُّوه قطّ. بَيْد أنَّكِ رحلتِ عن العالَم، وتركتِ مونتيفيردي وحيدًا. حتى عمركِ ساعة الرحيل لا أعلمه، ولا أدري إن كان عمركِ آنذاك تسعين عامًا أم ستِّين. ولا أدري كم كان عمر زوجكِ، جدِّي، عندما انتحر.

ثيثيليا، لم أعرف عنكِ شيئًا، حتى اسمكِ لا أعرفه، ولذا ابتكرتُ من أجلك هذا الاسم، اسم شفيعة الموسيقى. لأنَّ أحدًا لم يناديكِ باسمك الشَّخصيّ.

من منظورٍ بيولوجيّ، كنتِ أنتِ جدَّتي. والآن، ربَّما صرتِ خيرَ أشباحي.

وحده خالي مونتيفيردي كان يذكر اسمك.

ولكنْ هناك من تفوَّق عليكِ في الغياب عن الوجود، ولم يُذكَر اسمه قطّ. كاد يكون هو الرُّوح القدس. وكأنَّ ثيثيليا قد حبلَت بأبنائها السبعة بتدخُّلٍ إلهيّ، لا بتدخُّلٍ من زوجها. لقد ذُكِر اسمكِ، يا ثيثيليا، ورأيتُك على قيد الحياة. أمَّا هو فكان ثقبًا أسود. وكانت أمِّي ابنتكِ أنتِ والرُّوح القدس، يا ثيثيليا. وكذلك أشقَّاء أمِّي الخمسة الأحياء، كان أبوهم لا أحد.

لم يُذكَر اسمه، ولكنْ لمَ؟

مَن هو ذلك الرجل؟ كان على قيد الوجود، ومرّ تحت أشعَّة الشمس، كما أمرّ الآن.

ما دام قد أنجب، فلا بدَّ أنَّه كان على قيد الوجود.

لا أؤمن بالرُّوح القدس بصفته واهبَ المنيِّ.

كان جدِّي رجلًا بلا وجه حيّ، ولا وجه ميِّت. لم يُرَ على قيد الحياة يومًا، ولذا فحتى الموت لم ينَله. إنَّ التَّفكير في موتى لم ترَهم وهم لا يزالون على قيد الحياة ضربٌ من المحال.

فقدنا الذاكرة، لأنَّكم اخترتم الخزي، الشعور بالخزي. شعرتم بالخزي من انتحار زوجكِ ووالد أبنائك. وبدلًا من التفهُّم والتَّحمُّل، اخترتم النسيان من الأساس. وداعًا للذاكرة، مع أنَّها بخسة الثمن! تلك الذاكرة التي لا يُحافَظ عليها إلَّا بجمر الدِّماء. الذاكرة مجَّانيَّة. فلا ضرائب تُفرَض على الذاكرة. والدولة لا تحصِّل من مواطنيها ثمن الذكرى. أو ربَّما كانت تفعل!

لأنَّ الذاكرة قد تكون قاتلة. بعد أعوامٍ طوال، طوال، رأيتُ كيف يختار البعض أن يُخرِسوا أولئك الذين يزعجونهم. نذكر ما يلائمنا فحسب، إلَّا أنا، أنا الذي أودّ لو ذكرتُ كلَّ شيء. أو لعلَّنا نذكر ما جاء لتبقى ذكراه، كالمعهود. إلَّا أنا. ولا أفكِّر في التنصُّل من قولي «إلَّا أنا»، حتى وإن بدا مفعمًا بالزهو والكبرياء. تقيم ذاكرتي رؤيةً كارثيَّةً للعالمِ، أعرف، ولكنَّها الرؤية التي أشعر بحقيقتها. ليس لك التنصُّل من الكارثة، إنَّها قاعدةُ الأدب العظمى، إنَّها ريحُ الشرّ، وجميع ما كان من الأشياء.

في تلك الصُّورة الوحيدة التي وصلَت إليَّ من صور ثيثيليا، يظهر مراهقٌ، يكاد يكون طفلًا، يحمل كعكةً لا يبدو منها في الصُّورة إلَّا جزءٌ صغير، طرفٌ وحسب. من عساه أكل تلك الكعكة التي تكاد لا تظهر؟ ما كان مذاق الكعك آنذاك؟

الطفل هو ألبرتو، مونتيفيردي.

لم تكُن الحياة قد انقضَّت عليه بعد. بل إنَّها سوف تنقضّ عليه في وقتٍ لاحق. بعد سنوات، شخَّص الأطبَّاء حالته على أنَّها إصابةٌ بمرض السلّ، كان ذلك في أواخر الخمسينيَّات، عامَ 57، أو 58، أو شيءٍ من هذا القبيل، طبقًا لحساباتي.

والآن، فيما أكتب، يرقد مونتيفيردي ميِّتًا هو الآخر.

لم أحضر جنازة مونتيفيردي، كما هو عهدي دومًا.

يصعب وصف التدهور الذي لحق بمونتيفيردي في أواخر سنوات حياته. فارق الحياة عام 2014. أعتقد بأنَّه قد وُلِد عام 1940. لا أحد يعرف. ولا أحد يكترث!

على سبيل المثال، لم يكُن مونتيفيردي يتحمَّم. ولا يغتسل. بل إنَّه كان كائنًا هائمًا يقطع مدينة بارباسترو، ويسير في أرجائها كافَّة، بلا أدنى التزام. فتراه في الحانات، والمتاجر، والساحات. لطالما كان مونتيفيردي مفعمًا بالطاقة والبهجة، تحيط به هالةٌ من السرور الوهميّ.

يحضرني من طفولتي مشهدٌ يلاحقني فيه مونتيفيردي بالسكِّين. كان مشهدًا واقعيًّا، بل وكاد مونتيفيردي يُرديني قتيلًا. لاحقني بالسكِّين، وقد استحوذَت عليه نوبةٌ من الغضب، أو الجنون.

زِد على ذلك أنَّ الحياة الجنسيَّة لمونتيفيردي كانت لغزًا. تملَّكنا الجنون جميعًا، وإذا نحن عائلةٌ من المضطربين. لا أدري ما إذا شعر مونتيفيردي بالمعاناة. أتخيَّل ذلك. عاش حياةً بسيطة، بلا عمل. إذ استبعده مرض السلّ من سوق العمل آنذاك، في منتصف عقد الستينيَّات.

وكان جنوننا العائليّ يمثِّل عيدَ ميلاد، طقسًا من طقوس المؤاخاة.

في سراديب العالَم غمرَتنا السَّعادة. إذ كان مونتيفيردي يرسم على وجهه ابتسامةً دائمة، ابتسامةً خليقةً بأكلة اللحوم. من بساطته، نشأ رمحٌ،

نصلٌ مسنون، الأمر الذي يحدث في نفوس الكائنات حيث تعجز البدائيَّة عن التحوُّل إلى براءة، بل تسقط البدائيَّة أو البساطة سريعًا في هوَّة التشوُّه، أو الخروج عن المألوف، أو الانقباض المعنويّ. كان مونتيفيردي خارجًا عن المألوف، بدائيًّا، وإن خلا قلبه من الطِّيبة، خلا قلبه إلَّا من الظلمات، مُجرَّد ظلمات، ظلماتٍ بدائيَّة.

مونتيفيردي العظيم، لم يفعل في حياته شيئًا. تدبَّر حاله بمعاشٍ قدره مئتي يورو بأسعار اليوم. في السبعينيَّات، كان أبي يهديه بدلاته العتيقة. وهكذا تجوَّلت تلك البدلات في أرجاء بارباسترو على جسدَيْن مختلفَيْن. كان أبي يرتدي البدلة لأنَّه عمل مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا. أيّ شخصٍ يظهر وكأنَّه ذو شأنٍ ما دام يرتدي بدلةً. إنَّه لغز البدلة التي ساوَت بين الناس، ولاسيَّما في السبعينيَّات من القرن العشرين.

أمَّا الآن، فيتلاشى ذلك السرّ شيئًا فشيئًا.

كان مونتيفيردي يضع حول عنقه ربطاتٍ زاهيةً للغاية، مفعمةً بالألوان. والأدهى من ذلك أنَّه قد أرسل شعره.

بدا وكأنَّه يسوع المسيح، النجم اللَّامع بربطة العنق والنظَّارة. لأنَّ مونتي كان يضع على عينَيْه نظَّارةً تشبه نظَّارات پول نيومان في فيلم لون المال. نظَّارة مناسبات اشتراها في أقصى أرجاء العالَم.

كان أسلوبه في الحديث تصادميًّا، حافلًا بالألفاظ الدارجة، التي يرمي بها إلى توثيق أواصر الصداقة أو الفوز بقبول مُحدِّثه. وتراوحَت طريقته في الحديث ما بين الهَذَيان والحنان، ما بين الحنان والهاوية.

كان مونتي في الهاوية.

- 95 -

لم أعاقر الشراب منذ أمدٍ بعيد.

في إسبانيا، تتمثَّل المساعدة التي يحصل عليها مدمن الكحول السابق في تسهيل العودة إلى معاقرة الشراب. أعتقد بأنَّ غفران الآثام لا وجود له في إسبانيا.

ولهذا، لا يتمكَّن أحدٌ من الإقلاع عن الشراب في إسبانيا. ومن هنا، يأتي الترقُّب الذي يوقظه مدمن الكحول السابق في النفوس: «دعونا نرَ متى يسقط، ومتى يعود إلى الشراب».

«من المبهج أن نراه يسقط مرَّةً أخرى».

«إنَّها الكبوة الأخيرة التي لن ينهض منها».

ولسوف نصفِّق، ونقول: «شيءٌ مُتوقَّع».

إنَّه اللُّغز الإسبانيّ الذي يتساءل عنه المُؤرِّخون، ويتساءل عنه أصحاب النوايا الحسنة، ويتساءل عنه الكُتَّاب الأذكياء، ويتساءل عنه المُثقَّفون المخلصون: كم نشعر بالإثارة لمرأى تساقط الآخرين!

لا طيبةَ بيننا. تبدو علينا الطِّيبة متى ذهبنا إلى الخارج، وإن كُنَّا نطعن أحدُنا الآخر. كما لو كان تأسّلًا: يريد الإسباني لو مات جميع الإسبان حتى يبقى وحيدًا في شبه الجزيرة الإيبيريَّة، حتى يتمكَّن من الذهاب إلى مدريد وقد خلَت من الجميع، حتى يتمكَّن من الذهاب إلى إشبيليَّة وقد خلَت من الجميع، حتى يتمكَّن من الذهاب إلى برشلونة وقد خلَت من الجميع.

أتفهَّم الأمر، لأنِّي من هنا.

سوف ينعم الإسبانيُّ الأخير بالسعادة في النهاية، متى قضى سائر الإسبان.

في صِغَري، كنتُ أداعب تلك الفكرة، وأتصوَّر أنَّ أبوَيّ ليسا أبوَيّ، وأنّي ابنهما بالتبنِّي. إنَّها فكرةٌ حزينة، من شأنها قطع الصلة، والإفضاء بك إلى تلك الحافَّة الآليَّة، حافَّة النجوم الظاهرة في قبَّة السماء ليلًا، إلى صنفٍ من صنوف سيطرة الإرادة. اعتُبِرَت البنوَّةُ بالتبنِّي ضربًا من الانحراف، وتنظيمًا إجراميًّا تنحدر منه أصول المرء، وحصنًا مُكتظًّا بجثامين تتعفَّن على مرأى من الجميع. في طفولتي، اعتُبِرَت البنوَّةُ بالتبنِّي وصمةً على الجبين. كانت أمِّي تزوِّدني بمعلوماتٍ عن أبناءَ بالتبنِّي في بارباسترو، وتكشف لي ذلك المرض المعنويّ الذي تنبض به عباراتٌ من قبيل: «ذلك الولد الذي في صفّك، إنَّه ابنٌ بالتبنِّي»، وإذا بالولد يتحوَّل إلى لحمٍ مسلوب الإرادة، تسكنه روحٌ عَرَضيَّة، بَيْد أنَّه كان شيئًا بديعًا، لأنَّه انطوى على سرّ.

ما دمتَ ابنًا بالتبنِّي، فأبوك وأمّك الحقيقيَّان لم يريداك ولا حتى خمس دقائق في هذه الحياة. بل أرادك آخرون، أبٌ وأمٌّ من ابتكار المجتمع، لا الطبيعة، التي هي الحقيقةُ الوحيدة.

كم كنتُ أبذل في هذه اللحظة حتى أعاود الشعور بتلك البراءة مرَّةً أخرى! شعرتُ بشفقةٍ جارفة نحو الأبناء بالتبنِّي، وكانت روحي تنفطر حزنًا عليهم. وددتُ لو أجعلَ لهم ملاذًا، وأمنحهم أبي وأمِّي. كانوا يمثِّلون أقسى صُوَر الهجران. جرى الأمر برمَّته في ذهني، لأنَّ أولئك الأطفال كانوا سعداءَ في الواقع.

لطالما اشترَت أمِّي الدجاج البلديّ، في الستينيَّات والسبعينيَّات. كانت تجلبه امرأةٌ من إحدى القرى القريبة، فتأتي به حيًّا، ثمَّ تذبحه أمِّي بمساعدة أختها ريمي، صاحبة الخبرة الطويلة والمهارة الكبيرة. كانت ريمي تحضر إلى البيت لذبح الدجاجات، فتستلّ السكِّين وتنحر أعناقها. بينما أراقب ما يجري بشيءٍ من النفور، وإن لم أشعر بالخوف. بعد ذلك، تُغلَى الذبائح. أذكر مشاهدَ وقعَت في المطبخ الذي تصاعدَت فيه الأبخرةُ الكثيفة، وتناثرَت ريشات الدجاج، والدماء، والسكاكين. أذكر عنق الدجاجة، المفتوحَ عن آخره، والأدخنة.

اشمئزاز، أجل! وضيق، بسبب رائحة الدِّماء والريش، ولأنَّ المطبخ كان يُعبَّأ بالأدخنة. ولكنْ في أيِّ لحظةٍ يتولَّد ذلك الاشمئزاز الآخر، الاشمئزاز من الدخول إلى الحمَّام برفقة والدي؟ في أيِّ لحظةٍ تبدأ تلك المحظورات؟ لأنَّ الطفل الصغير يودّ لو بقي مع أبيه طوال الوقت، حتى وهو جالسٌ على مقعد المرحاض. لا يشعر بالاشمئزاز، ولا يشعر بالنفور. لا يشعر بأدنى قدْرٍ من الضِّيق، لا البدنيّ ولا النَّفسيّ. لأنَّ النفور من المحظورات نابعٌ من الحضارة. ينشأ الاشمئزاز من فضلات الأب اجتماعيًّا في لحظة استقلال الابن وتحرُّره الاجتماعيّ. حتى يتمكَّن الأبناء من شقّ طريقهم، لا بدَّ من تولُّد مشاعر النفور من روائح الأب. أذكر أنَّني رأيتُ أبي وهو يتبوَّل، وشعرتُ بالدَّهشة والذعر أمام عضوه. إنَّها مشاهد من الماضي، ومكانة الماضي آخذةٌ في التضاؤل شيئًا فشيئًا.

أذكر أنَّ أحدهم قد روى عليَّ حكايةً في طفولتي، حكاية أبٍ سلَّم نفسه إبَّان الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة من أجل خلاص حياة ابنه. فأُطلِق سراح الابن، وأُعدِم الأب رميًا برصاص البنادق. ولذا تحظى الأبوَّة بكلّ هذه الأهمِّيَّة، لأنَّها تُبطِل التردُّد، فلا تردُّد في الأبوَّة أبدًا. بل إنَّك سوف تبذل حياتك من أجل ابنك دومًا. أمَّا البقيَّة في هذا العالَم فارتياك، وتذبذب، وحيْرة، وأنانيَّة، وتردُّد، وشكّ، لا أثر فيه للعَظَمة. أُعدِم ذلك الأب رميًا برصاص البنادق، ولكنَّ ابنه قد أُطلِق سراحه.

أن تتلقَّى رصاصةً فداءً لغيرك من دون أن تأبه لذلك، إنَّها أقصى درجات العظمة التي قد تقدِّمها لك الحياة.

أن تتلقَّى رصاصةً فداءً لابنك هو السرّ الأعظم، الذي لا يفوقه أيُّ سرٍّ آخر على هذه الأرض. بل إنَّ ضياء الشمس ينطفئ أمام هذا السرّ. ما كان

الأب ليحسّ بالرصاصة التي تخترق لحمه، ولا يشعر بضياع مستقبله، ولا بفقدان الأشياء التي ما زال عليه إتمامها، ولا يفكِّر في نفسه، لأنَّه لن يعود هو نفسه، بل مُجرَّد حمِيَّةٍ مُبارَكةٍ تلتهب من أجل ابنه، الذي ما زال على قيد الحياة، وسيبقى على قيد الحياة.

لم يرِد بذلَ الحياة فداءً لأحدٍ في شريعةٍ واحدةٍ من شرائع الطبيعة. ذلك التخلِّي الطَوْعيّ الذي يبعث الفوضى في الكوْن.

لا يقين سوى الأبوَّة والأمومة.

أمَّا البقيَّة فتكاد لا تكون على قيد الوجود.

أعتقد بأنَّ 1970 هو العام الذي افتُتِح خلاله مسبح الجمعيَّة التعاونيَّة، فما عدنا نذهب إلى نهر بيرو، ذلك النُهَيْر الذي يتخلَّل بارباسترو.

أذكر السباحة في نهر بيرو ونهر ثينكا.

كان الناس يسبحون في الأنهار آنذاك، الأنهار الملآنة بالطين واليعاسيب والصخور وأفرع الأشجار، والقليل من المياه.

فرِحَت أمِّي كثيرًا حين دخلَت المسابح العموميَّة إسبانيا، في مطلع السبعينيَّات. كانت تقضي يومها في المسبح، الذي أُلحِق به الاختراعُ العظيم المُتمثِّل في غرفة تبديل الثياب، كما زُوِّد بآلات بيع المشروبات التي تسمح لك أن تتأمَّل بنفسك آليَّة عملها، فتتأمَّل دخول قطعةٍ معدنيَّةٍ بقيمة خمسة بيسيتا وخروج المشروبات المنعشة التي كانت تُباع آنذاك، مثل ميريندا التي اختفَت من دون أن يعرف أحدٌ لاختفائها سببًا. أضف إلى ذلك الحارس، الذي كان يراقب الداخلين إلى المسبح في صرامةٍ، ويتأكَّد من حيازتهم كارنيه العضويَّة. أذكر وجه ذلك الرجل، الذي يلامسني جثمانه في هذه اللحظة. كان رجلًا دميمًا، أصلع، يميل نحو اللَّاشيء، بعينَيْه السوداوَيْن، ووجهه المريض. ذلك الرجل العجوز في عام 1970، كان ينظر إلى صورتك في كارنيه عضويَّة المسبح ثلاث مرَّاتٍ لئلَّا يخدعه أحد، ولتأدية عمله كما ينبغي. ذلك الرجل العاجز عن التَّصديق بأنَّ الناس يسبحون في الماء، العاجز عن التَّصديق بأنَّ النساء يرتدين البيكيني ويرغبن في أخذ حمَّام الشمس وتناول مشروب ميريندا، العاجز عن التَّصديق بوجود ما يُدعَى «أغنية الصيف»، الرجل الذي لم يؤمن بالشمس.

ما عاد لتلك المسابح وجود، إذ تلاشَت في منتصف الثمانينيَّات. أمَّا الآن، فقد شغلَت مكانها شققٌ يسكنها أبناء أولئك الذين كانوا يسبحون هناك، إنَّهم أبناء السابحين الموتى، في خدمة رخاء إسبانيا، لو أنَّ إقليم أويسكا يقع في إسبانيا.

لقد قدَّم أبي خدماتِهِ من أجل رخاء إسبانيا، والفضل يرجع إليه في اقتناء بعض الإسبان بدلاتٍ مُفصَّلةٍ في عقد الستينيَّات. كانت تلك من وجهة نظري بطولة.

لم ينَل وسام الشجاعة في مراسم يرأسها ملك إسبانيا ورئيس الحكومة ورئيس حكومة منطقة أراغون وقائد اللِّواء الرابع في الجيش ورئيس أساقفة ثاراغوثا.

كلّا، لم يحصل عليه.

لأسبابٍ مُقدَّسة، لم يحصل عليه.

ولا أنا سأحصل عليه، ولكنْ لأسبابٍ أخرى، مختلفة، في غاية الاختلاف. وعلى الرَّغم من ذلك، فهي مُقدَّسةٌ أيضًا.

أنا وأبي نثأر من الأمر برمَّته. هو من خلال زوجته، وأنا من خلال أمِّي.

لم تعرف أمِّي يومًا أن بارباسترو تقع في منطقةٍ ذاتيَّة الحكم تُدعَى أراغون، وأنَّ أراغون منطقةٌ من إسبانيا، وأنَّ إسبانيا بلدٌ تقع في جنوب أوروبا.

لم يفُتها كلُّ ذلك عن جهل.

وإنَّما عن لامبالاةٍ إلهيَّة.

لا أذكر أنَّ والدي كان مُعجبًا بالرايات. أمَّا والدتي فهي لم تعرف حتى أنَّ لإسبانيا راية. لم تتصوَّر أمِّي الحياةَ السياسيَّة على وجه الأرض. إذ لم تلائمها، ولم تصلح لتلبية رغباتها. كانت أمِّي تأسُّلية، كالنهر أو الجبل أو الشجرة. أعتقد بأنَّ والدي لم يستخدم كلمة «راية» قطّ، ولا مرَّةً واحدة. مِن الكلمات الإسبانيَّة ما لم يستخدمه أبواي قطّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فحياتي عصيَّةٌ على التصوُّر من دون إسبانيا، ذلك أنَّني، وبطريقةٍ ما، أحبّ إسبانيا. في الواقع، أحبّ إسبانيا من أجل أبي، لأنَّه عاش هنا، من أجل هذا وحسب. لأنِّي أحبّ كلّ ما يمتّ لأبي بصلة. لو كان أبي برتغاليًّا، لأحببتُ البرتغال. في اعتقادي، أنَّ حظّه ما كان يسمح له بأن يكون فرنسيًّا أو بريطانيًّا أو أميركيًّا.

لطالما عاش أبي في إسبانيا. لطالما كان هنا، باستثناء فترة الخدمة العسكريَّة التي أدَّاها في إفريقيا، في مدينة مليلية. حين زرتُ مليلية، منذ أعوام، انطلق الصوتُ قائلًا: «كان هنا وهو في العشرين من عمره، هنا، كان هنا والحياة كلّها أمامه. لم يدرِ ما الموت وهو هنا، لم يدرِ أنَّني بعد ستِّين عامًا سوف آتي إلى هذه المدينة مُفتِّشًا عنه. ستّون عامًا مضَت وما زالَت آثاره باقيةً في هواء مليلية. ما زال في وسعك رؤيته، باسمًا، وقد ارتسمَت على وجهه تلك الابتسامة الطيِّبة، تلك التي ورثها برامز عنه من دون أن يدري. لا برا يدري، ولا هو أيضًا. وحدك أنت تعرف، وربَّما كان ذلك أهمَّ كشفٍ توصَّلتَ إليه. والآن، ابتسمْ، ابتسم لأنَّه كان هنا».

- 100 -

يرحل بعض الموتى برضا الأحياء، وبعضهم يرحل من دونه: مِن الموتى مَن يُوصَف بالعظيم، ومَن يُوصَف بالمُنحَلّ، ولكن بمُجرَّد دخولهم إلى عالَم الموت، يظلّ كلّ وصفٍ وكلّ حكمٍ أخلاقيّ وكلّ محاكمةٍ في الخارج، ولا يبقى شيءٌ غير المساواة في تعفُّن اللَّحم، تعفُّن اللَّحم الذي لا يأبه للخير أو الشرّ الأخلاقيّ الذي سكن الجسد الميِّت. ولكنَّ المرء يفارق الحياة وباله أكثر هدوءًا ما دام الأحياء يحبُّونه، الأمر الجدير بأن يُؤخَذ في الحسبان.

أمَّا بعد ذلك، فلا شيء.

يتعفَّن المُنحَلُّ مثلما يتعفَّن الصالح.

لا أدري إن كانت الحشرات آكلة الجِيَف تدرك الفارق بين الخير والشرّ. من المرعب التَّفكير بأنَّها لا تدرك الفارق، ومن المرعب التَّفكير بأنَّ ذلك الزبد الضارب إلى الصفرة والدِّهن الذي يشبه الصابون في جثمان الصالح هو نفسه في جثمان الخبيث! من المرعب التَّفكير بأنَّ الخير لا يتميَّز عن الشرّ من حيث طريقة التعفُّن، وبأنَّ الخير والشرّ ينتهي بهما المطاف إلى عفونةٍ واحدة، وصنفٍ واحدٍ من الديدان والفطريَّات!

ولذا، فربَّما أحسنتُ صنعًا إذ أحرقتُ جثمانَيْهما، وإن كنتُ لا أعتقد.

أسير وأبي يدًا بيد، في مقابر بارباسترو. إنَّه الأوَّل من نوفمبر، ربَّما كان ذلك عام 1968 أو 1969 أو 1970. يتوقَّف أبي أمام جدارٍ من المقصورات. ينظر إلى المقصورات العلْويَّة، التي تدهورَت وما عادَت تحمل اسمًا.

يحدِّثني قائلًا: «في واحدةٍ من تلك المقصورات العلْويَّة، يرقد جدّك». أنظر، فلا أرى سوى مقصورتَيْن أو ثلاثًا، لا تحمل اسمًا. أراها وقد تقشَّر طلاؤها، وامتدَّت فيها الصدوع، وتفكَّكَت، وتشقَّقَت، وكأنَّ الجدار من الحجر الرمليّ. بدَت المقصورات رماديَّةً، نائيةً، عصيَّةً على التَّعرُّف. لا أرى سوى الرمال القذرة، الرَّطبة. أنظر إلى أبي، وبتلك النظرة أطلب منه الإيضاح وتحديد موقع المقصورة. غير أنَّه لا يدري. ولا يُزعِجه ألَّا يدري.

يبدو وكأنَّ أبي بلا أب.

أمرٌ غريب.

أعتقد أنَّه لم يعاود الحديث عن أبيه قطّ. كانت تلك منطقةً روحانيَّة. منطقةً سرِّيَّة. بدا أبي وكأنَّه عميلٌ في الـ CIA.

وددتُ لو أعلم في أيِّ عامٍ مات جدِّي لأبي. أعتقد بأنَّ ذلك الاعتراف، الذي أدلى به والدي وهو يُطلِعني على الموقع التقريبيّ لتلك المقصورة التي دُفِن فيها جدِّي، كان لفتةً من لفتات الضعف والبوْح. لماذا لم يسمح لي والدي بمعرفة أيّ شيءٍ مُتعلِّقٍ بحياة جدِّي؟ لم يكُن في الوقت مُتَّسعٌ لذلك الكشف، ولم يخطر لنا على بالٍ أنَّ كلّ شيءٍ سوف ينتهي بمثل هذه السرعة. كان أبي قد نسي أباه. لا أدري ما الذي وقع بينهما، ولكنَّ شيئًا قد وقع. أعتقد بأنَّ الذاكرة فنٌّ برجوازيّ. وفي ذلك الصدد، كان أبي معاديًا للبرجوازيَّة من الأعماق. كان ذلك موضع التسريب في حياة أبي. ذلك أنَّه، وعلى الرَّغم من ثيابه البرجوازيَّة، حمل التمرُّد في طيَّات نفسه، وحمل شكلًا حميدًا من أشكال الفوضويَّة المعنويَّة التي أفضَت به إلى نسيان أبوَيْه. ربَّما فكَّر في أبيه كلّ يوم، كلّ ما في الأمر أنَّه لم يخبرني بذلك، اعتقادًا منه بأنَّ من الأفضل ألَّا أعرف، لأنِّي لن أتفهَّم. في الواقع، لم أعرف مَن هو أبي قطّ. كان هو الكائن الأكثر خجلًا، وغموضًا، وصمتًا، وأناقةً، من بين أولئك الذين عرفتُهم مدى الحياة. مَن كان؟ لم يخبرني، وإذا هو بذلك يؤلِّف هذا الكتاب.

إنَّ وجود الجثمان في القبر ليس جامدًا. إذ يتخلَّله نشاطٌ محموم، حيث تخضع المادَّة لتحوُّلٍ صناعيٍّ داخل الصندوق. النعش مصنع، منشأةٌ صناعيَّة تثور فيها المادَّة ماضيةً إلى الأسفل، إلى الأعماق، لأنَّ كلّ شيءٍ يجري تحت

السطح، رغبةً في التوغّل إلى الداخل، وكأنَّه يبحث عن قلب الكوكب. لا أراه، وإن كنتُ أشعر بكلّ ذلك النشاط: بهجة الجثمان الذي يقدح شرار الحياة من خلال كائناتٍ تبعث على الغَثَيان. ولكنَّ الحياة لا تبعث على الغَثَيان أبدًا، حتى وإن وُلِدَت في قلب الحظيرة، فمغارة الميلاد كانت حظيرةً أيضًا.

في عالَم النعش انصهارٌ ونشوء، إدراكٌ وجوهر. أمَّا أنا، فقد حلتُ دون كلّ هذا، حين طلبتُ إحراق جثمانَيْ أبي وأمِّي، وبذلك أحرقتُ نفسي أنا الآخر، لأنَّ أسمى أشكال الحياة هو جثمان الحياة، وأنا لم أدرِ كيف أراه!

لم أدرِ كيف أرى أيَّ شيء.

إنَّما الرُّفات قالبٌ، ومشَدٌّ، وتاجٌ، لنا نحن الباقين على وجه الأرض، على السَّطح.

لأنَّ في الرُّفات طموحًا وتجلِّيًّا وتمرُّدًا. ولكنِّي لم أدرِ كيف أرى ذلك. وهكذا يتشكَّل مجتمعٌ أيضًا، لأنَّ الهياكل تجاور بعضها بعضًا في القبور. وفي ذلك الجوار، ما زال يتنفَّس شكلٌ من أشكال الأمل.

أمل العودة إلى رؤياكما، يا أبي ويا أمِّي.

وما أنا سوى أملِ العودةِ إلى رؤياكما.

كان أبي هو الآخر يمرّ بتلك الأحوال، ويقع في كبوات الإرادة. كما يحدث لي أنا أيضًا. جاء وقتٌ ما عاد الخروج فيه لبيع الأقمشة يستحقّ العناء، إذ كان أبي يُضطَرّ إلى دفع ثمن البنزين، والمبيت بالفندق، والطعام، ولا يبيع إلَّا قليلًا. ما عاد الأمر يستحقّ العناء. باع من الأقمشة القليل، وأنا أبيع من الكتب القليل. كلانا الرجل نفسه. أعاني من الهَوَس بأنَّنا رجلٌ واحدٌ منذ كان على قيد الحياة، قبل موته.

زاول أبي العمل الحرّ، ولذا اضطُرّ إلى التكفُّل بجميع النفقات، بينما كانت العمولة على المبيعات تقلّ عن مجموع نفقاته. وإذا قوله: «ما جدوى السَّفر!» يغدو في حالتي: «ما جدوى الكتابة!»

إنَّها كبوات إرادة الفعل.

ولذا، اختار أن يرتدي الروب الأخضر ويشاهد الطُّهاة على شاشة التلفزيون.

تتردَّد أصداء كلّ ما جرى لأبي بحذافيره في حياتي. كلانا يعيش الحياة نفسها، يختلف السِّياق، ولكنَّها الحياة نفسها. وفي تلك المشاركة الحياتيَّة، قد تنبض رسالةٌ أو سخريةٌ محجوبة. مَن يرسل الرسالة؟ تتبدَّل الحدود الاجتماعيَّة والثقافيَّة، ونبقى على ما نحن عليه. إنَّ تلك الدَّرجة من درجات الوعي تقتل الزمن أحيانًا، تصهر الزمن وتجعله سائلًا، غير آمن، فتتساوى كلتا الحياتيْن. وأنا في الوقت نفسه، لا أريد أن أكون شخصًا مختلفًا عن أبي، فامتلاك هويَّةٍ تخصُّني شيءٌ يبثّ الرُّعب في نفسي.

أفضِّل أن أكون أبي.

حين أكتشف تلك المصادفات السامية المفعمة بالطاقة بين حياتي وحياة أبي، لا أشعر بالدَّهشة فحسب، بل وبالذُّعر أيضًا، وعدم الأمان، اعتقادًا منّي بأنَّ ذلك التكرار ينطوي على ترتيباتٍ ورموزٍ كبرى.

أمضي حياتي كاملةً في الكتابة، مثل أبي. أكتب القصائد والروايات، بينما كان هو يدوِّن طلبات الخيَّاطين الإسبان.

كان أبي جائلًا، مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا. وأنا أيضًا، على وجه التَّقريب. أكتب، وهو أيضًا كان يكتب. لا يهمّ ما نكتبه. فكلانا يؤدِّي العمل نفسه. أطلق على أعماله الأدبيَّة «الطلبات والفواتير». هأنذا أراه: يجلس إلى المائدة ويُبرِز قلمه الپاركر (الذي أهدَته الشركة إيَّاه) ويدوِّن كلّ شيءٍ بعنايةٍ تكاد تكون

طفوليَّة، بخطّه البديع الباروكيّ. أبي هو الذي كشف لي عن كلمة «خطّاط». أخبرني بمعناها، فانطبعَت في ذاكرتي: خطّاط.

كانت المائدة عرجاء، ما اضطَرَّ أبي إلى وضع سنادٍ تحت واحدةٍ من قوائمها لئلّا يضرّ ذلك بخطّه. في اعتقادي أنَّه لم يمتلك مكتبًا ملائمًا للكتابة قطّ.

كان الخطُّ مُهمًّا. وكان لون الفواتير أصفر. وإذا الحياة تصطبغ باللَّون الأصفر. حتى الفجر يصطبغ باللّون الأصفر.

لم يعلِّمني أبي كيف أحبُّه. كان يأخذ بيدي وأنا ما زلتُ طفلًا، فنخرج معًا إلى الشارع. حتى هو لم يُسأل عن رغبته في الأبوَّة، وعمَّا إذا كان قد اتَّخذ قرار الأبوَّة بحرِّيَّةٍ وبلا أيّ ضغوطٍ حقًّا.

كان أبي ينسخ الفواتير، ويدوِّن فيها مبيعاته إلى الخيَّاطين في أقاليم أويسكا وليريدا وتيرويل، إلى أولئك الخيَّاطين الذين فصَّلوا بدلاتٍ لرجالٍ فارقوا الحياة، وربَّما دُفِنوا بتلك البدلات. حتى الخيَّاطون فارقوا الحياة، فلم يرث عنهم المهنةَ أيٌّ من أبنائهم، إذ لم تعُد هنالك مهنةٌ تُورَّث.

لم يعرف كيف يعلِّمني حبّه، ولكنْ كيف يكون ذاك؟

حصل على شهادة تقديرٍ غير مرَّة، لأنَّه كان المُمثِّل صاحب أعلى مبيعات. أمَّا أنا، فكنتُ أحصل على شهادات تقديرٍ في دراستي الجامعيَّة التافهة التي أجريتُها في ثاراغوثا، والتي كان الغرض منها أن يتعلَّم الطالب كلمتَيْن للكاتب لوبي دي بيغا [17]، ويكتسب بعض المهارات اللَّازمة لتحليل الجمل الموصولة: يا لها من دراسةٍ ملائمة! كان هو الشيء نفسه، فأنا وأبي أدَّينا عملًا واحدًا. وهكذا استمرّ التخلُّف. تنكَّر قليلًا، ولكنَّه ظلَّ مُستمِرًّا.

وظلَّ الأثرياء هم الآخرين.

لا نحن، أبدًا.

لم تكُن هناك طريقةٌ واحدة لتحقيق الربح. هكذا هي إسبانيا عندنا جميعًا، عند أربعةٍ وأربعين مليون إسبانيّ: أن تشاهد مليونًا من الإسبان وهم يحقِّقون الربح، أمَّا أنت فلا.

الأصفر حالةٌ بصريَّة من أحوال الرُّوح. الأصفر لونٌ يتحدَّث عن الماضي، عن أفول العائلات، عن العَوَز، أي المساحة المعنويَّة التي تفضي بك إلى الفقر، عن المعاناة التي تشعر بها إذا لم ترَ أبناءك، عن سقوط إسبانيا في الانبعاثات الكريهة للإسبان، عن السيَّارات، عن الطرق السَّريعة، عن الذكريات، عن المدن التي فيها عشت، عن الفنادق التي فيها نمت، عن كلّ هذا يتحدَّث الأصفر.

«الأصفر» (Amarillo) كلمةٌ رنَّانة في اللُّغة الإسبانيَّة.

و«العَوَز» (Penuria) كلمةٌ أخرى ذات شأن.

«الأصفر» و«العوز»، تتعايش الكلمتان، وتقترن كلتاهما بالأخرى.

راودني حلمٌ: في الحلم، ذهبتُ إلى بيت أبوَيّ في أزمنةٍ آتية. إنَّه المستقبل. رأيتُ أبوَيَّ في عمرٍ مُبهم، ولكنْ في إطار الشيخوخة. رأيتُهما على قيد الحياة، ولكن في المستقبل، ربَّما في عام 2030 أو عام 2050، في عامٍ بعيد.

في الواقع، رأيتُهما آخر ما رأيتهما وقد فارقَتهما الحياة. لم يرحلا في آنٍ واحد، بل فصلَت بينهما فترةٌ زمنيَّة، فظلَّت أمِّي على قيد الحياة تسعة أعوامٍ كان أبي خلالها ميِّتًا.

كثيرًا ما فكَّرتُ في ذلك النموّ، وذلك التطوُّر الحياتيّ الذي مرّ به أبي ميِّتًا، منعزلًا، فكَّرتُ في التجربة التي خاضها كائنًا هاربًا من الحياة، في بيته وسط الموتى، وعمله وسط الموتى، بينما ظلَّت أمِّي وسط الأحياء. وكأنَّه قد هاجر إلى أميركا، ومن هناك راح يكنز الثروة، أو يؤمِّن المستقبل.

أعرف الأشياء التي فعلَتها أمِّي بينما كان أبي ميِّتًا، ولكنِّي لا أدري ما الأشياء التي فعلها أبي بينما ظلّت أمِّي على قيد الحياة من دونه.

تسعة أعوام انصرف خلالها كلٌّ منهما إلى شؤونه.

لم يتَّصل أحدهما بالآخر عَبْر الهاتف.

إنَّ تسعة أعوامٍ زمنٌ طويلٌ بعض الشيء.

والآن سيُضطَرّ كلٌّ منهما إلى تفسير الكثير من الأمور إلى الآخر.

أكثر البشر يخوضون تجربةً مثرية، وينالون خيرًا مادِّيًّا يُقدَّم لهم من دون مقابل، مرَّةً واحدة فحسب. وذلك هو يوم الموت، حتى وإن تمثَّل إليهم في موت حبيب.

فالموت في قرارة الأمر يكاد يكون مكسبًا اقتصاديًّا، لأنَّ الطبيعة تطلق سراحك أخيرًا، ولا يعود هناك نشاطٌ ولا عملٌ ولا جهدٌ ولا راتبٌ ولا نجاحٌ ولا إخفاق. ولا يعود من الضروريِّ تقديم الإقرار بالضريبة على الدخل، ولا مطالعة كشوف الحسابات البنكيَّة، ولا التحقُّق من فواتير الكهرباء. فالموت بهذا المعنى يُمثِّل يوتوبيا الفوضويَّة.

في الحلم، دخلتُ إلى بيتٍ يضمّ صالوناتٍ فسيحة. أذكر أنِّي لم أفهم تنسيق البيت جيِّدًا، ورحتُ أخلط بين حجرةٍ وأخرى. رأيتُ والدي في المطبخ، يعدّ حساء السمك. حين عرفتُه، في الحياة الواقعيَّة، أيْ في ماضي تلك الحياة الواقعيَّة، كان والدي بالفعل يتقن إعداد حساء السَّمك الشهيّ، حساء بويابيس. في الحلم، أخذ ينظر إليَّ كمن ينظر إلى شخصٍ مألوف. نظر إليَّ بضع ثوان، ثمَّ تابع تحضير الحساء. تسلَّل ضوءٌ ساطعٌ من خلال النوافذ الكبيرة في ذلك البيت المفاجئ حيث يقيم أبواي. ارتبتُ ولم أدرِ ما إذا رآني.

كما لو كنتُ ظلًّا، وأنا الذي ما زلتُ على قيد الحياة. كما لو كان حقيقةً، وهو الذي قضى نحبه.

اقتربتُ ورأيتُ كيف يعدّ الحساء بعنايةٍ كبيرة. فتملَّكني الذهول أمام دقّته في طهو الحساء وتحضيره، كما لو أنَّه قد تحوَّل إلى واحدٍ من طهاة التلفزيون أخيرًا، أولئك الذين كثيرًا ما استهوَته برامجهم.

أدركتُ أنَّ والدي، في المستقبل، كائنٌ مجتهد، مثلما كان في الماضي أيضًا، ولكنَّ اجتهاده في المستقبل معفى من اليأس والغمّ، ذلك هو الفارق الذي أبهرني وأسعدني.

اكتشفتُ حُجرة نوم أخرى. توقَّعتُ أن أجد مخدع أبوَيّ، وفيه فراش الزوجيَّة. غير أنِّي وجدتُ أكثر من فراشٍ فرديّ. ظهرَت أمِّي في المشهد، وكان لها أبناء غيرنا، فلم يؤلمني ذلك. لم أتمكَّن من رؤية وجوه أبنائها الآخرين، أولئك الكائنات، الأشقَّاء الذين سكنوا ذلك المستقبل المتلاشي. كما لم أتمكَّن من رؤية أمِّي بصفاء، وإن كان حضورها أكيدًا، وكأنَّها مبعثرةٌ في جميع أرجاء الحُجرة، وكأنَّ روحها قد تفرَّقَت أو تناثرَت في الهواء. لم أتبيَّن أبعاد حُجرة النوم، وإن تبيَّنتُ الأسِرَّة بوضوح. هناك عاش الكثيرون. لماذا يسكن كل هؤلاء بيتَ أبي وأمِّي في المستقبل، ما دام لم يسكنه في الماضي غيري أنا وأخي؟

كان حلمًا، أجل. ولكنَّه لم يكُن حلمًا فحسب. بل كان بلسمًا، عزاءً، لأنَّ عقلنا حكيم، وكأنَّ أحدًا مُتفوِّقًا علينا يسكن عقولنا. أحيانًا، كنتُ أشعر بأنَّ كائنًا آخر يقف ورائي، كائنًا آخر سوف يخرج من داخلي يوم أموت. كثيرًا ما فكَّرتُ في ذلك الكائن، وفي النهاية، خلعتُ عليه اسم «مُشغِّل الآلة».

إنَّها أحلامٌ تبحث عن التبرئة، وتريد من جسدك أن يظلَّ على قيد الحياة، ويلمس غفران الذنوب. يعرف «مُشغِّلُ الآلة» أنِّي أشعر بالذنب، ويفكِّر أنَّ اللَّاوعي يدينني، لأنِّي لم أكُن قريبًا منهما حين تقدَّم بهما العمر، لأنِّي أقمتُ خارج بارباسترو، ولهذا يعرض عليَّ اللَّاوعي أحلامًا مُفعمةً بالرَّحمة، حيث ما زال أبوايَ على قيد الحياة، وأنا لستُ على قيد الوجود. أمَّا كوْني غير موجود في ذلك الحلم فيرمز إلى إدانتي. ومع ذلك، يروقني ألَّا أكون موجودًا. وبسبب إعجابي باللَّاوجود، سيُجَنّ جنون قضاتي الواجب عليهم إدانتي متى حانَت محاكمتي، لأنَّ الإدانة نتيجة أيّ محاكمةٍ أصيلة. أمَّا التبرئة فواهية، تذهب أدراج النسيان.

لا نذكر سوى الإدانات.

بينما التبرئة لا ذكرى لها، هكذا نحن البشر.

وعلى الرَّغم من ذلك، فإدانتي إشكاليَّة. وتلك هي الهوَّة العظمى التي تبتلع حياة جميع البشر الواقفين على الحافَّة، أي نحن الذين وقفنا بين الخير والشرّ.

أفقتُ شاعرًا بنشوةٍ ما. كنتُ مُمتنًّا لأنِّي رأيتُ أبوَيّ مرَّةً أخرى، ولكنِّي رأيتهما في زمنٍ آتٍ، في مستقبل خالٍ منِّي أنا. لقد رأيتُ محورًا خدَّاعًا من محاور الزمن، تصميمًا بديلًا، ينشئ فيه أبواي أسرةً أخرى لا أنتمي إليها، وأنا لستُ على قيد الوجود.

لم أشعر بالإقصاء، ولم أشعر بالأذى.

بدا لي الأمر برمَّته مفعمًا بحنانٍ لا يُوصَف، وكأنِّي أتأمَّل فرصةً ثانيةً لكلّ الأشياء. بدَت السعادة على أبي وأمِّي مع أبنائهم الآخرين، بينما لم أكُن أنا هناك، وإذا غيابي يُحسِّن من حياة والدَيّ، الأمر الذي أشعرني بالسَّعادة. ولم يتملَّكني الخوف من الاختفاء.

لم يتملَّكني الخوف من الاختفاء، حتى وإن اختفيت من الجذور.

لو كنتُ ابنًا ضالًّا، فها هي ذي وصمتي قد انمحَت إلى الأبد.

هل كنتُ ابنًا ضالًّا؟

لو كنتُ كذلك، فالسَّبب تقصيرٌ من جانبي، لا رغبةً منِّي في ذلك.

من الجائز أن يكون المرء ابنًا مُقصِّرًا.

لا أحد مُستعِدٌّ للأبوَّة، ولا البنوَّة.

كان في يدي أن أقدِّم لهما المزيد في آخر عهدهما، قطعًا. ولسوف أحصدُ ما زرعتُ في ابنَيّ. وهكذا، أصفِّي حسابي، ولا أعود مدينًا بشيء. هأنذا أسدِّد ديوني بنسياني أنا نفسي.

وبينما الحلم يتلاشى، تذكَّرتُ كيف كانت حُجرة نوم أبوَيّ فيما مضى، أيْ حُجرة النوم التي مررتُ بها على أرض الواقع.

لن أرى تلك الحُجرة مرَّةً أخرى ما حييت. وأنا في حاجةٍ لذكر جميع متعلِّقات أبي وأمِّي التي لن أراها مرةً أخرى.

أذكر أنَّ التأمُّل في حُجرة النوم الواقعيَّة كان يُدخِل على نفسي بهجةً عارمة، تلك الحُجرة التي كانت على قيد الوجود فيما مضى.

حسنًا، لقد رأيتُ والدَيّ وهما يعيشان في المستقبل، من خلال حلمٍ راودني.

كيف يكون موتي بعد ثلاثة آلاف سنة؟ الموتى يبقون، يتحوَّلون، يستمرّون.

إنَّ موتَ الكائن البشريّ يروح ويغدو في الزمن، بل إنَّ جميع الموتى يروحون ويغدون. يفعلون أشياءَ مختلفةً عما فعلوا وهم أحياء.

ما زال في الموت نشاطٌ محموم.

في السادسة من عمري، كنتُ آوي إلى حُجرة نوم أبي وأمّي، اعتقادًا منّي بأنَّها سفينةُ فضاء. أكرِّر، وكأنّي أردِّد ترنيمة أنَّ العودة لرؤية تلك الحُجرة من أبعد المستحيلات: الجدران المُطليَّة الزاهية، والستائر، والفراش، والملاءات، والطاولة المجاورة للفراش، والأريكة، والمصباح، والخزانة. أرى ذكرياتي، أمَّا ذكرياتي فترى الماضي.

إنَّ الحاضر الذي يعيش فيه كلّ كائنٍ بشريٍّ يجعل الماضي لغزًا غامضًا. وعلى الرَّغم من ذلك، فالحاضر ليس سرًّا، بَيْد أنَّه لا يكاد يغدو ماضيًا حتى يجتاحه الغموض، ولذا أنظر إلى الحاضر من خلال عدسةٍ مُكبِّرة، وميكروسكوب، في محاولةٍ منِّي لرؤية تحوُّله: فعلى سبيل المثال، أتناول الغداء برفقة برا وفالدي يومَ الأحد، فأجد في نفسي رغبةً في معرفة الطريقة التي سوف يذكر بها ابناي ذلك الغداء بعد ثلاثين عامًا. يكشف لي ذلك الغداء ما ينطوي عليه من أسرار، وسكتةٍ روحيَّة، وبنكرياسٍ أصفر. كيف عساهما يذكران الغداء الذي نتناوله أيام الآحاد متى فارقَتني الحياة، متى صرتُ بُعْدًا؟

الماضي قِطَع أثاث، أرْوِقة، بيوت، شقق، مطابخ، أسِرَّة، أبسطة، أقمصة، أقمصة ارتداها الموتى، وأمسيات، إنَّها الأمسيات، ولاسيَّما في أيَّام الآحاد، حيث تُعلَّق الأنشطة البشريَّة، فتعود إلى عيوننا الطبيعة الأوَّليَّة، ونرى الهواء، والنسيم، والساعات الخاوية.

يحول الموت دون مواصلة التقدُّم في العمر. ومع أنَّه قد يبدو رأيًا غير معقول، لأنَّ وهم استمرار الميِّت في الاحتفال بعيد ميلاده شيءٌ تافه، يستمرّ الأحياء في حساب عمر الموتى وكأنَّهم أحياءٌ غائبون. وهكذا، تمتدّ الأواصر، وتتلاقى الحسابات بين الأحياء والموتى في مفترقاتٍ غريبة، لأنَّ الموت خالٍ من المحتوى، والحياة بلا موتٍ خاليةٌ من الغاية.

ولكنِّي تحدَّثتُ عن موتى بلا خُيَلاء، موتى لم يكونوا من الشخصيَّات المرموقة أو الشهيرة في حياتهم.

الموت يُضفِي على حياة أيّ إنسانٍ مغزًى غير مُتوقَّع. تنقطع كلّ الأخبار على نحوٍ لا ردّ له. وتنتفي إمكانيَّة الحركة. يكافئ الموت أولئك الذين أخفقوا في حياتهم، أولئك الذين لم يظهروا على أغلفة الصحف، ولا في نشرة الأخبار المعروضة على شاشة التلفزيون، ولا في الصُّوَر الفوتوغرافيَّة، ولم يحظوا بالصِّيت ولا الشُّهرة الأيقونيَّة.

أمَّا أصحاب الصِّيت والشُّهرة، فيعاقبهم الموت بالصُّوَر والمشاهد المُتحرِّكة التي عفا عليها الزمن، تلك التي ما عادوا يملكون منها فكاكًا، بل إنَّهم باتوا أسرى في داخلها.

إنَّهم أسرى الحياة التي عاشوها.

في حين يُعفَى الموتى المجهولون من السُّخف الذي يتراكم بمضيِّ الزمن، وهم الذين لم يظهروا في الصُّوَر التي تستحضرها الذاكرة. إنَّهم لا أحد. مُجرَّد ريح، والريح معفاةٌ من السُّخف.

إيَّاك والسماح بتصويرك أبدًا.

يتسلَّل الضوء من خلال نوافذ بيتي الواقع في جادة رانيَّاس، بناء رقم 16، الدَّرَج الأوَّل، الطابق الخامس، ب (الحرف الأوَّل من برشلونة).

في حنايا البيت، تسكن روح والدَيَّ: أبي الذي سمَّيتُه باخ؛ وأمِّي التي سمَّيتُها فاجنر [18]. أخيرًا، وجدتُ لهما اسمَيْن من تاريخ الموسيقى. ها قد جعلتُ منهما موسيقى، فمصير موتانا أن يصبحوا موسيقى وجمالاً.

أفلحتُ أخيرًا في شراء غسَّالة صحون، تحمل علامةً تجاريَّةً مجهولة، أيْ لا تحمل علامةً تجاريَّةً من الأساس، ولكنَّها تعمل. ما عدتُ أغسل الصحون بيديَّ. كلَّفَتني الغسَّالة مئتي يورو.

أمَّا أنت، يا أمِّي فاجنر، فما كنتِ تملكين غسَّالة صحونٍ يومًا.

عندما كُنَّا نخلي بيتك، قال لي الصوت: «ولكنَّ أمّك لم تملك غسَّالة صحونٍ يومًا، كيف يُعقَل أنَّك لم تشترِ لها واحدة؟»

صار الجميع يملك غسَّالة صحونٍ الآن. كان في وسعك امتلاك واحدة ابتداءً من مطلع التسعينيَّات أو منتصفها، وهي الفترة التي انتشرَت فيها غسَّالات الصحون في إسبانيا، طبقًا لحساباتي. بطبيعة الحال، كان وجود غسَّالات الصحون سابقًا على ذلك، أتخيَّل أنَّه قد بدأ منذ أواخر السَّبعينيَّات ومطلع الثمانينيَّات، ولاسيَّما في الحانات والمطاعم، لا البيوت. إذ دخلَت غسَّالات الأطباق البيوتَ في التسعينيَّات. أمَّا أنتِ، فأمضيت خمسةً وعشرين عامًا في غسل الصحون بيدَيْكِ، بلا داعٍ.

أذكر أكداس الصحون المتراكمة بعد الغداء بمناسبة أعياد الميلاد، تلك التي كنتِ تغسلينها وحدك. هأنذا أرى الصحون في هذه اللحظة، بعد أن فات الأوان، وأرى الصواني بما فيها من بقايا معجَّنات الكانيلوني العالقة، تلك التي يجب فركها جيِّدًا بالسلك لإزالتها، أرى معجَّنات الكانيلوني التي أحبَّها يوهان سباستيان جدًّا. أمِّي، كثيرة هي الأطباق والوصفات التي اختفَت معكِ.

كما تلاشَت بهجةُ تلك الولائم أيضًا. أذكر امتناعنا عن مساعدتكِ في غسل الصحون. على الأكثر، كُنَّا نجفِّف الصحون، لم نساعدكِ في أيِّ شيء.

كُنَّا نبقى جالسين إلى المائدة، وكأنَّنا من النبلاء. الآن، أعرف ما الذي يعنيه كلُّ هذا.

منذ بدأتُ أعيش وحدي، أعرف ما الذي يعنيه أن يكون المطبخ نظيفًا، لا تشوبه شائبة:

إنَّه عملٌ شاقّ، تحفةٌ فنِّيَّة، مهمَّةٌ بلا نهاية، لأنَّ تنظيف المطبخ لا ينتهي أبدًا.

ربَّما كرَّستِ حياةً كاملة لتنظيف المطبخ. هكذا، كانت حال نساءٍ كثيرات. عشن في المطبخ. ولذا، أنظر إلى مطبخي في رانيَّاس وأستعين به على الاتِّصال بفاجنر، أمِّي.

لو ربَّتُّ على مطبخي، فأنا بذلك أربِّتُ على روح أمِّي أيضًا. ولو ربَّتُّ على جميع المطابخ على وجه الأرض، فأنا بذلك أربِّتُ على عبوديَّة الملايين من النساء، اللاتي انمحَت أسماؤهنَّ وصرنَ الآن موسيقى. موسيقى قلبي الذاهل.

أذهب إلى سلسلة متاجر المواد الغذائيَّة دِيا لقضاء المشتريات. يقع أحد فروع دِيا على مقربةٍ من جادة رانيَّاس.

أدخل فأجده مكتظًّا بناسٍ يعيشون كارثة، إنَّهم ورثة الأزمة والبطالة والعدَم. «أهلًا يا رفاق، اشتروا الزبادي الذي يحمل العلامة التجاريَّة الخاصَّة بالمتجر، مذاقه يختلف عن مذاق دانون، ولكنَّه أرخص ثمنًا بفارق فلكيّ!» يستهويني التسوُّق في متجر دِيا: فكلُّ شيءٍ رخيص، بسيط، واضح، يصلح للأكل، كمسيرتي في هذا العالَم. كلُّ شيءٍ رخيصٌ لأنَّ صلاحيَّته على وشك الانتهاء. لو انتبهتَ إلى تاريخ انتهاء صلاحيَّة مشترياتك، لفوجئت بأنَّ الكثير من المنتجات رخيصٌ لأنَّ صلاحيَّته على وشك الانتهاء. صلاحيَّة الكعك على وشك الانتهاء، صلاحيَّة السمك على وشك الانتهاء، ما يفسِّر التخفيضات الهائلة، لأنَّ المنتجات تكاد تشبه الجثث. الكعك الذي انتهَت صلاحيته يشبه الجثَّة. من المخيف أن تأكل منتجاتٍ منتهية الصلاحيَّة، فالأمر يشبه القفزَ داخل محرقة صناعة الأغذية. حتى أولئك المُختصُّون بالرقابة على تاريخ انتهاء صلاحيَّة المنتجات، انتهَت صلاحيَّتهم أيضًا. تنتهي صلاحيَّة الناس. الموت انتهاء صلاحيَّة. أعني أنَّنا قد عمَّمنا مفهوم انقضاء الأجل على كلّ ما يحيط بنا.

وعلى كلِّ حال، فأبعاد موتنا وأهمِّيَّته ليسَت بمنأى عن أبعاد انتهاء صلاحيَّة الزباديّ وأهمِّيَّته.

إنَّ تاريخ انتهاء الصلاحيَّة تاريخٌ جنائزيّ.

ومع ذلك، لا تنتهي صلاحيَّة الموتى، على عكس الأحياء. الموت هو المكان الذي لا يُؤخَذ فيه بانتهاء الصلاحيَّة.

تُباع زجاجة الكوكاكولا زيرو، سعة الليتر الواحد بيورو واحد: إنَّها مساواةٌ رمزيَّة، توحِّد بين قياس الكائنات السائلة والكائنات الماليَّة. مَن يقضون مشترياتهم في متجر دِيا بالمنطقة التي أسكنها، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ظهرًا، هم إمَّا عاطلون عن العمل وإمَّا شيوخٌ وإمَّا ربَّات بيوتٍ وإمَّا مجانين وإمَّا مرضى. عجائزُ يحملن المبلغ المُراد بالتَّحديد، يشترين عبوةً من عصير البرتقال وكيسًا من الحلوى، ثمَّ يلقين بالقِطَع الفضِّيَّة على المنضدة، فتُضطَرُّ عاملة الكاشير إلى عدّ القطع الفضِّيَّة القذرة، بما علق بها مِن عرق العجوز المُختَلَّة التي ترتدي حفَّاضةً وتفوح منها رائحةٌ كريهة. لو تكلَّمَت تلك العجوز بالإنجليزيَّة لوجدنا أنفسنا أمام مشهدٍ من مشاهد الواقعيَّة الأميركيَّة، المُفعمة بالشعريَّة القاسية، غير أنَّها ما دامت في إسبانيا، تتكلَّم بالإسبانيَّة،

وبلكنة ثاراغوثا، فالمشهد ببساطة خالٍ من الشعريَّة القاسية، عديم الأهمِّيَّة، خالٍ من الملحميَّة، ومن كلِّ شيء. وإذا نحن أمام غرائبيَّة الأعراق الدنيا. ولكنْ لا يهمّ، فأشدّ ما يبعث على القلق هو نزوعي إلى مؤاخاة التعاسة. لا علاجها، وإنَّما الاستحواذ عليها، وإدراجها في حنايا قلبي. أُدرِج تلك العجوز في حنايا قلبي، وأحبّها. وأفكِّر أنَّ تلك المرأةَ الثمانينيَّة كانت طفلةً ذات مرَّة، بجوار أمّها الشابَّة. تراودني تلك الأفكار، بقوَّة.

كنتُ وحيدًا طوال الأسبوع، في شقَّتي.

أقطع رحلاتٍ قصيرةً إلى المطبخ، وحُجرة النوم، والحمَّام، وأتجوَّل في أرجاء الحُجرة حيث أكتب، وأشاهد التلفزيون. أتأمَّل المطبخ، والصحون، والفضِّيَّات، وركوة القهوة. أتأمَّل الفراش الذي لم أرتِّبه في حُجرة النوم. أطالع الأجندة. أستلقي على الأريكة. آخيتُ حزني وكأنَّه نابعٌ من شخصٍ آخر، هوذا شيءٌ آخر يبعث في نفسي الاضطراب، ويسحقني، إذ يخطر لي أنِّي في سبيلي إلى الجنون.

إنَّها مؤاخاة كلّ ما لم يسِر على ما يُرام من الأشياء. تلك هي الأشياء التي آخيتُها، مجملُ التعاسة، ومجملُ الشقاء. بَيْد أنِّي ما زلتُ قادرًا على مؤاخاة شيءٍ أسمى من التعاسة بفارقٍ لانهائيّ: خواء الرجال، والنساء، والأشجار، والشوارع، والكلاب، والطيور، والسيَّارات، وأعمدة الإنارة.

أرنو إلى الجادة التي خلَت من السيَّارات والفجر مُقبِلٌ. الكلّ نيام. أمَّا أنا فما لي مواقيت، يمكنني الذهاب إلى الفراش متى شئت، والسهر، والنَّظر إلى الجادة في الثالثة فجرًا. إن شئت، يمكنني الخروج في جولةٍ على مقربةٍ من نهر إبرو، في الرابعة فجرًا، ودرجات الحرارة تصل إلى ثلاثة تحت الصفر، غير أنِّي لا أفعلها أبدًا، اعتقادًا منِّي بأنَّ أحدهم قد يراني، الأمر الذي يصيبني بالذعر. يمكنني الخروج في جولةٍ على مقربةٍ من النهر في الخامسة فجرًا، وإن كنتُ أخشى أن يصيبني ذلك بالاضطراب، ويفتِّت أعصابي. في وسعي النَّظر إلى مياه نهر إبرو في السادسة صباحًا، وخيوط الفجر الأولى تنجلي.

لا تمرّ السيَّارات من جادة رانيَّاس، في حي أكتور، بمدينة ثاراغوثا، الواقعة شمالي إسبانيا.

الناس نيام، أمَّا أنا فلا.

أشعر برغبةٍ في الذهاب.

اشتريتُ ممسحةً جديدة.

كم يروقني مسح الأرض... تلك اللَّحظة التي تلمع فيها الأرضيَّات فجأةً، فيتحقَّق لك انتصار، فوزٌ على الوسخ والغبار. يتحقَّق لك التطهير. أمسح الأرضيَّة كمن يطهِّر الأرواح. ليتني قادرًا على تطهير أحشائي: ليتني قادرًا على انتزاع معدتي من جسدي وتطهيرها، انتزاع أمعائي وتطهيرها.

أجل، أشعر برغبةٍ في الرحيل.

سأقضي في مدريد بضعة أيَّام، وذلك شيءٌ أتوق إليه كثيرًا.

تستهويني مدريد، العامرة بملايين الشوارع والطرق الدائريَّة والطرق السريعة، والأحياء التي لا أعرفها. يجب عليَّ أن أنام فورًا. أفرِّط في تأجيل ساعة الذهاب إلى الفراش. منذ أعوامٍ، كان لي صديقٌ من مسقط رأسي، بارباسترو، لا يأوي إلى الفراش حتى الخامسة أو السادسة فجرًا.

يمكنني تسميته جوزيبي فيردي [19].

كان عمره ضعفَيْ عمري، أو بالأحرى ثلاثة أضعافه. كان يمضي ليله في مشاهدة الأفلام، مستغرقًا في سعادةٍ لا تُوصَف، وفي تجلِّيَّات ملذَّاته الخاصَّة التي كانت تذهلني. أذكره في هذه اللَّحظة، أذكر لياليه الطوال شتاءً، في بارباسترو السبعينيَّات والثمانينيَّات. تلك اللَّيالي التي كان فيردي يمضيها في

القراءة، ثمَّ بات يمضيها في مشاهدة الأفلام حتى مطلع الفجر منذ أن ظهر جهاز الفيديو. كم كنتُ أودُّ لو رأيته مرَّةً أخرى، وقلتُ له إنِّي طالما أعجبتُ به، وإنَّه يسكن في قلبي، وإنِّي أحمله في حنايا قلبي. كان صديق أبي في الواقع، وكأنَّه صديقٌ تنازل لي عنه أبي، وكأنَّه مُرشِدٌ مُنتدَب. صديق أبي الذي بات صديقي أيضًا.

كان رجلًا حرًّا، يعيش من أجل ملذَّاته الهادئة. ولقد شعر نحوه والدي بالحبّ والتَّقدير، على الرَّغم من الاختلاف القائم بين الرجلَيْن. فُوجِئتُ بأنِّي وأبي لنا صديقٌ مشترك. ذات مرَّةٍ، وأنا لا أزال طفلًا، أعطاني مظروفًا يحوي مئةً وخمسين بيسيتا. لم نتطرَّق إلى الأمر قطّ، حتى بعد مضيِّ أعوام، بعد أن كبرت وتوثَّقَت صداقتنا. لم أقُل لفيردي إنه قدَّم لي تلك الهديَّة في طفولتي، تلك الهديَّة التجريديَّة، التي بدَت لي باعثةً على الاضطراب، لأنَّها كانت أوَّل مرَّةٍ أُهدَى فيها مبلغًا من النقود، بحسب اعتقادي. كان فيردي أعزب، مات وهو في غاية الوحدة، قبل الأوان بوقتٍ طويل. لقي ميتةً غير كريمة. أو على الأقل، لم أرضَ له بتلك الميتة التي لقيَها. انتهَت به الحال وقد فقد مُبرِّرات الحياة. إنَّ زمن العزّاب قصير. فهم متى فقدَت أجسادهم الشباب والقدرة، تخلَّوْا عن أنفسهم. ولاسيَّما الرجال. ولاسيَّما ذلك الجيل من الرجال الذين لم يتعلَّموا التَّدبير المنزليّ: الرجال الذين لم يتعلَّموا ولا حتى كيف يُرتِّب الفراش. وفي النهاية، وقعوا ضحايا ذلك التَّعليم الذي أعدَّهم من أجل حياةٍ حافلةٍ بالمزايا، من الناحية النظريَّة.

كانت صداقتي بفيردي مُميَّزة، لأنَّها قامَت على صداقة فيردي بأبي، وكأنَّ لصداقتنا ضمانًا، سندًا، تأمينًا، الأمر الذي أدخل الطمأنينةَ على نفسي.

أمضيتُ مئات الساعات في الحديث إلى فيردي، وأنا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. لم يكُن لي أصدقاء في عمري، لم يكُن لي سوى فيردي. وإن تباعدنا بمضيِّ الزمن، عندما رحلتُ عن ثاراغوثا. في النهاية، مات فيردي. وكما هو دأبي، لم أحضر جنازته. لم أحضر واحدةً من جنائز أولئك الذين كنتُ أكترث لأمرهم، ولكنْ يُحتمَل ألَّا أكون قد اكترثتُ لأمر أحدٍ في هذه الحياة، كائنًا من كان. لا أستبعد هذه الفكرة.

ها هو ذا فيردي يخبو في ذاكرتي، ويصير ميِّتًا مجهولًا. لا صور له على الإنترنت. بحثتُ عنه على غوغل مرَّتَيْن، فلم أجد له أدنى أثر. لا شيء. ولكنْ ما زال على الإنترنت مدخلان مُتعلِّقان بأبي.

باخ: مدخلان على الإنترنت.

فيردي: لا شيء.

تأثّرتُ بموت فيردي كثيرًا. لم أفهم موته. لم أفهم موت أحد. بدا فيردي في غاية الاطمئنان للحياة، مفعمًا بالحيويَّة الآسرة، حتى إنَّ موته جعله يبدو في نظري مخادعًا، خائنًا. لا أفرض عليه الرقابة، بل إنِّي أُجِلّه. ليتني كنتُ قادرًا على القضاء على ذلك التفاوت بين الحياة والموت، بما ينطوي عليه ذلك من غياب الرسوخ والتناسب. تلك هي المسألة: التحوُّل المذنب وغير المعقول من الحركة الحيويَّة إلى «تيبُّس الموت» rigor mortis. هأنذا أجلد روحي، لأنِّي لا أفهم تلك النقلة المخادعة من المُتحرِّك المُتكلِّم إلى الجامد الأخرس.

لو عرفتم فيردي فهمتم ما أرمي إليه. بل إنَّ موته، في واقع الأمر، يميط اللثام عن قبضة الرَّب الخاوية التي تنهال على الأشياء ضربًا. ما عاد أحد يذكره في بارباسترو. كان يوهان سباستيان باخ يدعوه لتناول الغداء في بيتنا أحيانًا.

فتُعِدّ فاجنر معجَّنات الكانيلوني، ويخيِّم السَّلام والمودَّة على تلك الغداءات. كانت بارباسترو بلدةً مشرقةً بأولئك البشر الذين عاشوا فيها، ولاسيَّما في عقدَي الستِّينيَّات والسبعينيَّات. كانوا رجالًا ونساءً مشرقين على نحوٍ استثنائيّ.

أمضيتُ مئاتٍ من الساعات في الحديث إلى فيردي. كُنَّا نشاهد الأفلام معًا. آنذاك، لم يُخيَّل لأيٍّ منا هذا المستقبل الذي أكتب منه.

لو خُيِّل لنا هذا المستقبل، لرمينا أنفسنا بالرصاص، أو أسقطنا حكومةً. لا حكومةً واحدة، بل جميع حكومات العالَم.

كان فيردي رجلًا عظيمًا، سعيدًا. بَيْد أنَّ الأوقات التي أمضيناها معًا لن تعود أبدًا، وهنا تكمن مشكلتي. كان ذلك في السبعينيَّات، لمَّا كانت الحياة أبطأ وتيرةً، ورؤيتها ممكنة. كانت فصول الصيف أبديَّة، والأمسيات لامتناهية، والأنهار خالية من التلوُّث.

كان شهر يونيو يتجلَّى في بارباسترو، وكأنَّه إلهٌ يضيء حياة الناس.

كان ذلك هو الفردوس. فردوسي أنا. كانا هما فردوسي، أبي وأمِّي، كم أحببتُهما، كم سعدنا، وكم سقطنا. كم كانت حياتنا معًا جميلة! والآن، ضاع كلُّ شيء، وصار يبدو ضربًا من المحال.

عندما أكون هنا، في هذه المدينة، في بيتي الواقع بجادة رانيَّاس، لا أرى أحدًا، ولا ألتقي بأحدٍ على العشاء ولا الغداء، ولا حتى لتناول القهوة. وكأنِّي أودُّ لو كرَّست ذاتي لذاتي، وكأنِّي أشعر بحاجةٍ مُلِحَّة، حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلى ذاتي، أيْ إليهم، إلى أحبَّائي. من هم أحبَّائي؟ لا وجود للتَّعقيد في الحياة، فتلك خدعةٌ، مُجرَّدُ كبرياء. لا وجود لغير الأحبَّاء. لا وجود لغير الحبّ.

لا أشعر برغبةٍ في مقابلة أحد، لأنِّي مع ذاتي، لأنِّي واعدتُ ذاتي، لأنَّ البقاء مع ذاتي يشغلني كثيرًا. البقاء مع ذاتي إدمان.

لا أرى سوى ابنَيّ، أمَّا هما فلا يريانني. أرى مَن لا يراني. أرى صورةً لطفلٍ مع شطرٍ من جسد أبيه. إنَّها صورتي أنا ويوهان سباستيان باخ. فمي الفاغر وحلقة مفاتيح يوهان سباستيان باخ وحذاؤه. أذكر أنَّ ذلك القميص البولو كان يروقني كثيرًا، لأنَّ التأنُّق عرف طريقه إليَّ في وقتٍ مُبكِّرٍ جدًّا. ما

زلتُ في هذا العالَم، أمَّا باخ فقد رحل. كان في سبيله إلى الرحيل بالفعل حين التُقِطَت تلك الصورة الغريبة المبهجة في آن، ورمز إلى ذلك الرحيل بمحو شطرٍ من جسده بصريًّا.

ملايين من الآباء والأبناء يسيرون في موكبٍ عَبْر الشوارع، في آلافٍ من المدن على وجه الأرض، إنَّه الموكب العظيم.

والسحاب يخرس على وقع خطاك نحو غياهب النسيان المطلق.

شقَّتي في جادة رانيَّاس مشمسة، تحتفي بالدَّهشة في وجود الشمس. على مدى حياتي، لم أتأمَّل الشمس يومًا بكلِّ ما لها من عظمةٍ مثلما أفعل خلال تلك النهارات في رانيَّاس. وهكذا، رحتُ أتدبَّر الأمر، لأنَّ ما أراه أكثر من مُجرَّد شمس.

إنَّه الضوء في حالة تواصل، الضوءُ على هيئة كلمات.

كان وجود عبادة الشمس ضرورةً على تلك الأراضي قبل الرَّوْمَنة، طبقًا لما يخبرني حدْسي. فأولئك الناس خاضوا التجربة التي خضتُها: إذ حضرَت الشمسُ من أجلهم.

ها هي ذي الشمس تحضر لرؤيتي.

سخيَّةٌ هي الشمس.

تهبك ما تطلب.

زيارة الشمس.

تقرِّر الشمس زيارة نفرٍ من البشر، فتتجلَّى أمامهم عاريةً، وتبوح لهم بكنه الضوء. الضوء والشمس أسرة، والقيظ ابنهما.

صداقة الشمس.

أسأل الشمس أن تنشر ضياءها مرَّةً أخرى على أجساد موتاي، فتلبِّي الرجاء. الشمس رَبّ. إنَّ عبادة الشمس هي العبادة التي أعتنقها. والتعبُّد إلى الشمس تعبُّد إلى ما يُرَى. وما يُرَى هو الحياة. لو أنَّنا على قيد الحياة، فالسَّبب في ذلك أن الشمس تغمر أجسادنا بالضوء. تحت الشمس فحسب نغدو واقعيِّين، ومادِّيِّين.

يتسلَّل الضوء الباعث على الدُّوار إلى حُجرتي الملحق بها حمَّامٌ متواضع. هناك أتحمَّم. وفي ذلك الحمَّام، أحتفظ بالشامبو وبلسم الشعر.

الجهد المبذول من أجل الاغتسال، الذي أفكِّر فيه على مرِّ الأعوام، الجهد المبذول من أجل الاستمرار في تلقِّي المياه، والوعي بكلِّ شيءٍ تحت مياه الدشّ، واستهلاك المياه من أجل تنظيف جسدٍ ما عاد يستحقّ أيّ شيء، ولكنْ لا جسد يستحقّ أيَّ شيء.

في الشقَّة حُجرةٌ صغيرة، مُخصَّصةٌ لبرامز وفيفالدي، ولكنَّهما لا يبيتان فيها أبدًا. جميلةٌ هي تلك الحُجرة الصغيرة، التي لا يبيتان فيها أبدًا، لا يبيت

فيها أيٌّ من نوابغ الموسيقى أبدًا. أدلف إليها فأجدها خاوية، وإذا بالخواء يبدو كائنًا، شقيقًا.

شقيقي الخواء. الموسيقيّ الخفيّ. الضوءُ شديد، إنَّها إرادة. الضوء يجعل الخواء البشريّ في تلك الحُجرة مرئيًّا، ويجعل ذلك الخواء يتحوَّل إلى عَبْرةٍ سوداء تسيل من أجل ابنَيّ اللذيْن ليسا هنا.

برا وفالدي في سبيلهما إلى الخروج من حياتي، لأنَّهما كبرا، ولأنِّي لا أراهما إلَّا قليلًا، ولأنَّ البشر يشردون. يعترينا الشرود.

كلُّ شيءٍ بِكر.

تقع في عشق الضوء البسيط، ومُجرَّد وجود الضوء، رغم أنَّه ما عاد يتساقط على واحدٍ من أحبَّائك. إنَّه الضوء الذي يغمر شقَّتي في جادة رانيَّاس.

لم يخطر لي قطّ أنِّي قد يُسمَح لي بتأمُّل الضوء.

في حنايا ذلك الضوء موتُ كلِّ البشر.

ثلَّاجتي صغيرة جدًّا، ولكنْ هكذا أفضل. فأنا لا أتخلَّص من أيِّ شيء. لا أتخلَّص من الطعام. علَّمني باخ ألَّا أتخلَّص من الطعام. لطالما أصرَّ على عدم التخلُّص من الطعام. كانت تلك أشدّ قناعاته السياسيَّة رسوخًا: لا تتخلَّص من الطعام. ورثتُ عنه ذلك الحرص. تحدَّث باخ عن الحرب، ولذا فمن الضروريّ ألَّا نتخلَّص من الطعام. عاش باخ تلك الحرب طفلًا، طفلًا أتمّ السادسة من العمر لتوِّه حين اندلعَت. بين الحين والآخر، كان يحكي لنا بعض الأمور، القليلة جدًّا. من المحتمل أنَّ تلك الحرب لم تهمُّه بوصفها حدثًا تاريخيًّا، ولكنْ بوصفها واقعةً فحسب.

أنشر الثياب النظيفة، ثمَّ إنِّي لا ألملمها، ولا أحتفظ بها في الخزانة. بل أتركها على حبال الغسيل طوال أسابيع، في داخل البيت. تروق لي رؤيتها مُعلَّقةً هناك، كالمُتَّهمين المشنوقين، الذين نُفِّذ فيهم حكم الإعدام، أولئك الذين كانوا يُترَكون في العراء في العصور الوسطى.

أرتِّب شقَّتي وأنظِّفها، بعاطفةٍ تليق بالمراهقين. تخلَّيتُ عن محاولة فهمها، ولاسيَّما الآن وقد بلغتُ من العمر ما يربو على الخمسين عامًا. أمسح أرضيَّة المطبخ وأشغِّل غسَّالة الصحون، التي تُدعَى OK. تلك هي العلامة التجاريَّة للغسَّالة.

إنَّه اسمٌ حسنٌ: OK.

بالأمس، في أحد المراكز التجاريَّة، ألقيتُ نظرةً على المزيد من أجهزة تلك العلامة المجهولة، إنَّها الأبخس كلفةً في السوق، وتؤدِّي الغرض مثل الأجهزة الأغلى كلفةً، لا بدَّ أنَّ الأمر يستأثر بفضول الناس. إنَّ جهاز OK بقيمة مئتيْ يورو يؤدِّي الغرض مثل جهاز AEG بقيمة ألف ومئتيْ يورو. أكاد أتحقَّق من وزني كلّ يوم. لديَّ ميزانٌ جيِّد، في غاية الدقَّة. لك أن تشتري ميزانًا ممتازًا بمئتيْ يورو.

ميزانٌ يقيس تراكم الدهون في المعدة، والبطن، والوجه، واليدَيْن، والشرايين.

صار أبي رجلًا في منتهى الهزال تحت وطأة سرطان القولون، حتى إنَّنا رأينا جوهره.

هو نفسه كان مذعورًا من جوهره.

انتهَت به الحال وقد صار وزنه سبعين كيلوجرامًا. في حين كان يبلغ من الطول مئة وثمانين سنتيمترًا. في أيَّامه الخوالي، وصل وزنه إلى تسعين كيلوجرامًا.

ولكنَّ وزنه قلّ عن السبعين في الأسابيع الأواخر.

انخفض إلى أربعةٍ وستِّين كيلوجرامًا.

أردتُ قياس وزنه، فلم أجد من أطلب إليه ذلك. كنتُ على استعدادٍ لحمل ميزاني إلى المستشفى حتى أقيس وزنه.

ردّ له السرطان وزنه عندما كان في السادسة عشرة من عمره. فعاد والدي بالزمن.

عاد إلى عام 1946. كنتُ أنظر إلى هزاله مُتوسِّلًا إلى القدر كي يستعيد أبي أفكار عام 1946 وآماله ورغباته أيضًا.

إن داهمك المرض، ردّك إلى أصلك، وسافر بك إلى المراهقة.

اليوم، أسافر إلى مدريد بسيَّارتي.

يستهويني السَّفر بسيَّارتي، والخروج إلى الطرق السَّريعة، والمرور بحانات الطرق السَّريعة ومطاعمها، حيث الجميع لا أحد. في تلك الأمكنة تُدُلٌ يعيشون حياةً مُبهمة، انتبهْ إليهم.

أجل، انتبهْ إليهم.

من عادتي المرور بمطعمٍ على الطريق، يقدِّم وجبة طعامٍ معقولةً جدًّا بثمانية يورو. يقدِّم لي الخدمةَ نادلٌ بدين. لطالما سألتُ نفسي كيف يتحمَّل ثماني ساعات من العمل مثقلًا بمثل هذا الحمل.

إنَّه كائنٌ آخر في حاجةٍ إلى ميزان.

أربعةٌ هي الأبراج التي تراها قبل وصولك إلى مدريد بمسافةٍ بعيدة. ما زال أمامي سبعون كيلومترًا حتى أبلغ عاصمة إسبانيا، ولكنَّ الأبراج ظاهرةٌ بالفعل. ناطحات السحاب في مدريد أربع. عددها قليل. إنَّ أكبر المنتفعين من كثرة ناطحات السّحاب في المدن ليسوا هم الأثرياء ـ كما يذهب الكثيرون من أنصار اليسار الإسباني التقليديّ، سذاجةً منهم ـ وإنَّما الطبقة العاملة: إنَّ تعقيد الرأسماليَّة يطابق تعقيد الكون.

نعتقد بأنَّنا نعرف الكثير عن الرأسماليَّة، ولكنَّنا لا نعرف شيئًا. تقوم دعائم الرأسماليَّة على تنوُّع أطماعنا. والأطماع البشريَّة عصيَّةٌ على الوصف. أمضينا قرونًا في وصف الطمع، وعلى الرَّغم من ذلك، لا ندركه أبدًا. الرأسماليَّة التأسُّليَّة تغدو شكلًا من أشكال الشيوعيَّة في آخر الأمر.

يستحوذ الطمع على قلوبنا. يريد الناس امتلاك بيوتٍ كبيرة في أفضل المدن، وبيوتٍ ثانية على شاطئ البحر، وحياةٍ هانئة، وهكذا تداعبنا الرأسماليَّة. تداعب أهل اليسار وأهل اليمين، فيؤاخي بينهما الطمع، الذي يمضي قدمًا بالعالَم وبهذا الكتاب.

الطريق الحرَّة المعروفة باسم R ـ 2 طريقٌ شبحيَّة، فلا تمرّ بها السيَّارات إلَّا في ما نَدَر. تخلو تلك الطريق من حركة السيَّارات، إذ يُضطَرّ سالكها إلى دفع رسوم المرور. أُنشِئَت لتخفيف العبء عن الطرق السَّريعة المُؤدِّية إلى مدريد.

إنَّ طريق 2 ـ R بديعة الجمال، لأنَّ عزلتها تبثّ الرَّهبة في النَّفوس. تطوِّقها صحراءُ وأراضٍ لا اسمَ لها ولا أمل. قلَّما تمرّ السيَّارات من طريق 2 ـ R، إذ يختار الناس ألَّاً يدفعوا، يختارون الطرق الأخرى، البطيئة، حيث تكثر المداخل والمخارج إلى طرقٍ فرعيَّة، وتكثر إرشادات السرعة القصوى اللَّعينة. أكره تلك اللَّافتات التي تقول 80 كيلومتر في الساعة. تلك الدوائر التي يتوسَّطها رقم 80. والأدهى من ذلك: رقم 60، لأنَّ الحقّ في احتكار السرعة للدولة، أي لمَلِك إسبانيا، أي بتهوفن.

في هذا الكتاب، من الممكن جدًّا أن يكون فيليبي السادس هو بتهوفن، مَلِك تاريخ الموسيقى. لقد خضعَت حياة أبي وأمِّي لمراقبة الملكيَّة الإسبانيَّة، وقبلها نظام فرانكو، فلم يصدر عن أبوَيّ ردٌّ سوى اللَّامبالاة الزاهدة، اللَّامبالاة النابعة من الطبيعة: إنَّها الطبيعة في مواجهة التاريخ.

إسبانيا لم تعطِ أبوَيّ شيئًا. لا نظام فرانكو ولا الملكيَّة.

لا شيء.

على الأقلّ، كانا شابَّيْن في ظلِّ نظام فرانكو. لا يعجبني ما فعلَت إسبانيا بأبوَيّ. اليمين الإسباني، الحاضر أبدًا، الذي لا يهاب شيئًا على الإطلاق.

اليمين الإسباني، الأشدّ إيغالًا في القِدم من كاتدرائيَّة بورغوس.

لا يعجبني ما فعلَت إسبانيا بأبوَيّ، ولا ما تفعله بي أنا. لم يعُد في وسعي شيءٌ لتجنُّب اغتراب أبوَيّ، الذي لا ردّ له. لا يسعني إلَّا تجنُّبه حتى لا ينال منِّي، وإن كاد ينال منِّي أنا الآخر. عسى ألَّا ينال من برا وفالدي، غير أنَّه سوف ينال منهما أيضًا. ذلك الاغتراب الذي يؤاخيني لأنَّه قد أصاب أبي وأمِّي، فينتهي بي الحال وأنا أقبِّل ذلك الاغتراب، وأشعر برغبةٍ في الذهاب معه، وأقع في عشقه.

من أذاقك المهانة، فاعْشقه.

إن لمستُ ذلك الاغتراب، لمستهما. حياتهما. حياتهما العذبة.

أولئك العاملون في قمرات تحصيل رسوم المرور على طريق 2 ـ R، من هم؟ موسيقيُّون في إحدى فرق الأوركسترا بمدينةٍ صغيرةٍ تابعة للاتحاد السوفييتي المنقرض. تروقني ملامسة أيديهم وأنا أدفع الرسوم، لمُجرَّد ملامسة اللَّحم البشريّ. طريق 2 ـ R رخيصةٌ بعض الشيء. تبلغ رسوم المرور من خلالها ستَّة يورو. والطريق ليسَت طويلةً إلى هذا الحدّ. كنتُ أودُّ لو عملتُ في واحدةٍ من تلك القمرات الصَّغيرة، فأعيش حياةً كريمة كأولئك الذين يتقدَّم بهم العمر في الداخل. في تلك القمرات الصَّغيرة على طريق 2 ـ R، يقيم العاملون لأنفسهم عالمًا: فلديهم عبوات الكوكاكولا، والمدفأة، والهاتف

المحمول، والشطيرة، والثياب المريحة. إنَّهم صالحون. غير مُدَّعين. لهم أزواجٌ وزوجاتٌ وأبناءٌ ينتظرون انتهاءهم من العمل.

لا مغزى لهذه الحياة، ولا نجاح فيها، سوى أن يكون لك من ينتظرك، في مكانٍ ما.

منذ أقلعتُ عن الشراب، يبدو لي الجميع صالحين.

منذ أقلعتُ عن الشراب، لم أعُد مُدَّعيًا.

سوف يفقد بتهوفن السيطرة السياسيَّة في أيِّ يوم، فتعود جمهوريَّة إسبانيا، لأنَّ إسبانيا بلد التفاوتات، بلدٌ عصيٌّ على التوقُّع، يطلِّق نفسه كلّ أربعين أو خمسين عامًا.

قد تعرض نشرة الأخبار رأس بيتهوفن مُعلَّقةً على عمودٍ في أيِّ يوم.

حذارِ، يا صديقي، فكلُّ ما في إسبانيا محفوفٌ بالمخاطر، حتى وإن كنتَ أنت مُؤلِّف السيمفونيَّة التاسعة.

أرى نفسي مُضطَرًّا إلى النجاة في عالَمٍ يتطلَّب منك أن تتقن عمل شيء، وأنا لا أتقن عمل أيّ شيء. بابا، في مخيِّلتي أنَّك حتى أنت لم تُتقن عمل أيّ شيء. وإن كنتُ أعتقد بأنَّ لدينا مُبرِّراتنا. كلَّما ناداني برا وفالدي بتلك الكلمة التي كنتُ أناديك بها، رأيتُ أصلَ الحياة مكشوفًا، إنَّها مشكلةٌ تمثِّل تحدِّيًّا دائمًا في وجه العلم. لو نظر المرء إلى المسيحيَّة نظرةً أخرى، نظرةً أكثر بساطةً وبدائيَّةً، لا هي دينيَّة ولا رسميَّة، لأوحَت إلينا في النهاية بتلك الصلة البريئة بين الأب والابن.

بابا، إن عجزنا عن الوصول إلى مكانةٍ في هذا العالَم، وعن كسب النقود، وعن الفوز بنظرة اهتمامٍ في مكانٍ ما، فذلك صنفٌ من صنوف الطيبة.

لا أنت أردتَ شيئًا، ولا أنا.

جاء عليك وقتٌ كدتَ فيه تصبح عاطلًا عن العمل، قرب منتصف السبعينيَّات. حينذاك، أذكر أنَّ واحدًا من أصدقائك، كان يشغل منصب مدير بنك، قال إنَّك تستحقّ منصبًا رفيعًا مثله. ورشَّحك للالتحاق بالعمل في البنك.

ومع أنَّني كنتُ طفلًا آنذاك، فما كدتُ أسمع قصَّة التحاقك بالعمل في البنك من أوسع أبوابه، حتى عرفت أنَّ هذا لن يحدث أبدًا.

لو تمَّ لك الأمر لانحلَّت جميع مشكلاتنا.

رآك الناس أنيقًا، ببدلتك، وربطة عنقك، ومراسمك، وأناقتك، فكانوا يشعرون لتوّهم برغبةٍ في عمل شيءٍ من أجلك.

لأنَّك أنت يوهان سباستيان باخ، عظيمٌ من عظماء الموسيقى.

وإن كنتَ عديم النفع في تلك الأمور.

توهَّمَت ماما أنَّك سوف تشغل منصبَ مدير بنك بالفعل.

«لديك خبرةٌ واسعة في معاملة الناس، وتلك سِمَةٌ أساسيَّة من سِمات المدير، كما أنَّ لك حضورًا مُتميِّزًا. سأتحدَّث إلى المدير الإقليميّ فورًا»، هكذا قال صديقك وهو يحتسي كأسًا أخرى من شراب العَرَق.

لعلَّه تحدَّث إلى أحدهم. ولكنِّي عرفتُ أنَّك لن تحظى بتلك الفرصة أبدًا. كنتُ طفلًا، وإن كانت لي رؤيةٌ في عالَم الكبار.

استمرَّت قصَّة تنصيبك مدير بنك بضعة أشهر، بضعة أشهرٍ من الفرح العائليّ الغامر الذي لا أساس له. لا أنت نُصِّبت مدير أيّ شيء، ولا أنا. كان ذلك في عام 1974 أو 1975. سطع الترقُّب على بيتنا بنوره، حتى إنَّ فاجنر أرادت شراء قطع أثاثٍ جديدة وسيَّارةٍ جديدة. كم كانت فاجنر تسعد لو كُنَّا أكثر ثراءً! أتعس الرَّبُ جميعَ المُدَّعين القائلين بأنَّ المال لا يمنح السَّعادة!

حتى أربعة أيَّامٍ مضَت، كنتُ أظنُّ إسبانيا التي عاصرتُها أنا أفضل من إسبانيا التي عاصرتَهاَ أنت، ولكنِّي ما عدتُ أعتقد بأنَّ التاريخ قد قطع شوطًا كبيرًا في التقدُّم. حسنًا، أصبحَت لديْنا كمبيوترات وهواتف محمولة، ولكنَّ برا وفالدي يكادان لا يردّان على الهاتف أبدًا، ومتى ردّ أحدهما لا يزيد الحديث بيننا على ثلاثين ثانية، أو خمس عشرة ثانية.

هرمتَ في متاهةٍ إسبانيَّةٍ تطابق هذه التي أهرم فيها أنا الآخر، حيث القِيَم واحدة. ويسعني أن أضيف إلى ما تقدَّم شيئًا مُتعلِّقًا بطباعك، ورثتُه عنك، شيئًا يشبه الخجل الذي يثنيك عن شغل مكانةٍ في هذا العالَم، وعن الإعلان قائلًا: «هأنذا».

عام 1980 يطابق عام 2015.

الكلُّ يريد الانتصار، لا فرق. النجاح والمال، سيَّان. انتهتَ بك الحال وقد انصرفتَ إلى مشاهدة التلفزيون. أمَّا أنا، فانصرفتُ إلى تصفُّح الإنترنت، سيَّان.

شهدَتْ طريقتنا في النوم أو الموت تطوُّرًا تكنولوجيًّا.

لا أنتَ ولا أنا وجدنا وسيلةً لبلوغ السَّعادة، إذ كان وما زال هناك ما يدفع كلَّ شيءٍ عن مساره. أمَّا ذلك العجز عن بلوغ السَّعادة فكان وما زال مبعثه ضربٌ من الشفقة على العالَم، وجميع الفقراء والتعساء على وجه الأرض. ولذا، لم نملك... لا أملك أن أكون سعيدًا، وإلَّا ما أخذنا بعين الاعتبار جميع المصائب التي نزلَت بالكوكب وبالكَوْن.

بابا، هل انتبهتَ إلى خراب الكَوْن الهائل، إلى تلك العزلة التي تضاهي موتى البشر حجمًا، إلى ذلك الضوء الذي تحوَّلتَ إليه؟

ليس من قبيل الصدفة أنِّي قد خلعتُ عليك اسم يوهان سباستيان باخ الأسطوريّ في تخيُّلاتي، لأنَّ تلك هي الموسيقى التي ترسمك وسط الأجسام الفلكيَّة. لأنَّك كنتَ روحًا، وأنشأتَ أسرةً، والأسرة حضورُ الثابت. كنتَ رَبًّا، كنتَ موسيقى الرَّب، كنتَ موسيقى الدائم. يودّ الجميع، رجالًا ونساءً، لو أنشأوا أسرة.

البشر مُؤسِّسو أسرات.

- 114 -

أقبل الصيف، وأنا في رانيَّاس، والحشرات منجذبةٌ إلى ضوء الكمبيوتر. مهما قتلتُ من الحشرات لا يسعني القضاء عليها. تأتي منجذبةً إلى مصباحي الذي أكتب على ضوئه. إنَّها كائناتٌ مقيتة. وهزليَّة أيضًا. أسحقها على الطاولة، فتترك أثرًا دبقًا، ولكنْ هزيلًا. إن هي إلَّا قاذوراتٌ لها أجنحةٌ في منتهى الضآلة. من حسن حظِّها أنَّ وجودها لا هو حياة ولا هو موت، يبدو سلوكها آليَّةً نباتيَّة، لا أكثر. ترفّ بأجنحتها وكأنَّها بقعٌ مُجنَّحة من الغبار. لا حشرة تماثل الأخرى. أنظرُ إلى بقايا مختلف الحشرات. بعضها أخضر، وبعضها بنِّيّ، وبعضها يكاد يكون أسود. على اختلاف أحجامها.

لا عائلة لها.

لا تنتمي إلى عائلة. العائلة شكلٌ من أشكال الرخاء. وإسبانيا مجموع عددٍ متناهٍ من الأسر، وفرنسا أيضًا.

لا واحدة من بين تلك الحشرات التي أقتلها شقيقة الأخرى.

ليس بينها أزواج ولا زوجات، ولا أبناء ولا آباء.

ليس لها بنيةٌ اجتماعيَّة.

إنْ هي إلَّا فضلاتٌ طائرة.

بيت رانيَّاس غارقٌ في الغبار. القذارة لا تنتهي. يشكو فالدي خلوّ السقف من المصابيح. يحضر فالدي متى يحلو له. لا يبتسم. لا يبتسم عظماء الموسيقيِّين في تاريخ الموسيقى. إنَّها مصيبة. ولكنَّ المصيبة تنزل بي أنا وحدي. أمَّا فالدي فلا يراها، لأنَّ المراهقين لا يرون أحدًا، ولا حتى أنفسهم. بين المراهقين وبين الحياة اتِّفاقٌ جيِّد. فهم لا يعرفون حتى أنَّهم على قيد الحياة. بل يتركون أنفسهم للتيَّار، ببساطة.

منذ يومَيْن، عرفتُ أنَّ البلدية غيَّرَت اسم شارعي، فما عاد يُدعَى جادة رانيَّاس.

يوهان سباستيان باخ، أهذا أنت ترسل إليَّ رسالةً من بين الأموات؟ هل يعني تغيير اسم الشارع أنَّه قد صار لزامًا عليَّ الذهاب إلى ثاراغوثا إلى الأبد؟ كان لقب عائلتك الثاني أرنيَّاس. ولذا جئتُ وسكنتُ في هذا الشارع، لأنَّه يحمل اسمك، على اختلاف ترتيب الأحرف. أعتقد بأنَّك تريد أن تقول لي شيئًا.

حين علمتُ بأنَّ السُّلطة البلديَّة قد غيَّرَت اسم الشارع حيث أسكن، شعرتُ بالعجز. ولعنتُ صاحب مثل هذا القرار. كنتُ على استعدادٍ لأن أوسعه ضربًا حتى الموت، فتلك إهانةٌ مُوجَّهةٌ إلى أبي. استلقيتُ على الفراش في رانيَّاس، وشعرتُ برغبةٍ في البكاء غضبًا، وإن لم أذرف عَبْرةً واحدةً تعيسة. إنَّها استحالة البكاء التي تقوِّض الرجال ممَّن بلغوا الخمسين. ما عاد يُسمَح لنا بالبكاء، إذ نقص البوتاسيوم والمنغنيز، وجفَّت بئر الدموع. وهكذا نختنق غمًّا، بدلًا من البكاء. تغيَّر اسم شارعي، وإذا بشخصك ولقبك يتلاشيان مرَّةً أخرى.

لم تبعث إليَّ بأيّ رسالة. كلُّ ما في الأمر أنَّ اسم الشارع قد بُدِّل بآخر، كما تُبدَّل الأرصفة وأعمدة الإنارة والحافلات والبنوك والتماثيل والباحات.

لم تكُن هنالك أيُّ رسالةٍ قطّ.

بل إنَّ كلَّ شيءٍ جرى في رأسي.

في رأسي وحسب.

أُضطَرّ إلى وضع لساني بين أسناني لئلَّا تحتكّ ببعضها بعضًا. أضع اللسان بين الفكّ العلويّ والفكّ السفليّ. زرتُ طبيب الأسنان، لأنَّ ضرسي كان يؤلمني.

قال الطبيب: «لا تَسوُّس، بل إنَّها إصابة. عليك أن تحاول الامتناع عن إطباق أسنانك. إنَّها الأعصاب، مشكلةٌ نفسيَّة، ضغط، غمّ. يُرجَّح أنَّ الأمر يحدث في أثناء النوم. يحتكّ الفكَّان، ويصطكّ كلٌّ منهما بالآخر».

ثمَّ أطبق الطبيب على أسنانه موضِّحًا.

لهذا، أضع لساني بين الفكَّيْن. دفعتُ مئتيْ يورو لطبيب الأسنان.

مئتا يورو أنفقتُها على الأعصاب، لأنَّ أسناني خاليةٌ من التسوُّس. أولي أهمِّيَّةً مفرطة للنقود، لأنِّي ببساطةٍ أملك منها القليل. أودُّ أن أعرف ما إذا كنتُ سأوليها مثل هذه الأهمِّيَّة لو امتلكتُ من النقود الكثير! على كلِّ حال، يستوعب الناس قيمة النقود وهم لا يدركون أنَّها إمَّا تدمِّرك وإمَّا تجعل منك كائنًا مخبولًا في النهاية. جميعنا يقع في فخّ النقود. جميعنا يرى أنَّها الوسيلة النهائيَّة، العادلة، لتقدير الأشياء. وكأنَّها الخطوة الأخيرة نحو الموضوعيَّة. النقود نابعةٌ من تعطُّشٍ إلى الموضوعيَّة. تعطُّشٍ إلى ما لا ردّ له. النقود ثبات. فقدانها يفقدنا رشدنا. وعدم كسبها يجعلنا ناقصي عقل، مُختَلِّين. المال هو الحقيقة العليا، إنَّه العرض الذي يحقِّق فيه أبناء جنسنا أقصى ما في وسعهم من الكثافة والجاذبيَّة.

قلتُ: «لا أدري، لعلّ التسوُّس مختبئ».

فقال: «كلَّا، مستحيل، لو كان مختبئًا لاكتشفته. لا تسوُّس».

أعود إلى شقَّة رانيَّاس، الشارع الذي ما عاد يُدعَى بهذا الاسم، فأشاهد على شاشة التلفزيون أخبار الفساد السياسيّ. سَيْلٌ من الاتِّهامات المُوجَّهة إلى سياسيِّين: استغلال منصب، احتيال، رشوة، غسيل أموال، استغلال نفوذ، إهدار مال عام، انتساب إلى منظَّمة إجراميَّة، إلى آخره.

الساسة الإسبان يغرقون، يجعلون من أنفسهم ضحايا سخفاء، لا يفكِّرون إلَّا في اقتناء البيوت والسيَّارات والرحلات الفاخرة والفنادق ذات النجوم الست. الساسة ملؤهم الخواء.

تذهلهم الثروة، وتكديس الثروة. لا يسعهم إنفاق جميع ما يكدّسون. فلا يأبهون لذلك، بل إنَّ تكديس الثروة هو ما يسعون إليه. الأمر يشبه الجلوس على مقعدٍ ومشاهدة تضخُّم حساباتك في البنك، تضخُّمًا لا يوقفه شيء، ولاسيَّما في سويسرا، الاسم الجديد لمدينة إل دورادو [20].

إنَّها لذَّةٌ حسابيَّة، متعةُ إجراء المعادلات الرياضيَّة. تكاد تشبه لعبة أطفال، لعبة جمعٍ وطرح. إنَّه صراعٌ ضدّ السَّأم: فلا بدَّ من عمل شيءٍ في الحياة، شيءٍ يقبل الموضوعيَّة. لا ينتبهون إلى السرقة التي يرتكبونها. سرعان ما يُكشَف أمرهم، فيقعون في شراك المحاكمات طويلة الأمد، وإن جرت العادة على خروجهم منها بلا مساس، مع أنَّ سمعتهم تنتهي في الوحل. لا يعي أولئك الساسة أيَّ جرم اقترفوا، وربَّما كان ذلك هو الشيء الأجدر بالاهتمام: إلغاء القدرة على التَّمييز، حيث بلوغ مكانةٍ رفيعةٍ في السلَّم الاجتماعيّ يجب أن يكون مصحوبًا بالإعفاء من أحكام الآخرين، والاستغناء عن كلِّ شكلٍ من أشكال المرايا، والحصانة، والصمت.

وفجأةً، يتهشَّم الصَّمت وتظهر المرآة، وتُوجَّه لهم الاتِّهامات بالفساد، فلا يروْن في تلك الاتِّهامات إلَّا ظلمًا وجحودًا.

يتناهى إلى سمعك فسادُ لحومهم. تشعر بتحوُّلهم إلى كائناتٍ كسيرة، حانقة، ضُيِّق عليهم الخناق، بمُجرِّد الزجّ بهم في السّجن. مع أنَّهم لا يبقون في السجن طويلًا، ربَّما ثلاثة أيَّام، أو ثلاثة أشهر. لا يطول بقاؤهم في السّجن أبدًا. بل إنَّ كلَّ شيءٍ يذهب أدراج النسيان. والنسيان يصبّ في مصلحة الأفعال البشريَّة كافَّةً، الحميد منها والخبيث.

الفساد السياسيّ الإسبانيّ يجعلني أنسى فساد لحم أبوَيّ، وفساد لحمي أنا الآخر.

للفساد السياسيّ وظيفةٌ اجتماعيَّةٌ وتطهيريَّة، وظيفةٌ يجب أن تكون مُبرِّرًا للتبرئة. فمتى رأى الناس رجل سياسةٍ مُتَّهمًا نسوْا أمر تعاستهم. الفساد السياسيّ يلهينا عن فسادنا الأخلاقيّ.

أرى في نشرة الأخبار واحدًا من أولئك الساسة يُخلَى سبيله من السجن، وأرى كيف ذهبَت بناته لاستقباله.

ذهبَت بناته لاستقباله بحماسة. كُنَّ هناك، على الرَّغم من كلِّ شيء. أحببنه على كلِّ حال، فهو أبوهنَّ لا شيء ولا أحد يستطيع أن يخرِّب ما بينهم. هناك من ينتظرنه. لن يبادرنه باللَّوم. ولا الوجوه المُتجهِّمة. لن يقلنَ له: «جئنا لأنَّنا لم نجد عن المجيء بديلًا». لن يتذمَّرن. بل إنَّهنَّ سوف يطبعن قبلتَيْن على وجنتَيْه، ويبتسمنَ. أحسد ذلك الرجل. لو كنتُ مكانه لما انتظرني أحد.

كانت أمِّي تأخذني إلى طبيب الأسنان في صِغَري: لأنَّ واحدًا من أنيابي نما فوق أوَّل الضواحك. لم يكُن لنابي مكان، فأخذ يتسلَّق على الضاحك. ركَّب لي طبيب الأسنان دعامة. وقال إنِّي لو ركَّبتها في الكِبَر لبدا شكلي وكأنِّي الكونت دراكولا. لم يتردَّد أبي على طبيب الأسنان. كانت له سنّ ذهبيَّة. ركّبها وهو لا يزال شابًّا.

لقد نسيت سنّ أبي الذهبيَّة. في طفولتي، كان ثغر أبي من ضوء، بسبب تلك السنّ التي بدَت لي مفعمةً بالغموض، وأخافتني قليلًا.

في عهد الطفولة، كان أبي في عينيَّ هو الرجلَ ذا الابتسامة الذهبيَّة، وكان ثغره المضيء لغزًا يؤكِّد على الأصول البطوليَّة الخارقة لأبي.

هل انصهرَت السنّ الذهبيَّة عندما احترق جثمان أبي؟ ما درجة حرارة انصهار الذهب؟ أينبغي لي البحث عن تلك المعلومة على ويكيبيديا؟ وما الذي قد أحقِّقه بالتأكُّد من ذلك؟ هل احتفظ بالسنّ الذهبيَّة ذلك الطبيب الشرعيّ الذي شرَّح جثمان أبي من أجل استخراج مُنظِّم ضربات القلب؟ هل أعاد بيعها في وقتٍ لاحقٍ؟ وكم جنى بذلك؟ هل باع الاثنيْن في صفقةٍ واحدة، السنّ الذهبيَّة ومُنظِّم ضربات القلب؟ الذهب والقلب؟

كان لأبي قلبٌ من ذهب.

أسافر على متن القطار. فتحتُ حقيبة السفر من فوري، ورأيتُ ما تحويه في داخلها. علبة الأدوات الشَّخصيَّة، ومشطٌ، ومفاتيح. أذكر شيخوخة علبة الأدوات الخاصَّة بأبي. لم يخطر لي يومًا إهداؤه واحدةً في أواخر أعوامه. استخدم أبي علبةً متهالكة، تكاد تكون مهترئة، وضع فيها متعلِّقاته، وسرّه. كانت عتيقة، من تلك التي تضمّ موضعًا مُخصَّصًا لقطعة صابون اليد، وموضعًا آخر لفرشاة الحلاقة. من يدري كم عامًا ظلّ يستخدم تلك العلبة! حياةً كاملة، أكاد أكون على يقين من ذلك. كان أبي وفيًّا للأشياء، وتلك هي الطريقة التي اتَّبعها في تقديم آيات الاحترام للكائنات الجامدة. وما كان ليتحمَّس كثيرًا لو أهديتُه واحدةً أخرى. جعلتُ أتشمَّم الرائحة الكامنة في حقيبة أسفاري: إنَّها رائحة الوحدة. أتشمَّم حاجيَّاتي، لأعرف شيئًا آخر عن نفسي وعمَّن جاء بي إلى هذا العالَم.

لا أدقّ تعريفًا لوحدة البشر من علبة الأدوات الشَّخصيَّة. أذكر حقائب أمِّي. أيّ شعورٍ بالوحدة ذلك الذي استحوذ عليها في السنوات الأواخر! مددنا طريقًا وعرةً بيننا جميعًا، طريقًا مفضيةً إلى الوحدة. كان أبي يقول إنِّي أشبه أمِّي كثيرًا. لم أسأله عن السَّبب قطّ، غير أنِّي كنتُ أريد أن أشبه أبي. في اعتقادي أنِّي لا أشبه أيًّا منهما، وهنا تكمن هاوية التناسل في مظهر الكائنات المختلفة.

الابن لا يشبه أحدًا، لا أباه ولا أمّه، ولا أخواله ولا أجداده، لا يشبه أحدًا، وذلك شيءٌ لم ندركه قطّ.

الابن كائنٌ جديد.

وحيد.

دَرَجنا على القول بأنَّه يشبه أباه، أو خالته، أو جدَّته، تجنُّبًا لما لا نملك منه الفكاك: تجنُّبًا لتحوُّل ذلك الطفل إلى رجلٍ منعزل أو امرأةٍ منعزلة.

لتجنُّب موته وحيدًا.

إنَّها طريقتنا في تجنُّب المستقبل.

إنَّه صيف 1970. ونحن على الشاطئ، في كمبريلس، وشهر يوليو في أواخره. لا أعدو أن أكون طفلًا منبهرًا بالسياحة الأوروبية. ننزل في فندقٍ يُدعَى دون خوان. أغوَتني سيَّارات الألمان، والسويسريِّين، والفرنسيِّين. أسأل أبي ما معنى حرفي CH الظاهرَيْن على ألواح بعض السيَّارات عام 1970. فيقول لي أبي «Confederación Helvética»، أيْ اتِّحاد هلفيتيا. بعد مضيِّ أعوامٍ فهمت، حين ترجمتُ في المرحلة الثانويَّة يوليوس قيصر، الذي يظهر على صفحاته أولئك الهلفيتيّون [21].

كمبريلس قريةٌ تعيش على الصَّيْد، وتقع في إقليم تارّاغونا. سائق سيَّارة أُجرةٍ من بارباسترو، مات منذ أمدٍ بعيد، هو الذي حدَّث أبي عن نُزُل دون خوان. أشعر بالخوف من ذلك السَّائق، الذي لا يفارق السيجار فمه أبدًا. إنَّه رجلٌ ضخم الجُرم، ذو كرشٍ ناتئ، شديد السمرة، وله شفتان غليظتان، تكادان تبرزان من وجهه، وكأنَّهما شفتان مُتدلِّيتان. كلَّما رأيتُه في شوارع بارباسترو خطر على بالي أنَّه هو «الرجل الذي كشف لأبي عن وجود نُزُل دون خوان».

خطر على بالي أنَّ هناك اتِّحادًا قائمًا بين الرجال المسافرين، رابطة يتبادل أفرادها المعلومات المُهمَّة. عمل أبي جائلًا، بينما عمل ذلك الرجل سائق سيَّارة أجرة، وكلاهما يكاد يكون العمل نفسه.

في الستينيَّات من القرن الماضي، أسَّس الرجال المسافرون على الطرق الإسبانيَّة اتِّحادًا.

كان الواحد منهم يقول: «هنا يُقدَّم طعامٌ شهيٌّ جدًّا مقابل خمسين بيسيتا».

أو «هنا يمكنك أن تنعم بنومٍ هانئٍ جدًّا، وتجد ملاءات نظيفة وحجرات دافئة، مقابل ستِّين بيسيتا، تشمل فطورًا شهيًّا».

هكذا دار في خَلَدي.

كان الأمر يشبه booking.com (رابطة تُقدَّم فيها المساعدة بالتبادل)، حيث يتدبَّر الناس حالهم في ذلك العالَم.

يشعر يوهان سباستيان باخ بالسَّعادة على الشاطئ، وقد توثَّقَت صداقته بمالك المطعم المُطلّ على الشاطئ، الذي كان يعِدّ عجَّة البطاطس من أجل أبي عند منتصف النهار. هأنذا أراه وهو يأكل تلك العجَّة. في هذه

اللّحظة، بعد مضيِّ خمسةٍ وأربعين عامًا، أرى اللّون الأصفر، لون البيض المخلوط بالبطاطس. تسطع شمسٌ مفعمة بالخير على إسبانيا بأسرها.

يملك أبي سيَّارة سيات 1430. تركها في الظلّ، تحت ظلال أشجار الكافور السعيدة.

تُسمَع أغاني فرقة دوو ديناميكو، أغاني كانت تمجِّد الصيف الإسباني، ينصت إليها أبي في شهر يوليو من عام 1970، على شاطئ كمبريلس.

أورثَتني فاجنر تلك المَلَكة، التي تميَّزَت بها هي الأخرى، وإن لم تنمِّها. كانت ترى الموتى. كانت فاجنر ترى الموتى، فلا تُلقي إليهم بالًا. هكذا، كانت عظيمةً في لامبالاتها، تستبعد تأمُّل كلّ ما لا يحقِّق لها رغباتها، مهما يكُن جديرًا بالإعجاب.

أنا في شقة رانيَّاس، مستغرقٌ في تأمُّل الأشياء القليلة التي أملكها: لوحة، بضعة كتب، التلفزيون، الستائر، الأريكة.

رحتُ أتنقَّل من خدعةٍ إلى أخرى، فذلك ما آلت إليه الحياة، التنقُّل من احتيالٍ إلى آخر، احتيالاتٌ تذهب أدراج الزمن في حياتك.

إن وقعتَ ضحيَّة الاحتيال، فأنت على قيد الحياة: يومَ لا تقع ضحيَّة الاحتيال، فما ذاك لأنَّ العالَم قد صار مكانًا أفضل، بل لأنَّك قد رحلتَ عنه.

لم يسمح يوهان سباستيان باخ ولا فاجنر بأن يقعا ضحيَّة الاحتيال. كانا يستشيطان غضبًا. وفي النهاية، تحوَّل الموسيقيَّان الشهيران إلى عجوزَيْن مناهضَيْن للنظام، أيْ إلى اثنيْن من أنصار طريقة الاثنتي عشرة نغمة [22]، من موسيقيِّي الطليعة الذين يتأمَّلون أسعار الأشياء في السوبرماركت شاعرين بالكَدَر، من المتقاعدين المُتكتِّمين الذين يشترون العروض المتاحة.

لا أحد يقف وراء تلك الإهانات المُوجَّهة للحياة: لا الشركات ولا الهيئات، ولا حتى الشيطان.

لا أحد.

بل إنَّه خواءٌ عظيم، نخدمه بأنفسنا.

لا أحد ينتظرني في أيِّ مكان، وذلك ما آلَت إليه حياتي، أنا المُضطَرّ إلى تعلُّم السَّير في الشوارع، في المدن، وحيثما كان عليَّ السَّير، علمًا منِّي أنَّ أحدًا لا ينتظرني في نهاية الرحلة.

لن ينشغل أحدٌ بوصولي من عدمه.

وفي تلك الحالة، تختلف طريقة السَّير.

بالنَّظر إلى طريقتك في السَّير يمكن التحقُّق ممَّا إذا كان أحدهم في انتظارك أم لا.

جميع العائلات ترحل عن الأرض.

الآباء، والأبناء، والأجداد... العائلات تقول وداعًا.

ملايين من المشاهد العائليَّة تتلاشى في هذه اللّحظة. أشعر بالتأثّر أمام الآباء الشباب المسؤولين عن أبوَّتهم: يعشقون أبناءهم، ولكنَّ أبناءهم سوف ينسون أمرهم. أطفالٌ يعشقهم آباؤهم، ولكنَّهم لن يملكوا لآبائهم ذكرًا في الكِبَر.

قلبي كشجرةٍ سوداء عامرةٍ بالطيور الصفر التي تصدح وتنخر لحمي كما لو كنتُ شهيدًا. أتفهَّم الاستشهاد: الاستشهاد يعني أن ينزع المرء لحمه ليكون أشدّ عريًا، الاستشهاد رغبةٌ في عريٍّ كارثيّ.

كان أبي لاعِبَ ورقٍ شرهًا. أعتقد بأنَّه ظلَّ يلعب الورق يوميًّا على مدى عشرين عامًا، إلَّا في أوقات السَّفر. كان يبتسم وهو ذاهبٌ إلى مباريات الورق التي تبدأ في الثالثة مساء، ويلتزم بالمواعيد في صرامة، ما يضطرُّنا إلى تناول الغداء في الثانية تمامًا، حتى يتمكَّن من اللَّحاق بمباراة الثالثة، في مكانٍ شعبيٍّ جدًّا من أمكنة بارباسترو يُدعَى لا پينيا تاورينا (هواة مصارعة الثيران)، حيث عُلِّق رأس ثورٍ مُحنَّطٍ على الجدار الرئيسيّ. في طفولتي، كنتُ أستغرق في تأمُّل ذلك الرأس بمزيجٍ من الذُّعر والعطف. كان أبي خبيرًا في اثنتَيْن من ألعاب الورق: پومبا، لعبته الأثيرة. تليها غينيوتي. كان يلعب من الثالثة إلى السَّابعة مساءً. في بعض الأحيان، كنتُ أذهب لمشاهدته في أثناء اللَّعب، وأنا في سنٍّ مُبكِّرةٍ للغاية. كان يغضب من زملائه في اللَّعب. اتَّسم أبي بالصرامة، والتشبّث بآرائه، والظنّ بأنَّه يمتلك الحقّ دومًا. كانوا يتراهنون على القهوة وكأسٍ من كونياك تورّيس 5.

وجد أبي في أوراق اللَّعب فردوسه. ولعب من أجل متعة الحظّ، لا من أجل متعة المال على الإطلاق.

أعتقد بأنَّ لعبة پومبا أدخلَت على نفسه سعادةً لامتناهية. لعلَّ تلك الأيَّام كانت في صيف 1969، أو 1970، أو 1971.

في السَّابعة مساءً، كان يحضر إلى البيت لاصطحاب أمِّي، فيخرجان معًا في جولة، ويرتادان الحانات لتناول شيءٍ والحديث إلى الناس.

في ذلك الزمن، غمرَت حياة أبي سعادةٌ جارفة. أذكر قمصانه. أذكر حَلَقة المفاتيح، وأذكر ساعته ـ السيتيزن، التي اقتناها في متجر ساعات يُدعَى لا إيسلا دي كوبا (جزيرة كوبا)، كانت تديره أمٌّ وابنها. جمعَت الصداقة بين أبوَيّ وبين تلك الأمّ وابنها. كان كلاهما غامضَيْن بقدر اسم متجر الساعات. لا أظنّ أنَّهما باعا من الساعات الكثير، وإن لم يكُن في وسعي الجزم بذلك. ذات يومٍ اختفيا من بارباسترو وكأنَّما بفعل السِّحر. ومعهما تبخَّر متجر الساعات، إذ انقضى أوانه وسط الأحياء. الآن، يشغل محلّه متجرٌ آخر، سبقَته متاجر كثيرة قبل المتجر الحالي وبعد إغلاق لا إيسلا دي كوبا، الذي يُحتمَل أن يكون قد أقفل أبوابه عام 1980 على وجه التَّقريب، طبقًا لحساباتي. تأتي المتاجر وتذهب، بعضها يستمرّ عامًا، وبعضها مئة عام، وبعضها ثلاثة أشهر، وبعضها ستَّة أعوام، لا أحد يدري! والمكان الذي شغله متجر الساعات فيما مضى صار يشغله متجر أحذية، أو حانة، أو حلوانيّ، أو

ببساطة صار خاويًا. عشقتُ ساعة أبي وشعرتُ نحوها بالاحترام. بدَت لي وكأنَّها ساعة إله، ومن هنا جاء وَلَعي بالساعات، من ذلك الحبّ الذي شعرتُ به نحو ساعة أبي السيتيزن. كنتُ أرى سلسلتها الفولاذيَّة، وشكلها الدائريّ، وعقاربها، والقفل، فيبدو لي الأمر برمَّته إعجازيًّا، عصيًّا على الإدراك. هكذا كان أبي في نظري دائمًا، عصيًّا على الإدراك.

في طفولتي، لم أتمكَّن قطّ من فهم سرّ هذا الولع بلعبة پومبا، ولا السَّبب الذي جعله يكرِّس لها كلّ هذا الوقت. فكَّرتُ أنَّه يدين لي أنا بذلك الوقت. كان لاعبًا ذائع الصيت في البلدة، يهابه المنافسون بشدَّة، لأنَّه يفوز دومًا، وإلَّا ألقى باللَّائمة على الآخرين.

كانت اللَّائمة تقع على الآخرين، وتلك حقيقةٌ جوهرية في طفولتي. في وجه أيِّ ضائقة، أو حتى مصيبة، كان أبي يلقي باللَّائمة على الآخرين، ولاسيَّما على أمِّي. لا أدري من أين جاء بذلك الأسلوب اللَّعين. كان أبي يُلقي باللَّائمة على أمِّي في كلِّ مصيبة، شيئًا فشيئًا تعلَّمَت أمِّي التلاعب بالأحداث بما يلائمها.. وهكذا، انتهَت بنا الحال جميعًا وسط متاهةٍ عاطفيَّة يشوبها اليأس والحزن معًا.

في سنّ الأربعين، استحوذ الغضب الشديد على أبي. من الأربعين إلى الخمسين، كان ذلك هو زمن الغضب عند أبي. ثمَّ هدأ في وقتٍ لاحق. حتى بلغ أوج الهدوء وهو في العقد الثامن من العمر. وقع له شيءٌ في الكازينو الذي كان يرتاده، لا پينيا تاورينا. لا بدَّ أنَّه غضب من أحدهم، فما عاد يذهب إلى هناك. وبدَّل بذلك الكازينو حانةً صغيرة، حانة سينما أرخينسولا. بدا لي ما جرى نذير شرّ. كانت تلك بداية انحدار أدائه في لعبة پومبا. في منتصف الثمانينيَّات، ترك لعب الورق وانصرف إلى مشاهدة التلفزيون. لم يُفصح يومًا عن السَّبب الذي جعله يترك لعب الورق. لغزٌ آخر لن أحلَّه ما حييت. يتألَّم قلبي من ألغاز الماضي التي لن أتمكَّن من كشف طلاسمها أبدًا. أفكِّر أنَّ في حناياها أشياءَ مذهلة سوف تظلّ محجوبةً إلى الأبد.

كان هو مَلِك لعبة پومبا المُتوَّج ما بين 1968 و1974. ثمَّ تبدَّل كلّ شيء، وانقضى العصر الذهبيّ.

كان يستغرق في التَّركيز ناظرًا إلى الأوراق، جالسًا بهدوء، وهو يجري عمليَّاتٍ حسابيَّة للتحقُّق من احتمالات الفوز بالمباراة. كان يجلس على مقربةٍ من الشرفة المشرعة في لا پينيا تاورينا، ونسيم أمسيات يونيو يداعب وجهه، نسيم عام 1970، حين كان العالم لا يزال صالحًا، وفي قلبه سلام، وفي قلبي بهجة. كان يتفرَّس وجوه منافسيه مُفتِّشًا عن مواطنَ ضعفهم، ويعالج الأخطاء التي يُحتمَل أن يرتكبها حليفه في اللَّعب. سعى إلى الكمال، لطالما سعى إليه في ذلك الشيء الذي أتقنه، وأنجزه على طريقته.

لا أعتقد بأنَّ لاعبًا واحدًا ما زال على قيد الحياة مِن أولئك الذين جلسوا أمام أبي في لا پينيا تاورينا، حيث أُقيمَت الحفلات الراقصة أيضًا، على منصَّةٍ صغيرةٍ للأوركسترا. كان أبي يطلب كوكاكولا من أجلي، فأجلس وأشاهد كيف يراقص أمِّي، ثمَّ كانا يعطياني كروكيتا مقليَّة، ولكنَّها لم تُعجبني.

ذات يومٍ جيء بلعبة پينبول، المعروفة باسم آلة المليون، إلى كازينو لا پينيا تاورينا. فولِع بها أبي، كما ولعتُ بها أيضًا. لعلَّني كنتُ دون الثامنة آنذاك.

وإذا تلك اللَّعبة تغدو طقسًا حقيقيًّا.

كُنَّا نصل إلى لا پينيا تاورينا نهار السبت، في الثانية عشرة تقريبًا، فيطلب أبي كوكاكولا من أجلي، ويشرع كلانا في اللَّعب بآلة المليون.

غمرَتنا سعادةٌ جارفة آنذاك. كان أبي يميل إلى تحريك الآلة بقوَّةٍ كلَّما ضغط على ذراع التحكُّم، ما يؤدِّي إلى احتساب خطأ على اللَّاعب، فتخصم الآلة من نقاطه تلقائيًّا، ويخسر الكرة.

تلك الكرات المُفضَّضة، التي كان أبي يطلقها باستخدام أذرع التحكُّم إلى قمَّة الآلة، إلى قمَّة العالَم والحياة، فيرى الكرةَ تعلو، وأنا واقفٌ على الكرسيِّ، لأنِّي ما زلتُ في عمرٍ مُبكِّرٍ جدًّا.

انطبعَت تلك الكراسي في ذاكرتي، وكأنِّي أراها في هذه اللَّحظة، كراسي عام 1970.

ربَّاه، كم ولع أبي بلعبة آلة المليون! كنتُ وأبي نقف في انبهارٍ أمام هبوط الكرة المفضَّضة، الألوان، الأضواء، الأصوات، ترقّب وصول الكرة، والإصبع على مفتاح التحكُّم. كان أبي يعشق الفوز بكرةٍ إضافيَّة.

وأنا أيضًا.

كلانا عشق اللَّعب. كُنَّا كلَّما رأينا آلة المليون في أيِّ حانةٍ من الحانات، توجَّهنا إليها، أنا وأبي. فنلعب في صمت، ونتواصل باللّفتات. كان ذلك طقسًا. رجلٌ في الأربعين من عمره يعقد اتفاقًا مع ابنه ذي الثمانية أعوام.

أعتقد بأنَّها أقصى لحظات التواصل بيننا، ونحن نلعب بآلة المليون.

حينئذٍ، كُنَّا أبًا وابنًا، بطريقةٍ لن نعود إليها أبدًا.

برعنا في اللَّعب كثيرًا.

صرنا كائنًا واحدًا، وانصهر كلٌّ منَّا في الآخر.

كُنَّا حبًّا.

وإن لم نتحدَّث عن الأمر قطّ، لم ننبس عنه بكلمةٍ واحدة.

قطّ.

ـ 121 ـ

شربت في اللَّيلة الفائتة، ثمَّ أفقتُ على جرس الهاتف آتيًا من فوق الطاولة المجاورة للفراش. كنتُ مستلقيًا على فراش في غراند أوتيل بارباسترو. جاء الاتِّصال من استقبال الفندق، لأنَّ هاتفي المحمول قد انطفأ. كان أخي هو المُتَّصل، في العاشرة من صباح السبت، الرابع والعشرين من مايو عام 2014.

ـ «أمّك ماتَت».

لم يقُل «ماما ماتَت». وأعتقد بأنَّه قد توخَّى الدقَّة كثيرًا حين قال «أمّك ماتَت» بدلًا من «ماما ماتَت».

كم كانت أسرتنا غريبة! نهضتُ من الفراش، ذاهلًا، مذعورًا، وأضرار الكحول تروِّع دوران الدم الشارد في جسدي. استغرقتُ في تأمُّل الحُجرة هائمًا. ارتديتُ ثيابي، ولم أتناول طعام الفطور. ذهبتُ إلى بيت أمِّي، حيث كان أخي.

دلفتُ إلى المخدع، وهناك كانت هي، ميِّتة، في الفراش. ماتَت في نومها، أو هكذا قال أحدهم.

وإذا بي أمام انقضاء حقبةٍ تاريخيَّة. رحلَتْ ومعها كلّ شيء، ورحلتُ أنا أيضًا. رأيتُ نفسي وأنا أقول وداعًا لنفسي.

إنَّها حقبةٌ تاريخيَّةٌ تنقضي، على وجه التَّحديد: وداعًا للنهضة، أو وداعًا للباروك، أو وداعًا لعصر الأنوار، أو وداعًا للثورة الروسيَّة، أو للحرب الأهليَّة، أو للرومانسكيَّة، أو أيِّ حضارةٍ تليق بالذكر.

انقضَت حقبةٌ، وماتَت مَلِكة.

ها هي ذي المَلِكة، ورأسها على الوسادة. لم تعُد تتكلَّم. بدا خرسها حديثَ العهد وكأنَّه معجزة.

كانت الملكة تعيش وحيدةً، لا أنا ولا شقيقي أكثرْنا من زيارتها. ولاسيَّما أنا، فقلَّما زرت أمِّي. في حين كان أخي يزورها أكثر منِّي كثيرًا. عرف كيف يشملها بعنايته. ولذا، فمن باب المعاملة العادلة بالمثل، أعرف جيِّدًا أنَّ أبنائي لن يحضروا لزيارتي متى صرت عجوزًا، متى صرت مَلِكًا محتضرًا، تنقضي بموته هو الآخر حقبةٌ تاريخيَّة كاملة.

منذ بضعة أعوام، صارت أمِّي تنام في تلك الحُجرة التي كانت لي أنا وشقيقي. لم أسألها يومًا عن السبب الذي جعلها تبدِّل الحُجرة. قرَّرَت ألَّا تنام في الحُجرة التي شاركَت فيها أبي. لا أعرف لذلك سببًا. ولسوف أذهب إلى القبر من دون أن أعرف. وعلى الرَّغم من ذلك، فلا بدَّ أنَّها وجدَت سببًا، ومن المُؤكَّد أنَّه سببٌ جامح.

لأنَّ أمِّي كانت جامحة.

ربَّما كان أبي يتمثَّل لها ليلًا، فأدركَت أمِّي بالبداهة أنَّه لن يظهر في حُجرتنا، حُجرة ابنَيْه، لأنَّ شبح أبي سوف يراعي تلك المساحة.

من المُؤكَّد أنَّ ذلك هو السَّبب.

من حُجرتي، كنتُ أسمع صوت أبوَيّ متى وصلا إلى البيت في ساعةٍ مُتأخِّرةٍ وأويا إلى الفراش، لأنَّهما كانا يتجاذبان أطراف الحديث قبل النوم، فأسمعهما وهما يتحدَّثان من خلال الجدران الفاصلة، إذ عانيتُ من الأرق منذ حداثتي، الأرق الطفوليّ، المفعم بالأوجال والخوف من الظلام. كنتُ أسمع صوت المصعد، والمفاتيح في الباب، وأسمع حديثهما قبل أن يستغرقا في النوم. كانا يتحدَّثان في استرخاء. فيبعث صوتهما في نفسي سلامًا عظيمًا، بينما يذكران في حديثهما أولئك الذين التقيا بهم، ويتواصلان، ويحاولان أن يصبحا واحدًا، ذلك ما فعل كلٌّ من أبي وأمِّي. حاولا المضيَّ قدمًا جاهدَيْن، شأنهما في ذلك شأنُ جميع الأزواج الذين وُجِدوا على وجه الأرض. إنَّ الزواج شركةٌ اجتماعيَّة تقوم على المساعدات المُتبادَلة. الزواج يعني إنشاء حصنٍ عائليٍّ واقتصاديّ. تلك هي الأمور التي تناولاها بالحديث. كانا في سبيلهما إلى عقد رابطة، رابطة تراثيَّة. كانا يتحدَّثان في عذوبة، بينما أسمع كلّ شيء، ويصفان ما وقع بصرهما عليه، ويقيِّمانه، ويتطرَّقان إلى ثياب الأصدقاء، وأحوال الأصدقاء في الحياة، والعشاء الذي تناولاه، ويذكران ما إذا كان العشاء طيِّبًا، وكم بلغ نصيبُ كلّ زوجَيْن ساعة دفع الحساب، ويتحدَّثان عن ملاءمة التَّعليق الذي أدلى به أحدهم من عدمه، عن السيَّارة الجديدة التي سوف يقتنيها فلان، وعمَّا هما فاعلان في العطلة الأسبوعيَّة التالية...

كانا يتحدَّثان.

ويسعيان إلى التفاهم وتقبُّل أحدهما الآخر، فمن ذلك التفاهم والتقبُّل ينشأ الزواج، والسَّير معًا عَبْر الحياة.

في بارباسترو، كانت أمِّي هي رائدة حمَّام الشمس. كانت تأخذ حمَّام الشمس في كلِّ مكان. أسَّسَت مدرسةً، وحوَّلَت بعض صديقاتها إلى تلك الديانة التي تقوم شعائرها على شيءٍ في غاية البساطة: حمَّام الشمس. كانت متى أقبل شهر يونيو تذهب إلى النهر لأخذ حمَّام الشمس مع صديقاتها، وتمضي الصيف كاملًا تحت الشمس، فتغدو بشرتها سوداء، كما لو أنَّها قد بدَّلَت عِرْقها. كانت تحبّ أن يبادرها الناس بقولهم: «اسودَّت بشرتك». لم يقُل أحد: «اسمرَّت بشرتك». بل كان الناس في إسبانيا حينذاك يقولون: «كم اسودَّت بشرتك»، لأنَّ الماضي يمثِّل طقس الكلمات وطريقة نطقها. ومجيء الخوف يجعل الناس يبدِّلون لكنتهم بأخرى، وطريقتهم في النطق بأخرى.

أمَّا هذا الحنين الذي يخالجني، فهو حنينٌ إلى طريقةٍ بعينها في نطق الإسبانيَّة، حنينٌ إلى عالَمٍ خالٍ من الخوف.

ماتت صديقات أمِّي، أو صرنَ على مشارف الموت. لم يسألني أحدٌ عن أمِّي منذ أمدٍ بعيد. لا أسمع اسمها منطوقًا بصوتٍ عالٍ. لا أسمع لها صوتًا. لا أذكر لها صوتًا. لو سمعتُ صوت أمِّي مرَّةً أخرى، فلربَّما آمنت بجمال العالم.

الآن، أشعر بذلك القيظ القديم، في عام 1969، أشعر بأمِّي وهي تأخذ حمَّام الشمس في حديقةٍ ملحقةٍ ببيت صديقةٍ لها، تصغرها سنًّا، عازبة، اسمها ألمودينا، تعيش مع أبوَيْها، وتملك حديقةً تحوي أشجارًا جميلة، ونباتاتٍ، وأزهارًا. هناك كانت أمِّي وألمودينا تأخذان حمَّام الشمس، وأنا معهما. كانت ألمودينا مُعلِّمة، تصحِّح الاختبارات في أثناء حمَّام الشمس. ما عاد لذلك البيت ذي الحديقة وجود: كان فيه مطبخٌ كبير، يفضي إلى حديقةٍ فسيحةٍ هادئة، يغمرها الضوء الساطع، ويحرسها السِّياج، فلا يستطيع أحدهم رؤيتك وأنت تأخذ حمَّام الشمس. بدا لي المكان وكأنَّه الفردوس. اشترى لي أبي درَّاجةً من طراز أورْبِيا، فتعلَّمتُ الحفاظ على توازني فوق دولابَيْن في تلك الحديقة. كنتُ أسقط وأخدش ساقيّ. بينما تتأمَّل ألمودينا وأمِّي التقدُّم الذي أحرزُه في قيادة درَّاجتي الأورْبِيا. ذات يوم، اصطدمتُ بشجرةٍ فحطَّمتُ أصيصًا. لماذا أذكر ذلك البيت بكلِّ هذا الوضوح؟ كان يتألَّف من طابقٍ واحد، ويضمّ صالةً عتيقةً ومطبخًا فسيحًا، ويشعّ جمالًا وسلامًا.

أُعجِبتُ بألمودينا لأنَّها رائعة الجمال، وشعرتُ نحوها بانجذابٍ شديد، وداعبَتني الخيالات. كانت في منتهى الجمال. وأزعجني أنَّها تعاملني كالطفل، أو تتجاهلني. فشعرَتْ كبريائي الصغيرة بأنَّها تلقى معاملةً سيِّئة. لا بدَّ أنَّ

ألمودينا كانت في ريعان الشباب آنذاك، في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين على أقصى تقدير، طبقًا لحساباتي. كانت لأمِّي صديقاتٌ شابَّات، الأمر الذي منحني بعض المزايا. علَّمَتني ألمودينا الرياضيَّات، وعمليَّات القسمة، وأنا لا أملك أدنى فكرةٍ عمَّا تكون تلك القسمة، كلّ ما في الأمر أنِّي ولعتُ بالنظر إليها. كنتُ أنظر إليها وهي تلقي عليَّ الدروس في مدرسة إسكولاپيوس، وأنظر إليها وهي تأخذ حمَّام الشمس بالبيكيني، مع أمِّي. الكلّ وصفها بأنَّها في غاية الجمال، كما علَّق عليها الفتيان في صفّي بقولهم: «ما أجمل الآنسة!» أمَّا أنا فأخفيتُ سرّي، والمزية التي فزتُ بها، تلك الهديَّة المُتمثِّلة في إمكانيَّة النَّظر إليها وهي تكاد تكون مُجرَّدة من الثياب، في أثناء حمَّام الشمس. تعذَّبتُ بتلك العمليَّات الحسابيَّة العجيبة، وبدَت لي القسمة شيئًا مُعقَّدًا إلى ما لا نهاية. كانت قوانين، ولا بدَّ من تعلُّم القوانين التي تحكم العالَم: قوانين القسمة والضرب والجمع والطرح.

ترسَّخ وجه ألمودينا في ذاكرتي. لم يهرم، ولم يتغيَّر، بل إنَّه ما زال على حاله لا يتبدَّل، جامدًا في الزمن، تضيئه الشمس، تضيئه دمائي.

كانت والدة ألمودينا تغرس الكثير من الأزهار، فيتجاذب ثلاثتهنَّ أطراف الحديث عن الأزهار، وأنا لا أفهم أنَّ الحديث عن الأزهار ممكنًا. أمَّا الشيء الذي كُنّ ينشغلن به أكثر من كلِّ ما عداه فهو مسح أجسادهنَّ بالكْريم الواقي من الشمس، ذلك الاختراع الحديث العصريّ آنذاك، فضلًا عن شرب البيرة المخلوطة بالمياه الغازيَّة، والتدخين. كُنَّ يحتسين دورقًا كاملًا من الشراب ويتضاحكن جذلًا. هيمنَت على فصول الصيف علامةُ نيفيا التجاريَّة، في علبتها المستديرة الزرقاء، بما تحويه من كْريم باردٍ أبيض. بينما كنتُ أنا جالسًا هناك، أراقب مغيب الشمس على الأشجار والأزهار والدرَّاجات. ربَّما كان مغيب الشمس هو الشيء الوحيد المُهمّ. عند ذاك، تعلَّمتُ حبّ شهر يونيو. علَّمَتني أمِّي حبّ ذلك الشهر، المُميَّز. وكانت تلك الحديقة احتفالًا بشهر يونيو، لأنَّ يونيو إعلانٌ عن مجيء الصيف، ولأنَّ الشمس تشرق خلاله ساطعةً، وإن خلا من فساد الصيف. ثمَّ يقبل يوليو فيبدأ النزيف، مع أنَّه يظلّ خفيًّا. أمَّا أغسطس، فهو الشهر الذي تنكشف خلاله عفونة الصيف، وجروحه، وخطاه التي يجرجرها في الأجواء وعلى وجوه البشر، وعلى فروع الأشجار غير المتعاطفة، بينما يُحتضر الصيف.

كان احتضار الصيف مُروِّعًا. رأت أمِّي نهاية الصيف على أنَّه واقعةٌ تراجيديَّة، انتهاك. من يجرؤ على قتل الصيف؟ كرهَت أمِّي قدوم الطقس السيِّئ، وآمنَت بالشمس. كانت مهرطقة، تعيش على شعائر الشمس، مهووسةً بالضوء وبحمَّام الشمس. كان البقاء على قيد الحياة والشمس عندها مترادفَيْن. أحبَّت الصيف حبّ العبادة، وكذلك مغيب الشمس في ساعةٍ

مُتأخِّرة، في ساعةٍ مُتأخِّرةٍ جدًّا. ولم تعتبر أيَّ شيءٍ جديرًا بالأخذ في الحسبان إلّا حضور الشمس. لم تكُن واعيةً بذلك، ولكنَّ حبّها للشمس والصيف انطوى على إرثٍ عمره آلاف الأعوام، إرث ثقافة البحر المُتوسِّط. لم أعرف كائنًا ينتمي إلى المُتوسِّط بقدر أمِّي. في الواقع، أحبَّت أمي ذلك البحر حبّ العبادة، ولم يعجبها لا بحر كانتابريا ولا المحيط الأطلنطي. ومن ذلك الحبّ الذي شعرَت به أمِّي نحو المُتوسِّط، عرفتُ أنَّه بحرٌ مُميَّز.

كان القرب من المُتوسِّط فردوسها.

وكان المُتوسِّط موطنها الوحيد.

أعود مُجدَّدًا إلى نهار ذلك اليوم، نهار الرابع والعشرين من مايو عام 2014. استغرقتُ في تأمُّل الحُجرة حيث كنتُ وشقيقي نخلد إلى النوم في عهد الطفولة. أجلتُ عينَيَّ مرورًا بالجدران وخزانة الثياب، وصولًا إلى وجه أمِّي الميِّت. كان رأس الفراش أزرق. طلبَت أمِّي طِلاء رؤوس الأسِرَّة باللَّون الأزرق، وكذلك خزانة الثياب كانت زرقاء اللَّون.

فتحتُ الخزانة التي لم يسعني تذكُّر ما في داخلها: كانت خزانتي في الطفولة وأوَّل الشباب. غير أنِّي لم أذكر الاحتفاظ بثيابي هناك، ثمَّ إنِّي حوَّلتُ نظراتي من الخزانة إلى الفراش مرَّةً أخرى. الآن، حضرَت المرأة التي كانت تعتني بأمِّي. كانت في الخامسة والأربعين من العمر تقريبًا، طيِّبة، طيِّبة القلب، بلغاريَّة الجنسيَّة. راحت تبكي حزنًا على أمِّي. لم نعرف اسمها على وجه التَّحديد، لأنَّ اسمها بلغاريّ، فأطلقنا عليها آني. ولكنِّي أعتقد بأنَّ هذا ليس اسمها على وجه التَّحديد، بل إنَّنا أضفينا الطابع الإسبانيّ على اسمها البلغاريّ، على نحو تقريبيّ، فاستحسنَت هي ما بدر منَّا كثيرًا. كانت شقراء، فارعة القوام، مكتنزة، ذات وجهٍ صافٍ بشوش، ما زالت لغتها الإسبانيَّة مُتعثِّرة. أحبَّتها أمِّي حبًّا جمًّا. ولقد تركني بكاؤها ذاهلًا. بدَت آني مُتأثِّرة، وذرفَت دموعًا حقيقيَّة. فيمَ بكاؤها ما دامَت الراحلة ليست أمّها؟ فيمَ بكاؤها ما دمتُ أنا الذي يجب عليَّ البكاء، ولم أبكِ؟ هل كانت أمِّي تبعث إليَّ برسالةٍ من خلال دموع آني؟ هل كانت تذكِّرني بأنِّي لم أحبّها بقدر ما أرادَت منِّي أن أحبّها؟ هكذا دارٍ في خَلَدي. فكَّرتُ أنَّ أمِّي سوف تواصل الحديث إليَّ من خلال الموت. فكَّرتُ أنَّنا سوف نتجاذب أطراف الحديث بطريقةٍ أخرى ابتداءً من الآن.

شعرتُ بالغيرة من آني لقدرتها على البكاء حزنًا على امرأةٍ ليست أمّها. في حين عجزتُ أنا عن البكاء، وعجزتُ حتى عن إراقة عَبْرةٍ واحدة. أمَّا لو أمكن قياس قدرتي على الشَّقاء بالدُّموع، لغمرَت الدُّموع إسبانيا بأسرها، حتى لم يجد جميع الإسبان من الغرق بدًّا، وغمرَت الدُّموع شبه جزيرة إيبيريا، وباتَت ناطحات سماء مدريد الأربع مطمورةً تحت الماء.

وهكذا، كان للطِّيبة وجود. ها هي ذي أمِّي، تقول لي كم تبعد حياتي عنها.

أخذَت آني بيد أمِّي. بينما استغرقتُ أنا في النَّظر إلى هاتيْن اليدَيْن اللَّتيْن كانت أولاهما حيَّة، وثانيتهما ميِّتة. بدَت اليد الميِّتة في سلام. أمَّا اليد

الحيَّة، فعندما لمسَت الأخرى لمسةً مفعمةً بالطَيبة، جرحَت الموت. وكأنَّ الموت لا وجود له.

عاودتُ النظر إلى الحُجرة. ماتَت أمِّي في الحُجرة التي شبَّ فيها ابناها، حيث لم يعُد ينام الركنان اللذان تألَّف منهما وجودها منذ أمدٍ بعيد. رحتُ أنظر إلى فضاء تلك الحُجرة، محاولًا التَّفتيش عن بوَّابةٍ في الهواء. طلبَت أمِّي دهان الحُجرة باللَّون الأزرق، اعتقادًا منها بأنِّي وأخي زرقاوَيْن. ماتَت في حُجرة نومنا، الأمر الذي وردَت فيه رسالةٌ أخرى مفعمةٌ بالقوَّة. إلى ذلك المكان التجأت أمِّي، إلى حُجرتنا، التي تحوَّلَت أمام عينَيّ إلى حرمٍ مُقدَّس، إلى ضريح.

كُنَّا زرقاوَيْن على مدى أعوامٍ طوال. يظلّ الأبناء زرق اللَّون حتى الثامنة عشرة من العمر. ولكنْ كلّ شيءٍ يصطبغ بالأصفر، بمضيِّ الزمن.

ويصبح الأبناء الزرق صفرًا.

كان الأزرق لا يزال هناك، يعود لبضع ثوانٍ، فيطغى على الأصفر. أمَّا السريران العتيقان حيث كان ينام ولداها، فظهراً وكأنَّهما قاربان ماضيان في سبيلهما من الحياة إلى الموت، السريران اللذان خلتُهما منيعَيْن في طفولتي. وإذا الزرقة التي اصطبغ بها رأس السرير وأقدامه تكتسب نقاءً يلهب عينَيَّ.

استغرقتُ في النَّظر إلى جودة الطِّلاء. كيف تحمَّل ذلك الطِّلاء خمسين عامًا! كان استمراره غريبًا. إذ لم يلحق به خدشٌ واحد، لم يتساقط الطِّلاء ولا حتى في رقعةٍ متناهية الصغر. لماذا بدا كلّ شيءٍ وكأنَّه حديث الطِّلاء ما دام هذان السريران قد بلغا من العمر نصف قرن؟

عاودتُ فتح الخزانة الزرقاء، علمًا منِّي أنَّها المرَّة الأخيرة التي أفتح فيها تلك الخزانة، علمًا منِّي أنِّي لن أعاود رؤية تلك الخزانة ما حييت. وإذا بآلة الحرب وسلاح الرماية والمشاة وأضواء الأيَّام العتيقة تندفع إلى الخارج، ورأيتُ نفسي أنتقي قميصًا وأنا في الثالثة عشرة من العمر، وأنظر إلى نفسي على صفحة المرآة، متسائلًا عمَّا إن كنتُ سأتمكَّن من ترك انطباعٍ حَسَنٍ لدى فتاةٍ تعجبني. نظرتُ إلى حيث كانت أمِّي ميِّتة، وهناك هبَّت عاصفة من الزمن والإبادة. كان ترتيبًا منطقيًّا، وإن لم أستعدّ له.

يكاد الموت يكون أهون الأمور.

ماما، تلك هي آخر مرَّةٍ رأيتُك فيها، وعرفتُ أنِّي ابتداءً من تلك اللحظة سأكون وحدي تمامًا في الحياة، كما كنتِ أنتِ، غير أنِّي لم أنتبه إلى وحدتك، أو لم أرِد الانتباه إليها.

تركتِني مثلما تركتُكِ.

كنتُ في سبيلي إلى التحوُّل إليك أنتِ، وهكذا تبقين وتغلبين الموت.

كان يجب عليَّ التقاط العشرات من الصور لتلك الحُجرة، والبيت كاملًا، لئلَّا يضيع شيء. ذات يوم، لن أعود أتذكَّر ذلك البيت بدقَّة، هناك حيث أحببنا أحدُنا الآخر حبًّا جارفًا. ومتى عجزتُ عن تذكُّر بيتي أصابني الجنون. أؤمن بشغفكِ. الذي هو الآن شغفي. كان شغفكِ يستحقّ العناء. وعلى الرَّغم من ذلك، تنقصني الصُّوَر. ماما، لقد أورثتِني شغفكِ، وهَوَسكِ بالحياة. ها هما في قلبي، يتألَّمان ألمًا مبرِّحًا.

توفِّي شقيق أمِّي الراحلة، خالي ألبرتو بيدال، في الحادي عشر من مارس عام 2015، عن عمرٍ يناهز الثالثة والسبعين عامًا.

في هذا الكتاب، خلعتُ على خالي ألبرتو اسم مونتيفيردي.

حقَّق مونتيفيردي قدرًا يسيرًا من الشهرة في بارباسترو، بلدتنا، أنا وهو، مع أنَّه وُلِد في بلدةٍ أصغر كثيرًا، تُدعَى پونتانو، تكاد تكون ضيعةً صغيرة، وهناك وُلِدَت أمي هي الأخرى.

هناك دُفِن جثمانه، في پونتانو. فلم يسعني حضور الجنازة، طبعًا. لا أحضر أيَّ جنازة، هكذا كانت حياتي: عبارة عن تهرُّب من حضور الجنائز. ولذا لا أعرف كيف تبدو القبور، ولا المقصورات. لا أعرف ما إذا كانت مُزيَّنة بالأزهار. لا أعرف شيئًا.

في شبابه، خلال الخمسينيَّات، شُخِّصَت حالة مونتيفيردي على أنَّها إصابةٌ بالسلّ. فاحتُجِز في مستشفى بمدينة لوغرونيو، كان في حالةٍ مزرية بعد الحرب الأهليَّة. هناك «نَشَروا رئته»، ثمَّ أرسلوه عائدًا إلى بارباسترو. هكذا سمعتُ في طفولتي، أنَّهم قد «نَشَروا رئته». تلك هي الكلمة التي سمعتُها. مع أنَّها كلمةٌ مقترنةٌ بمهنة النجارة.

صارت تنقصه رئة.

كان أصغر إخوته السبعة.

آوَته خالتي ريمي في بيتها. فعاش معها ومع زوجها أكثر من خمسين عامًا. إنَّها قصَّةُ تضحيةٍ شخصيَّة، قصَّةُ حبِّ خالتي لأخيها. قصَّةٌ طيِّبة. عاش خالي كلّ هذا برئةٍ ناقصة، وبقدرٍ أقلّ من الهواء في فمه، وبتلك الشيخوخة التي أدركَت الهواء الشحيح في جسده.

ماتَت خالتي ريمي، فظلّ هو على قيد الحياة عامَيْن بعد موتها.

العيش برئةٍ ناقصة شيءٌ أسطوريٌّ وثوريّ.

في طفولتي، كانت أمِّي تتركني في بيت خالتي ريمي أيَّام العطلة الأسبوعيَّة، وهناك تعرَّفتُ بشخص خالي ألبرتو المتشيطن، غريب الأطوار، مونتيفيردي العظيم. لعلَّني كنتُ في السَّابعة أو الثامنة من عمري حين هدَّدني بالطعن بالسكِّين. كانت سكِّينًا متينةً. هأنذا أراها الآن، بعد مضيِّ خمسة وأربعين عامًا، أراها بصفاءٍ جحيميّ، وإن لم يخلُ من العذوبة. أراها الآن على مستوى نظري كما رأى ميشيل ستروغوف [23] سكِّينه. يمكنني

استحضار ذكرى جميع السكاكين المُهمَّة في حياتي. كانت تلك واحدة منها. شُحذت مرَّاتٍ بالغة الكثرة، حتى لم يعُد نصلها مستقيمًا. كان صدئًا للغاية، وتشقَّقَ المقبض المصنوع من الخشب. قُوبِلت تلك السكِّين بالإطراء والمديح لأنَّها قاطعة. ورثها خالي عن عائلته. كانت سكِّينًا تراثيَّة، طُرِقت في أواخر القرن التاسع عشر. لم تكُن مضادَّة للصدأ، بل إنَّها قد اسودَّت تمامًا. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يكُن سوادها قذرًا، بل كريمًا، نبيلًا. كانوا يرسمون علامة الصليب على الخبز قبل قطعه شرائح بالسّكين، ذلك الخبز الإسفنجيّ، بما فيه مِن لبابٍ سميك، وكأنَّها وليمةٌ من الخبز، خبز أواخر الستينيَّات.

لاحقني بالسكِّين في شقَّة خالتي، تلك الشقَّة ذات الرواق المُمتَدّ، الذي تتوسَّطه نافذةٌ واسعةٌ مُطلَّةٌ على المنْور. تلك الشقَّة التي أشعر بالرَّغبة في البكاء إن ذكرتها، فالآن أدرك أنِّي كنتُ سعيدًا في تلك الشقَّة. في وسعي إعادة بنائها سنتيمترًا تلو آخر. يمكنني رسم تصميمٍ دقيقٍ لها. كان لها سحرها. بدَت قاتمةً بعض الشيء، واستأثرَت عراقتها بفضولي. شُيِّدَت تلك الشقة إبَّان الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة، عام 1937، بخاماتٍ مصدرها الحُطام الذي خلَّفه القصف، في المكان الذي شغله قبل ذلك بيتُ مزارعين. بدا وكأنَّ أرواح الفلَّاحين الإسبان الذين لم ينالوا الخلاص تظهر هناك، الأرواح التي استحوذَت على قلب خالي، وأخذَت تجوب كلّ أرجاء المكان.

راح يصرخ: «سأنحر عنقه!»

كان زوج خالتي ريمي هو الذي اعترض سبيل خالي ألبرتو. أمسك بذراعه، ولواها، حتى سقطت السكِّين أرضًا. أعرف أنَّ أمورًا أخرى قد وقعَت. فلقد ازدهر الجنون هناك، حيث كنت.

كان خالي مونتيفيردي على قدْرٍ من الجنون. وأنا أيضًا على قدْرٍ من الجنون. أعرف أنَّه لاحقني بالسكِّين، وراح يشتم، ويصبّ لعناته على الرَّب. يوهان سباستيان باخ لم يشتم يومًا. بينما كان مونتيفيردي كثير السباب. يمكن التَّمييز بين صنفَيْن من الرجال: الشتَّامون وغير الشتَّامين. جرَت العادة أن يكون الشتَّامون يائسين، يعانون كالمُدانين. الأمر الذي يسري على غير الشتَّامين أيضًا.

كما يمكن التَّمييز بين صنفَيْن من الموسيقى: موسيقى تغني وموسيقى تدين.

تكرَّر ما جرى لي مع «ج.»، ذلك الكاهن الذي تحسَّس جسدي: إذ انقطع التيَّار عن ذاكرتي. في ذاكرتي فجوةٌ أحدثَتها رغبتي في النجاة. أعرف أنَّه كان يريد طعني بتلك السكِّين. وإن كنتُ لا أذكر على وجه الدقَّة ما الذي أشعل فتيل الموقف، لا بدَّ أنَّني نقلتُ إليه كلماتٍ يقولها الآخرون عنه، شيءٌ مُتعلِّق

بكونه عاجزًا أو عديم الفائدة. بصوتٍ عالٍ، قلتُ كلمات الذمّ التي سمعتُها عنه. لأنَّ الكلمات مُهمَّةٌ في إطار العائلة، لاً في إطار المجتمع.

جُنّ جنونه، وأراد أن يقتلني، وإن كان يجب عليه قتلُ أحد أشقَّائه في واقع الأمر. كان خالي ماوريثيو، أكبر إخوته (الذي سأخلع عليه اسم هاندل)[24]، يقول إنَّ مونتيفيردي عديم الفائدة. لم يشفق عليه كثيرًا، ولم يعطف عليه لأنَّ واحدةً من رئتَيْه قد استؤصِلَت. خيَّمَت على قرى أويسكا ضغائنُ وكوارثُ ترجع إلى ما قبل التاريخ.

تلك القرى التي وقعتُ في عشقها.

حتى هاندل رحل، وأعتقد بأنَّه رحل وهو دون الثالثة والسبعين، في التاسعة والستِّين، وفق ما يبدو لي. وهكذا، ما زالت الحياة تبحث عن الكوميديا على اعتبارها شكلًا من أشكال التَّعبير عن الذات. أعتقد بأنِّي كرَّرتُ بصوتٍ عالٍ كلماتٍ عن مونتيفيردي، بعد أن همس هاندل بها. سمعتُ هاندل يقول إنَّ مونتيفيردي كارثة، أو شيءٌ من هذا القبيل، فأذعتُ الخبر. وأنا لا أدري ماذا يجري. لم أفهم أيّ شيء. كنت نموذج الطفل الذي يفسد الأمور بإذاعة أمرٍ مُخزٍ أو سرٍّ عائليّ. وإذا بِرجلٍ يائسٍ يريد طعني بالسكين.

لم يكُن مونتيفيردي وهاندل يتحدَّثان إلى بعضهما بعضًا.

جمعَت بينهما علاقةٌ سيِّئة.

رأى مونتيفيردي أنَّ من واجب هاندل أن يمدَّ له يد العون في الحياة، وإلَّا فما نفع الأخ الأكبر! هاندل أيضًا عانى كثيرًا في هذه الحياة، وأعتقد بأنَّه تكبَّد وحدةً رهيبة. أذكر شاربه ورأسه الضخم، محمولًا فوق جسدٍ مفرط الهزال. أذكر أنَّه كان يُكثِر من التدخين، ويدخِّن ثلاث علب كلّ يوم، من التبغ الأسود. لا أدري من أين جاء. أعتقد بأنَّنا كُنَّا عِرْقًا قريبًا من الحلقة المفقودة، ولكنْ حتى في ذلك الأمر يكمن انتصار الحياة.

بدا هاندل شيطانًا، بشعره القصير جدًّا، كما لو كان جنديًّا، ثمَّ أصبح رجلًا مغاليًا في تصرُّفاته. كان أكثر ما يروق له قنص الخنازير البرِّيَّة. كان صيادًا مُتمرِّسًا. ذات مرَّة، ذهبتُ معه للصيد. رحنا «نترقَّب». كان علينا الترقُّب حتى يظهر خنزيرٌ برِّيّ. وما كاد يظهر واحدٌ حتى فجَّر عينَيْه بكريات الخرطوش. أصابه في رأسه. راح يدخِّن وهو يراقب الخنزير يلفظ أنفاسه الأخيرة. ثمَّ تركه هناك نافقًا، كي تنهشه الجرذان، كي تقيم الجرذان وليمةً، لأنَّ الخنزير البرّيّ كان عجوزًا، عجوزًا مريضًا، لحمه صلبٌ مصابٌ بالجرَب، فرحلنا بالسيَّارة، عَبْر طرقاتٍ ملؤها الريح والجفاف والبرد، في ليل نوفمبر.

ألقى القمر نوره على جثَّة الخنزير البرّيّ من الأعالي، بينما غرق هاندل في خرسٍ قاحل، وشرع يدخِّن، مُتأمِّلًا ذلك البُعْد، بُعْد أراضي سومونتانو، ذلك المزيج من الخواء والتَّحذير من سواد اللَّيل وقبحه، اللَّيل الذي إليه يصير الجميع.

أراد تشغيل مذياع السيَّارة، فتعذَّر عليه التقاط الإشارة من أيِّ محطَّةٍ إذاعيَّة. وحدها الضوضاء كانت مسموعة.

بدا مونتيفيردي شيطانًا آخر، كلُّ ما في الأمر أنَّه أرسل شعره، وصار رجلًا مغاليًا في تصرُّفاته هو الآخر.

كانا أخوَيْن من دمٍ واحد، ولكنَّ الأخويَّة في المغالاة جمعَت بينهما أكثر من كلّ ما عداها: فالأوَّلُ حليق الرأس، والثاني مُرسَل الشعر.

الآن تذكَّرت، كلاهما أطلق شاربه: فكان لهاندل شاربٌ دقيقٌ للغاية، بينما كان لمونتيفيردي شاربٌ كثّ.

بارباسترو العتيقة عرفَت مونتيفيردي جيِّدًا. أمَّا الأجيال الجديدة فما عادَت تعرفه.

وقَّرَته بارباسترو العتيقة، وتفهَّمَته، وأحبَّته. تفهَّمَته لأنَّ مونتيفيردي، في قرارة الأمر، كان امتدادًا طبيعيًّا لتلك الأراضي، وتلك الشوارع، وتلك الساحات، وتلك الطريقة من طرائق الحضور المُؤقَّت.

كان مونتيفيردي يتحدَّث كثيرًا، باندفاع، ويلقي التَّحية بصيغةٍ تتكرَّر في كلِّ مرَّة: «كيف الحال يا فتى؟» بدَت طريقته في نطق ذلك السُّؤال غريبةً، حيويَّة، وكأنَّما في نطقه تبدو لمحةٌ من عبادةٍ سرِّيَّة، عبادة الجنون، والشرود. أجل، كان الشرود تاجًا على رأس مونتيفيردي. كان يشرع في الحديث فلا يسكت، ويُدلي بعباراتٍ غير مترابطة، بل عباراتٍ مُتراصَّةٍ الواحدة فوق الأخرى: كان استعراضًا شفهيًّا، حيث تدبّ الحياة في شيءٍ لا ينتمي إلى مملكة الأحياء. أنا أيضًا صرتُ كثير الحديث في الآونة الأخيرة: كلانا يُكثِر من الحديث حتى لا نترك لمُحدِّثنا مهلةً كي يطلق علينا الأحكام، حتى نُبقي فكرَ مُحدِّثنا مشغولًا، ونحول دونه ودون رؤيتنا من خلال الصَّمت، وإلَّا أدرك أنَّ كلَيْنا مخبول، مُنتهٍ أمره، وأنَّ كلَيْنا ذاق من الشقاء الكثير، حتى لم يبقَ لنا سوى آليَّة مقاطع الكلمات.

إنَّه تمويهٌ يليق بضحيَّة الضرب، أجل، ولكنَّه يليق بالعاشق أيضًا.

منذ أعوامٍ وجدتُه في الشارع، فأراني الهاتف المحمول الذي اقتناه. تبادلنا أرقام الهاتف.

نظرنا إلى الهاتفَيْن بحزن.

لم أتَّصل به قطّ، ولماذا أتَّصل!

كان مظهره محض كارثة: بربطات عنقه المزيَّنة بنقوش الأزهار، وبدلاته العتيقة، ورائحته الكريهة. في أواخر أيَّامه، فاحَت منه الرائحة النتنة.

كان صاحبَ غرضٍ فنِّيّ، مع أنَّه كارثةٌ حقيقيَّة.

كان المرء يعجز عن الوقوف على مسافة ثلاثة أمتار منه.

لم يغتسل مونتيفيردي قطّ.

كانت رائحته مُنفِّرة. وذلك فنٌّ طلائعيٌّ محض. اشتهر برائحته النتنة. وعرفَت بارباسترو كاملةً أثره المثير للغثيان.

تعايش ورائحة الموت السَّابقة على الأوان في هدوء.

كانت راحته الدانتيَّة عنده في منزلة بياتريس [25]. وباتَت هي طريقته في التميُّز عن الآخرين، طريقته في إقامة حصنٍ حول جسده، جدارٍ لا سبيل إلى تجاوزه، يوفِّر لوحدته حمايةً مُشدَّدة، كما تشمل الأمّ صغيرها بالحماية.

كانت الوحدة ابنه الصَّغير، ابنه الوحيد، الحبيب.

ولقد وفَّر لصغيره الحماية بتلك الرَّائحة النتنة، كما تفعل الحيوانات، كما يفعل الظربان الذي تفوح رائحته على مسافة مترَيْن. وهي المسافة التي كانت تبلغها رائحة ألبرتو بيدال الكريهة. ولقد انطوَت رائحته النتنة على وقاحةٍ سياسيَّة أيضًا. كانت قوَّةً سياسيَّة، تمجيدًا للتنصُّل من أيِّ شكلٍ من أشكال الآداب الاجتماعيَّة، وتعظيمًا للعقم.

عاش مع أخته ريمي وزوجها إرمينيو، ذلك الرجل الصالح. لو كان شخصًا آخر لاستنكر الحال.

وما قَبِل به.

عاش مع شقيق زوجته مدى الحياة، هكذا فعل إرمينيو.

حُجرةٌ دائمة من أجل مونتيفيردي.

عاش ثلاثتهم في بيتٍ عتيق، في شارع سان إيبوليتو. وأحبُّوا بعضهم بعضًا. من آنٍ إلى آخر، كان يدبّ الشجار بينهم، غير أنَّهم تحابّوا، وبقوَّة. كانت طيبة إرمينيو تليق بالكتاب المُقدَّس. لعلَّه أفضل رجلٍ عرفتُه مدى حياتي. أحبّ إرمينيو خالتي ريمي، ورفعها إلى ما فوق مصافّ البشر. أحبّ أحدهما الآخر، دائمًا. لم أنتبه إلى تلك المعجزة. لا أنتبه إلى الأمور الرائعة التي رأيتُها في إطار العائلة. كان من الواجب عليَّ الالتفات إلى ذلك الحبّ: عشق إرمينيو زوجته.

ثمَّ وُلِدَت ابنة خالتي. وهكذا صاروا أربعة: زوج وزوجة وابنة وأخو الزوجة، عاشوا معًا طوال عقود. إنَّه سرٌّ. وكان الجمال في ذلك التجمُّع غير المُتوقَّع الذي ألَّف بين أربعةٍ من البشر. لو فكَّرتُ الآن في الآمر، ما وسعني فهمه. إذ لا يستوعب رأسي أن يعيش رجلان معًا خمسين عامًا، ولا صلةَ

بينهما إلّا رابطٌ مدنيّ. من عساه يكون إرمينيو في تاريخ الموسيقى؟ ربَّما كان بيرغوليزي، ومَن يكون سوى مُؤلِّف ستابات ماتر!

كانت حُجرة خالي ألبرتو باردةً ورطبة، ودعَت الضرورة إلى تهويتها طوال الوقت، على الرَّغم من سحرها. حُظرت عليَّ تلك الحُجرة، فلم أدخل إليها قطّ. ولكنِّي كنتُ أراها أحيانًا في أثناء تهويتها. كانت تشتمل على خزانةٍ وفراشٍ بدائيّ وطاولة. أعتقد بأنَّ النافذة هي أفضل ما فيها. أمَّا شكل الحُجرة المُربَّع فقد أضفى عليها مغزى دينيًّا. كم كنتُ أبذل في هذه اللَّحظة مقابل العودة لرؤية تلك الحُجرة المُحرَّمة! لا بدَّ أنَّها كانت حُجرة الهجران... تلك الغيبوبة حيث يغدو الهجران سائلًا، فيجتاح الجدران والأرض وقطع الأثاث والهواء. لعلّ تلك الوحدة باقيةٌ هناك، في تلك الجدران الأربعة، لو أنَّها ما زالَت على قيد الوجود.

لم يجد عملًا. لم يتزوَّج. لم تكُن له حبيبةٌ واحدة. لم تُعرَف له صديقات، ولكنْ لا بدَّ أنَّه عرف صديقات. لا بدَّ أنَّه وقع في الحبِّ ذات مرَّة. لو عرفتُ اسم إحدى النساء اللَّاتي وقع في حبّهنَّ، لو عرفتُ أنَّها ما زالت على قيد الحياة، لاتَّصلتُ بها كي أحدِّثها عنه. ولكانت تلك معجزة. كان يستخدم صحنه وكوبه وفضِّياته الخاصَّة دومًا، نظرًا لإصابته بداء السلّ.

كنتُ طفلًا، يستغرق في النظر إلى صحن خاله وكوبه وفضِّياته، وكأنَّها شيءٌ مُحرَّم، قذر، خبيث، خطير.

كان صحنه يبعث على الخوف.

وكوبه يبعث على الهلع.

كانا يمثِّلان المجهول، الهاوية.

وكذلك منديله، الملفوف بشريطٍ جنائزيٍّ دائمًا.

كان أبي يهديه بدلاته القديمة.

فيتجوَّل خالي مونتيفيردي في أنحاء بارباسترو مرتديًا بدلات يوهان سباستيان باخ القديمة، التي تبدو كبيرةً عليه، نظرًا لطول قامة يوهان سباستيان، ولكنْ سيَّان. بدا وكأنَّه كانتينفلاس [26]. فقراء الإسبان من أصحاب البدلات، يا لهم من أسطورة! أحبَّ مونتيفيردي تقليد كانتينفلاس في طريقة الكلام.

مات أبي، فظلّ مونتيفيردي يتجوَّل ببدلاته الفضفاضة في أرجاء بارباسترو.

كنتُ ألتقي به في الشارع، فأذكر أبي في السبعينيَّات، الحقبة التي ترجع إليها بدلاته، تلك البدلات المُزيَّنة بصفَّيْن من الأزرار، التي كانت صيحة، والآن باتت من الماضي. شاعَت في السبعينيَّات، والآن لم يَعُد يرتديها أحدٌ على الإطلاق.

كان ألبرتو بيدال يقطع بارباسترو من أقصاها إلى أقصاها، محشورًا في بدلةٍ بصفَّيْن من الأزرار وكأنَّه آل كاپوني. لطالما كان حاضرًا في كلِّ مكان، يتجوَّل، في بلدةٍ لا يتجوَّل فيها أحد. بدا وكأنَّه كلّيّ الوجود.

ابتكر التجوُّل.

عرف خالي ألبرتو بيدال أصدقاءً غريبي الأطوار، ماتوا أو اختفوا أو انطفأوا، أو لم يكن لهم وجودٌ قطّ. تعرَّفتُ ببعض أولئك الأصدقاء. وكنتُ أودّ لو عرفتُ مما تألَّفَت تلك الصداقات. أعتقد بأنَّها كانت غير مُستقرَّة، إلى حدٍّ لا بدَّ أنَّه جعلها نقيَّة، صالحة، بسيطة، بدائيَّة. صداقات بدائيَّة، هكذا أفكِّر فيها. لم أدرِ يومًا أين يعيش أولئك الأصدقاء. أذكر وجه واحدٍ منهم. ذكَّرني وجهه بقُمرة الشاحنة بيغاسو. إنَّ مثل هذا اللَّاوجود عصيٌّ على السَّرد.

في مطلع الثمانينيَّات، اشترى زوج خالتي إرمينيو شقَّةً صغيرةً بصعوبة، في تجمُّعٍ سكنيٍّ تعاونيّ، على مشارف البلدة. وإلى هناك ذهب الثلاثة من جديد، لأنَّ ابنة خالتي رحلَت كي تستقلّ بحياتها. كان لمونتيفيردي حُجرته الخاصَّة في البيت الجديد. كما عُهِد إليه بعملٍ صغير، بصفته مشرفًا على شقق التجمُّع التعاونيّ. فكان دائم الحديث عن مدى إتِّقانه العمل، ومدى سعادة الجيران به.

ظلّ يرتدي البدلات القديمة، وربطات العنق المبهرجة، وكأنَّه رجلُ عصابات. قد يرتدي المرء بدلةً على الرَّغم من فقره الشديد، فيغدو فقيرًا أنيقًا، من أولئك الذين رأيتُ منهم كثيرين في عائلتي. أطال مونتيفيردي عمرَ بدلات أبي حتى وصل بها إلى تخوم الأبديَّة. لقد فارق أبي الحياة، ولكنَّ بدلاته التي ترجع إلى السبعينيَّات ظلَّت ناشطةً في شوارع بارباسترو. الأمر الذي تراءى لي بديعًا. أسطوريًّا.

ماتَت خالتي، فعاش الرجلان وحدهما، في تلك الشقَّة، عجوزان لم تجمع بهما أدنى قرابة حقيقيَّة. هناك بقي مونتيفيردي وبيرغوليزي، يتحدَّثان عن موسيقى حياتهما، يفتقدان الرابط الذي جمع بينهما على مدى خمسين عامًا: خالتي ريمي. تلك التي أودّ لو أطلقتُ عليها ماريا كالاس [27]، فمن المؤسف أنَّ تاريخ الموسيقى خالٍ من النساء الشهيرات. لعلَّ ذلك الرابط قد جمع بينهما طوال ما يربو على الخمسين عامًا. وربَّما ستِّين. جمعَت بين مونتيفيردي وبيرغوليزي صلةُ قرابةٍ سياسيَّة، تُدعَى ماريا كالاس، ولكنَّ

السَّبب في وجود تلك الصِّلة قد اختفى. على أحدهم أن يضع رسالةً أنثروبولوجيَّةً تفسِّر القرابة السياسيَّة، ومصدرها، وفي أيِّ بيتٍ قاتمٍ من بيوت التاريخ قد صيغَت.

الآن مات ألبرتو بيدال.

مات مونتيفيردي العظيم.

أذكره مرَّةً أخرى وهو يلاحقني في تلك الشقَّة بشارع سان إيبوليتو، وقد أمسك بالسكِّين، لينحر عنقي، عنق طفلٍ في الثامنة، تلك السكِّين العتيقة، بمقبضها المصنوع من الخشب الذي نخرَته أشباح الحرب والجوع.

لا تقلق، يا ألبرتو بيدال، لقد تركتَ بصمةً في عقدَي السبعينيَّات والثمانينيَّات في بارباسترو. بصمةً انتبهتُ إليها وحدي، ولكنْ لا يهمّ.

لسوف تقوم من بين الأموات.

ليتك أغمدتَ تلك السكِّين في عنقي!

لو فعلتَ لانتهيتُ أنا تحت الأرض، وأنت على حبل المشنقة.

ومع أنَّ قوانين البشر تعاقب على تلك الخاتمة وتستنكرها، فهي ليست بهذا السُّوء: القبر والعنق المذبوح.

من هناك جئنا، وتلك فرصةٌ جديدةٌ تاريخيَّة يقدِّمها لنا الزمن، فرصةُ أن يكون المرء شيئًا أو أحدًا، ويحصل على عملٍ ومعاشٍ وضمانٍ اجتماعيّ، تلك الفرصة التي أهملنا الانتفاع بها دومًا.

جئنا من الأشجار، من الأنهار، من الحقول، من الوهاد.

لطالما كان نصيبنا الحظيرة، الفقر، النتن، الاغتراب، المرض، الكارثة!

هوذا نحن مُؤلِّفا موسيقى النسيان.

لا نأبه لوجود الرَّب من عدمه.

لو أنَّ الرَّب، أو أيًّا كان، قد وهبنا الفردوس، لجعلنا منه حظيرةً خلال أربعة أيَّام، وكلانا في الداخل، أنا وأنت.

ولو أنَّ الرَّب غضب علينا لأنَّنا جعلنا من فردوسه مجرى للصرف، فماذا هو فاعل؟ أيعاود قتلنا؟ أيردّنا إلى الجحيم؟

أوه، صدِّقني يا ألبرتو بيدال، هوذا نحن عقاب الرَّب. لأنَّ الرَّب قد عاد ثانيةً، لأنَّ البشريَّة لم تعثر على مَن هو خير. فاضحك من قبرك إذًا، الآن والربيع مقبل، لأنَّك مُتَّ عشيةَ الربيع، في زمننا العظيم، نحن اللذيْن كُنَّا هنا دومًا، حتى قبل وجود التاريخ، بوقتٍ طويل.

اضحك يا ألبرتو بيدال، واغسل شعرك، وتعطَّر.

كم كنتَ قذرًا، أليس كذلك! كم كنتَ أنيقًا!

كم كنتَ وحيدًا! كنتَ أكثر الرجال وحدةً في الكَوْن.

لم يحبُّك أحدٌ في الكبر. ولا حتى أنا، ابن أختك. في طفولتك، أحبَّتك ثيثيليا، أمُّك، تلك التي كنتَ تذكرها، فلا ينصت إليك أحد. ولقد بدَت لي تجربةً خارقةً للطبيعة، تجربةُ الكائنات التي تمرّ بهذا العالَم من دون أن يحبّها أحد، كائنًا من كان. في تلك التجربة شكلٌ قاسٍ ومُسمِّم من أشكال الحرِّيَّة، واستحضارٌ لقوَّة المادة الفوضويَّة، السَّابقة على التَّرتيب البشريّ، لأنَّ المادَّة وحيدة. ليس ضربًا من الإخفاق أن يعيش المرء من دون أن يحبَّه أحد.

بل إنَّها هبة.

هبةٌ دامية.

لك أن ترى المزيد، لك أن ترى معنى المادَّة في الحرِّيَّة. يحتاج البشر إلى البحث عن قمَّة، يحتاجون ألَّا تقع الأمور اعتباطًا. نبحث عن إرادة. أن تكون لوجودنا هنا غاية. أن تبلغ حياتُنا هدفًا، على أقلّ تقدير. ولكنَّ وجود الرَّب أكذوبة، بقدر ما أنَّ وجود الطِّيبة بين البشر أكذوبة.

في يومنا هذا، يتساءل الكثير من البشر عمَّا إذا كانوا نافعين، وأمناء مع أقرانهم، وإذا كانوا يتوصَّلون إلى مغزى. الشيء الذي يساعد المرء على الموت بقَدْرٍ من الهدوء، بَيْد أنَّه لا يخلو من الخواء. حتى الأمانة تمثِّل احتيالًا أنطولوجيًّا.

سيَّان عرفتَ أم لم تعرف معنى كلمة «أنطولوجي»، لأنَّها لا شيء.

رائع هو ذلك الفراغ الكثيف. أن يراه المرء، كما أراه. كما رأيتَه أنت، يا مونتيفيردي!

صدِّقني يا مونتيفيردي، إنَّ الطريق التي سلكتَها أنت هي طريق الأبطال.

«كيف الحال يا فتى؟»

هأنذا مرَّةً أخرى في شقَّتي الواقعة برانيَّاس. حسنًا، أصبح الشارع يُدعَى خوسيه أتاريس، ما عاد يُدعَى رانيَّاس، ولكنِّي سوف أدعوه بذلك الاسم دومًا، من أجل أبي.

حين أذهب إلى الخارج، حين أسافر، يحضر برا وفالدي إلى هذه الشقَّة، ويستخدمانها كما لو كانت بيتَ أحد المختفين. ليستَ حال المختفي مزريةً إلى هذا الحدّ.

قلَّما يحضران لرؤيتي عندما أكون هنا.

ما زالا يعيشان في الهموم التي خلَّفها الطلاق، إذ تقتضي أيقوناته الأخلاقيَّة ضحايا وجلَّادين. لا يذكران أبويّ، جدَّهما وجدَّتهما. لا يفهمان أنَّهما هنا، جدَّهما وجدَّتهما. لا يبصرانهما، وإن كانا هنا. لا يعرفان ما الشعور بالوحدة، واليأس. سوف يرحل كثيرٌ من الناس عن هذا العالَم وهم لا يعرفون ما الشعور باليأس. أكثر الناس الذين عرفتُهم في هذه الحياة لم ولن يعرفوا أبدًا.

في ما يشبه تمجيد الشعور باليأس، رحتُ أشتري أطرًا رخيصةً من متجر فوتوبريكس، وأعلِّقها على جدران البيت واضعًا فيها صوَري أنا وأبوَيَّ وبرا وفالدي. بدَت مبتذلة، ولكنَّها أعجبَتني. كانت أمِّي تفعل الشيء نفسه، فتشتري الأُطُر الرَّخيصة وتضع فيها صور برا وفالدي، وإن لم تضع صورها هي قطّ.

ولأنَّ عدد الصُّور أكبر من عدد الأطر، عمدتُ ببساطة إلى تثبيت الصُّور على الجدران بشريطٍ لاصقٍ مُلوَّن: لم تبدُ سيِّئة. كنتُ في أوج العمل على بناء بيتي الجديد. بطلاقي خسرتُ بيتي. وبموت أبوَيّ خسرتُ بيتي. والآن أعيد بناء البيوت من خلال الصُّور الفوضويَّة، والإصرار على تغطية جدران شقَّة رانيَّاس بالصُّوَر، الصُّوَر التي أطبعها أحيانًا باستخدام الطابعة، باللَّونَيْن الأبيض والأسود.

«سأبدِّل رتاج الباب»، أقول في نوبة غضبٍ تزول عنِّي بعد عشر دقائق. لو فعلتُ لكانت تلك هي الطريقة الملائمة لتذكيرهما بأنَّ البيت ذو أهمِّيَّة، بأنَّ البيت على قيد الحياة. غير أنِّي لا أفعل، ففي قرارة نفسي، يروق لي حضورهما وإن جاءا في غير وجودي.

تشتدّ الوحدةُ يومًا بعد يوم، حتى ابناي ليسا معي، ولا شيء يحدث. لا بدَّ أنَّها شريعةُ الحياة. أودُّ لو لم أبالِ إلى هذا الحدّ. ما داما بخير، ما دام كلاهما بخير، فلا يهمّ. الحياة هي تلك الحُجرة المعتمة. لا يهمّ. ولكنْ ينغّص عليّ عيشي أن يتركا المصابيح مضاءة، كما جرى في آخر مرَّة، لأنِّي أنا الذي أدفع فاتورة الكهرباء. أنا: الأب الذي هَجَر فهُجِر. الأب المتلاشي. الأب الغارق تحت الماء. لم أترك المصابيح مضاءةً في بيت أبوَيّ.

كلَّا، لم أترك المصابيح مضاءة.

أنسى الأمر برمَّته خلال عشر دقائق.

وها نحن، نتناول الغداء معًا بين حينٍ وآخر، في تلك الشقَّة البدائيَّة. الحياة في انتظارهما، وخلال أربعين عامًا سوف يفتِّشان عنِّي. عسى أن يعثرا على حبِّي. ليتني أتمكَّن من حمايتهما حتى آخر دقيقةٍ في الأبديَّة. أعتقد بأنِّي قادرٌ على ذلك. لسوف أبقى إلى جوارهما دائمًا، وأُحبُّهما دائمًا. كما أحبَّني أبي دائمًا. سوف يفتِّشان عن تلك الغداءات التي تستغرق عشرين دقيقة، ويفتِّشان عن هذه الشقَّة، ويفتِّشان عن وجهي.

لن يعثرا عليه، لأنِّي سأكون قد فارقتُ الحياة. بَيْد أنِّي سوف أحرسهما، ولو فارقتُ الحياة.

أحضرتُ لبرا وفالدي هدايا من رحلتي الأخيرة، كلاهما رأى الهدايا، وقال إنَّها قد أعجبَته كثيرًا، ثمَّ نَسِيَها في بيتي.

وها هي ذي أمامي الآن: جامدةٌ، مُحتقرَةٌ، مُمتهَنة. ترمز إلى اختفاء البيت. وبالتالي إلى اختفاء الحبّ. لا نُفضِي بالحقيقة كاملةً أبدًا، فلو فعلنا لحطَّمنا الكَوْن، ذلك الكَوْن الذي يعمل من خلال المعقول، والمُحتمَل.

ماذا تفعل تلك الهدايا على فراش الحُجرة الصَّغيرة الذي لا ينام عليه أحد؟

أستلقي على الفراش في الحُجرة الكبيرة، ثمَّ أنهض وأعود إلى الحُجرة الصَّغيرة، وأشرع في النظر إلى الهدايا التي أحضرتُها من أجل ابنَيّ، ها هي ذي، فوق الفراش الصَّغير، مهجورةً، وهجران الهدايا يذوب في هجران الفراش الصَّغير، حتى تذوب عزلة الهدايا في عزلة الفراش، فتغدو عزلةً واحدة، لو رأيتَها لانفطر قلبُك وحياتك.

لا أحزن مطلقًا لأنَّهما قد نسيا الهدايا، بل إنِّي بالأحرى أندهش، ربَّما لأنِّي قد تجاوزتُ طوْر الحزن، أو بدَّلتُ الدَّهشة بالحزن، ولأنِّي أحبّ ابنَيّ، ولا آبه لما يفعلان بي وبهداياي. وعلى الرَّغم من ذلك، فحتى الأب لديْه غريزة البقاء، لأنَّه بشر. قد يثور في نفسي الهلع إن لم تلقَ هداياي التَّقدير: كان الهلعُ في حياتي أكبرَ من الحزن. لأنَّ الهلع نابعٌ من الشعور بالذنب، أمَّا الحزن فنابع من ذاته. بمعنى أنِّي أنا المذنب لو تخلَّيا عن الهدايا. أحيانًا، يدور في خَلَدي أنَّ ذنبي أكبر من الكَوْن. أستطيع منافسة الهاويات الفلكيَّة على الضخامة. الذنبُ لغزٌ من الألغاز المذهَّبة. وكما هو واضح، لا أقصد الذنب الذي تعود أصوله إلى الأديان، أو إلى الكاثوليكيَّة على وجه التَّحديد، وإنَّما أقصد الذنب السَّابق على التاريخ، الذنب بوصفه عَرَضًا من أعراض الجاذبيَّة وائتلافًا مع الأرض والوجود، الذنب الكافكاويّ، هو ذاك.

الذنب آليَّةٌ قديرةٌ من آليَّات تفعيل التَّقدُّم المادِّيّ والتحضُّر، لأنَّ الذنب ينشئ «نسيجًا أخلاقيًّا»، بينما الأخلاق والأخلاقيَّات هي الحصون التي تحرِّك الواقع. لولا الذنب ما وُجِدَت الكمبيوترات والرحلات الفضائيَّة. لولا الذنب ما وُجِدَت الماركسيَّة. لولا الذنب، لكانت أدمغتنا خاوية. لولا الذنب لصرنا نملًا.

كانت أمِّي تهديني العطور، فلا أنساها في بيتها. ولكنِّي في قرارة نفسي، لم أرِد منها أن تهديني أيّ شيء. عاشَت مهووسةً بإهدائي العطور الغالية، التي لم تملك تحمُّل كلفتها. عاشَت مهووسةً بعيد ميلادي. ربَّما كان

السَّبب الذي حمل ابنَيّ على نسيان الهدايا أنَّني في قرارة نفسي لم أرِد من أمِّي أن تُهديني أيّ شيء. كلَّما زادَت المطابقات التي أعثر عليها صارَت الحياة والذاكرة أكثر قداسةً.

أستغرق في النظر إلى صُوَر أبوَيّ في الأُطُر التي اشتريتُها من فوتوپريكس. إنَّها الأُطُر الأكثر اتِّضاعًا في العالَم. فوتوپريكس ينافس أسعار متاجر الصينيِّين بقوَّة. تخلو المتاجر الصينيَّة من المدافئ ومكيِّفات الهواء، على عكس فوتوپريكس. جميع المهاجرين والفقراء يقصدون فوتوپريكس أو المتاجر الصينيَّة لشراء الأُطُر، حيث يضعون وجوه الأهل والأحبَّاء.

إنَّ تجارة الأُطُر الرَّخيصة، حيث يُحتفَظ بصُوَر الأهل، تجارةٌ مربحة. متى وضعتَ ذكرياتك وأحبَّاءك في أُطُرٍ بقيمة اثنين يورو، حوَّلتَ ماضيك إلى مشاعر حنانٍ صغيرة.

الثلاثاء، الرابع والعشرين من مارس، عام 2015، سقطَت طائرة إيرباص تابعة للخطوط الجوِّيَّة چيرمانوينغز في جبال الألب الفرنسيَّة. لقي مئة وخمسون شخصًا مصرعهم. جميع تلفزيونات الكوكب حاولَت أن تكون رحيمة. ولكنَّ أحدًا لم يعرف كيف يكون رحيمًا من خلال التلفزيون. تدوم المآسي أسبوعَيْن، ثمَّ إنَّها تخبو رويدًا رويدًا. بعد مضيٍّ بضعة أعوام، ستكون الأسطر التي أكتبها في هذا الموضع تاريخًا نائيًّا. لعلَّني أكتبها لهذا، واعيًا بذلك المذاق الذي لا سبيل إلى التَّعبير عنه، مذاق جميع ما يجري لنا من الأمور.

أيّ شعورٍ بالنهاية، أيّ شعورٍ بفناء الجسد هو ذلك الذي تملَّك ركَّاب طائرة الإيرباص التابعة للخطوط الجويَّة چيرمانوينغز؟

كيف لقوا مصرعهم؟ حرقًا أم تأثُّرًا بالارتطام؟ إنَّ فهم الموت ضروريٌّ بقدر جميع التفاصيل التقنيَّة المُذاعَة من خلال وسائل التواصل. لا أحد يقول كيف يتمزَّق جسد صبيٍّ في الرابعة عشرة وسط الصفيح والنار والبلاستيك والحديد الذي تتألَّف منه الإيرباص بسرعة تسعمئة كيلومتر في الساعة. كيف يكون؟ أتحترق الأعضاء الداخليَّة؟ ما إحساس الجهاز العصبيّ المركزيّ بالحرارة التي ألهبَت البشرة؟ كيف يقيِّم الذكاء العاطفيّ فناءَ الجسد؟

ما الشقاء، وما الدَّرجة التي يبلغها؟

كان على متن الطائرة فتيانٌ في الرابعة عشرة من العمر.

بمَ يشعر المرء؟ ها، بمَ يشعر؟ من المُؤكَّد أنَّهم يفكِّرون في أمَّهاتهم قُبَيْل النهاية بثلاث ثوانٍ؛ ومن المُؤكَّد أنَّهم يتمكَّنون من رؤية الأمَّهات، فيروْن جوهر الأمَّهات، وحقيقتهنَّ: أيْ الحبّ. يفكِّرون في أمَّهاتهم اللَّاتي لن يفكِّرن فيهم آنذاك، إذ لن يصلهنَّ خبر الحادث قبل مضيٍّ ساعات، بل إنَّهنَّ في لحظة موت أبنائهنَّ ينصرفنَ إلى العمل أو التسوُّق أو الحديث عَبْر الهاتف أو قيادة السيَّارة. لأنَّ التخاطر عن بُعد أكذوبة، لأنَّ تلك الأسطورة محضُ أدب. تلك الأسطورة الزاعمة بإمكانيَّة إلقاء تحيَّة الوداع بطرقٍ خارقة للطبيعة على الأحبَّاء متى حان الموت في حادث مُميت، مأساويّ.

لا وجود للحبّ في الطبيعة.

هل للموت الفوريّ وجود؟ أوه، ذلك المجاز العظيم، مجاز الموت الفوريّ بلا ألم، ذلك الذي يسعى إليه أنصار عقوبة الإعدام. اعلموا أنَّ الموت الفوريّ لا وجود له. لسببٍ في غاية البساطة: لأنَّ الحياة قويَّة، قويَّةٌ وقديرةٌ أبدًا. لا تفارقنا الحياة بمثلِ هذا الهدوء قطّ. بل إنَّ الموت يجيء مصحوبًا بألمٍ

لا يفوقه ألم، لا يُوصَف. ألمٌ غير إنسانيّ، رهيب. لأنَّ الحياة هي الإنجاز الذي تكلَّلَت به مقاومة الأسلاف لأعداء الحياة.

متى صرتَ أبًا، مثلي، صرتَ أبًا لسائر الأبناء في العالَم، لا أبنائك وحسب. هكذا هي حال الأبوَّة.

أمَّا كلّ ما عدا ذلك فمُجرَّد سياسة.

هكذا، أحبُّ برا وفالدي.

أشتري أشياء في السوبرماركت، أعتقد بأنِّي في حاجةٍ إليها، ولكنِّي أردّها لاحقًا. ولا أكاد أردّها، حتى أشتريها من جديد. الأمر الذي تكرَّر حين اشتريت جهازَيْن صغيرَيْن: الميزان وآلة تحميص الخبز. الطريف أنِّي استخدمتُ آلة تحميص الخبز.

هأنذا وحدي في شقَّة رانيَّاس، أفكِّر في أمِّي. كانت هي الأخرى فوضويَّةً إذا تعلَّق الأمر بما تشتريه: إنَّه اليأس المنقول إلى الأجهزة المنزليَّة.

أذكر أنَّها اشترت سكِّينًا كهربائيَّة ذات مرَّة. اشترَتها حين ظهرَت تلك السكاكين في الأسواق، في منتصف السبعينيَّات. لم تلقَ السكاكين الكهربائيَّة نجاحًا، وما عادَت تُصنَع. أُصيبَت أمي بهَوَسِ التملُّك. لم تردِ لي الزواج في حينه. وقُبَيْل موتها بأشهرٍ قليلة، أجرَت اتِّصالًا هاتفيًّا مشؤومًا إلى البيت الذي كان بيتي آنذاك. لم أكُن في ذلك البيت. فقالَت أمِّي لتلك التي صارَت اليوم طليقتي، وإن كانت لم تزَل زوجتي حينذاك: «من المستحيل ألَّا يكون قد وصل حتى الآن. لقد خرج في الخامسة مساءً». ولذا، كان عليَّ الوصول إلى بيتي في السابعة مساءً على أقصى تقدير.

ولكنِّي دخلتُ من الباب في العاشرة ليلًا.

وعلى الرَّغم من ذلك، فأكثر الأمور مدعاةً للتشاؤم أنَّ اتِّصالها جاء وأنا في المصعد الكهربائيّ، حتى إنِّي في أثناء دخولي إلى البيت سمعت كلمات الوداع الأخيرة بانتهاء الحديث الذي دار بين أمِّي وبين تلك التي كانت زوجتي آنذاك. أي أنَّني لو وصلتُ قبل ثلاث دقائق لما فجَّرَت أمِّي الوضع الذي كان من المُرجَّح أن ينفجر على كلِّ حال، ولكنْ ليس في ذلك الوقت، ولا بسببها.

ولاسيَّما بسببها. هنا الحدّ الفاصل، هنا كلّ شيء.

وهنا، وددتُ لو أرى مناورةً مُعقَّدة من مناورات القدر، وكأنَّ الأحداث لا تجري اعتباطًا. أتصوَّر أنَّنا في حاجةٍ إلى الإيمان بالخواطر السِّحريَّة، لأنَّ الافتراضَ بوجود إرادةٍ وعقلٍ وراء الأحداث، وبوجود فنّ القدر، واحدٌ مع البشر في الجوهر. إنَّنا لا نسلِّم بالمصادفة. نودُّ لو أضفينا أبعادًا خارقةً للطبيعة على الحوادث المُروِّعة التي تقع في حياتنا. مع أنِّي ما عدتُ ألمح إلَّا سخرية القدر، الآن وقد مضى بعض الوقت.

ومن جهة أخرى، فالأحداث المُروِّعة مصيريَّة متى اقترنَت بإمكانيَّة سرد حياتنا، وروايتها.

فلولا الأحداث المُروِّعة، أو ببساطةٍ لولا الأحداث، والإثارة، لو لم يقع شيء، لصارَت حياتنا خاليةً من القصَّة والحبكة، وما كان لها وجود.

لم تعرف أمِّي بما جرى قطّ، ولم أُخبرها. لم أخبرها بأنَّ ذلك الاتِّصال الذي أجرَته قَلَبَ حياتي رأسًا على عقب. لأنَّ اتِّصالها كشف خيانتي. من الجليّ أنَّها لم تكُن إلَّا مسألة وقت، لأنِّي أصررتُ على التمرُّغ في حبائل الخيانات الزوجيَّة التي لا تنتهي، تلك التي دمَّرَتني وأغرقَتني في الكحول، بينما زواجي يلفظ أنفاسه الأخيرة، مع أنِّي لم أرِد التسليم بذلك مدفوعًا بالخوف، ولأنَّ العراء يبثّ في نفسي الذعر.

بعد اتِّصال أمِّي، نزلتُ إلى الحانة، مُحطَّمًا، مبتور الرأس، فطلبتُ كأس چين تونيك، ثمَّ بدأتُ أهدأ بعد الكأس الثانية. إليكم الأثر الذي يتركه الكحول متى بلغ الدماء: فكلُّ شيءٍ يبدأ في السطوع مُجدَّدًا. وفي الحانة الواقعة تحت بيتي القديم، رأيتُ أصابع أمِّي في يدَي النادلة التي راحَت تقدِّم لي كؤوس الچين تونيك. جاءت ثالثة الكؤوس فأدخلَت عليَّ بهجةً مسمومة، غير مُثمِرة.

كنتُ في سبيلي إلى دخول متاهة القدر، المتاهة التي تتَّخذ من وجوه البشر تجلِّيًّا لقوَّتها، وتبدِّل الوجوه على سبيل التلهّي، وتفجِّر مشادَّةً صغيرة على أرض الواقع. دار في خَلَدي أنِّي لن أعود شابًّا ما حييت. اضطُرِرتُ إلى الرحيل عن البيت الذي كان بيتي حتى ذلك الوقت بسبب اتِّصالٍ هاتفيٍّ أجرَته أمِّي. إنَّها كوميديا مفعمةٌ بالحنق. نزل برا إلى الحانة قائلًا: «بابا، سأذهب للعيش معك»، ولكنَّه سرعان ما عدل عن رأيه. تأثَّرتُ بكلمات برا. إنَّ قوله «بابا، سأذهب للعيش معك» هو أجمل ما سمعتُ مدى الحياة. وأذكره دائمًا. انطوَت كلماته على قدْرٍ لامتناهٍ من الحنان. أعتقد بأنِّي سأموت وتلك الكلمات المقتضبة تتردَّد في مسمعي، تلك الكلمات التي لم تتبعها أفعال، ولكنْ هذا أفضل. فحتى الأفعال لم تعُد واضحة.

لأنَّ الماضي لا وجود له، وإن كنتُ أذكرُ رافعًا عينَيّ تلك الطاقةَ التي أودعَتْها كأسُ الچين تونيك الثالثة في دمي. والآن، صرتُ أرى جمالًا في كلِّ مكان. لم يكُن أمرًا ذا بال، بل إنَّها كانت قصةً شائعة. شأن قصص الآلاف من الإسبان، أو الآلاف من البشر. وعلى الرَّغم من ذلك، فمِن الإسبان مَن يأبى الطلاق لئلَّا يخسر مكتبته، أو الشقَّة المُطِلَّة على الشاطئ، أو التلفزيون، أو الثياب النظيفة في جارور الخزانة، وأشياء من هذا القبيل (وإن شاع ذلك بين الرجال أكثر كثيرًا منه بين النساء). لأنَّ الغمّ يتجلَّى بأغرب وجوهٍ في العالَم. وبالمناسبة، خسرتُ مكتبتي، التي أفتقدها بشدَّة. غير أنَّها لا تعدو أن تكون كتبًا. والكتب ليست حياة، بل إنَّها على أقصى تقدير زينةٌ من زينات الحياة، وربَّما أكثر من ذلك قليلًا.

وددتُ لو عرفَتْ أمِّي أنَّها هي التي عجَّلَت بطلاقي حين أجرَت ذلك الاتّصال. فموتها وهي لا تعرف لغزٌ غريب. وهكذا، لم تعرفني أمِّي مدى حياتها إلَّا في اثنتَيْن من الحالات الذهنيَّة: عرفتني عازبًا تحت حكمها، ومُتزوِّجًا تحت حكم امرأةٍ أخرى، كانت هي نفسها. ولكنْ فاتَتها الحالة الثالثة: مُطلَّقًا، من دون حكم. أيْ من دونها. لو كنتُ أنا محور حياتها كاملةً، وكانت هي التي أضفَت على وجودي قوَّةً جاذبة، فالحالة الثالثة تشبه الحقيقة النهائيَّة لوجودي، حالةٌ من الحرِّيَّة الصاخبة، والهجران المرتجف، لأنِّي عاجزٌ عن البقاء من دون الحضور الوصيّ لتلك المرأة، التي كانت ربَّة، تلك التي كوَّنَت لحمي في رَحَمها. وما عاد يسعها التعرُّف بتلك الحالة إلَّا وهي على هيئة شبح، وذلك ما تفعله حاليًّا.

ربَّةٌ من العصر الحجريّ تتجسَّد مرَّةً تلو أخرى، تلك هي أمِّي.

وإذا هي لم تعُد هنا أخيرًا، ولا عادَت تجلِّيَّاتها على قيد الحياة. ربَّما كان ذلك هو الشيء الذي عكفَتْ عليه، ربَّما كانت تُبدي لي موتها كاملًا، لا موتَ جسدها فحسب، وإنَّما كذلك موتَ جميع فروعها، فتركَتني في عراء الحرِّيَّة قائلةً: «ها أنت قد صرتَ وحيدًا في آخر الأمر، فوحده موتي قادرٌ على أن يردّ لك الحرِّيَّة التي كثيرًا ما رغبتَ فيها وخفتها. دعنا نرَ كم عامًا يمكنك العيش أو النجاة في هذا العالَم من دوني، ومن دون المجازات، من دوني، ومن دون ما لي من فروعٍ متشابكة، وامتداداتٍ، تصل إلى زوجتك وعملك وابنَيْك وبيتك ومكتبتك والهواء الذي تتنفَّسه».

لأنَّ حياتي بأكملها كانت صورةً مُمتدَّةً من أمِّي، تلك التي حكمَتني. حياتي كاملةٌ كانت إقطاعيَّةً فرويديَّةً ونظامًا أموميًّا. في طفولتي، كانت تقع اللَّائمة على عاتق أمِّي كلَّما أخفقتُ في شيء. وحين بلغتُ الأربعين، صارَت تقع اللَّائمة على عاتق زوجتي السَّابقة، مبعوثة أمِّي، كلَّما أخفقتُ في شيء. ربَّما لهذا لم تنعكس خياناتي وعلاقاتي خارج إطار الزواج على زوجتي السَّابقة، وإنَّما على أمِّي.

حكمَتِ أمِّي حياتي، ولقد أحسنَت حكمها. لا شيء يهمّ. لم يكُن حكمُ أمِّي مسؤولًا عن سعادَتي، وإنَّما عن نجاتي. لأنَّ مسؤوليَّة النظام الأموميّ تعني بقاء الذرِّيَّة. وهنا يكمن حسنُ حكمها. كانت سعادتي بفضل حكمها ممكنةً، ولكنْ في تلك الحالة، كنتُ سأفارق الحياة في الأربعين. غير أنَّ

والدتي اختارَت استمرار حياتي، اختارَت الحفاظ عليَّ كائنًا حيًّا: الآن أعرف، وما كنتُ أعرف آنذاك، حين جاء ذلك الاتِّصال. بل إنِّي عرفتُ بعد زمن.

تلك الساحرة الموغلة في القِدَم التي تأمَّلَت في الحفاظ على ابنها ليلًا، وتآمرَت لحمايته من الصدأ، والاعتلاج، وتآكل لحمه، تلك التي أفسدَت روح ابنها على ضوء النظام الأموميّ العذب، السَّابق على بلاد الإغريق، السَّابق على التاريخ، النِّظام الذي اختمر عجينه قبل التاريخ، من حيث جاءت روح أمِّي.

كان الأمر ينطوي على سخريةٍ رهيبة: إذ اتَّصلَت أمِّي للاطمئنان على سلامتي، فكان ذلك الاتِّصال هو الذي جعل حياتي جحيمًا.

اتَّصلَتْ للتأكُّد أنَّني بخير، فأوقعني اتِّصالها في شرّ.

لو تهيَّأت لنا رؤية أحدِنا للآخر مرَّةً أخرى، فما عسانا نقول؟ لو عادَت لصار عليَّ أن أحكي لها كلَّ ما جرى منذ رحلَتْ، وما عرفتُ من أين أبدأ. لو عادَت، لصار عليَّ أن أفسِّر لها أنَّ بيتها لم يعُد على قيد الوجود، ولا حتى ابنها.

كانت الأعوام الأخيرة في حياة أمِّي مشؤومة، برغم الإشراقة غير المُتوقَّعة التي أضاءت حياتنا آنذاك. علَّمَتني آخر أعوامها الكثير. وكدنا نفلح في أن نكون معًا بين الحين والآخر. عشنا بضع لحظاتٍ من الهدوء، استطعنا خلالها أن نكون أمًّا وابنًا، لا أكثر. ربَّما استطعنا أن نكون أمًّا وابنًا، لا أرملةً ورجلًا يتيمًا. قد لا يسعنا التغلُّب يومًا على جاذبيَّة موت أبي، والعتمة التي أغرقنا فيها رحيله. رحيله الذي ربَّما أضعف صلةَ الأمّ بابنها. ربَّما كان هو الطاقةَ العظمى في حياتنا.

لم تقوَ على البقاء وحيدةً، بل كانت تبادر بالاتِّصال ألف مرَّة، كما أتَّصل الآن بفالدي وبرا، فيعيرانني من الاهتمام بقدر ما كنتُ أنا أعيرها، أو هكذا يدور في خَلَدي، ربَّما كنتُ مُتأثِّرًا بالشعور بالذنب أو اللَّهفة على تلقِّي رسائل الموتى.

قالَتها لي ذات مرَّة: «عسى أن يعيرك أبناؤك من الاهتمام بقدر ما تعيرني أنت». كانت تعرف ما تقول، وأنا مُتأكِّدٌ من ذلك. لأنَّها تحلَّت بمَلَكة اليقين الأشدّ خفاءً عن العيون.

حسنًا، أصابَت أمِّي في ما ذهبَت إليه. استطاعَت التكهُّن بالأشياء. وتحلَّت بمَلَكة التكهُّن، غير أنَّها لم تأبه لذلك. عرفَتْ أنَّها على حقّ، إذ انتهى بها الحال وقد عرفَتْ كلّ شيء، ولكنِّي أعتقد بأنَّها لم تدرك علمها بكلّ شيءٍ عقلانيًّا. يسعى الناس جاهدين مدى الحياة من أجل معرفة شيءٍ ما، ويبذلون في سبيل ذلك التضحية والعمل، أمَّا والدتي فقد عرفَت كلَّ شيءٍ بنفحةٍ إلهيَّة.

ولكنْ لا شيء يهمّ. أعتقد بأنِّي أدخلتُ تحسينًا على جنسنا.

ما كان والدي يتَّصل بي قطّ. ما كان أبي يتَّصل عَبْر الهاتف قطّ، لأنَّه كثيرًا ما تسلَّى بمشاهدة التلفزيون، ومشاهدة طهاته المحتَضرين وهم يعدُّون وصْفاتٍ من أجل المتقاعدين، أشباه الموتى، ذلك الصنف من الناس الذين يجلسون أمام التلفزيون في العاشرة صباحًا، كما بدأتُ أفعل بدوري في الشهور الأخيرة.

في أواخر أيَّامها، ما عادَت أمِّي تطيق أحدًا. ولا حتى نفسها. كانت تشبه الكسَّارة التي تسحق كلّ ما في طريقها.

الكسَّارة العظيمة. هكذا كانت امرأةً مُميَّزة، مفعمةً بحبٍّ مجنونٍ تجاه الحياة، حبٍّ أقوى ممَّا ينبغي.

كانت ترتبك.

ثمَّ تشعر بخيبة الأمل.

ثمَّ تداعبها الآمال من جديد.

وإذا هي تجري الاتِّصال الحاسم، ظنَّت بأنَّ مكالماتها حميدة. أمرٌ يدعو إلى الإغراق في الضحك!

أمِّي العزيزة، لقد أغرقتِ حياتي، أو حوَّلتِ مسارها، بسبب هَوَسك اللَّئيم التعيس بالتواصل معي عَبْر الهاتف في كلِّ وقت: ما زلتُ لا أدري إن كان هذا غرقًا أم تحوُّلًا! والطريف أنَّ اهتمامي بالتحقُّق من ذلك يتضاءل أكثر فأكثر. كيف كنتِ ترين الأمر لو عرفتِ ما جرى؟ لعلَّكِ كنتِ تعرفين. لعلَّكِ التقطتِ الهاتف بيدك مدفوعةً بقوَّةٍ مجهولة. لعلَّكِ رغبتِ في ذلك! على كلِّ حال، إنَّها آخر أفعالك الجديرة بالذكر في هذا العالَم.

يسير وجودي صوب أحداثٍ محفوفةٍ بالمكائد، ويبدو أنَّ المكيدة تنطوي على جاذبيَّة. على الناس الانتباه إلى وجود المكائد والدسائس والمؤامرات في حياتهم. مِن الأفعال ما لا يُعرَف له معنى. ماتَت أمِّي، ومعها زواجي. وهكذا يذوب موت أمِّي في موت زواجي، ويصبحان موتًا واحدًا. هنا تكمن المكيدة. يسعني التَّفكير بتلك المكيدة. في ذلك التواطؤ ترصّدٌ أعمى، وتلاعبٌ، وإصرار.

ولكنْ، مَن يقف وراء تلك المؤامرة؟

لا شكّ أنَّه الرَّب نفسه.

وإلَّا فمن؟

الحظّ؟

كلَّا.

لا الرَّب ولا الحظّ؟

بل إنَّه الزمن.

كانت أمِّي غريبة الأطوار. حيِّرَت الأطبَّاء. وراحَت تبدِّل تاريخ ميلادها كما يحلو لها. كما فعلَت في السِّجلّ المدنيّ أيضًا. الآن لديَّ وثائق تخصّ أمِّي، تبدو فيها تواريخ مختلفة. فعام الميلاد في بطاقة تحقيق الشخصيَّة 1933، وفي البطاقة العائليَّة 1932، وفي شهادة الميلاد 1934. كما يختلف يوم الميلاد أيضًا: فطبقًا لإحدى الوثائق، وُلِدَت أمِّي في السَّابع من إبريل، وطبقًا لوثيقةٍ ثانية وُلِدَت في الثاني من ديسمبر، وبحسب وثيقةٍ ثالثة وُلِدَت في الثاني والعشرين من أكتوبر. حتى لقب عائلتها الثاني يتبدَّل على نحوٍ مشابه. كانت هي نفسها تتبدَّل. وتبدِّل المقاطع الصوتيَّة. لم أدرِ يومًا كيف يُنطَق لقب عائلة أمِّي الثاني. فهو رين تارةً، وريس تارةً، وريو تارةً، وريون تارةً..

لم تحبّ أمِّي تسميتها بأيِّ اسم. لم تؤمن بأنَّ لها اسمًا. لم ترِد الخضوع لاسم. لم تندفع إلى ذلك بالفكر، وإنَّما بالغريزة.

الغريزة دومًا، تلك المَلَكة التأسُّليَّة. وذلك ما ورثتُه عنها: الغريزة، التي تشبه لطمةً بالمخالب تسمح لك برؤية أصل الأشياء.

تقبَّلَت الصبغة الرَّسميَّة التي يتميَّز بها لقب العائلة الأوَّل، إذ لم تملك منه فكاكًا، أمَّا لقب العائلة الثاني فراحَت تفعل به ما يحلو لها. حطَّمَت لقبَ العائلة الثاني. لم يقبل ذكاؤها اسمَ الأشياء. ولقد شقَّ عليها نطق بعض الكلمات، ليس لأنَّها لم تتلقَّ التَّعليم الأساسيّ، بل إنَّها تلقَّته بالفعل، حتى الرابعة عشرة على أقلّ تقدير. عند أمِّي، لم تكُن الكلمات مُهمَّةً في حدِّ ذاتها، بل إنَّ ما يهمّ هو الشَّيء المُتنكِّر في ثياب الكلمات. اهتمَّت أمِّي بالواقعيّ من الأشياء. أمَّا الثياب اللَّفظيَّة التي بها تتنكَّر الأشياء الواقعيَّة فهشَّةٌ ومفرطةُ التَّعقيد.

حين أُقِرّ «قانون الاعتماد» في إسبانيا، ذلك القانون الذي يصبّ في مصلحة أمِّي وكبار السنّ العاجزين عن الاعتماد على أنفسهم ـ كانت أمِّي في حاجةٍ إلى الرعاية نظرًا لمعاناتها من صعوبةٍ بالغة في الحركة ـ، بدَّلَت أمِّي الاسم وأطلقَت عليه «قانون الاستقلال». كان ذلك المزيج الساخر يبدو طريفًا، ويحيل المستمع إلى القرن التاسع عشر، عندما تمكَّنَت إسبانيا من إجلاء نابليون في حرب الاستقلال الشهيرة. واشتمل ذلك الخلط بين الاسمَيْن على سخريةٍ من مجمل معارفنا؛ كما ذكَّرني بطلَّابي وهم يخلطون بين كيبيدو وغونغورا، أو بين لوبي دي بيغا وغالدوس [28]، فكنتُ أستغرق في الدَّهشة ـ

وأنا أبعد ما أكون عن شقّ ثيابي ـ وأرى في الأمر مكانًا جديدًا أتأمَّل منه الأشياء، ذلك الخواء غير المُتوقَّع، خواء الثقافة والكلمات والواقع البشريّ.

كلَّا، لم أفرض رقابتي يومًا على تلك الأخطاء، لأنَّها ليسَت أخطاء، وإنَّما لامبالاة، فتورُ همَّة، شكلٌ آخر من أشكال الذكاء. وهكذا، كنتُ أحذو حذوها إن سُئِلتُ عن اسم والدتي كاملًا، لإتمام إحدى الإجراءات الرَّسميَّة، فأقول ريو أو رين، وأترك الأمر لفهم السائل، شأن أمِّي.

من المُؤكَّد أنَّ الموتى قد ضجروا بأمِّي، ويأملون أن تكون هي أوَّل القائمين من بين الأموات.

لا يعرف الناس كم طريفٌ أن تبدِّل تاريخ ميلادك، ولقب عائلتك. ليسَت لعبةً ولا تفاهة، بل إنَّه تحدٍّ لقوانين البشر. كما أنَّه رغبة العراء. إنَّه النفور الذي حَكَم نظرة أمِّي إلى قوانين الواقع الاجتماعيّ.

النفور الذي ورثتُه عنها. لا آبه للقوانين البشريَّة الصارمة، شأن أمِّي، لا آبه لكلّ ما أقامَته الحضارة. وليس هذا غرورًا، على العكس تمامًا، ولا ترفُّعًا من باب التحقير، بل إنَّه بالأحرى ألم. والمرء يبلغ اللَّامبالاة عَبْر درب الألم، والخواء، وانعدام الجاذبيَّة.

مثلما فعلَت أمِّي، بقيتُ وحدي أنا وعبادة الشمس، تلك التي تنساب إلى شقَّة رانيَّاس كلّ صباحٍ وتخترق عينَيّ.

تعمينا الشمس عن كلّ ما عداها. سنعود إلى تأمَّل الشمس معًا ذات مرَّة.

الحقيقة في تحوُّلٍ دائم، ولذا يشقّ الجهر بها، والإشارة إليها. بل إنَّها بالأحرى في حالة هروبٍ دائم. وما يهمّ هو انعكاس حركتها المُستمرَّة، وتحوُّلها المتفاوت الخالي من العُقَد.

كلَّا، يا ماما، لن نعود إلى تأمُّل الشمس معًا أبدًا. ستمرّ ملايين الأعوام، وسنبقى عاجزَيْن عن رؤية أحدنا الآخر.

تلك الشمس، شمس يونيو التي طالما أحببتِها.

أخيرًا، جاء أحدهم لرؤيتي. إنَّه برا. أجهِّز له العشاء مُتحمِّسًا: نقانق وبطاطس وبيض. اشتريتُ من أجله صنفًا فاخرًا من النقانق، محشوًّا بالفطر، نقانق غالية الثمن، فخمة. أقشِّر البطاطس، وأقليها في زيت الزيتون النظيف. أكره إعادة استخدام زيت الزيتون. لم تُعِد أمِّي استخدامه قطّ. أمضى برا إجازةً مدَّتها أربعة أيَّام في الجبال برفقة أصدقائه. أما أنا، فلم يرَني منذ شهرَيْن. ولكن لا بأس، سيَّان رآني أو لم يرَني.

يتناول العشاء وهو يشاهد التلفزيون.

ننظر إلى التلفزيون.

ماذا كُنَّا سنفعل لولا التلفزيون!؟

ما إن يفرغ من تناول العشاء حتى أسأله عن رأيه في الذهاب معي إلى السينما، حيث يُعرَض فيلمٌ جيِّد. يقول إنَّه لا يشعر برغبةٍ في ذلك، وإنَّه على موعدٍ مع أصدقائه. حين يغادر بيتي، أسألهِ عمَّا إن كان في وسعي السَّير برفقته قليلًا في الشارع. أمضيتُ يومي كاملًا في البيت، وأتوق لفرد ساقَيَّ.

يُشعِره اقتراحي بعدم الراحة.

ويأبى، قائلًا إنَّه سوف يذهب وحده.

ويذهب.

ألِملم بقايا العشاء، وأشغِّل غسَّالة الصحون. من المبهج معرفتي بأنِّي قد تمكَّنتُ من شراء غسَّالة صحونٍ تعمل جيدًا. أمسح أرضيَّة المطبخ، وأجلس لمشاهدة التلفزيون. أكتشف بعضًا من فتات الخبز على الأرضيَّة في حُجرة التلفزيون. فأعود إلى المطبخ وأستغرق في النَّظر إلى غسَّالة الصحون، التي تُدعَى OK. يخطر لي أنَّ وجود غسَّالة الصحون من حسن الحظّ، إذ تبدو وكأنَّها الحلّ لكلّ شيء. تبدو شكلًا من أشكال التَّجلِّي المتواضعة للرَّب نفسه.

يرافقني صخب الغسَّالة.

في أواخر أعوامها، اتَّخذَت فاجنر من صخب الثلَّاجة رفيقًا، إذ لم تكُن لديْها غسَّالة صحون.

أمَّا يوهان سباستيان باخ، فقد اتَّخذ من صخب التلفزيون رفيقًا له في أواخر أعوامه. لم يذهب إلى السينما قطّ. كيف يذهب إلى السينما، وهو تاريخ

السينما! كان هو الشاشة، ووجوه المُمثِّلين التي تآكلَت بفعل الزمن، على الشاشة الضاربة إلى الصفرة.

عرفَتْ أمِّي حقّ المعرفة أنَّ الأمر برمَّته سوف يتكرَّر. كانت تجهِّز العشاء والغداء، مثلما أجهِّز العشاء والغداء بدوري. وإن كان الطعام الذي أطهوه أسوأ، بطبيعة الحال، لأنَّها كانت تحسن الطهو. وفي تلك العودة، في الرجوع إلى الأفعال المتوازية، تكمن نشوةٌ تدفعني إلى الجنون. وهكذا تحضر هي، أمِّي، من خلال تكهُّناتها. لا تحضر لتقول: «يعاملك ابناك مثلما عاملتَني»، كلَّا، بل تحضر كي تخبرني بأنَّها عثرَت على طريق العودة إليَّ. تحضر قائلةً: «سأحبّك دومًا، وأنا ما زلتُ هنا».

وتلك هي الأعجوبة!

الأعجوبة أنَّها عرفَت، وهي لا تزال على قيد الحياة، بوجود تلك الطريق. عرفَت بالفعل.

إنَّها طريقٌ سحريَّة، طريقٌ بدائيَّة.

منذ أعوامٍ خلَت، كانت تقول لي: «إن لم تحضر لرؤيتي، سيفعل بك ابناك مثلما تفعل أنت بي»، ولكنَّها في الواقع كانت تعني: «متى فارقتُ الحياة، سأعود إليك عَبْر تلك الطريق، الطريق التي تحفُّها الأشجار الوارفة وأضواء شهر يونيو، وهدير الأنهار الذي يتردَّد قريبًا. متى فارقتُ الحياة، بقيتُ معك من خلال وحدتنا، وحدتي ووحدتك. الطريق! انظرْ إليها. إنَّها طريقٌ مشمسة، طريق الموتى».

كلَّما امتنع برا وفالدي عن الحضور لتناول العشاء معي، رجعَت فاجنر إليَّ عَبْر تلك الطريق، وقد ماتَت وشبعَت موتًا، وتدهورَت حالها، وصارَت جثةً من رأسها حتى أخمص قدمَيْها، مصحوبةً بالأوركسترا الضاربة إلى الصفرة، أوركسترا العودة الأبديَّة.

كانت أمِّي امرأةً نيتشاوية. ولذا تُدعَى فاجنر.

تقول لي فاجنر: «حتى أنت سوف تسلك تلك الطريق. عليك بالحديث إلى برا وفالدي عن تلك الطريق. حان الوقت كي تخبرهما بشأنها. الطريق الكبرى، طريق عائلتنا، تلك التي تسمح للموتى بأن يكونوا مع الأحياء».

«لن أفعل، لم يحِن الوقت بعد حتى أكشف لهما الطريق التي أعود إليهما من خلالها متى فارقتُ الحياة»، هكذا أقول لأمِّي.

فتقول فاجنر: «لقد حان الوقت. وما عاد أمامك مُتَّسعٌ من الوقت».

ولكنْ، في اليوم التالي، يقرِّر برا أن ينام في بيتي، فأشعر ببهجةٍ عارمة، سرعان ما تنتهي، إذ يفيق من نومه في مزاجٍ عكر. أقبِّله، فيضيق بقبلاتي، أو بالأحرى يراها سخيفة.

يذهب برا إلى البيت الآخر، إلى بيت أمِّه، الذي هو بيتي أيضًا، وإن كنتُ لا أملك أيَّ حقٍّ فيه الآن، يذهب لأنَّ له فراشًا أوسع في ذلك البيت. أقدِّم له القهوة والكعك، غير أنَّه يرفض وقد ارتسمَت على وجهه أماراتُ المرارة والاستخفاف، وكأنِّي به يقول «اخرس، اخرس مرَّةً وإلى الأبد، حسبك أنِّي بِتُّ هنا ونمتُ على هذا الفراش البشع الذي تحتفظ به».

تقول فاجنر: «إنَّه يرصف الطريق، تلك الطريق الواسعة المزهرة التي ستعود من خلالها لتبقى معه إلى الأبد، مثلما كنتَ تزور تلك الطريق كلَّما حرمتَني من قبلةٍ أو امتنعتَ عن الإمساك بيدي أو الحضور لرؤيتي، إنَّها الطريق نفسها، العودة نفسها».

العودة الأبديَّة للأمومة والأبوَّة المتداعيتيْن، عودة الشيء نفسه إلى الأبد.

أستغرق في النَّظر إلى الكعك المرفوض. أستغرق في النَّظر إلى الكعك مثل الحمقى. اشتريتُه مُتحمِّسًا. فبات هو الكعك الأشدّ هجرانًا في هذا الكوكب. لا بدَّ أنَّ أمِّي كثيرًا ما اشترَت أشياءَ من أجلي، في حماس، أشياءَ عجزتُ عن رؤيتها، وبدَت لي تافهةً في حينه، فحلَّقَتْ تلك التفاهة عَبْر الزمن ومكثَت أربعين عامًا في سبات، والآن تعاود الظهور، وتجلس بجواري. هكذا تحدِّثني أمِّي، إنَّها الوسيلة التي استقرّ عليها شبح أمِّي كي يحدِّثني: وإذا الطريق الفاجنريَّة تنفتح مرَّةً أخرى.

هي التي أبدعَتها.

لقد أمضى أبواي حياتهما في تخطيطِ وتصميمِ وابتكارِ الطرق المضطربة المفضية إليَّ، لئلَّا يتركاني وحيدًا في أيِّ وقت، طرقٍ مُمتدَّةٍ من موتهما إلى حياة ابنهما.

وهكذا رانيّاس، وأرنيَّاس طريقٌ أخرى.

وطلاقي، طريقٌ أخرى.

ويأسي هو الطريق الأوفر حظًّا من الشمس.

وكأنَّها حلقةٌ مفرغةٌ صفراء، صفراء دومًا. وهكذا، لن يعرف ابن ابني كيف يقدِّر الأشياء التي يهديها إليه أبوه. إنَّها متاهةٌ نتواصل فيها، مِن وراء التلاشي، مِن خلال سوء الفهم. وكأنَّ سوء الفهم معادلةٌ رياضيَّة تهدم فيزياء الموت!

ويذهب برا.
حتى الفراش لم يرتّبه.
تركه في فوضى تامَّة.
أشرع في ترتيب فراشه.
حتى هو، الفراش، يعاني الهجران.

أعيش قرب النهر، إذ تقع جادة رانيَّاس على مقربة من نهر إبرو. يعيش أطول مَن يسكن قرب النهر. أستقلّ المصعد وأنزل إلى المرأب. للمصعد رائحةٌ تميِّزه، ليسَت رائحةً كريهة، بل إنَّها رائحةُ النَّظافة، والتَّطهير الصناعيّ. إنَّها رائحةٌ غريبة، رائحةُ لا أحد، حيث تنخفض نسبة الكيان البشريّ إلى صفر. يقع المرأب تحت مستوى نهر إبرو. فأشعر وكأنِّي أغوص. مرأبي غارق. إنَّه غوَّاصة.

جئتُ لأسكن في رانيَّاس، فكنتُ أنا الكائن البشريّ الوحيد السَّاكن في البناء، المُؤلَّف من ثماني عشرة شقَّة. كانت تلك مِن كبرى الرفاهيَّات العقاريَّة في حياتي. فمن المدهش أن يكون المصعد في الطابق الذي أسكنه دومًا، ومن المدهش العلم أنَّ الطوابق العلويَّة الثلاثة، والطوابق السُّفليَّة الأربعة، كانت شاغرة. وإن لم يخلُ الأمر من لمسة رعب.

لم أُضطَرّ إلى انتظار المصعد قطّ. كم من الحياة يهدر المرء وهو ينتظر المصاعد. الكثير من الحياة. أوقات يصل مجموعها إلى شهور!

شعرتُ وكأنِّي أمير، شعرتُ وكأنِّي وزيرٌ في واحدة من حكومات إسبانيا. كنتُ أستغرق في النوم واعيًا بأنِّي نائمٌ في نصف بناءٍ خاوٍ، وكأنِّي رائدٌ يستريح في الفضاء السَّحيق، وكأنِّي كريستوفر كولومبوس في العالَم الجديد. في اعتقادي أنَّ الأمر برمَّته من إعداد أبي، وتنظيمه. أراد أبي أن تذوب حياتي في الأبنية الضائعة. كان الأمر من تنظيمه، لا بدَّ أنَّه كان هو الذي أوحى إليَّ باختيار هذا الشارع من خلال التشابه بين الاسمَيْن، لأنَّ هذا الشارع هو أبي.

لا بدَّ أنَّه هو، أقول لنفسي. لا بدَّ أنَّه هو، وقد قام من بين الأموات، وألقى إليَّ بقبلةٍ على وجهي.

أعتقد بأنَّ قلَّةً قليلةً من الناس في هذا العالَم سوف تنعم ذات مرَّةٍ بمزيَّة الإعفاء من انتظار المصعد: لن يعرفوا أيّ شعورٍ ينتاب الواحد. أمَّا أنا، فلقد عرفتُه طوال شهور.

كان المصعد هناك دومًا، في الطابق الذي أسكنه.

وكانت فوريَّةُ الصعود والنزول تفتح دربًا روحانيًّا في الإحساس ببيتي الجديد، إذ كنت أخرج إلى الشارع ثمَّ أعود فأجد المصعد يترقَّبني في الطابق الأرضيّ. وحدي ركبتُ ذلك المصعد. ولقد علم هو بذلك. حتى الأصوات لم

يكُن لها وجود. كان في وسعي الاستماع إلى الموسيقى بأعلى صوتٍ في الثالثة فجرًا. وبالفعل، كنتُ أُدير مفتاح الصوت في مُضخِّم الصوت الپايونير بقدر ما تسمح به أذناي.

كان جمال البناء يمكن في عزلته المُجرَّدة، التي مثَّلَت رمزًا مادِّيًّا لرحيل أبي وأمِّي. كم كان رحيلهما هانئًا! وكيف قالا وداعًا من دون وداع! وبأيِّ وضوحٍ أراهما من الموت، ومن رانيَّاس! كم تستحضر حياتهما الآلات الكهربائيَّة: المصعد السيمنز، ومُضخِّم الصوت الپايونير!!

وبعد ذلك، أخذ الجيران يظهرون رويدًا رويدًا، لأنَّ الشقق بدأت تُباع، وشركة الإنشاء مالكة العقار اضطُرَّت إلى خفض الأسعار لمواكبة السوق. فخفَّضَت الأسعار بنسبةٍ تزيد على الأربعين في المئة، وهكذا تمكَّنتُ من شراء الشقَّة، وكنت أوَّلَ المشترين. حالفني الحظّ، إذ تصادف انخفاض الأسعار وحاجتي المُلحَّة إلى البحث عن بيتٍ بعد الطلاق. اضطُرِرتُ إلى تجهيز الشقَّة، لأنَّ التشطيبات الداخليَّة لم تكتمل. لم أفعل شيئًا سوى تركيب الأرضيَّة والحمَّام. ركَّبتُ باركيه AC4 الذي أوصاني به أحدهم. وهكذا، اطَّلعتُ على مختلف صنوف الباركيه. أمَّا الحمَّام فقد ركَّبه بعض البنَّائين الرومانيِّين. خطر لي أنَّ الفاصل بين الدشّ وباقي الحمَّام واطئٌ جدًّا، وأنَّ المياه قد تتسرَّب إلى الخارج، ولكنْ سار كلُّ شيء على ما يرام في النهاية. على مدى بضعة أيَّام عكفتُ على البحث عن أطوال حاجز الدشّ. رحتُ أنا والبنَّاؤون الرومانيون نتأمَّل طول الحاجز المثاليّ، ونستغرق في النَّظر إلى الحاجز كمن ينظر إلى لغز. حتى البنَّاؤون الرومانيُّون تراؤوا لعينيَّ ألغازًا. ولكنِّي أُعجِبتُ بالتضامن القائم بينهم، إذ شعرتُ بأنِّي في غاية الوحدة. كان أحدهم يدخِّن ويلقي بأعقاب السجائر في المرحاض، فاضطُرِرتُ إلى لفت نظره. لم يعاود الكرَّة، غير أنَّه استاء ممَّا بدر منِّي. كانوا يأكلون شطائرَ عملاقة.

بعد ذلك، انتقلتُ إلى هناك، إلى شقَّتي في رانيَّاس، خلال أربعة أيَّام. أمَّا باقي الجيران، فقد جهَّزوا بيوتهم تجهيزاتٍ طويلة المدى، وزوَّدوها بمطابخَ حديثةٍ أنيقة. ولكنْ، على كلِّ حال، فالشيء المذهل أنِّي عشتُ وحدي في البناء ما يربو على ثلاثة أشهر. بدا وكأنَّ أحدًا لا يريد العيش هناك. فتملَّكني شعورٌ بأنِّي انتقلتُ إلى سفينة فضاءٍ تدور في الفضاء السَّحيق. ولكنَّك إن عشت وحدك ثلاثة أشهر في بناءٍ من ثمانية طوابق، تعلَّمتَ لغة ذلك البناء، وأدركتَ أنَّ البيوت على قيد الحياة. حتى قصَّة البناء كانت من قصص الوحدة. انتهى إنشاؤه عام 2008، تحديدًا عندما انفجرَت الفقَّاعة العقاريَّة في إسبانيا، فلم تُبَعْ البيوت إلى أن تقرَّر خفض الأسعار عام 2014. الشقق، الأدراج، المصعد، الجدران، مكثَت وحيدةً ستَّة أعوام. كان المصعد حزينًا. أعتقد بأنَّ ذلك المصعد شعر بالامتنان لحضوري. كثيرًا ما راودَتني الخيالات بشأن هذا كلّه! أذكر أنِّي لم أجد شيئًا واحدًا يعمل، باستثناء الغسَّالة. كانت غسَّالةً جديدة، كوربيرو، لم تمسسها يد، ولكنَّها ظلَّت في المنْور ستَّة أعوام، في العراء، ولم تُوصَّل بالكهرباء مرَّةً واحدة. لم تكُن تلك الغسَّالة العذراء قد غسلَت شيئًا في حياتها، الأمر الذي بدا لي لغزًا. حين أوصلتُها بالكهرباء لأوَّل مرَّة، خلتُها لن تعمل. لم يظنّ الشخص الذي باعني الشقَّة أنَّ الغسَّالة سوف

تعمل، على حدّ قوله. ولكنها عملَت. وكأنَّها قامَت من بين الأموات. كم عامًا قد يتحمَّل جهازٌ منزليٌّ بلا استخدام؟!

كانت الغسَّالات الأخيرة التي استخدمَتْها أمِّي من علاماتٍ تجاريَّةٍ رخيصة. آمنَت أمِّي بتلك الغسَّالات المجهولة، وأنا أيضًا. لو كانت على قيد الحياة، لأمكننا الحديث عن الغسَّالات عَبْر الهاتف، ولكنْ فات الأوان. لو كانت على قيد الحياة، لأصبح في وسعنا العيش معًا. لو أطال الرَّب عمرها عامًا واحدًا، لعشنا معًا.

إصلاح الماضي ضربٌ من المحال، ولكنَّه قد لا يكون كذلك.

أحاول إدخال التَّحسينات على هذه الشقَّة، حيث كلُّ شيءٍ يدعو إلى الارتياب. فالأشياء تتحطَّم. وصنبور المطبخ لم يُثبَّت كما ينبغي، وكذلك الحوْض، ممَّا يتسبَّب في تساقط رذاذ الماء، فأضطَرّ إلى تجفيف رذاذ الماء المتساقط في كلِّ أرجاء المكان بالمنشفة. اشتريتُ مِرَشَّة مياهٍ للصنبور، فلم يتحسَّن الوضع إلَّا بقدرٍ هزيلٍ يدعو إلى الرثاء.

أمَّا الجيران، فقد بدَّلوا المطبخ كاملًا، والحمَّام، والأبواب، واقتنوا أجهزةً كهربائيَّةً جيِّدة. ولذا، استغرقوا وقتًا طويلًا حتى جاؤوا للعيش هنا. تحوَّل ما فعله الجيران إلى شعار، يُذكِّرني بأنِّي دائم الخطأ.

فهم استطاعوا تحسين الشقَّة على نحوٍ موضوعيّ ومضمون، أمَّا أنا فلا. وبمقارنة ذلك الخطأ البيِّن الشائن الذي وقعتُ فيه بقرارات جيراني الصائبة، تجلَّت لنا حقيقة، وتأكَّد لنا عِرْقي وقَدَري. إنَّها رداءةٌ معنويَّة تسكن عقلي، كما فكَّرت.

كان يجب عليَّ تركيب مطبخٍ جديد، والتخلُّص من ذلك الذي وجدتُه في الشقَّة بالفعل. ولكنْ من دواعي الأسف أنَّني لم أفعل، إذ لم تكُن لديَّ النقود اللَّازمة.

ولهذا، لجأت إلى استخدام مِرَشَّة المياه، التي كلَّفَتني أربعة يورو وتسعين سنتًا.

من خلال مطبخي، أرى الآن مطبخ أمِّي في شقَّة بارباسترو، وأدرك أنَّها كانت تغسل الصحون طوال الوقت، وأعرف أنَّ في ذلك المطبخ وقعَت أمورٌ بالغة الأهمِّيَّة، لا أجرؤ على رؤيتها كاملة، لا أودُّ رؤيتها، ولكنَّ ذاكرتي تستحضر مشهدًا تبدو فيه أمِّي ملقاةً على أرض المطبخ، باكيةً، ولا أتمكَّن من رؤية المزيد. كلُّ ما أريده أن ينتهي، أن ينتهي البكاء، أن تعاود أمِّي الوقوف على قدمَيْها، غير أنَّها تتلوَّى على الأرض. وأبي ليس هناك. جرى ذلك في المطبخ، ربَّما كان عام 1967. دبّ شجارٌ بينهما. فصفق أبي الباب خلفه ورحل. لا أدري لماذا تشاجرا! يخبرني حدْسي بأنَّهما اعتبراني أصغر ممَّا يسمح بتسجيل ذلك المشهد في ذاكرتي، فكان كلاهما على خطأ.

أذكر أنَّ أمِّي كانت تشطف الصحون بالمياه قليلًا، أمَّا أنا فأتركها تحت الصنبور طويلًا، محاولًا إزالة الصابون إلى الأبد.

ذهبتُ إلى كارفور كي أتسوَّق برفقة ابني فالدي، بعد إجازةٍ امتدَّت يومَيْن، فامتلأ كارفور يومذاك بالناس، أو بالأحرى امتلأ بالزومبي.

كنتُ وابني فالدي نحاول عملَ شيء، أعني معًا، فلم يخطر لي سوى التسوُّق. حين أذهب لقضاء مصلحةٍ مع فالدي أو برا، يداخلني شعورٌ بعودة الزمن السَّابق على تداعي الأسرة التي كُنَّاها، وهما أيضًا يشعران بالأمر نفسه، على الرَّغم من علمنا أنَّه مُجرَّد وهم، وَهْم عودة الماضي. العودة إلى الزمن السَّابق على طلاقي ضربٌ من المحال. أنا وفالدي وبرا نعرف تلك الاستحالة، التي تحوي في طيَّاتها أجواء مُروِّعة بقدر ما هي كاشفة. تجيش نفوسنا بتجلِّيَّاتٍ أتنبَّه إليها أكثر ممَّا يفعلان.

في كلِّ ما نفعله، ثلاثتنا معًا، تتردَّد أصداءُ الأمور التي كُنَّا نفعلها ونحن أربعة.

ليس هذا حنينًا ولا ندمًا ولا شعورًا بالندم. بل إنَّه شيءٌ لا أعرف له اسمًا. إلهام. شجن. الشجن الطيِّب.

فكَّرتُ أنَّ التسوُّق معًا قد يكون لطيفًا، ولكنَّ ذلك الحشد من الزومبيّ فجَّر في نفسي نوبةً من الغضب. وددتُ لو أمسك بيده، بيد فالدي. أذكر حضوره دروس الجيتار، منذ قرابة ثمانية أعوام. عندما كان الجيتار أكبر منه. كما أذكر حضوره دروس كرة الطاولة منذ ستّة أعوام. استطاع فالدي لاحقًا أن يشارك في بطولاتٍ وطنيَّةٍ لكرة الطاولة. كان يبدو صورةً مُجسَّدةً للسذاجة المطلقة وهو ممسكٌ بمضرب كرة الطاولة. فالدي لا يعرف، ولكنْ في نفسه طِيبةٌ مُتوارَثة، مَلَكةٌ تعود إلى ما قبل التاريخ، وفي تلك المَلَكة تتألَّق خيرة أسرار الأشياء. إنَّ طِيبة فالدي أشبه بأجهزة المونوليث التي تظهر في فيلم «2001: أوديسة الفضاء» من إخراج ستانلي كيوبريك.

فالدي يحرِّك مشاعري. ولطالما حرَّك مشاعري، منذ وُلِد. كما أنَّه فتن لبَّ يوهان سباستيان باخ أيضًا، وإن لم يرُق لأبي كثيرًا أن يصبح جدًّا. شهد يوهان سباستيان باخ ظهور برا وفالدي من دون أن يكون له حضورٌ بارز. لم يزاول مهمَّات الجدّ. ولم يرُق له ذلك اللَّقب. في قرارة نفسه، لم يرُق له لقب الأب أيضًا.

لم يجد منزلةً عائليَّةً واحدة تُشعِره بالراحة. كان يوهان سباستيان يستغرق في النَّظر إلى فالدي الرَّضيع في دهشةٍ مشوبةٍ بالارتياب: مَن هذا؟

مَنْ أين جاء؟ بينما يُحدِث فالدي الرضيع بلسانه أصواتًا في غاية الإبداع، يقابلها يوهان سباستيان بحفاوةٍ غامرة، ويستطرف تلك المجازات الصوتيَّة.

يبدوان وكأنَّهما سفينتان غارقتان من سفن الحرب العالميَّة: فالدي رضيعًا ويوهان سباستيان جَدًّا.

ترتجف يداي وأنا ألتقط الأشياء: علبة حليب، صينيَّة تحوي قطعةً من الدجاج، كعكة مُصنَّعة. يمكنك أن تعرف كلَّ شيءٍ عن الشخص بالنَّظر إلى الطعام الذي يشتريه في السوبرماركت. كان هناك عدس بالكيلو. أحطِّم الأشياء عندما أحاول إخراجها من العبوة. مثلي كمثل أمِّي. لا هي تحلَّت بالصبر الكافي، ولا أنا. كانت تحطِّم الأشياء. مثلما أحطِّمها أنا أيضًا. نحاول فتح عبوةٍ فلا نستطيع، ونرى في ذلك إجحافًا يبثّ في نفسَيْنا الخوف والحَنَق ويملأنا غضبًا. كانت أمِّي تتحدَّث عن الشيطان الذي يقف وراء تلك الإخفاقات، أمَّا أنا فأتحدَّث عن نفاد الصبر والكهف البدائيّ الذي لم يكُن علينا الخروج منه قطّ.

«من المستحيل ألَّا يكون الشيطان في هذا البيت!» هكذا كانت تصيح أمِّي.

لعلَّني كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر حين أخذتُ قاموس أبي وألقيتُه على الأرض بعنف. كنتُ أبحث عن معنى كلمةٍ إسبانيَّةٍ بلا جدوى. فاستشطتُ غضبًا. لم أفهم كيف يعمل ذلك القاموس. وبعد أن سقط على الأرض، ركلتُه ركلةً مزَّقَت ضلع المُجلَّد. ولكنْ بعد قليل، حين زال عنِّي الغضب، عاودتُ فتح الكتاب ولاحظتُ أنَّه قاموس إسباني ـ فرنسي/فرنسي ـ إسباني. في تلك اللَّحظة، شعرتُ بعطفٍ جارفٍ نحو الكتاب. زد على ذلك أنَّه كان لأبي. حاولتُ علاج الجرح الذي ألحقتُه بضلع القاموس المسكين.

ورثتُ عن أمِّي ذلك العمى.

كلانا ترتجف يده.

لا أنا ولا هي نعرف كيف نفتح كيسًا. أنا وهي نحطِّم كلّ شيء. كلّ شيءٍ يتساقط من بين أيدينا. كانت أمِّي تفتح عبوات الحليب ضربًا بالساطور. لم نفهم القوانين الميكانيكيَّة للأشياء.

لا أعرف كيف أفتح أكياس السوبرماركت المصنوعة من البلاستيك. فتُضطَرّ عاملة الكاشير إلى مساعدتي.

في كارفور، كنتُ كلَّما وضعتُ شيئًا في عربة المشتريات شعرتُ بالندم، ونحَّيتُ ما وضعتُه جانبًا، بينما يشاهد فالدي الفوضى المُروِّعة التي تحكم إرادة أبيه. تخلَّيتُ عن لوح شكولاتة بنكهة البرتقال وتركته بجوار

القرنبيط، لأنِّي شعرتُ فجأةً بالندم على اختيار تلك الشكولاتة التي لا ضرورة لها. ازدحم المكان بالناس إلى حدٍّ جعلنا نتصادم بالعربات. رحنا نتصادم بعربات المشتريات. يحدِّثني هاجسٌ بانقضاء هذه الحضارة، ذلك ما أرمي إليه. ويحدِّثني بنهاية هذا العالَم. كنتُ في سبيلي إلى السقوط في نوبة غضبٍ عصيَّةٍ على التَّحكُّم، ورحتُ أتعمَّد الاصطدام بالآخرين. كنتُ في سبيلي إلى الجنون.

توتَّرَت أعصابي.

ورحتُ ألقي بالأشياء.

التقطتُ قطعةً من الجبن، وألقيتُ بها على سمكة نازلي مُجمَّدة. فتحتُ عبوة خبزٍ مُجمَّد، ورحتُ أرمقه في غضب. حسنًا، تلك هي كلّ المساهمة التي نويتُ تقديمها في الثورة: إحداث فوضى خاصَّة في سوبرماركت، أيْ تنغيص حياة المسكين البائس المسؤول عن ترتيب البضائع، ذلك العامل الذي يبلغ من العمر عشرين عامًا، ويتقاضى ستمئة يورو شهريًّا بموجب عقد العمل.

أهدَتني أمِّي نفاد الصبر والإيمان بالخرافة.

يثير جنوني ذلك الصخب، صَخَبُ حياة أبي وأمِّي، الذي يتردَّد في الخلفيَّة حيثما كنت.

كانت العبوات تتمزَّق والأشياء تتساقط من بين يدَي أمِّي. وذلك الارتباك وليد أيدي القردة العليا الأولى، الأيدي الحديثة العهد، والأصابع التي تعوزها المهارة. لم تتحلَّ أمِّي بالصَّبر في السُّوبرماركت، ولم تفهم ما الطابور، لم تفهم ترتيب الأروقة في السوبرماركت. فكان يتملَّكها التمرُّد، والغضب، والعَدَم. كما هو دأبي أنا أيضًا.

عدنا إلى رانيَّاس. أمضى فالدي بعض الوقت برفقتي، ثمَّ ذهب. اغتسلتُ. ثمَّ خرجتُ من الحمَّام، وجفَّفتُ جسدي بمنشفةٍ حمراء. تذكَّرتُ حمَّام بيت أمِّي. كان لدينا بانيو صغير في تلك الشقَّة العتيقة، لم ترغب أمِّي في إصلاحه يومًا، أو لم تقدر على ذلك. كان البانيو مُدمجًا في الحمَّام، ذا طابعٍ رسميّ، يستحيل الاغتسال فيه. كانت أمِّي تحمّمنا مرَّةً في الأسبوع. لم يعملَ سخَّان المياه كما ينبغي قطّ، وما كان يسخِّن القدر الكافي من المياه، ما اضطرّ أمِّي إلى تسخين المياه في قدورٍ على نار المطبخ.

ولذلك السخَّان علامةٌ تجاريَّة، اسمها أوربيغوثو.

كُنَّا نتحمَّم بطريقةٍ بدائيَّة، وبقدْرٍ قليل جدًّا من المياه. لم تكُن المياه تصل حتى إلى كواحلنا، وكاد الأمر يبدو هزليًّا. كانت أمِّي تجفِّفنا بمنشفةٍ هائلة حمراء. حين ماتَت، عثرتُ في خزانةٍ على تلك المنشفة، التي ظلَّت على قيد الحياة قرابة خمسين عامًا. تملَّكَتني الدَّهشة حين رأيتُها موجودةً لم تزَل. لم أدرِ أن منشفةً قد تعمّر كلّ هذه الأعوام! أخذتُها. كانت محفوظةً جيِّدًا...

تراها منشفة فائقة الجودة؟ معجزة؟

بدَت وكأنَّها كفنُ عائلتي المُقدَّس.

بمضيِّ الأعوام، تراكم الكلس حتى قطع المياه الساخنة تمامًا. كنتُ قد رحلتُ عن بيت أبوَيّ آنذاك.

لا أدري كيف تدبَّرا أمرهما. بل إنِّي لم أسألهما. لا أدري كيف أمكنهما الاغتسال. لعلَّهما لم يغتسلا. لعلَّه الرَّب ذاته هو الذي كان يسكب على جسدَيْهما المُتعبَيْن هبةَ الرَّائحة النَّظيفة، رائحة الواصلين إلى المكان حيث لا يفسد شيء.

الآن، أُمسك هذه المنشفة بيدَيّ النديَّتَيْن. كثيرًا ما أستغرق في النَّظر إلى تلك المنشفة، أحاول سؤالها عن أمور. أجل، أحاول سؤال المنشفة عن أمور. فتجيبني، تحدِّثني المنشفة قائلةً: «هما اللذان كان يجب عليك سؤالهما، هما، ولقد أُتيح لك الوقت الكافي للسُّؤال، لكنِّي أعلم أنَّك لم تدرِ كيف، لم تدرِ، لم تدرِ بأيّ كلماتٍ تنطق».

أجفِّف جسدي بتلك المنشفة.

ما زال ملمسها ناعمًا، ونسيجها يحتفظ بكامل رهافة اليوم الذي استخدمَت فيه أمِّي المنشفة لأوَّل مرَّةٍ على جسدي، جسدِ طفلٍ في السادسة من عمره. لم نتمكَّن من الاغتسال قطّ بسبب ذلك البانيو الضئيل والدشّ المسدود بفعل الكلس، الذي ما عاد يخرج منه سوى خيطٍ من الماء، قطراتٍ أدركها التعب من كونها قطرات ماء.

لا أحد يعرف أيّ أثرٍ قد يتركه فيك هذا!

لم تأبه أمِّي. ولكنْ أيّ أفكارٍ لعينةٍ استحوذَتْ عليها حين قرَّرَتْ ألَّا تفعل شيئًا حيال الأمر؟!

خرَّبَت أمِّي تصميم البيت الأصليّ، الذي كان حديثًا، لطيفًا، معقولًا. فأدخلَت تغييراتٍ غير معقولة. وصمَّمَت صالونًا وغرفة سفرة هائلة، حيث لم تكُن تسمح لأحدٍ بالدخول، حتى يظلّ كلُّ شيءٍ على أكمل وجه، وكأنَّها صورةٌ في مجلَّة.

كانت تلك هي أمنيتها.

وفي تلك الأثناء، عجزنا عن الاغتسال.

حرسَت أمِّي الصالون، بينما حرس أبي السيَّارة. أرادَت أن تثير الإعجاب في نفوس صديقاتها بذلك الصالون. صديقاتها، اللاتي ولَّينَ جميعًا هاربات. إذ لم تعُد لأمِّي صديقاتٌ كثيرات في أواخر أيَّامها. كانت تبدِّل صديقاتها طوال الوقت.

في الأعوام الأخيرة من حياتها، عرفَت صديقاتٍ غريبات الأطوار.

لا أدري من أيِّ جحيمٍ جاءت بهنَّ. باعَت أمِّي أشياء. باعَت قطعَ أثاثٍ جيِّدة، أو قدَّمَتها على سبيل الهديَّة. كانت حكومةً خائبة جبَّارة، استمرَّت بقوَّةٍ على مدى خمسين عامًا. كانت أمِّي حكومةً خائبة استمرَّت خمسين عامًا، أطول من حكومة فرانثيسكو فرانكو.

فرانثيسكو فرانكو وأمِّي، لهما أن يرقصا معًا على أنغام الفالس.

لم تعرف أمِّي يومًا أيَّ شيطانٍ هو فرانثيسكو فرانكو، الأمر الذي يلهب مشاعري، ويجعلني أعشق أمِّي.

فليس من الممكن أن تكون أغرب أطوارًا.

لم تهتمّ بغير خوليو إغليسياس ونساء خوليو إغليسياس وأبنائه وبناته وأبيه وأغانيه. كلَّما سمعتُ صوت خوليو إغليسياس، فكَّرتُ فيها.

أحيانًا، كانت تُقدِّمني لصديقاتها الأخيرات، اللَّاتي كُنَّ على حافَّة الهامش. أمَّا صديقاتها البرجوازيَّات الموسرات اللَّاتي حظيت بهنَّ في السبعينيَّات فلقد هجرن أمِّي عندما بدأت أحوال أبي تتعثَّر. عندئذٍ، كان في وسعها إخلاء ذلك الصالون المزعج، إذ لم يكُن له وجودٌ سوى لكي تراه صديقاتها الثريَّات، صديقاتها اللَّاتي رحلن، اختفين حين افتقر أبي ولم يعُد الحظّ يحالفه في عمله مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا. والحقّ، أنَّ أحوال أبي الاقتصاديَّة استمرَّت على ما يُرام طوال ستَّة أو سبعة أعوام، لا أظنّها تصل إلى عقدٍ كامل. في تلك الأعوام، توثَّقت صداقة أبويّ بأزواجٍ موسرين. حلم أبي وأمِّي بأنَّهما في سبيلهما إلى الازدهار، وفق ما أتخيَّلً، وإن لم يتمكَّنا من بلوغ مستوى أولئك الناس قطّ، لأنَّهم كانوا من أصحاب الثروات الطائلة دومًا، أمَّا والداي فلا.

سحقًا، كان في يدها التخلُّص من الصالون وتركيب الدشّ حتى نتمكَّن من الاغتسال. عاشَت حياتها مضطربةً مُشوَّشةً وهي لا تدري. كانت مُخرِّبةً تاريخيَّة، تتحرَّك امتثالًا لاندفاعاتٍ جارفة، ولا تملك أدنى قَدْرٍ من التبصُّر. وهكذا كُنَّا في غاية القذارة، مع أنَّ لدينا صالونًا رائعًا لا يمكننا الجلوس فيه. لأنَّنا كُنَّا في انتظار صديقات أمِّي، البرجوازيَّات الصَّغيرات اللَّاتي ما عدن يحضرن إلى بيتنا، ولن يحضرن أبدًا. لم أعرف معنى الاغتسال كما ينبغي حتى رحلت عن ذلك البيت وأنا في الثامنة عشرة من العمر.

توقَّفن عن الحضور إلى بيتنا منذ أواخر السبعينيَّات، أولئك الصديقات المبهرجات. وهكذا، تفتَّت الإرث الاجتماعيّ الذي تركَته أمِّي. خلال السنوات القليلة التي سارَت فيها أحوال أبي على ما يُرام، استطاعَت أمِّي التنكُّر بثياب طبقةٍ اجتماعيَّةٍ سوف تلفظها في وقتٍ لاحق. وظلَّ الحمَّام من دون إصلاح.

كانت أمِّي تطارد التَّقدير الاجتماعيّ، الذي تبخَّر في الهواء. أمَّا أنا، فأطارد التَّقدير الأدبيّ، الذي يتبخَّر في الهواء أيضًا. ولذا، أعتقد بأنَّه لا فارق بين أوهام أمِّي وأوهامي.

كلانا ضحيَّة إسبانيا، وطموح الازدهار، مادِّيًّا كان الازدهار أو فكريًّا، كلاهما سواء. أخطأت أمِّي في شيء، وهأنذا أخطئ في شيءٍ بدوري.

ولكنْ من الجميل أن نتطابق إلى هذا الحدّ! وإذا أخفق كلانا، فهذا أجمل وأجمل. إنَّه الحبّ. ها نحن معًا من جديد. ربَّما كان ذلك هو المُخطَّط الذي

وضعَته. وفي تلك الحالة، فإنَّ إخفاقي يستحقّ العناء، لأنَّه يأخذني إليها، وهي التي أودّ أن أكون معها، إلى الأبد.

- 141 -

ابتداءً من عمر العاشرة أو الثانية عشرة، كنتُ أرى صديقات أمِّي بكلّ زينتهنَّ وحليّهنَّ، أولئك النساء اللَّاتي قاربن الأربعين. كانت إحداهنَّ شقراء، رائعة، ترمَّلَت ثم اختفَت عن الأبصار. كانت مثيرةً جدًّا، بديعة الجسد، فارعة القوام، أصغر من أمِّي قليلًا، بأربعة أو خمسة أعوام، ولقد أيقظَت في نفسي أفكارًا شهوانيَّة. ذات مرَّةٍ، ذهبتُ إلى بيتها نزولًا عند طلب أمِّي، فخرجَت لاستقبالي وقد لفَّت جسدها بالمنشفة، وخرجَت من الدشّ لتوِّها! كما أذكر أنَّ أبوَيّ حضرا جنازة زوجها، الذي لقي ميتةً مفاجئة. هأنذا أراه في هذه اللَّحظة. كان أقصر من زوجته، فبدا لي ذلك لغزًا.

إنَّ قصَّة أصدقاء أبي وأمِّي باعثةٌ على الحيْرة، ومتداخلةٌ كالمتاهات. الآن، يبدون جميعًا كالأشباح. ماتوا واحدًا تلو الآخر، وراحوا يتساقطون رويدًا رويدًا.

ذات يوم، سقط الأوَّل، ثمَّ لحق به الثاني في العام التالي.

كلُّهم ماتوا.

مات أبواي، ومات أصدقاؤهما.

لا أدري إن كانوا أصدقاء.

أعتقد بأنَّ صديقًا واحدًا لم يحضر لزيارة أبي وهو يرقد محتضرًا، وذلك شكلٌ غير مألوفٍ من أشكال الحرِّيَّة.

كما قلتُ آنفًا، كانت لأمِّي صديقات منقطعات النَّظير في أواخر حياتها، لا أدري ماذا كان من أمرهنَّ! نساءٌ ضاق بهنَّ الحال أو أرامل أو عوانس. من أين جئن؟ لا أدري. جئن من تاريخ إسبانيا الخيالي. بثيابهنَّ الرثَّة وتصفيفات شعرهنَّ المزرية. كُنَّ غريبات الأطوار في السَّبعين من العمر. كانت أمِّي تقطع عهودًا غريبة مع الأشياء. لطالما كانت في حياة أمِّي مناطقُ معتمة، سراديبُ لا ينزل إليها سواها. أمَّا أبي، فلقد بلغ في أواخر أيَّامه درجةً من الخمول جعلَته أقرب إلى القداسة، لا القداسة الدِّينيَّة، وإنَّما القداسة المقترنة بحركة نسائم الصباح على وجهه الحليق، وامتنان الصمت وأصداء الشمس المُتردِّدة في عينَيْه المُتغضّنتَيْن، إنَّها القداسة أو الغبطة الخليقة بمن تخلَّى عن الذاكرة، عن الأم، عن الابن، وعن أيِّ شكلٍ من أشكال الاستمرار... نموذجيَّة لامبالاته الخفِّيَّة عن العيون، التي تشبه لامبالاة الكَوْن، الموجود، ولكنْ في صمت، في السرّ، أو لامبالاة البحر، الموجود منذ آلاف

السنين، بَيْد أنَّ ذلك الوجود قد استُنزِف في العتمة أو في الخفاء، حتى أضفى عليه البشر وعيًا، وسمحوا له «أن يكون مرئيًّا»، ولكنْ سُدى.

عرف أبي بالغريزة أنَّ البشر ينعمون عليك بأن «تكون مرئيًّا»، ولكنَّه شيءٌ ملتبس، وهميّ، يميل إلى الكبرياء. بالضبط، إلى هناك ذهب أبي: إلى المكان حيث كلّ شكلٍ من أشكال الكبرياء مبهمٌ ومتعجرفٌ وغيرُ لائق.

تجرَّد أبي من الكبرياء.

وذلك ما يعنيه أن تكون حرًّا، وشحاذًا.

أذكر أصدقاء أبي. أودّ الاتِّصال هاتفيًّا بأصدقائه الذين ما زالوا على قيد الحياة. لا أدري ماذا قد يقولون لو اتَّصلت بهم! من المذهل ألَّا يملك المرء ما يقوله في أواخر حياته، ألَّا يرغب حتى في استهلاك الذاكرة. لأنَّ التذكُّر يعني حرق الخلايا العصبيَّة سُدى.

لأنَّ التذكُّر خبيث.

لم يحضر واحدٌ من مشاهير الموسيقيِّين والأصدقاء حين رحل يوهان سباستيان باخ عن هذا العالَم. حتى بدا وكأنْ لم يكُن له أصدقاء في أيِّ وقت. كم كانت وحدته عظيمة عند الرحيل! لم يحضر أيٌّ من أصدقائه القدامى لوداعه. وكانت تلك رغبة يوهان سباستيان. لم يُرِد التَّفكير في الأمر. راح يعدّ نفسه لشيءٍ بلا صوت.

لم يرغب في رؤية أحد، وتلك هي الحقيقة. لم يرغب في إهدار الوقت على وهم الصداقة. لم يرغب في إلقاء بضع كلماتٍ مُتكلِّفة، اجتماعيَّة، مُهذَّبة، ودِّيَّة. لقد غلب أسطورة التَّقدير الاجتماعيّ باعتباره الدَّليل الوحيد على الوجود، الدَّليل الوحيد على أنَّه كان حيًّا.

لم يرغب إلَّا في نفسه.

ولقد خلَت نفسه إلَّا من الوحدة.

خلَت نفسه إلَّا منِّي أنا، ابنه، الذي طالما أحبّه وما زال يحبّه من خلال الموت.

في نهارٍ من شهر يوليو، عام 1969، وأنا على مشارف السَّابعة من العمر، يستقلُّ جميع أفراد العائلة سيَّارة سيات 850، لها أربعة أبواب. في طريقنا لقضاء عطلةٍ قصيرة من عطلات الصيف. ها نحن في الجبل. مررنا لتوِّنا بقرية بروتو. على الطريق سائحون ومُتسلِّقو جبال، مُتسلِّقو جبالٍ يحملون الحقائب على ظهورهم ويأكلون شطائر مُغلَّفةً بورق الألومينيوم، ذلك الاختراع الجديد تمامًا، الذي ظهر في إسبانيا لأوَّل مرَّةٍ في الآونة الأخيرة. كلّ شيءٍ بهجةٌ وسرور، لأنَّ الذهاب إلى الجبال في حرّ الصيف حفلٌ صحيّ. يقود أبي السيات 850، ويحدِّثنا عن مكانٍ بديع. يحدِّثنا عن ذلك المكان منذ غادرنا بارباسترو. بل إنَّه حتى قبل الرحلة، حدَّثنا عن ذلك المكان الذي يُدعَى أورديسا، ذلك الوادي الجبليّ.

لعلَّه هنا، أقول لفالدي وبرا. هنا على وجه التَّحديد. أوقفتُ السيَّارة، وشرعتُ أبحث عن المكان المُحدَّد الذي ثُقِب فيه إطار سيَّارة أبي السيات 850 منذ ستَّةٍ وأربعين عامًا، ونحن على مشارف وادي أورديسا. يخطر لي أنَّه من الواجب عليَّ سؤال أمِّي عن المكان. ولكنِّي ما عدتُ قادرًا على طرح ذلك السُّؤال. كانت أمِّي ستجلي الشكوك، ولكنَّها قد فارقَت الحياة. أنتبه إلى ذلك مرَّةً أخرى لتوِّي. وهكذا هي الحال أبدًا.

الحقّ، أنَّها لم تعُد تذكر أيّ شيءٍ تقريبًا. حتى زوجها لم تذكره. بل إنَّها ركَّزَت انتباهها على ما اعتبرَته حيًّا بعمق. وهكذا، ركَّزَت على فالدي وبرا. وخلعَت على كلٍّ منهما لقب مَلِك الحياة والزمان، ونصَّبته على العرش المُنزَّه الذي شغلْتُه أنا وشقيقي يومًا. انصرفَت عن عشق زوجها إلى عشق ابنَيْها، وانصرفَت عن عشق ابنَيْها إلى عشق حفيدَيْها.. وهكذا، ظلَّت مرتهنةً طوال الوقت بما يمدّ وجودها ويطيله في تلك المملكة المُبهمة، مملكة الحياة القائمة على وجه الأرض. هكذا كانت هي، غريزةً ضارية، ضراوتها خالية من الشعور بالذنب. كانت أمِّي طبيعةً خالصة، ولذا لم تكُن لها ذاكرة، بل حاضرٌ وحسب، مثلها كمثل الطبيعة. ولسوف تعشق أبناء برا وفالدي من مكانها، حيثما كانت، وتبقى بجوارهم، كشجرةٍ عملاقةٍ بقدر ما هي خفيَّة. سوف تثابر في بقاء دمائها، لأنِّي عرفتُها، وأعلم حقّ العلم أنَّها بلا نهاية. أمِّي لامتناهية. أمِّي هي الحاضر. وقوَّة غرائزها تقودها إلى حضوري أنا. وإذا حضورها في حضوري يتحوَّل إلى حضورٍ في ابنَيّ الحاضرَيْن، وهي حين تغدو حاضرةً في ابنَيَّ الحاضرَيْن، تلفت بذلك الانتباه إلى حضورها في أبناء ابنَيَّ متى صاروا حاضرًا.

أمَّا الشخص الذي كان يجب عليّ سؤاله آنذاك عن المكان الذي ثُقِب فيه إطار السيات 850، عن ذلك الموضع على وجه التَّحديد، فهو أبي، لأنَّه هو الذي كان يقود تلك السيَّارة.

لم أخبر فالدي وبرا أنِّي قد اخترتُ أورديسا لقضاء ثلاثة أيَّام من العطلة الصيفيَّة مدفوعًا بنيَّة استحضار ذكرى المكان الذي ثُقِب فيه إطار سيَّارةٍ منذ ستَّةٍ وأربعين عامًا، ولكنْ لا بدَّ أنِّي فاجأتهما حين أوقفتُ السيَّارة في الدرب المُؤدِّي من قرية تورلا الصغيرة إلى أورديسا، ورحتُ أفتِّش عنه. ما زال الدرب لم يتبدَّل. فتلك الطريق لم تُوسَّع ولم تُجدَّد، بل إنَّها ما زالت على حالها، لعلَّها رُصِفَت بالأسفلت تسع أو عشر مرَّات على مدى خمسين عامًا، لا أكثر. الطريق ضيِّقةٌ تحفُّها أشجارٌ سامقة، وعلى أحد جانبَيْها يقوم فندقٌ تاريخيّ. حاولتُ النزول هناك، فلم أجد حجراتٍ شاغرة. حجرات الفندق ليسَت كثيرة، لعلّه يضمّ عشرين أو خمسًا وعشرين حجرةً على أقصى تقدير، طبقًا لحساباتي، ومن الطبيعيّ ألَّا تكون فيه حُجراتٍ شاغرة، لأنَّنا في الصيف، موسم الذروة. وعلى الرَّغم من خلوّ الفندق من الحُجرات الشاغرة، فالمشهد لم يتأثَّر بذلك، بل إنَّه ما زال بلا مساس.

يقع الفندق في موضعٍ مُميَّز. وربَّما كان الموقع الذي يشغله هو السَّبب الرَّئيسيّ في بقاء الطريق على حالها منذ خمسين عامًا. أذكر أنِّي بعد تأمُّل الإطار المثقوب، المنسحق على الأرض، الذي فقد قوته، نظرتُ إلى الأمام بعينَي الطفل الذي كنتُه، فرأيتُ الفندق وكأنَّه طيْف، وكأنَّه قد انبثق من العَدَم، ثمَّ انتبهتُ إلى الآثار التي تركَتها تلك العقبة على وجه أبي، الذي راح ينظر إلى الإطار ثم فتح غطاء السيَّارة مُتأهِّبًا لتبديله.

كنتُ واعيًا بحياتي. وتلك أوَّل مرَّةٍ أعي فيها ببدء الزمن.

أذكر حادثة الإطار المثقوب ذكرى مُبهمة: وإن كنتُ لا أدري كيف انحلَّت المشكلة على وجه التَّحديد. أذكر السيات 850 البيضاء والمكان جيدًا. كان أبي مفتونًا بأورديسا. لأنَّ كلّ جنونات الحياة تموت في أورديسا فجأةً أمام بهاء الجبال والأشجار والنهر. أفتِّش عن المكان، بكشّاف الذاكرة. لا يعلم فالدي وبرا ماذا أنا فاعل. تمرّ السيَّارات. أتشمَّم الطريق، كما تفعل كلاب الصيد. أنظر إلى الأحجار.

إنَّها أورديسا.

هنا ثُقِب إطار السيَّارة، في هذه الأنحاء. أحسّ بحضوره. أخرَج أبي قطعة غيارٍ من حقيبة السيَّارة. هوذا إلى جواري. كان شابًّا، يصفِّر، ويبتسم، على الرَّغم من حادثة الإطار المثقوب. ها هي ذي مملكته، ووادِيه، وجباله،

وموطنه. خرجتُ من السيَّارة واستغرقتُ في النظر إلى الجبال، فتمثّل أمامي الفندق الذي اتَّصلتُ به منذ أيَّامِ لحجز غرفة، فلم أجد.

ولكنْ، كلُّ شيءٍ قد تلاشى.

ولذا، أعرف أنَّ الرَّب ليس له وجود. فلو كان للرَّب وجودٌ لتسنَّى لي حجزُ غرفةٍ من أجل ثلاثة أفرادٍ في ذلك الفندق، من أجلي أنا وابنَيَّ؛ وهكذا، كنتُ أحظى بكلِّ الوقت المُمكن في هذا العالَم للتَّفتيش عن موضع الإطار المثقوب. ولكنِّي لم أجد حُجراتٍ شاغرة، بل كانت كلُّها مشغولة.

حين ثُقِب الإطار، كان كلُّ شيءٍ مستقبلًا.

والآن، صار كلُّ شيءٍ ماضيًا، الآن وأنا أبحث عن موضع الإطار المثقوب، إنَّه البحث الأشدّ وهمًا أو عبثًا على وجه الأرض. ولكنَّ الحياة عبثيَّة، ولذا فهي على هذا القَدْر من الجمال.

ما زال وادي أورديسا هناك، لا يتبدَّل، لم يتبدَّل في الخمسين مليون عامٍ الأخيرة. ما زال على حاله، كما تكوَّن في العصر الجيولوجيّ الثالث. بعد أن ظلَّ وحيدًا طوال خمسين مليون عام، أُعلِن مُتنزَّهًا وطنيًّا في السادس عشر من أغسطس عام 1918، فبدأ مُتسلِّقو الجبال يتوافدون عليه من أجل تسلّق 3355 مترًا، هي ارتفاع الجبل الضائع. لا أحد في الأعالي.

لم يحبَّاني دائمًا. أحبّاني حبًّا جارقًا وأنا طفل، ولكنْ منذ رحلتُ عن البيت، أخذا يبتعدان عنِّي. ويُحتمَل أنهما، منذ تزوَّجت، ما عادا يحبَّانني بتلك الطريقة التي لن أجدها مرَّةً أخرى ما حييت.

اتَّصلتُ بفالدي وبرا عَبْر الهاتف، ولكنِّي لم أتلقَّ ردًّا. أنظر إلى نفسي في مرآة الحمَّام فأرى شعري مرسلًا. تداهمني حاجةٌ مُلِحَّة إلى قصّ شعري. إنَّها الحاجة المُلحَّة ذاتها التي كانت تشعر بها أمِّي، فتضع نفسها بين أيدي مُصفِّفات الشعر، نظرًا لشعورها الدائم برغبةٍ في الذهاب إلى صالونات التَّجميل. لم تقنع بنتيجة التَّصفيف قطّ. في طفولتي، كنتُ أرافقها. كانت تذهب إلى صالونٍ يشغل شقَّةً بالطابق الأوَّل من بناءٍ في شارعٍ ضيِّقٍ في بارباسترو، فتعتريني الدَّهشة لأنَّ عقلي الطفوليّ لم يتَّسع لمثل هذا التحوُّل، ولم أفهم كيف يمكن لشقَّةٍ أن تتحوَّل إلى صالون تجميل. أضف إلى ذلك، أنَّ الصالون كان يشتمل على مطبخٍ فيه حوضٌ عتيق ومائدةٌ وصوانٍ ولوازم المطبخ. وبينما هي تصفِّف شعرها، كنتُ أبقى في غرفةٍ حوَت عددًا من الألعاب المُستخدَمة، تلك التي احترتُ في أمرها، وشعرتُ نحوها بمزيجٍ من الانجذاب والنفور، انجذابٍ لأنَّها ألعابٌ جديدةٌ عليّ، ونفورٍ لأنَّ أطفالًا آخرين قد لعبوا بها.

كانت أمِّي متى شعرَت بالكآبة والحزن تسخر من شعرها. فتنظر إلى نفسها في المرآة وتقول إنَّ شعرها مُقزِّز. وعندئذٍ، تذهب إلى صالون التَّجميل. لم ترضَ عن النتيجة قطّ. كانت تبحث في صالون التَّجميل عن التبرئة، عن التمرُّد على نفسها، عن البهجة الضائعة. بدَّلَت صالون التَّجميل بآخَر، ألف مرَّة. راحَت تبحث عن صالون تجميلٍ طوباويّ. أمضَت حياتها في البحث عن صالون التَّجميل النِّهائيّ، حقيقة شعرها العظمى. ولكنْ كلّ ما في الأمر أنَّ شعرها قد طعن في العمر.

لم يكُن في العالَم بأسره صالونُ تجميلٍ واحد قادرًا على مساعدة أمِّي.

لو أنَّها قامَت من بين الأموات في هذه اللَّحظة، لطلبَت الذهاب إلى صالون التَّجميل. ولو قامَت على هيئة جثَّةٍ، هيكلٍ عظميّ لا بشرة له ولا لحم، لطلبَت الذهاب إلى صالون التَّجميل.

ولكنْ، الآن صارت أمِّي في صالون تجميل نهاية العالَم.

لطالما راق لأبي تصفيف شعره بعنايةٍ بالغة، إلى حدٍّ جعله يمتنع عن الخروج من البيت إذا هبَّت ريحٌ شديدة، لئلَّا يتبعثر شعره.

بدأت الكيلوغرامات الزائدة تتراكم في جسد أبي، الذي كان واعيًا بذلك، وكثيرًا ما سألنا عمَّا إذا كان يبدو بدينًا، ملتمسًا بذلك حكمنا. أحبَّ والدي الطعام. كانت صلةً فريدةً بالعالَم، الذي أخذ والدي منه الطعام.

إمَّا تضاجع، وإمَّا تأكل، وإمَّا كلاهما. الغرض من كلا الأمرَيْن إشعال الجسد. وكلّ امرئٍ يسعى إلى الشبع.

كان يصفِّف شعره، ويستغرق طويلًا في تلك المُهمَّة المُعقَّدة التي يجب إنجازها بعناية. استعان بكلِّ ما في جعبته من تقنيَّات لتصفيف شعره بما يروق له. كنتُ أتأمَّله وكأنَّه إلهٌ أو بطلٌ من العصر القديم يصفِّف شعره.

أذكر ذلك المشط، الذي زحفَت عليه مادَّةٌ سوداء، وتراكمَت عليه طبقات من الدِّهن، ثمَّ تحوَّل إلى اللَّون الأبيض، ومن الأبيض إلى الأصفر، ذلك المشط الذي كان يلوِّث علبةَ الأدوات الشَّخصيَّة التي آوَته بالمواد العضويَّة، ذلك المشط الذي تحوَّل إلى رمز هويَّة أبي الرجوليَّة، وكان يلفت انتباهنا إلى حضور أبي في البيت وعودته.

كان أبي خطأً من أخطاء السلّم الاجتماعيّ في إسبانيا التي عاش فيها. انساق وراء لقبٍ نبيلٍ من نسج الخيال، لأنَّه احتفظ بين تجاعيد ذكائه العاطلة بحساباته الخاصَّة، التي كانت تسمح له بالإرسال في طلب مُصفِّف الشعر حتى يقصّ شعره في البيت أيَّام الأحد، نظرًا لعزوفه عن الذهاب إلى صالون التَّجميل بنفسه.

اعتبرتُه أمرًا طبيعيًّا، مفروغًا منه، مع أنَّه حدثٌ استثنائيٌّ في الواقع. في أيَّام الأحد، كان مُصفِّف الشعر يزورنا في البيت. وتلك هي الرفاهية التي حظيَ بها أبي. كم كان يدفع لمُصفِّف الشعر الهائم!

فُتِنتُ بما يجري: فوالدي يأبى الذهاب إلى صالون التَّجميل، بينما تتردَّد أمِّي على جميع صالونات التَّجميل في العالَم بأسره.

بدا لي شيئًا يدعو إلى الحيْرة أن يُرسِل والدي في طلب مُصفِّف الشعر كي يحضر إلى البيت. لماذا كان يفعلها؟ لم يذهب إلى صالون تجميلٍ قطّ. كان أبي هو الرجل الذي لم يطأ بقدمه أرض صالونات التَّجميل، ولا الكنائسَ، إلَّا في الجنائز. وعندئذٍ، كان يصل مُتأخِّرًا، فيكاد لا يدخل، بل يظِلّ على مقربةٍ

من باب الكنيسة، بجوار جرن المعموديَّة، قرب الماء البارد، لئلّا ينتبه إليه ربّ البشر، وهو الممسوس العاجز.

لن يحضر جنازتي. لن يتمكَّن أبي من حضور جنازتي، وذلك الغياب عندي يرمز إلى تبخُّر مغزى الحياة، والتداعي في نهاية كلّ شيء. يجب عليه أن يغلب الظلمة، ويقوم من بين الأموات، كما فعل يسوع المسيح، طبقًا لما يُقال. يجب عليه أن يحضر جنازتي ويقول شيئًا، ويلقي بضع كلمات، كما في الجنائز الأميركيَّة.

كم يؤلمني رأسي في هذه اللَّحظة. أسيء استخدام عقار Espidifen، الذي يزيل عنِّي الصُّداع، ولكنَّه لم يَعُد فعَّالًا بالقدر نفسه. تفقد المُخدِّرات قوَّتها.

في بيتنا، كانت نوبات الصُّداع ونوبات المغص الكبديّ التي أُصيبَت بها أمِّي أسطوريَّةً.

كانت تصرخ ألمًا وتطلب المورفين.

بخلاف نوبات المغصّ الكبديّ التي أُصيبَت بها أمِّي، تحضرني الآن ذكرى تكاد تكون ملعونة: أمضي أنا وأبي، يدًا بيد، لعلَّه عام 1968 أو 1969 أو 1970، نسير في الشارع. وذلك أحبّ شيءٍ في العالَم إلى نفسي: السَّير في الشارع برفقة أبي. كنتُ طفلًا في السَّابعة يستعرض أباه، عارفًا أنَّه رجلٌ فارعُ القامة، وسيمٌ، أنيق. وبينما نحن ماضيان عَبْر الشارع، التقينا بامرأةٍ بديعة الجمال. فوقفنا. واستغرق كلاهما في النَّظر إلى الآخر. مرَّت لحظةٌ مُفعمةٌ بالتوتُّر. وإذا ابتسامةٌ تُولَد على الوجهَيْن، بينما رحتُ أنظر من الأسفل كمن يرى السحبَ العابرة. لا أبي ألقى عليها التَّحية، ولا هي.

عند ذاك، نظر إليَّ أبي، وابتسم ابتسامةً خفيفة، وقال: «لو لم أتزوَّج ماما، لكانت تلك المرأة التي رأيتَها للتوّ هي أمّك».

نربط بين مختلف الحقب الزمنيَّة.

عرفتُ بعض من عاشوا حتى عام 1975 أو 1976 أو 1977، ثمَّ ماتوا، فكانوا حلقةَ وصلٍ بحقبةٍ ماضية، ولم يعرفوا ما العمل بأولئك الذين تعرَّفوا بهم وشهدوا موتهم عام 1945 أو 1946 أو 1947، مثلما كانت تلك الكائنات التي وصلَت إلى 1945 حلقةَ وصلٍ بأشخاصٍ رحلوا عام 1912 أو 1913 أو 1914، والسلسلة تطول. وفي عام 2051 أو 2052 أو 2053، سوف يذكرني أحدُهم باعتباري شاهدًا على حقبة، شاهدًا على 2014 أو 2015. إنَّها صلةٌ مصحوبةٌ بالشجن والرَّيب، الرَّيب النابع من اليقين بأنَّك لا تعرف الكثير عن طبيعة الحياة. ولذا، لا تبقى لنا سوى المادَّة، والأشياء: البيوت، والصور، والأحجار، والتماثيل، والشوارع، وأشياء من هذا القبيل. إنَّ الأفكار الروحانية شجنٌ مُسمَّم، كرات من المادَّة المضادَّة تحترق. أمَّا المادَّة، فما زالت محتفظةً بقدرٍ من المعرفة.

نربط بين الحقب الزمنيَّة، كما لو كانت أجسادنا رسائل.

جسدنا هو الرسالة، خيط الوصل الذي يصل حقبةً بأخرى.

ما زالت المادَّة تحتفظ بالمكان، وتحتفظ بالزمن الماضي في المكان. ومن هنا، جاء الخطأ الذي وقعتُ فيه حين أحرقتُ جثمانَيْ أبي وأمِّي، أردِّدها مرَّةً أخرى، للمرَّة الألف. القبور مواضِع تُخلَّد فيها ذكرى ما لم يَعُد له زمان، ما لم يزَل له مكان، وإن يكُن مكانًا مُؤلَّفًا من رفاتٍ عظميَّة.

الرفات العظميَّة مُهِمَّةٌ لأنَّها مادَّةٌ مقاوِمة.

تحضرني الآن تلك العبارة الإسبانيَّة، تلك العبارة بالغة الأصالة، التي تقول: «لا يملك مثوًى حتى يسقط فيه ميِّتًا». عبارة في منتهى الرَّوعة تصف حقبةً من الزمن: حقبتي أنا، حقبة المضاربات العقاريَّة العظيمة. هكذا، سوف يدرسنا المُؤرِّخون بعد مئة عام.

من المهم العثور على مكان، مثوى يسقط فيه المرء ميِّتًا: كان أبي يشاهد التلفزيون من ركن الأريكة العتيقة في بيته، ذلك الركن المُعقَّد، المُؤلَّف من قَدْرٍ وفيرٍ من أشياءَ العالَم.

ما كان يجلس في منتصف الأريكة، وإنَّما في الركن، وكأنَّه يبحث لنفسه عن ملاذ، عن مأوى. كاد ذلك يصبح تخلِّيًّا، أمام التلفزيون. كان يجلس على

حافّة الأريكة، حيث تنتهي الأريكة، عند جرْف الأريكة، يترقّب السقوط، فمن شأن السُّقوط أن يضفي عليه خفاء.

ما سبب امتناعه عن الجلوس في منتصف الأريكة؟

لم يحدث قطّ أن رأيت والدي مُلقًى على الأرض تمامًا، كما رآني أبواي. رأياني مُلقًى على الأرض، على ممسحة الأقدام. تمكَّنتُ من بلوغ ممسحة الأقدام، وهناك سقطت. كدتُ أفلح في الوصول، واقعًا تحت تأثير المُخدِّر، بعد أن تبوَّلت على نفسي. كدتُ أوفِّر على نفسي الخزي، ولكنِّي سقطتُ خارج البيت. كدتُ أفلح في الوصول: كان ينقصني مترٌ واحد.

أنا أيضًا وصلتُ إلى ذلك المكان: إلى ركن المقعد، الكرسيّ، الأريكة، مُتَّكئًا على مسند الذراع، وكأنَّه سياج. أريكةٌ أمام التلفزيون.

على شاشة التلفزيون، راح يراقب حياة الآخرين، أولئك البشر الذين راهنوا على الحركة، على النشاط. إنَّهم البشر الذين كانوا يغيِّرون العالَم، أو ربَّما كانوا يحاولون: كانوا يظهرون على شاشة التلفزيون. لا أعتقد بأنَّ والدي كان يضمر الحسد لأولئك البشر الذين رآهم على شاشة التلفزيون، بأيِّ حالٍ من الأحوال. لا أعتقد بأنَّه طمع في حياتهم ولا عملهم أو شعبيَّتهم. لقد تخلَّى عن الطمع، كما أودُّ التَّخلِّي أنا أيضًا. ولكنَّه كان يتأمَّلهم بفضول، وكأنَّ تلك الأشياء التي يعرضها التلفزيون تشتِّت انتباهه عن أمورٍ مُروِّعة.

كان مُتخلِّيًا، كان أبي مُتخلِّيًا. أمضى أواخر أعوامه وهو يتأمَّل تخلِّيه، ويحاول التحقّق من الشيء الذي قد تخلَّى عنه. وهذا ما أخوضه الآن: لستُ أدري ما الذي تخلَّيتُ عنه. إنَّ مجموع أعمال كافكا تبحث عن الشيء نفسه: عمَّ تخلَّيتُ؟ عن أيِّ مكانٍ رحلتُ؟ إلى أين أنا ذاهبٌ الآن؟

من خلال التلفزيون، حاول التحقُّق من الشيء الذي تخلَّى عنه. وجد أبي أولئك الذي يظهرون في التلفزيون غير مُتخلِّين. لو استطاع أن يعرف من يخدمون، لربّما تحقَّق من أصل التخلِّي. كان يُمعن النَّظر، ويترصَّد، ويلمح على شاشة التلفزيون رسالةً ما. جعل ينظر إلى التلفزيون كما ينظر الكاهن إلى المذبح. رأى تعقيد الحياة الشيطانيّ على شاشة التلفزيون.

رأى العالَم يُظلم على شاشة التلفزيون.

أحيانًا، في عزلة رانيَّاس، في ساعةٍ مُبكِّرةٍ من ساعات الفجر، يحدِّثني هاجسٌ بأنَّ أبي سوف يظهر على شاشة التلفزيون ـ تلفزيون LG، بحجم أربعة وعشرين بوصة، صغير ورخيص ـ يحدِّثني هاجسٌ بأنِّي سوف أرى شيخوخة أبي، وبأنَّه سوف يُعلن عن نفسه على الشاشة.

الروب الأخضر، النظّارة، ركن الأريكة، حيث يشغل أقلّ حيِّزٍ مُمكن. غائبًا، كان ينظر إلى التلفزيون فلا يُصغي إلى شيء، لا إلينا، ولا حتى إلى ما يُقال في التلفزيون. لم أدرِ إلى من كان يُصغي.

ما دام لا يُصغي إلينا، ولا إلى البشر الظاهرين على شاشة التلفزيون، فإلى من كان يُصغي؟

لم يرغب في النوم. لم يرغب في التوقُّف عن مشاهدة التلفزيون. فالحياة مُستمرَّةٌ ما استمرَّ هو في مشاهدة التلفزيون.

استهوَتني مشاهدة التلفزيون إلى جواره. أمضيْنا ما يربو على الأربعين عامًا ونحن نشاهد التلفزيون معًا.

خيرُ ما يُمكن عمله برفقة من تحبّ: أن تشاهد التلفزيون معه. وكأنَّك تشاهد الكَوْن. إنَّ تأمُّل الكَوْن عَبْر شاشة التلفزيون هو الهديَّة التي قدَّمَتها لنا الحياة. هديَّةٌ بخسة، إن شئت القول، وهزيلة، غير أنَّنا أحسنَّا استغلالها. كان في وسع كلَيْنا أن يُمسك بيد الآخر، ولكنْ لو فعلنا لتشتَّت تركيزنا في الصور.

مرَّت مئاتٌ من البرامج، والمسلسلات، والأفلام، ونشرات الأخبار، والأفلام الوثائقيَّة، وبرامج المسابقات، والمناقشات، والبرامج الإخباريَّة، مرَّت الأعوام واحدًا واحدًا، ثمَّ خمسة خمسة، ثمَّ عقدًا عقدًا.

وكان كلُّ شيءٍ هناك، في التلفزيون.

بدا وكأنَّ كلانا يراقب العالَم عَبْر الشاشة. كُنَّا مُراقبَيْن. وكان أبي المُعلِّم، وأنا التلميذ. رحنا نُراقب الحياة، والبحر، والنجوم، والجبال، والشلَّالات، والحيتان، والأفيال، وسلاسل الجبال، والثلوج، والرياح.

وأورديسا.

في هذه اللَّحظة، أراقب شقَّة رانيَّاس. أتأمَّل تراكم الغبار على التليفون الأرضيّ الذي أخذتُه من بيت أمِّي حين فارقَت الحياة. رفعتُ السمَّاعة فعلِق الغبارُ بيدي. الغبار يكسو الأزرار جميعًا. لا أستخدم ذلك التليفون أبدًا. بل أستخدم هاتفًا لاسلكيًّا اشتريتُه في متجر ميديا ماركت، اكتسى دليل الإرشادات الذي جاء معه بالغبار، وبقي متروكًا تحت رفٍّ يكسوه الغبار أيضًا. أحتفظ بهذا التليفون الأرضيّ كما لو كان تمثالًا، ذكرى من أمِّي. إنَّه التليفون الذي كانت تهاتفني منه. كانت تحفظ العديد والعديد من أرقام التليفون عن ظهر قلب. اتَّخذنا من الأمر مادَّةً للدعابة، وكان أبي يختبرها سائلًا عن أرقام تليفون بعيْنها، فتثبِّت أنَّها تحفظها جميعًا. كانت تحفظ أرقام التليفون، وتتَّصل بها من خلال هذا الجهاز الذي يكسوه الغبار أمامي. من الغريب أن يرث المرء هاتفًا. لاحظتُ أنِّي أقيم هيكلًا. هكذا يقول لي الصوت الآن: «إن رانيَّاس هيكل. لقد علَّقتَ على الجدران صورًا وأوراقًا، ولوحتَيْن من رسم عمّك، ذلك العمّ الذي لم تتحدَّث عنه، بينما تحدَّثتَ عن مونتيفيردي، خالك. الآن، تحدَّثْ عن عمّك، سمِّه رخمانينوف [29]، سمّه رخما».

رخما هو الشقيق الأصغر ليوهان سباستيان باخ، أبي. كان رسَّامًا، وفي هيكل رانيَّاس، أحتفظ بلوحتَيْن من صنعه، رسمهما في أواخر الخمسينيَّات. رسم رخما راقصةً عام 1958. ذلك هو التاريخ مكتوبٌ على الجزء السفليّ من اللَّوحة. لطالما استغرقتُ في تأمُّل ذلك التاريخ، المكتوب بالأحمر تحت توقيع رخما. آنذاك، لا كنتُ أنا في العالَم، ولا كان أحدٌ ينتظرني، ولا كان أبي قد تعرَّف بتلك التي سوف تصبح أمِّي. أتصوَّر أبي وشقيقه عام 1958. كان أبي في الثامنة والعشرين من العمر، ورخما في الرابعة والعشرين. حين رسم رخما تلك اللَّوحة، لم يكُن هنالك ما يدلّ على المستقبل الآتي. عاشا معًا في بيت أمَّهما، جدَّتي. لم يحدِّثني أحدٌ قطّ عن ذلك البيت ولا عن ذلك الزمن. ولكنْ، من المُؤكَّد أنَّه كان زمنًا مواتيًا. أعرف ذلك البيت، فهناك من حدَّثني عنه. لم يكُن عمِّي، ولا أبي. ولكنِّي أستطيع رؤيته. أستطيع رؤية سرير كلٍّ من الشقيقَيْن.

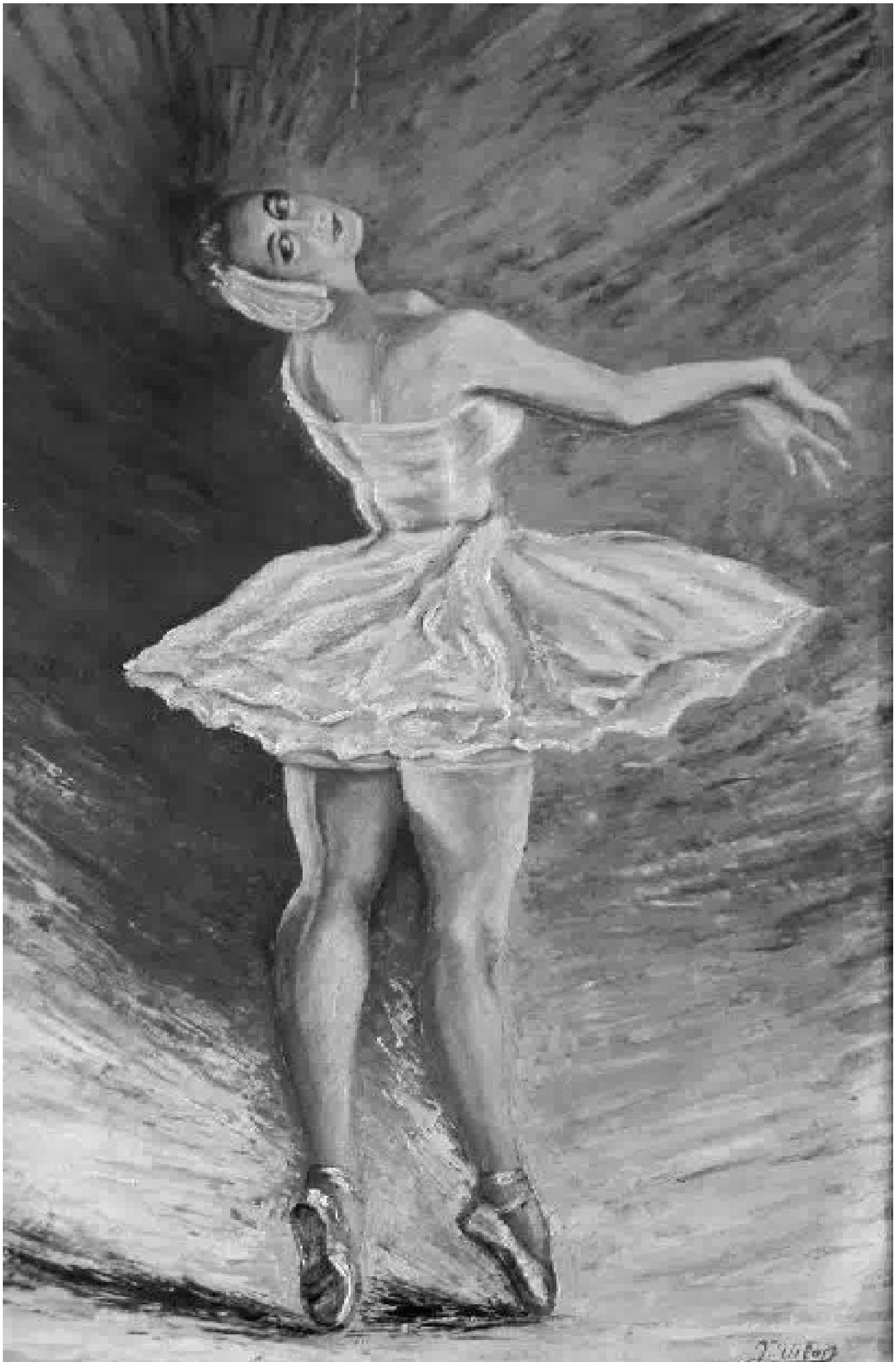

أنقذتُ راقصةَ عام 1958 حين أخليتُ بيت أمِّي بعد موتها. ولسوف تبدأ راقصة رخما رحلةً جديدة متى فارقتُ الحياة. سوف تنتهي في أحد متاجر التحف العتيقة، وربَّما اقتناها أحدهم. ها هي ذي راقصة رخما قد دبَّت فيها الحركة الآن. ظلَّت ساكنةً قرابة الستِّين عامًا، على الجدار نفسه دومًا. لن تكون لها قيمة عند فالدي وبرا متى رحلتُ أنا عن هذا العالَم.

ما لراقصة رخمانينوف قيمة إلَّا عندي أنا.

قلَّما رأيتُ رخمانينوف في هذه الحياة. كان يعيش في غاليثيا. انتقل إلى غاليثيا. عمل مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا، مثل أبي. كلاهما عمل لدى الشركة الكاتالونيَّة نفسها، في المجال نفسه، ومثَّلا تلك الشركة الكاتالونيَّة في منطقتَيْن مختلفتَيْن: باخ في أراغون، ورخما في غاليثيا. راحت البرجوازيَّة الكاتالونيَّة تُثرِي، بينما هما يسافران من قريةٍ إلى قرية (أبي إلى قرى أراغون وعمِّي إلى قرى غاليثيا)، ويبيعان للخيَّاطين أنسجةً من سابادِيل وبرشلونة، حيث يعيش الأثرياء أصحاب المزايا، الذين عمل باخ ورخما لحسابهم مقابل عمولة، عمولةٍ هزليَّة. لم تكُن الصناعة في أراغون ولا في غاليثيا، بل في برشلونة. لعلّ رؤساءهما في العمل قد ماتوا، ورؤساءَ رؤسائهما في العمل أيضًا. ما عاد اسما باخ ورخما يظهران في أيٍّ من السجلَّات، لعلَّ كلَّ شيءٍ قد أُعدِم. في بعض الأحيان، كان أبي يتلقَّى اتِّصال إحدى السكرتيرات من شركة النسيج التي عمل لحسابها. لعلّ تلك السكرتيرة قد فارقَت الحياة هي الأخرى. ولن يعرف أحفادها فيما كانت تعمل جدَّتهم ولا بمن كانت تتَّصل من مقرّ الشركة.

لا ندري مَن الموتى الذين تعرَّف بهم موتانا.

ما عاد الأَخَوان يلتقيان. ولم تفعل فاجنر الكثير من أجل وصْل ما انقطع بينهما. ذهبتُ في رحلةٍ إلى غاليثيا عام 2002 على وجه التَّقريب، واتَّصلتُ به عَبْر الهاتف. دعاني باسمي مُصغَّرًا، كأنِّي طفلٌ صغير، وإن كنتُ في الأربعين آنذاك. لم أفهم جيِّدًا تلك المحادثة الذي جمعَتني برخما، لأنَّ طريقته التصادميَّة في الكلام قد ذكَّرَتني بمونتيفيردي.

كدتُ لا أقول شيئًا طوال تلك المحادثة المرتبكة. لم يترك لي رخما فرصةً للكلام. مع أنَّه لم يقُل شيئًا مُهمًّا. راح يتكلَّم على أمورٍ لا تهمّ. لم يكُن قد رآني منذ ثلاثين عامًا. مَن المُتَّصل اللَّعين؟ المُتَّصل هو الابن البكر لشقيقه الأكبر، شقيقه الذي كان ابنًا بكرًا هو الآخر.

إنَّ البكورة هي التي أرسَت دعائمَ الأشياء في هذا العالَم، في موكبٍ من الضياء.

شيئًا فشيئًا، رحتُ أكتشف أنَّ عائلتي كلَّها من هواء.

لم يكُن هناك أحد. «اذهب وقابل ابنة عمّك»، قال لي رخما. اتَّصلتُ برخما من مدينة پونتيبيدرا، بينما كان هو في لوغو. أمَّا ابنة عمِّي فكانت في كومبارّو.

في فترةٍ من الزمن، حدَّثنا أبي عن كومبارّو. تتزاحم في ذهني الذكرياتُ البديعة، ذكرياتُ تلك القرية الساحليَّة الصَّغيرة، لمَّا كنتُ في السادسة أو السابعة من العمر: الشوارع الضيِّقة، صوامع الغلال، البحر، وادي پونتيبيدرا المغمور، الرائحة، رائحة البحر النفَّاذة الآتية من وديان غاليثيا المغمورة.

هناك شعر أبي بالسَّعادة، في كومبارّو، مع رخما. كانا يتردَّدان على حانات كومبارّو، ويشربان البيرة، في أواخر الستينيَّات، والمستقبل لا يزال صافيًا. حظيَ رخما بشعبيَّةٍ واسعة. ما زال أصدقاء رخما من غاليثيا وبارباسترو يذكرونه، مع أنَّه رحل عن بارباسترو منذ خمسين عامًا، ورحل عن عالمنا منذ ثلاثة أو أربعة أعوام.

خبَت ذكرى رخما في بارباسترو شيئًا فشيئًا. صحيح، ولكنَّها لا تزال حيَّة. قلائل، قلائل جدًّا هم الذين يذكرونه، لأنَّ الجميع يرحل.

ولكنْ في ذلك الصيف، عام 2002، تحدَّثتُ إليه عَبْر الهاتف.

قال الصوت: «لم يتمكَّن من قول الكثير، لأنَّ محتوى الاتِّصال كان هو الحزن في حدّ ذاته. أجل، استطاع رخما أن يداري جيِّدًا. وبهذا، لا أعني أنَّ اتِّصالك بلا معنى، فلقد أردتَ الوقوف على أحوال عمّك، الذي لم ترَه منذ ثلاثين عامًا. اتَّصلتَ به عام 2002. لم تتحدَّث إليه منذ عام 1972. لم ترَه منذ ثلاثين عامًا خلَت. ربَّاه! هل كان يذكر أنَّه لم يرَك منذ عام 1972. الخطير في الأمر أنَّك حتى في ذلك الوقت، لم ترَه، لأنَّ عمَّك لم يَعُد له وجود على وجه الأرض. وهكذا، عرف رخما أنَّك تسأل عن ميِّت. مولعٌ أنت بالسُّؤال عن الموتى. حتى إنَّك تطرح السؤال نفسه دومًا: لماذا أنت ميِّت؟ تطرح السُّؤال نفسه عن كلِّ الموجودات بوجه العموم، ما مات منها وما سيموت. يستهويك الحديث بالإسبانيَّة، لأنَّ الإسبانيَّة تسعفك عند الحديث إلى الموتى. تشدِّد على المقاطع، تصرخ بالمقاطع الإسبانيَّة لتتمسَّك تلك المقاطع بأولئك البشر الذين تمثِّلهم. لماذا أنت ميِّت؟ لماذا لم تعُد بيننا؟ لماذا لا يمكنني الاتِّصال بك في أيِّ مكان؟ هذه أسئلتك. وهكذا، أبدى رخما بهجةً مبهمةً باتِّصالك، الأمر الذي خيَّب أملك. ولكنَّك سمعتَ صوت رخما، الصوت الذي تردَّد في طفولتك. وفي طفولتك، واقعةٌ معتمة، وامتنانٌ لم تُعرب عنه قطّ، وذلك هو السَّبب الدَّفين الذي جعلك ترغب في الحديث إلى رخما».

جاء رخما من لوغو إلى بارباسترو. لعلّه جاء عام 1972، رغبةً منه في معاودة اللِّقاء ببلدته، التي رحل عنها في مطلع الستينيَّات. جاء بسيَّارةٍ جديدة. سيكما 1200. كان الشقيقان في قمَّة مسيرتهما.

عام 1970، اقتنى يوهان سباستيان باخ سيَّارة سيات 124. بينما اقتنى رخما سيَّارة سيكما 1200. كان المُحرِّكان متساويَيْن في السِّعة.

ترك الشقيقان لفكرهما العنان، وفتوَّة الشباب في أوجها. خطر لهما أن يتسابقا. أعتقد بأنَّ رخما هو الذي فاز. أجل، تسابقا من بارباسترو إلى قريةٍ صغيرة في كاستيخون. خمسة عشر كيلومترًا. لم يعُد لتلك الطريق وجود، لأنَّ طريقًا سريعةً جديدة أُقيمَت منذ أعوامٍ طوال، طريقًا لا تمرّ بكاستيخون. أراد رخما أن يُظهِر لأخيه الأكبر أنَّ السيكما أسرع من السيات. ولكنَّ أبي حمل إسبانيا على عاتقه من خلال سيَّارات السيات التي اقتناها مدى حياته. أعرب عن وفائه لإسبانيا من خلال السيات. أشعر بالتأثُّر أمام ذلك الوفاء. حين رأيت فيلم غران تورينو (Gran Torino)، حيث يُقدِّم كلينت إيستوود وفاءه لسيَّارات فورد على اعتباره شكلًا من أشكال الوفاء للولايات المُتَّحدة الأميركيَّة، شعرتُ بأنِّي قد نلتُ مكافأتي، شعرتُ بأنَّ أبي لم يخطئ حين وقع اختياره على السيات. لم يخطر على باله قطّ أن يقتني رينو أو سيكما. بل إنِّي أعتقد بأنَّ «سيَّارة» و«سيات» كانتا مترادفَتيْن عند أبي. ولذا لم يفهم جيِّدًا المغزى من وراء سباق رخما ولا سيَّارته. بدا له وكأنَّ رخما في سبيله للتخلِّي عن إسبانيَّته، لأنَّه لا يملك سيات.

جدِّي ـ الذي لا أدري من هو، ولا أعرف له اسمًا، ولا تاريخ ميلاد، ولا تاريخ وفاة ـ كان سيحبّ رؤية الشقيقَيْن وقد تركا لفكرهما العنان. غير أنَّه كان ميِّتًا، مطمورًا داخل مقصورةٍ بلا اسمٍ في مقابر بارباسترو.

كان جدِّي مقصورةً في مقبرةٍ شاردة. لا أعرف لها مكانًا. لا أدري في أيِّ مقبرةٍ دُفِن جدِّي، بل وحتى المدينة التي دُفِن فيها لا أعرفها. ما قد يكون رأي جدِّي في ابنَيْه؟ هل كان يزهو بهما؟ هل كان يقبّلهما؟ هل تتهلَّل أساريره بهما كحالي مع فالدي وبرا؟ أيضيع حبِّي لفالدي وبرا كما ضاع حبّ جدِّي لباخ ورخما؟ لا أملك انتشال جدِّي لأبي من أيِّ مكان، بل إنِّي لا أملك حتى اختراعه. لا أدرى حتى في أيِّ عامٍ قضى. ولا مَن كان؟ هل كان سيحبّني؟ هل كان سيأخذ بيدي في الصغر؟ لا شهد مولدي، ولا استطاع أن يتخيَّله. كلّ من لم يلامسني ولم يشعر بي ولم يتكهَّن بي، مع أنَّه من عائلتي، يبدو لي نقيًّا

إلى درجةٍ خارقة للطبيعة، لأنَّ الذكرى التي أحفظها، ذكرى باخ وفاجنر ومونتي ورخما، قد تحوَّلت إلى شيءٍ يفوق البشر. أحمل في طيَّات نفسي تلك الذكرى وكأنَّها نبضةٌ من البهجة المعتمة. لم يبقَ منه شيء: لا ساعة، ولا خاتم، ولا قلم، ولا صورة.

حتى مثوى رخما لا أدري أين يقع! ذات يوم، اتَّصلَتْ بي ابنة عمِّي وأخبرَتني. رحل رخما وهو في الرابعة والسَّبعين من العمر، بفارق عام بينه وبين يوهان سباستيان. لم يلتقيا لما يربو على الثلاثين عامًا، برغم الحبّ المُتبادَل بينهما. وجد رخما شخصيَّة باخ في غاية الجمود. وذلك حقّ. إذ كان أبي يميل إلى الصرامة الأخلاقيَّة، الأمر الذي ساعده على العيش. كانت تلك الصرامة أشبه بالطيَّار الآليّ، ولقد أرشدَته في سبيله عَبْر الحياة. أمَّا رخما فقد اختلف عنه، وسرعان ما تشبَّع صوته باللَّكنة الغاليثيَّة.

أحبّ أحدهما الآخر من دون أن يتقابلا. كانا شقيقَيْن. ولقد حمله أبي في طيَّات نفسه، في قلبه. حمل في طيَّات نفسه رخما، شقيقه الأصغر الذي لم يتحدَّث عنه قطّ. أعرف أنَّه قد أحبَّه حبًّا غامرًا، ولكنَّه لم يقرّ بذلك يومًا.

تحوَّل رخما إلى رجل غاليثيّ، وكأنَّه من مواليد غاليثيا، مع أنَّه من مواليد بارباسترو. اختلف رخما عن يوهان سباستيان اختلافًا كبيرًا. بادئ ذي بدء، كان يوهان سباستيان أطول قامةً. بينما كان رخما نحيفًا، ودودًا للغاية. والأدهى من ذلك، أنَّ رخما طلَّق زوجته. وذلك أمرٌ مُدهش بحقّ. لم يقُل أبي شيئًا عن طلاق رخما قطّ. لم يقيِّمه بشيء. بدَت حياة رخما مفعمةً بالعواطف. كما أنَّه ربح جائزة اليانصيب. أعتقد بأنَّ قيمة الجائزة بلغ ثلاثة ملايين بيسيتا في منتصف السبعينيَّات. فبدَّل رخما سيَّارته، وهجر السيكما 1200، واقتنى كرايسلر 180، السيارة التي كانت تمثِّل قفزةً واسعة. ولكنَّ شيئًا وقع بينهما. لم ولن أعرف أبدًا ما الذي وقع بينهما. من الجائز أنَّ شيئًا لم يحدث مطلقًا، وكلّ ما هنالك أنَّ كليْهما قرَّر المضيَّ في سبيله لقضاء سنوات حياته، أو شيء من هذا القبيل. ثمَّ أبلغنا معارف بأنَّ رخما يعاقر الشراب. تخيَّلتُ حياته مُطلَّقًا، تخيَّلتُ حياته وحيدًا، يسكن شقَّةً في لوغو، في شارعٍ ضيِّق، وينزل إلى الحانة الواقعة تحت بيته ليلًا، فيحتسي كأسًا من الكونياك ويتحدَّث إلى النادل طويلًا. لا أدري لماذا اخترعتُ من أجله تلك الحياة. أعتقد بأنِّي اخترعتُ من أجله تلك الحياة في منتصف الثمانينيَّات. ولكنْ أجدر الأمور بالفضول أنِّي حسدتُه عليها. في اعتقادي، أنَّ الزواج الطويل الأمد لا يلائم الطبيعة البشريَّة. ومن دواعي سروري أنَّ رخما قد انتبه إلى ذلك. أتخيَّل أنَّ ذلك ما حدث. يقبل الرجال بالزواج الطويل الأمد لأنَّهم يفقدون إيمانهم بالشباب.

أعتقد بأنَّه بعد الطلاق، تحوَّل إلى رجلٍ غير الرجل. أعني أنَّني أتفهَّم رفض رخما لذلك الأمر الرَّمزيّ، الأمر الواقع الكامن وراء الزواج طويل

الأمد، الذي يُعَدّ كابوسًا، وسجنًا. وبطبيعة الحال، يبتسم طرفا ذلك الزواج، فتبدو الابتسامةُ حقيقيَّة. في ظنِّي، أنَّ الزواجَ طويل الأمد يستحقّ العناء، أتفهَّم أنَّ هذا التصريح مبالَغٌ فيه، ولكنَّ التخلِّي عن الشغف أيضًا مبالغةٌ في التضحية المعقولة. يقول بعض علماء الأنثروبولوجيا إنَّ الارتباط بزوجٍ واحدٍ غير طبيعيّ. إنَّ ذلك المهرجان الذي لا ينتهي، مهرجان الخيانات بين الرجال النساء، وسوء التفاهم الأليم، يأتي في إثر فرض الزواج الأحاديّ.

ربَّما كانت الرأسماليَّة الكنسيَّة هي التي اخترعَت الزواج طويل الأمد.

ليس لليقين وجود.

أفقتُ لتوِّي في رانيَّاس، وها هو ذا الضوء، أخو الحياة غير الشقيق. يبدو وكأنَّه شخصٌ من الضوء، يقول لي: «أنا الضوء، وأنت ابن الضوء، انظر كيف أُضفي على الأشياء تماسكًا، لأنَّ الموجودات مصدرها الضوء».

أستغرق في النَّظر إلى السَّماء.

وهكذا، فتح رخما الطريق أمامي. يبدو وكأنَّ الرَّبَّ ذاته يبعث إليَّ بالرَّسائل من خلال أشقَّاء أبي وأمِّي.

قال مونتيفيردي: «كارثة وعزلة وإخفاق».

وقال رخمانينوف: «طلاق وكرايسلر 180 وغاليثيا».

الرسائل طيِّبة، لأنَّ فيها تتوهَّج الحياة، التي نخدمها. الإثم الوحيد الذي قد يقع فيه البشر هو الإمساك عن خدمة الحياة. وليس هذا بالإثم العظيم، بل إنَّه بالأحرى مخالفة.

قد ينتهي المرء إلى الوقوع في عشق حياته. وهكذا، هي الحال التي صرتُ إليها، منذ بضعة أشهر. تعود روحي إلى مناطق سُكْر الغرام. تحمل السُّكر معك منذ الميلاد. أمَّا الشيء الذي لم يسعني تخيُّله فهو ذلك التصالح بيني وبين ذاتي. يُحتمَل أن يكون ذلك ما توصَّل إليه رخما: الذي كان أفضل حالًا بكثير وحده، مقارنةً بحاله مع الأسرة. ربَّما كانت الغَلَبة للوحدة في آخر الأمر. وربَّما اكتشفتَ أخيرًا أنَّ الجميع لا يُحتمَل سواك.

قد يكون ذلك هو تميّز الهويَّة: الوصول إلى الاكتفاء الذاتيّ في كلِّ شيء. وهكذا، تنظِّم حفلًا، فيحضر مدعوٌّ واحدٌ في غاية الأهمِّيَّة، وذلك المدعو هو أنت نفسك. تتزوَّج، وتعشق شريكك بجنون، لأنَّك أنت الشريك. تموت وتقوم من بين الأموات وترى الرَّب، فتكون حيْرتك عظيمة، لأنَّك ترى وجهك أنت. ومن الطريف أنِّي أنا القائل بتلك الخيالات، أنا دون غيري، وأنا لا أملك البقاء وحيدًا، ولا حتى خمس عشرة دقيقة، المدَّة التي تستغرقها الرحلة بسيَّارة الأجرة.

قدتُ السيَّارة من رانيَّاس إلى مدريد لتوِّي. سافرتُ ليلًا. إنَّه يوم الجمعة العظيمة. بدأت أقود السيَّارة في تمام الثامنة مساءً، التوقيت الذي تخرج فيه جميع المواكب الدينيَّة في إسبانيا بتلك المناسبة. لم يسبق لي يومًا أن قضيت الجمعة العظيمة مسافرًا بالسيَّارة. أشعر بما يشبه التحرُّر. وكأنِّي قد هجرتُ تاريخ إسبانيا. فهأنذا أسافر بسيَّارتي، من ثاراغوثا إلى مدريد. بينما إسبانيا بأسرها تصلِّي. أزيد السرعة. ولا أحد على الطريق.

لطالما راودني ذلك الخيال الذي سوف أحقِّقه أخيرًا، في إحدى المرَّات: الانطلاق على الطريق عشيَّة عيد الميلاد، في التاسعة ليلًا، وتحديدًا في وقت إذاعة خطاب الملك عَبْر التلفزيون، فأقود السيَّارة عَبْر دروبٍ وطرقاتٍ سريعةٍ إسبانيَّة حتى الثانية عشرة أو الواحدة. تلك الساعات الثلاث التي يسود خلالها صمتٌ مذهل، وتُرَدّ الأراضي الإسبانيَّة إلى الطبيعة.

رحتُ أقود السيَّارة وأنا أفكِّر في رخما. مات باخ، فأرسلَت ابنة عمِّي أزهارًا إلى الجنازة. أما أنا، فلم أرسل إليها أزهارًا حين مات رخما. لا أحضر الجنازة ولا حتى أرسل أزهارًا: بل أتخلَّى عن واجباتي دائمًا، وأخذل عائلتي دائمًا. أنا المذنب دائمًا.

حدَّثني رخما حين مات يوهان سباستيان باخ، شقيقه الأكبر. دار بيننا حديثٌ انعدمَت فيه الجاذبية. راح يسأل عن شبحٍ من شبابه، في حين رحتُ أخبره كيف تحوَّل أهمّ كائنٍ في حياتي إلى شبح. ظلّ يناديني باسمي مُصغَّرًا، مانويل الصغير.

كان شيئًا في غاية الجمال. ولكنْ حتى مانويل الصَّغير قد فارق الحياة.

ثمَّ إنَّنا لم نجد ما نقول، فاللَّحظة التي ندفع فيها الثمن جميعًا آتية. ندفع ثمن عدم وفائنا لفكرة الأسرة، التي أكسبَت البشر جاذبيةً على وجه الأرض.

فأنت من دون أسرةٍ مُجرَّد كلبٍ وحيد. والكلاب الوحيدة تلقى سوء المعاملة، وتُشنَق على الجدران المهجورة، على أيِّ طريق. وهناك، على أيِّ جدارٍ مُتداعٍ تُطلّ منه دعامة، تُشنَق الكلاب، لأنَّ وحدتها نموذجٌ سيِّئ.

ما عدتُ أقنع برفقة أيٍّ من البشر. أعشق البشر، ولكنَّ رفقتهم لا تستهويني. وكأنِّي اكتشفتُ كوكبة رخما. وكأنِّي أدركتُ أنَّ الوحدة قانونٌ من قوانين الفيزياء والمادَّة، قانونٌ يحمل المرء على الوقوع في الغرام. إنَّه قانون الجبال. قانون أورديسا. الضباب المُخيِّم على القمم. الجبال.

صبيحة يوم من أيَّام الصيف، في عام 1970: يسير باخ ورخما على امتداد شاطئ لاً لانثادا، في غاليثيا، على مقربةٍ من كومبارّو. تهبّ الريح، ويتألَّق الضوء، وتترامى مساحةٌ شاسعة من البحر والرمال. إنَّه الفردوس، ولكنَّ هذه لا تعدو أن تكون ذكرى من ذكرياتي. يرنو البحرُ إلى الشقيقَيْن. البحر جدِّي، الذي يرنو إليهما، يرسل إليهما أمواجًا، يرسل ريحًا، صمتًا، وحدةً، امتنانًا، حميّة.

إنَّهما الأخَوَان العظيمان، إرث أراضي شمال إسبانيا، كم يختلف أحدهما عن الآخر! هوذا شاطئ لا لانثادا، على امتداد ثمانية كيلومترات، يصبّ الآن في قلبي.

انطبعَت تلك الصُّورة في رأسي: وكلاهما يتنزَّه على الشاطئ، على شاطئ البحر المفرط في الزرقة، قرب الشمس المفرطة في العلوّ.

حتى الطبقات الاجتماعيَّة الأقلّ حظًّا من المزايا على مدى التاريخ تلتمس مصيرًا أسطوريًّا، وتريد كلماتٍ حسنةَ الوقْع، وقليلًا من الشعر.

بعد ذلك يقصد الأَخَوان حانةَ الصيَّادين، حيث يأكلان السرطان البحريّ والسلطعون والكركند، ويحتسيان نبيذ ألبارينيو. وجد رخما امرأةً جميلة. تزوَّج امرأةً رائعة الجمال. ذهب ليعمل في غاليثيا، حيث تزوَّج امرأةً غاليثيَّة، جمالُها غرائبيّ، وشعرها أصهب. لم أعرف شيئًا عن علاقتهما قطّ، ولكنِّي أتصوَّر أن والدي قد عرف، وها قد ضاع ما عرفه والدي. لا أعرف شيئًا عمَّا فعله باخ ورخما وزوجتاهما في شبابهم: أتصوَّر سهراتِ عشاءٍ برفقة الأصدقاء، وضحكاتٍ، وشبابًا، وبضع رحلاتٍ، وحفلاتٍ، ورقصات.. أمَّا الآن فهو العدَم.

حفلات ورقصات وسهرات عشاء، أمضاها الأربعة معًا.

إنَّ إخلاصي لرخما مُحدَّد، يرجع إلى الوقت الذي حضر فيه إلى بارباسترو بسيَّارته السيكما 1200، عام 1972. كان مفعمًا بالبهجة، سعيدًا بالعودة إلى بلدته. أصرَّ على تقديم هديَّةٍ إلى ابن شقيقه. لا أدري كم من المرَّات رآني رخما في الحياة: لعلَّها لم تكُن كثيرة! سبع أو ثماني مرَّات، أو ربَّما عشر مرَّات، بشيءٍ من الحظّ. كانت تلك المرَّة مُهمَّة. ذهبتُ ورخما إلى متجرٍ كان وما زال قائمًا في وسط بارباسترو، يُدعَى متجر روبِرتو. أراد رخما أن يشتري من أجلي لعبةً جيِّدة. فشعرتُ بالسرور والحيْرة في آن، لأنِّي سأتلقَّى هديَّةً كتلك الهدايا المُقدَّمة بمناسبة عيد ملوك المجوس، غير أنَّه لم يكُن أوان أعياد الميلاد.

كان البائع المسؤول عن قسم الألعاب رجلًا في أوائل العشرينيَّات، عرض أن يُطلِعني على جميع الألعاب المُتوافرة. تركني رخما في عناية البائع، بينما ذهب كي يلقي التَّحيَّة على صديق قديم، ويخبره بأنَّه حضر إلى بارباسترو. وهكذا، أخذتُ وقتي في اختيار الهديَّة الأحبّ إلى نفسي.

كان البائع رجلًا طويل القامة، غزير العَرَق، صموتًا، بدينًا، أبيض البشرة. أخذني من يدي إلى الطابق السُّفليّ الذي حوى كمِّيَّةً كبيرةً من الألعاب المُخزَّنة. أراني عددًا منها.

وهنا تنطفئ الأنوار مرَّةً أخرى، كما حدث مع الكاهن «ج.».

إذ راحت يداه المُبلَّلتان بالعَرَق تتحسَّسان جسدي، وتحاولان مداعبتي. يتحسَّسني. يتلمَّسني. يريد أن يقبِّل فمي. شعرتُ بالخزي، شعرتُ بخزيٍ غير معقول. وبالذنب.

ولكنَّ الوضع اختلف تلك المرَّة. فما لم يسعني الإفضاء به إلى أبي، أفضيتُ به إلى رخما. سهُل عليَّ البوح إلى رخما، أو أنَّه بالأحرى عرف كيف يرى ما حدث، عرف كيف يحدس بما جرى، ولم ينقصني إلَّا التَّأكيد على ذلك. فثارَت ثائرة رخما. وأخذ يفتِّش عن ذلك الرجل، رغبةً في تهشيم وجهه.

أراد رخما أن يقتل ذلك الرجل.

لم أشعر بأنِّي محاطٌ بذلك القَدْر من الحماية قطّ.

أستحضر تلك الحماية في هذه اللَّحظة، وأنا في وجه لغز الموت.

كان ذلك الرجل ابن عاهرة.

ولكنَّ رخما دافع عنِّي، وأزال عنِّي الشعور بالذنب. لم يكُن ذنبي أنا. ولقد نفعني ذلك اليقين بأنِّي لم أكُن مذنبًا على مدار حياتي، واستفدتُ منه مرَّاتٍ كثيرة. بتصرُّفاته، أعلن رخما براءتي من الذنب. فلقد دافع عنِّي، أخيرًا. أذكره قويًّا في ردود أفعاله، إذ راح يتحدَّث إلى مالك المتجر، وهو لا يهاب قوَّةً واحدةً على وجه الأرض، ولا يخاف العواقب. لم يشعر بالخوف لأنَّه كان يدافع عنِّي أنا. على المرء أن يكون واثقًا بذاته أوَّلًا من أجل الدفاع عن أحدهم. وباخ لم يتحلَّ بثقة رخما. تلك الثقة هي أغلى صنوف الذهب، ذهب الأجساد والعقول. عسى أن يرثها برا وفالدي، فهي تجري في دمائنا، لأنَّ رخما قد تحلَّى بها.

أشكرك، رخمانينوف، ها هي ذي موسيقاك تتردَّد مرَّةً أخرى في قلبي التعب.

يحضرني دفاعك عن حياتي هذه اللّيلة، ليلة الجمعة العظيمة، بعد مضيِّ خمسةٍ وأربعين عامًا.

وأخيرًا، لم يكُن الذنب ذنبي.

أنا الآن في بارباسترو، أسحب نقودًا من آلة الصرف الأوتوماتيكيَّة. تعطيني الآلة أوراقًا ماليَّةً جديدة، خاليةً من التجاعيد تمامًا، أوراقًا صقيلة، مفرودة، دقيقة، حوافّها قاطعة، خرجَت من المطبعة لتوِّها، خرجَت من دار سكِّ العملة لتوِّها. كانت الأوراق الماليَّة الجديدة تفتن أبي. ليته يستطيع أن يعرف في هذه اللَّحظة أنِّي أتذكَّر، أتذكَّر تلك التفصيلة. كنت متى ذهبتُ إلى البنك لسحب النقود ـ قبل ظهور آلات الصرف الأوتوماتيكيَّة بأعوام ـ أطلب من المُوظَّف أوراقًا ماليَّة جديدة. فيتلقَّى المُوظَّف طلبي بالدَّهشة.

يقول لي الصوت: «إنَّه يحاول التواصل وإيَّاك. يتحدَّث إليك من خلال تلك الأوراق الماليَّة، تتذكَّر ابتسامته، كانت أوراقًا من فئة المئة بيسيتا والخمسمئة بيسيتا، جديدةً، كان يروق له خلوّ الأوراق من التجاعيد، ما دامت الأوراق الماليَّة جديدةً فهي أعظم قيمةً. الابتسامة، ها هي ذي ابتسامته تحضر في الأوراق الماليَّة».

مثل أبي، يروق لي أن تكون الأوراق الماليَّة جديدة. يبدو وكأنَّ أحدهم قد صنعها من أجلي، أحدهم قد فكَّر فيك، أحدهم قد اهتمّ بالسماح لك بحمل بطاقاتٍ بريديَّةٍ رائعة في الحافظة، بطاقاتٍ مُزيَّنةٍ برسومٍ ووجوهٍ تمثِّل شخصيَّاتٍ بارزة، بدلًا من ذلك الشيء المهين الذي يُسمَّى نقودًا. لهذا كان أبي يريد الأوراق جديدة.

لم يرِد نقودًا.

وإنَّما بطاقاتٍ بريديةً مشرقة.

ولهذا، أريد الأوراق جديدةً أنا الآخر. لا أريد إنفاقها، بل أودُّ لو تذوَّقت الشعور بأنَّ إسبانيا ذاتها تكاتبك، تبعث إليك تهنئةً، برقيةَ حبّ.

أوراقٌ ماليَّةٌ خرجَت لتوِّها من دار سكِّ العملة التي ترجع إلى القرن التاسع عشر.

ما زال عفن البؤس لم يعلق بها بعد. لم تمسس أحدًا بألم. لم تُلحِق المذلَّةَ بأحد. لم تُشهَر سلاحًا في وجه أحد. لم تشترِ أيّ شيءٍ بعد. لم تمسسها أيادي البائس والفاسد والقاتل والبسيط والمغلوب والمنتهي أمره والمقيت.

إنَّ تلك الأوراق مثل الأطفال في الفردوس.

ذلك ما سعى إليه أبي.

ولذا، كان يريدها جديدة.

كما ترى، حتى هذا أذكره. كلّ ما فعلتَ أنت من أجلي بات مُقدَّسًا. كلّ ما رأيتُك تفعل من أجلي هو الدم الذي يجري في شرايين الحياة. أذكر كلّ شيء. كلُّ شيءٍ في قلبي محفوظ. الثلاثة وأربعون عامًا التي أمضيناها معًا، يجب أن تبقى على قيد الحياة في مكانٍ ما. ماذا جرى خلال تلك الأعوام الثلاثة والأربعين؟

كانت أمِّي تطلب المورفين كلَّما أصابتها نوبات المغص الكبديّ في السبعينيَّات، أمَّا السَّبب في تلك النوبات، فلم نجد له تفسيرًا قطّ. الأسرة حفيفٌ من أمراضٍ لا يُكشَف أمرها أبدًا.

هل كانت تعاقر الشراب؟ كلَّا، مطلقًا. ولكنِّي لا أدري. لا أدري أيَّ شيء.

بالحبّ أهتدي. بفقدان الحبّ.

ما عادَت تصاب بتلك النوبات منذ أتمَّت عامها الخمسين، وما عادَت تطلب المورفين.

من الممكن تقنين المُخدِّرات، مرَّةً وإلى الأبد. يا لإصرار الدولة على أن يتجرَّع المواطن عذاب الوحدة، على أن يعيش ويموت وحيدًا!

مات أبي وحيدًا.

وماتَت أمِّي وحيدة.

إنَّه انتقام الطبيعة الأشدّ، ذلك الذي يتجلَّى في غرف المستشفيات، ويعصف بكلِّ العهود البشريَّة، يعصف بعهد الحبّ وعهد الأسرة وعهد الدواء وعهد الكرامة الإنسانيَّة، ويستحضر ضحكة الموتى الآخرين، الموتى القدامى، أولئك الذين يضحكون من الجثمان الواصل حديثًا.

لم يمتلك أبواي كاميرا فوتوغرافيةً قطّ. لم يلتقط أبي صورةً قطّ. وكانت أمِّي تكره أن يصوِّرها أحد. وتمقت شكلها في الصُّور دومًا. كانت تكره الصور. حتى أنا لا يستهويني أن يصوِّرني أحدهم. لا أنا ولا أمِّي نريد أن يبقى دليلٌ واحدٌ على أنَّنا كُنَّا تحت ضوء الشمس يومًا. في بعض المرات، حاولتُ أن ألتقط لها صورًا، بَيْد أنَّها ما كانت تسمح لي بذلك، أو كانت تمزِّق الصُّور إن التقطتُها.

أمَّا حفنة الصور التي ورثتُها فهي مُهمَلة، مُجعَّدة، وبعضها مُمزَّق. لم تجرؤ على تمزيقها كليًّا، وإنَّما كانت تكتفي بإخفائها وإتلافها، على رجاء أن تتبخَّر الصُّور من تلقاء نفسها. بَيْد أنِّي عثرتُ على هذه الصُّورة: يُخيَّل إليَّ أنَّها لم تتمكَّن من تمزيقها. لعلَّ أحدهم التقط الصورة ثمَّ أهداها لأمِّي على سبيل التذكار. تسمح صورة ذلك الطفل بمعرفة التاريخ الذي التُقِطَت فيه، على أعتاب سينما عتيقة في بارباسترو، لم تَعُد على قيد الوجود. كانت تُدعَى سينما أرخينسولا. تهدَّم البناء منذ ما يربو على عشرة أعوام، بسبب تآكل الخرسانة. ولكنْ هذا لا يجدي نفعًا إن شئنا الوقوف على تاريخ الصورة. على عكس المُلصَق المُعلَّق خلف الطفل الشيطانيّ. إنَّه إعلان فيلمٍ إسبانيٍّ

بعنوان الحمام، يعود إلى عام 1964، لعب فيه دور البطولة المُمثِّلان غراثيتا موراليس وخوسيه لويس لوپيث باثكيث، وكلاهما فارق الحياة، بطبيعة الحال.

LOS PALOMOS

تبدو اليد التي لا تمسك السعفة وكأنَّها طرفٌ صناعيٌّ من النَّحاس.

كرهَتْ أمِّي الذكريات. ولقد انطوَت تلك الكراهية على شيءٍ غريزيٍّ، راقٍ. ازدرَت أمِّي الذكريات، التي كانت تُشعِرها بالنفور والخزي.

في خبث، عرفت أنَّ شيئًا لا يجب أن يُذكَر. وهكذا، يملك المرء على الموت سلطة.

ماذا جاء يفعل في هذا العالَم ذلك الطفل، أيْ تلك الدُّمية الشيطانيَّة الظاهرة في الصورة؟ جاء للمضيِّ قُدمًا في بلدٍ يُدعَى إسبانيا.

آكل كعكةً فيما أنظر إلى صورة الدمية الشيطانيَّة. أفكِّر في الجوع، في نوبات الجوع. طبقًا لما قالَت أمِّي، كان إطعامي في الصغر عذابًا. أجل، يبدو أنَّها حقيقة. خالتي ماريا كالاس قالَت الشيء نفسه. كنتُ أرفض الطعام، فيُضطرُّون إلى إطعامي بمشقَّة. حتى كدت أموت من فرط الجوع. ليت سوء التغذية لازمني! لو أنَّه قد لازمني لما كنتُ الآن أحصد الموتى، وأنصت إلى موسيقى الموتى. كنتُ واعيًا بما أفعله، لم أرِد أن يدخل جسدي أيُّ شيء، لم أرِد أن يقتحم جوفي أيُّ شيءٍ خارجيّ، لم أرِد أن تتلوَّث أعضائي، ودمي، ولَحمي الذي لا تشوبه شائبة. لم أرِد أن تمسّ الحياةُ معدتي، وكبدي، وكليتيَّ. بل إنِّي رغبتُ في العودة من حيث جئت، العودة إلى أمِّي.

دعَت الضرورة إلى احتجازي في إحدى العيادات وأنا لا أكاد أتجاوز الثلاثة أعوام، لأنِّي امتنعت عن الطعام. والآن، من الساخر أنَّ القلق صار يحملني على تناول الطعام. أمضي يومي في حساب ما أتناوله، وقياس السُّعرات الحراريَّة. مَن يأكل يبحث عن تجديد الحياة. إذ يشتمل الطعام على أمرٍ بصيانة آلات الحياة، ولكنَّ العمر يتقدَّم بالآلات، فيحترق الوقود في أجسادٍ صارَت بلا نفعٍ يُرتجَى. للشيوخ الجياع أجسادٌ ما عادَت تعمل، بل إنَّها تكتفي باستهلاك الطعام، كالسيَّارات التي تحرق الزيت، السيَّارات الكثيرة الاستهلاك، الضعيفة الأداء.

هكذا هم الشيوخ، كثيرو الاستهلاك، ضعيفو الأداء، وذلك ما تعنيه الشيخوخة.

كانت الصلة التي جمعَت بين الشقيقتَيْن، ماريا كالاس وفاجنر، صلةً مُميَّزة، مُستتِرةً جدًّا، وعميقةً جدًّا. كانت ماريا كالاس طِيبةً خالصة، فلم تبدُ طِيبتها مغريةً لفاجنر. كانت ماريا كالاس تكبر فاجنر بثمانية أعوام. ولقد شبَّت كلتاهما معًا، وعرفَت كلٌّ منهما عن الأخرى الكثير.

والآن، ما عدتُ أدري من سبقَت الأخرى إلى الموت.

ماريا كالاس، أجل. فلم تحضر فاجنر جنازة أختها، حتى أنا لم أحضر.

لا فاجنر ولا أنا حضرنا جنازة ماريا.
كم أشبه أمِّي، أيَّ تطابقٍ تامّ!

أتوقَّع سماعَ عبارةٍ من شفاه شبحَيْ أبي وأمِّي متى ذهبتُ إليهما. سوف يقولان: «نكاد لا نذكرك».

إنَّها العبارة نفسها التي تخطر على بال فالدي وبرا حين ينظران إليَّ، «نكاد لا نذكرك».

قبل موتها بعامَيْن، تورَّم جسدُ أمِّي. وقبل موته بعامَيْن، تقلَّص جسدُ أبي: وإذا الأولى تغدو كرةً والثاني يغدو وتدًا.

أفقتُ لتوِّي في رانيَّاس. ليس لديَّ ما أفعله طوال اليوم!

من كان وحده أهمل نظافته. لم أرث عن أبوَيّ عادةَ النظافة، وكيف لنا بالاغتسال في ذلك البانيو الصَّغير اللَّعين! زد على ذلك كارثةً أخرى جاءت لتبقى: ظلّ مقدار المياه الخارجة من المواسير في تناقص، حتى لم يعْدُ أن يكون خيطًا هزيلًا من المياه. تراكم الكلس في المواسير. فصار من الضروريّ تبديلها. ولكنَّ والدتي كانت تعيش في بيتٍ بالإيجار (مدى حياتها). ولذا، كان يُفترَض بمالكة البيت أن تتولَّى تلك التَّصليحات وتتكفَّل بمصاريفها. ولكنَّ مالكة البيت رفضَت رفضًا قاطعًا، فهي لم ترِد من أمِّي سوى الرحيل، لأنَّها كانت تسكن تلك الشقَّة بموجب عقد إيجارٍ قديم، وتدفع إيجارًا بخسًا للغاية.

عاشَت هناك منذ عام 1960.

أرادت المالكة أن تكسب المزيد من المال، وهي ابنة مالك البيت الأصليّ الذي مات بنوبةٍ قلبيَّة في عمر الشباب. كادَت أمِّي تشهد موت عائلة المالك عن آخرها. شهدَت موت الرجل الذي ابتنى البيت وأجَّر الشقق، الرجل الذي شعرَت نحوه بالتَّقدير، وجمعَتها به علاقةٌ طيِّبة. ثمَّ إنَّها شهدَت موت أرملته، التي ورثَت عنه النشاط التجاريّ. ومن دواعي الأسف أنَّها لم تشهد موت الابنة. إذ كانت الابنة هي التي شهدَت موت أمِّي.

إمَّا تشهد موت الآخرين وإمَّا يشهد الآخرون موتك.

كان جسدُ أمِّي يحتفظ بالسَّوائل على الرَّغم من امتناعها عن الطعام. فلم تفهم لماذا يزيد وزنها، ما دامَت لا تتذوَّق الطعام.

لم يكُن الطفل الشيطانيّ يأكل. أمَّا الرجل الذي تحوَّل إليه الطفل الشيطانيّ فيأكل ويأكل حتى لا يسمع للعالَم صوتًا، حتى لا يسمع للأشياء الحيَّة صَخَبًا. إنَّ الأشياء الحيَّة متى تعفَّنَت أحدثَت صَخَبًا.

كان أبي يأكل بسرعة، بسرعةٍ بالغة، وقد تملّكَته رغبةٌ تأسُّليَّة في الطعام، رغبةٌ مُتوارَثة، تراثيَّة، وفاءً لذكرى الزمن الذي هيمن فيه الجوع على الكوكب، وفاءً لذكرى الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة، وفاءً لذكرى مبدأ القلق الكونيّ، المبدأ الأخلاقيّ الوجوديّ. كان يأكل بسرعة، بينما الطفل الشيطانيّ لا يأكل، لأنَّه لا يريد أن يصبح رجلًا آخر يأكل بسرعة، رجلًا آخر تجمعه بالطعام علاقةٌ سيِّئة، ذلك الصنف من الرجال، الصنف الذي يستمدّ من الكائنات الأخرى شبعًا لا يُشبِع.

كان موت أبي يُمثِّل اختفاءَ لفتاته، ولون عينَيْه، وحركاته، التي لن أعاود رؤيتها ما حييت. كان يمثِّل اختفاء طريقةٍ في التَّعبير باليدَيْن، والذراعَيْن، والنَّظرات، والشَّفتَيْن، والساقَيْن. لو نسيت أبي، نسيت لفتاته. أولئك الذين لا نحتفظ لهم بأفلامٍ أو مقاطعَ فيديو يلقون موتًا أقرب إلى الكمال وأكثر فعاليَّة.

إنَّه اختفاءٌ مفعمٌ بالطاقة. لو كانت لأبي مقاطع فيديو، لأمكنني تذكُّر لفتاته، ولكنْ لم تُسجَّل له مقاطع فيديو، لأنَّه لم يرغب في ذلك يومًا، علمًا منه أنَّ تلك اللَّحظة آتية، اللَّحظة الكبرى، آخر يوم في الحياة، اللَّحظة التي نتحقَّق فيها من عدم وجود دليلٍ واحدٍ يُثبِت أنَّ ذلك الإنسانَ كان على وجه الأرض ذات مرَّة.

إنَّها عظمةُ الوداع، الارتقاء بالوداع. لن أعاود رؤيته ما حييت، أكرِّر وكأنَّه شعار. وهنا تتجلَّى عظمةُ الوداع. إذًا، فالإيمان شيءٌ طبيعيّ، إذ يتعذَّر عليك القبول بفكرة استحالة رؤيته مرَّةً أخرى ما حييت، لسببٍ بسيطٍ مُؤدَّاه أنَّه ليس هناك. لو مددت يدي لمستُ ضياءه.

لا يتحرَّك.

ها هو ذا هناك، يرنو إليّ.

أحيانًا، كنتُ ألتقي في المصعد بأبي الذي يرتدي بدلته دومًا، ويبدو بمظهرٍ أنيق، في منتهى النظافة، مع أنَّنا لا نملك دشّ. أتحدَّث عن 1978 أو 1979، عن هذيْن العامَيْن. ومن دون علمٍ بأنَّه في المصعد، كنتُ أفتح الباب، فأجده هناك، يبتسم لمرأى الذعر الذي تملَّكني عندما فتحتُ الباب، وكأنَّه قد استعدّ لذلك الظهور المفاجئ، وكأنَّه والد هاملت!

كان أبي يبدو بمظهرٍ حسنٍ جدًّا في المصعد. في تلك المصاعد العتيقة، المصنوعة من الخشب والزجاج، كان يبدو وكأنَّه نبيلٌ يرقد في نعشٍ ذي أبواب. شهدتُ تغيير المصعد في ذلك البيت. كان أوَّل بيتٍ يُزوَّد بمصعدٍ في بارباسترو بأسرها، حتى أُطلِق عليه في الستِّينيَّات «بيت المصعد». بل وكان للبيت حارسة عقار، اسمها مانويلا، لم تستمرّ طويلًا. جمعَت بينها وبين أمِّي علاقةٌ سيِّئةٌ للغاية. سكنَت في حُجرةٍ صغيرة، ثمَّ اختفَت الحُجرة بعد إصلاح المصعد. هناك سكنَت مانويلا، التي ربَّما كانت امرأةً جافية بعض الشيء. نعتَتها أمِّي بالمشعوذة. وكنتُ أخافها. في يومٍ من الأيَّام السارَّة، ذابَت مانويلا في الفضاء؛ أمَّا الحُجرة حيث كانت تختبئ، فلقد ابتلعها مُحرِّك المصعد الجديد. وعلى الرَّغم من ذلك، فها هي ذي تبدو أمامي في هذه اللَّحظات: كانت سيِّدةً مُتقدِّمةً في العمر، على عينَيْها نظَّارة، شعرها مُصفَّفٌ على شكل كعكة، ضئيلة الجسد، محنيَّة الظهر، تتذمَّر بسبب القمامة، تظهر وكأنَّها تلبِّي تعويذة، تجادل أمِّي، ولكنِّي أذكرها شاعرًا بالبهجة في الوقت نفسه.فحارس العقار يضفي بهجةً على البيت دائمًا، ويرمز إلى العمر المُتوقَّع للبناء، والإسمنت، والأعمدة، والجدران الفاصلة، والأدراج، والواجهة، والطرقة، والمصابيح، واللَّافتات التي تحمل أسماء الجيران. كانت بيوت ذلك البناء تُعرَض للإيجار، وهكذا توافد المستأجرون العابرون طوال الوقت، من أولئك الذين أمضوا بضعة أعوامٍ في بارباسترو ثمَّ رحلوا إلى مدنٍ أخرى، بسبب ظروف العمل التي كانت تضطرُّهم إلى التجوال. كانت تنشأ الصداقة أو ما يشبه الصداقة بين أبوَيّ وبين الجيران، الذين يختفون لاحقًا. رحلوا جميعًا، جارًا تلو الآخر. كانوا يجدون عملًا أفضل أو يحصلون على ترقيةٍ في شركاتهم، فينتقلون إلى مدنٍ أكبر. لم يبقَ سوى يوهان سباستيان وفاجنر في الدَّرَج كاملًا، وكأنَّهما ناجيان، يؤلِّفان الموسيقى العتيقة من أجل لا أحد. أمَّا مانويلا، حارسة العقار، فلا أعلم من أين جاءت ولا إلى أين ذهبَت، لا أدري ما إذا كانت لها أسرة، ولا أدري ما إذا كانت شبحًا!

كلاهما شاب، يتأهَّب للاتِّصال بي من وسْط العتمة. أمَّا أنا، فلا ولم أكُن قطّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد شعرَتْ جميع الأشياء بي قبل ملايين السنين. جميعنا سبقه الشعور به. في إمكاني السفر عَبْر الزمن ورؤية خوان سباستيان يربّت على فاجنر ويقبِّلها، وأنا هناك، أترقَّب استحضاري.

في لذَّته تكمن أصولي، في شجنه المتواري خلف الحبّ يكمن خلق الشراهة التي تستحوذ على روحي.

أرى الحُجرة ـ إنَّه خريف عام 1961، في منتصف نوفمبر، والبرد لم يأتِ بعد، الأجواء في الشارع طيِّبة، وقد فتحا باب الشرفة المُطلَّة من مخدعهما حتى يسمحا لنور القمر بالنفاذ إلى المكان، يبدوان في ريعان الشباب، في منتهى الشباب، إلى درجةٍ تحملهما على الظنّ بأنَّهما خالدان، ها هما عاريان، وباب الشرفة مشرع.

«في الجوّ برودةٌ طفيفة»، يقول يوهان سباستيان. ثمَّ إنَّه يستغرق في النظر إلى جسد فاجنر العاري، وأنا في ذلك البطن. تشعل فاجنر سيجارة إل أند إم، ومصباح الطاولة الصَّغيرة يلقي بضوءٍ خافت. تشيع في الحُجرة نسائمُ السعادة الغامرة. الجدران تغنِّي، والستائر، والملاءات. اللَّيل يغنِّي. في العام الجديد، عام 1962، سيعرفان أنَّ فاجنر حُبلى. ولكنَّهما لا يحدسان بطبيعة الطفل الآتي. ولا أنا أعرف أيّ صنفٍ من صنوف الأطفال هو. في ليل نوفمبر، وبعد أن يستحضرني يوهان سباستيان في رحم فاجنر، يخرج إلى الشرفة المتناهية الصغر، شرفة البيت الذي سيكون بيتي، ويرنو إلى الليل، ذلك اللَّيل الذي يسري السِّحر في هوائه، يرنو إلى البيوت المقابلة، والشارع الذي لم يُرصَف بالأسفلت. انتقلا من فورهما إلى ذلك البيت الجديد، المُزوَّد بمصعدٍ تفوح من أخشابه رائحة الورنيش، بينما الشارع لم يُرصَف بعد، وكلُّ شيءٍ جديد، المصاريع الخشبيَّة، البلاط، الجدران، أبواب الحُجرات، التي يمكن إقفالها على أكمل وجه، وسوف يتعذَّر إقفالها جميعًا بعد مضيِّ خمسين عامًا، سوف تتهشَّم، وتتفكَّك داخل أُطُرها. لم أرَ تلك الشقَّة جديدةً قطّ. لم أرَ سوى الحالة المتدهورة التي آلَت إليها، ولكنْ في ذلك الحين، ليلةَ حبلَت بي أمِّي، كان البيت لامعًا، حديث البناء، تفوح منه رائحة الجديد.

ليس لك أن توقظ الموتى، لأنَّهم في راحة.

ولكنَّ تلك اللَّيلة، من ليالي نوفمبر عام 1961، كانت وما زالت على قيد الوجود. تلك اللَّيلة، ليلة الحبّ، وتلك الشقَّة العصريَّة، والجدران المطليَّة

حديثًا، وقِطعُ الأثاث الجديدة، وأيدي الزوجَيْن الشابَّيْن، والقُبلات، والمستقبل الذي لا يعدو أن يكون فكرةً تثير الآمال، وقدرة الجسدَيْن.. كلُّها أشياء ما زالَت باقيةً فيَّ أنا.

أيَّتها اللَّيلة المشهودة من ليالي نوفمبر عام 1961، أيَّتها اللَّيلة الهادئة، الحميدة، العذبة، ما زلتِ على قيد الحياة. أيَّتها اللَّيلة، ها أنتِ باقيةٌ لا ترحلين. بل إنَّكِ ترقصين معي رقصة حبّ.

خاتمة

العائلة والتاريخ

المحرقة

سألتُهم عن المحرقة، سألتُ أولئك الرجال،
كانت ليلة الثامن عشر من ديسمبر عام 2005،
على طريق مونثون، «وأنت لا تدري أين تقع مونثون»،
إنَّها قريةٌ ضائعة في قلب الصحراء.
أهواء العاصفة في الأعالي، فوق اللَّاشيء العاري
كعروسٍ تزوَّجَت حديثًا، والقمر يسري عَبْر الطرقات الميِّتة.
مونثون، بارباسترو... أمكنتي المعهودة على الدوام.
سُمِح لي بالنظر من ثقب الباب، وإذا النعش هناك
يحترق،
وخشب النعش يتشقَّق، ويتَّقد بالأحمر الحيّ.
أشار الترمومتر إلى ثمانمئة درجة.
وطافَت بمُخيِّلتي الحال التي آل إليها والدي في الصندوق.
والصندوق في النيران، وقلبي في هلع.
حتى الرَّغبة في الكراهية كانت في سبيلها إلى التخلِّي عنِّي.
تلك الرَّغبة التي أبقَتني على قيد الحياة طوال هذه الأعوام.
ورغبتي في الحبّ، ماذا كان من أمرها؟ أتعلم أنت،
يا سيِّد الميتات العظيمة، يا من تقود سجناءك السياسيِّين إلى الشراهة، وإلى الديمومة،
إلى أبديَّةٍ لا شبع فيها.. أوه، أيُّها الوغد،
يا من تنزع عنِّي،
حبّ الرَّب! أوه، أيُّها الوغد،
اجعل لذلك الرجل ملاذًا وسط الصحراء.
أو لا تجعل له ملاذًا،
فيمَ قد يهمُّني حضورك
الذي يبثّ البرد الجليديّ في تلك اللَّيلة،
ليلة السكّير الذي كنتُ، وسأكون، ضدَّك أنت، أو معك،
سيَّان، أيّ عظمة! سيَّان.

البداية والنهاية، سيَّان، أيّ عظمة!
الكراهية والحبّ، سيَّان، القبلة والردف،
سيَّان، الجنس الرائع في أوج الشباب،
وشيخوخة اللَّحم وعفونته،
سيّان، أيّ عظمة!
«المحرقة تعمل بوقود الديزل»، قال الرجل.
ننظر إلى المدخنة،
ولأنَّ الوقت كان ليلًا،
تصادمَت ألسنةُ اللَّهب
في سماء ديسمبر الباردة،
أراضي مونثون الخلاء،
القريبة من بارباسترو، والثلج يتساقط في الحقول،
ودرجة الحرارة ثلاثة تحت الصفر،
تلك الحقول بمن فيها من المُشعوِذات ومصَّاصي الدماء
والكائنات التي تشبهني،
«مِن هنا يصعد كلُّ شيء»، عاد الرجل يقول،
رجلٌ بدينٌ هادئ،
يرتدي ثيابًا خفيفةً على الرَّغم من الثلوج المتساقطة،
وبطنه الثقيل يكاد يكون مكشوفًا،
«يستغرق الأمر ساعتَيْن أو ثلاثًا، ذلك رهنٌ بوزن الفقيد»،
قال «الفقيد»، وإن راح يفكِّر في اللَّحم، وجوال الخراء،
«سبق لنا أن حرقنا رجلًا يزن مئة وعشرين كيلوغرامًا،
فاستغرق طويلًا»، قال.
ثمَّ أردف: «طويلًا جدًّا، وفق ما يتراءى لي».
«أبي لا يزن أكثر من سبعين كيلوغرامًا»، قلتُ أنا.
«حسنًا، في هذه الحالة، سوف ينقضي الأمر أسرع كثيرًا»، قال الرجل.
وصار النعش ذرَّاتٍ من هواءٍ أو دخان.
في اليوم التالي، عدتُ وأخي
فأعطونا جرَّة حفظ الرماد، انتقينا جرَّةً بخسة الثمن،
وإن كان من الواضح

أنَّ ثمن بعض الجرار قد يصل إلى ستَّة آلاف يورو،
هكذا قال الرجل.
«ما نحن إلَّا هذا»، أصدر الرجل حكمه بطريقةٍ شعائريَّة،
بقصد التحوُّل إلى كائنٍ بشريّ، في حين لا هو ولا نحن ندري ما الكائن البشريّ،
ثمَّ إنَّه ناولني جرَّة الرماد محفوظةً في كيسٍ أزرق.
فكَّرتُ فيه، في بدانته، في الوقت الذي سوف يستغرقه هو،
حتى يحترق في محرقته الخاصة!
وكما لو أنَّه قد سمعني، قال: «أطول كثيرًا من أبيك»، ثمَّ ابتسم ابتسامةً مريرة.
عند ذاك، قلتُ له: «أما أنا، فلسوف أستغرق دهرًا كاملًا حتى أحترق،
لأنَّ قلبي حجرٌ مصمت ولحمي فولاذٌ وحشيّ،
وروحي بركانٌ من الدماء تُقدَّر حرارته بثلاثة ملايين درجة،
لن أكاد أمسّ محرقتك حتى أحطِّمها،
صدِّقني، سأكون خرابًا عليك،
خيرٌ لك ألَّا أموت قريبًا من هنا».
قريبًا من هنا: أراضي مونثون الخلاء،
طرقاتٌ إقليميَّة،
بارباسترو عن بعد، أضواءٌ رديئة،
والحرارة بلغَت أربع درجاتٍ تحت الصفر.
خذ رماد أبيك، وارحلْ عن هنا.
أجل، هأنذا راحل، وليتني كنتُ قادرًا على الاحتراق مثلما احترق أبي،
ليتني كنتً قادرًا على الاحتراق.
اليد أو اللسان أو الكبد، الذي أودعه الرَّب
في طيَّات نفسي،
تلك الحياة من الوعي الذي لا يخمد ولا يُرَدّ،
عدم انقراض الشرّ والخير،
اللذيْن هما واحد، فيه هو.
عدم انقراض كياني.
ليت محرقتك، بحرارتها التي تبلغ ثمانمئة درجة،

تحرق كياني.
ليتها تحرق لحمًا حرارته ألف مليون درجة
تفتقر إلى الإنسانيَّة.
ليت أنَّ هنالك نارًا تُخمِد كياني.
سيَّان عندي، طيِّبًا كنتُ أو شرِّيرًا.
إخماد كياني، ثمَّ إخماده، ثم إخماده، ذلك هو المجد.
خُذ رماد أبيك، وارحل عن هنا.
لا تعُد إلى هنا ثانيةً، أرجوك، سوف أصلِّي من أجل أبيك.
كان أبوك رجلًا صالحًا، أمَّا أنت فلا أدري! لا تعُد إلى هنا ثانيةً،
أرجوك. من فضلك، لا تنظر إليّ، من فضلك.

«كان يمتلك سيَّارة سيات 124 بيضاء، ويذهب إلى ليريدا،
ويزور خيَّاطي ليريدا وتيرويل،
ويأكل مع خيَّاطي ثاراغوثا،
أمَّا الآن، فلم يَعُد هناك خيَّاطون في أيِّ مكان»،
هكذا تكلَّم الصوت.
كم صرتُ وحيدًا، يا بابا.
ماذا أنا فاعلٌ الآن، يا بابا.
لن أعاود رؤيتك ما حييت.
أينك؟ هل أنت معه هو؟
كم أنا وحيدٌ، هنا، على الأرض.
كم صرتُ وحيدًا، يا بابا.

أمَّا أنت، فلا تُضحكني، أيُّها الأحمق.
أوه، يا ابن العاهرة، كنتَ معي هناك،
حيث كنتُ أنا، من دون أن تتحرَّك بعيدًا عن ألسنة اللَّهب.
سافرتُ كثيرًا في العام الجاري، كثيرًا، كثيرًا.
في جميع مدائن الأرض، وفنادقها الجديرة بالتذكُّر،
والفنادق القذرة، غير الجديرة بالتذكُّر،
وفي كلِّ الشوارع، والسُّفن، والطائرات،
وفي كلِّ ضحكاتي، هناك كنتَ أنت،

مستديرًا، كالذكرى المهمَّة، المسكونيَّة، المضيئة،
مستديرًا كالرَّحمة، والعطف، والبهجة،
مستديرًا مثل قرص الشمس، والقمر،
مستديرًا كالمجد، والسُّلطة، والحياة.

بورتريه

«ويا لشجاعته!»، خورخي مانريكي

برأسٍ كبير، جمعَت بينه وبين الشمس أخوَّة.
وبيدَيْن مفتوحتَيْن، مثل قبَّة السماء.
أنيقًا، عتيقًا،
كولونيل الشرايين،
وسلاميَّات أصابعه المخذولة.
بشرةٌ محمرَّةٌ وشعرٌ أبيض على الدوام.
لا كان أحدًا، ولا امتلك شيئًا،
لا سلطة ولا نقودًا.
كانت له سيَّارةٌ عتيقة، قضَت نحبها.
وبلغ طول قامته مترًا وثمانين سنتيمترًا.
عاش وكأنَّ إسبانيا، والتاريخ،
والعالَم، بلا وجود.
وكأنَّ الشرّ بلا وجود.
استهوَته قرى أويسكا الهادئة
والجبال الساكنة.
وقبل أن يغدو
كائنًا بشريًّا يُدعَى بيلاس
كان صمتًا كونيًّا.
قبل أن يغدو أطول الرجال قامةً في طفولتي
كان مجهولًا.
سيِّد حقيقتنا، الذي مضى بها بعيدًا.
لو أنَّ الموتى يترقَّبون شيئًا، فهم يترقَّبون موتنا.
أشرب نخب غموضك.

تاريخ إسبانيا

فقيرًا كان أبي، فقيرًا جدًّا،
وفقيرًا كان والد أبي،
حتى أنا فقير.
لم نعرف ما التملُّك يومًا
ولم نعرف لفقرنا سببًا
ما دام الآخرون ليسوا فقراء.
لم نتملَّك أيَّ شيء،
مطلقًا
ثلاثتنا.
أمضينا حياتنا نراقب
كيف يثري الآخرون.
أن يكون المرء خالي الوفاض، يقتل الدمّ، هنا،
في إسبانيا، لا تزول عنك رائحة الفقر أبدًا،
بل إنَّ فقرك يتحوَّل في النهاية إلى شعورٍ بالذنب،
إنَّه فنٌّ أخلاقيٌّ بحقّ.
فقراء ومذنبون،
والد أبي،
وأبي
وأنا.

المطر[30]

مدريد، 22 مايو 2004

رأينا السيَّارة الرولز موديل عام 53، بإطاراتها البيضاء،
(ألف كيلومتر على مدى خمسين عامًا) على تلفزيونات الحانات، في حيّ أكتور بثاراغوثا.
كنتُ ممسكًا بكأسٍ من النبيذ الأبيض البارد
وقد خيَّم القيظ على إسبانيا،
في فنادق البحر المُتوسِّط جرى تنظيفٌ شامل،
حُجراتٌ مفتوحة، وفيها نادلات مجتهدات، يترقَّبن
وصول سبعمئة ألف إنجليزيّ،
ومليون ألمانيّ، وأربعمئة ألف فرنسيّ،
ومئة ألف سويسريّ، ومئة ألف بلجيكيّ.
كانت كؤوس النبيذ الأبيض في أيدينا
وقد اشرأبَّت أعناقنا صوب التلفزيون.
لم تحضر إيزابيل الثانية ملكة إنجلترا،
إيزابيل الثانية لا تقبل سوى حضور زفاف ملك فرنسا،
ولأنَّ فرنسا لا ملك لها، فإيزابيل الثانية باقية في القصر إلى الأبد،
مُتَّكئةً على العالَم.
إنَّهم رعيَّة إيزابيل الثانية الذين يعشقون شمس إسبانيا،
والبيرة البخسة،
أولئك الذين يستعرضون الراية البريطانيَّة
في الشرفات المُطلَّة على البحر.
بيوتٌ ملكيَّة غسقيَّة،
آتيةٌ من الأركان الأشدّ صدأً على مرّ التاريخ،
ظهرَت على شاشات التلفزيون الإسبانيّ في الثاني والعشرين من مايو عام 2004
بلدان إسكندنافيَّة، نائية، ثريَّة، باردة، بعيدة
عن هذا القلب الذي لا ينضب.

روكو باريلا (Rouco Varela) يرفع القدّاس الإلهيّ.
لم يحضر رئيس الجمهوريَّة الفرنسيَّة.
رؤساء الأساقفة، بلونَيْهم، سعداء.
واسم الرَّب يُتلَى بصوتٍ مسموعٍ مرَّاتٍ كثيرة.
الهَوَس العنيد، الهَوَس بذكر اسم الرَّب،
ذكر اسمه كمَن يذكر السُّلطة، المال،
القيامة، المقصلة، السجن، العبوديَّة.
بقي أمبراطور العالَم في أميركا،
بعيدًا عن طقوس أقاليمه الصغرى.
المظلَّات الزرق العملاقة.
القيام في السادسة صباحًا
لتزيين وجهك، وإزالة شعر جسدك، وطِلاء الأظافر،
أيّ سعادةٍ غامرة!
وجبات الفطور العامرة، وأدوات المائدة الفضِّيَّة،
خير صنوف النبيذ والعطور الرائعة.
الدشّ العملاق، وأجنحة الفندق، وقطع الشوكولاتة السويسريَّة،
الأخفاف الذهبيَّة، والسراويل الداخليَّة البلاتينيَّة،
عصارة ثمرات البرتقال الفظيعة.
الرفاهية والخدمة، والناس يفتحون لك الأبواب دومًا.
الابتسامة الدائمة.
المحترفون ذوي الابتسامة الدائمة،
تلك الابتسامة التي تمثِّل العمل الأشدّ جفاءً على مرّ التاريخ.
الابتسام؟ ولمَ؟
أومبرال (Umbral)، وغالا (Gala)، وبوسيه (Bosé) و«أ.» (A.)، و«خ.» (J.)، وأيالا (Ayala)،
يدلفون إلى كاتدرائيَّة ألمودينا،
وقد نالوا مكافأتهم، ووقع عليهم الاختيار،
وجلسوا على اليمين، رؤساء المخابرات الإسبانيَّة،
الصعود الإسبانيّ، النموّ الكبير.
الصعود الكبير، الارتقاء الكبير.

أمَّا المئة والتسعون الذين أحِرقوا وهم على قيد الحياة،
فها قد نالوا تكريمهم،
والشعب العبثيّ المُشوَّه، الشعب الغوياوي [31]
البدائيّ، نصير الملكيَّة،
مرَّت السيَّارة الرولز من أمامهم.
وشرب رئيس الحكومة السابق نبيذَ ريوخا ريسيربا من عام 94،
جميع رؤساء إسبانيا السَّابقين، بستراتهم،
ونساؤهم في الخلفيَّة،
حاميات، مُفترَسات، حائرات إلى الأبد،
على سعادتهنَّ بالوصول إلى هناك،
بعيدًا، حيث الهواء من ذهب، حيث العالَم في راحة اليد،
حيث إسبانيا بأسرها تودّ لو كانت هناك،
حيث الشرعيَّة الديمقراطيَّة وهجٌ حاسم.
القبَّعات القزحيَّة، والنير على الرأس،
النير تحت السماء الداكنة.
وخوسيه ماريا أثنار (José María Aznar) وچوردي پوچول (Jordi Pujol) وفيليپي غونثاليث (Felipe González)، معًا من جديد.
ثلاثتهم راضون، يشاهدون العمل المُتقَن،
خلافة فرانكو، اليد الأوروبيَّة، الأبويَّة،
فوق رؤوسنا،
خلافة فرانكو، أوشحة الفرانكيَّة
التي زُجّ بها في الخزائن،
وراحت تصرخ حسدًا، وتتنفَّس النفتالين الناصع البياض.
وخوان كارلوس الأوَّل (Juan Carlos I) يحمل إسبانيا على عاتقه،
وإلَّا فمن يحمل على عاتقه إسبانيا!
وتاريخ إسبانيا، والختم البابويّ حول الخنصر.
وثاپاتيرو (Zapatero) مع زوجته سونسوليس (Sonsoles)، المثيرة، الباسمة،
كان الشاعر بودلير أو الفنان خوليو روميرو سيُعجَبان بقامتها.

بدَت سونسوليس وكأنَّها لوحةٌ من رسم الفنان ديلاكروا: الحرِّيَّة التشريحيَّة تقود الشعب،
قبَّعات زاهية، الشعائر السياسيَّة،
التاريخ الباعث على الضجر،
الصدور المُتهدِّلة.
اجتمع اشتراكيُّون وليبراليُّون ومُؤيِّدون لسلطة البابا،
وتزوَّج اليسار باليمين،
وزادَت الرواتب إلى حدّ الشبع،
والكلّ يبحث عن الشيء نفسه،
بدَت سونسوليس وكأنَّها لوحةٌ من رسم ديلاكروا،
ملكة إسبانيا الجديدة،
توزيع المكاتب، والأمجاد،
الرحلات الطويلة إلى أرجاء العالَم على متن الطائرات الرَّسميَّة،
الذهب العلمانيّ.
مُلحِدون تحوَّلوا تحت وهج القبَّعات،
مؤمنون حافظاتهم ملحدة.
واحدة هي السلطة في كلِّ زمان.
تاريخ البشر في كلِّ زمان، مثلما كان منذ أمدٍ بعيد.
واحدٌ هو الزمان أبدًا.
يتكرَّر جوهر إسبانيا، جوهر العالَم الكبير.
وها نحن نشرب في أكتور، قرب الرافعات ومتجر إيپركور،
سعداء لأنَّهم سمحوا لنا بشرب هذا النبيذ
البارد، في كأسٍ تكاد تكون نظيفة،
سعداء، بالقدرة على دفع ثمن هذه الكأس من النبيذ،
وكأسَيْن أخريَين.
والشحوب الخاصّ، شحوب رانيا ملكة الأردن.
والمطر.

أويسكا، 1969

كان أبي يأخذني إلى أويسكا،
عاصمة إقليمنا.
أحبَّ أبي رفقتي.
كان له زبائن هناك.
إنَّها مدينةٌ صغيرة،
عامرةٌ بالمعارف.
كانت له أمكنته الأثيرة،
حانة، حانوت، متجرٌ حلوانيّ،
لم ينجُ واحدٌ منها إلى يومنا هذا.
حتى المدن ترحل، مع الراحلين.
أذكره باسمًا في الشرفات.
يبادر بالتحيَّة هذا وذاك.
كان عمره تسعةً وثلاثين عامًا آنذاك،
أمَّا أنا فسبعة أعوام،
سرنا يدًا بيد،
فراح ينظر إليَّ من آنٍ إلى آخر
ويقول اسمي في عذوبة،
التقينا في طريقنا بكهنةٍ وعسكر
ونساءٍ مذعوراتٍ في طريق إل كوسو ألتو،
وحافلاتٍ عتيقة،
وبضع درَّاجاتٍ بخارية،
بينما الشوارع مشمسة،
في سبتمبر عام 1969.

كمبريلس

صيف 1975

المرسيدس المكشوفة، والبي إم دبليو ذات عيون النمر،
البيجو، الألفا روميو، الأوبل، الفولكسفاجن.
إنَّه صيف عام 1975، في قرية كمبريلس السياحيَّة،
على ساحل تارَّاغونا،
الشمس ساطعةٌ والبحر المُتوسِّط فردوسنا.
في محلّ انتظار السيَّارات المُمتَدّ على مقربةٍ من البحر،
طفلٌ في ثوب السباحة،
يتأمَّل بفضولٍ عدَّاد سيارة بورش: 210، 230، 250، 270، 290.
أمَّا عدَّاد سيَّارة أبيه فينتهي عند 160 كيلومترًا في الساعة.
مع أنَّها سيَّارةٌ جديدة، الأفضل والأسرع،
على حدّ قول أبيه.
فيخيِّم عليه الحزن.
أولئك الناس بكلِّ ما لهم من قوامٍ فارعٍ وجمال، من أين جاؤوا؟
يبدو أنَّهم أسعد منَّا.
هناك شيءٌ يجري. شيءٌ يتصدَّع.
تلك السيَّارات، لا يملك صرفَ ذهنه عنها،
تلك الأشكال البالغة الاختلاف، تلك الماركات الغريبة،
التي يتعذَّر نطق اسمها،
تلك الإطارات البالغة الضخامة،
تلك العدَّادات الفلكيَّة.
رأى لتوِّه بي إم دبليو حمراء، وها هو ذا يُقرِّب وجهه من النافذة: 200، 220، 240، 260، 280 كيلومترًا في الساعة.
يتخيَّل العالَم بسرعة 280 كيلومترًا في الساعة
ويبتسم كإلهٍ في عمر المراهقة.
يسبح في البحر المُتوسِّط، في لجَّة المياه،
ظلّ يفكِّر في تلك الصناعة الغامضة،

صناعة السيَّارات، وفي تلك الأشكال الحارَّة، أشكال المادَّة.
عندئذٍ، عرف الطفل أنَّ المادَّة روحٌ مشرقة.
بهجةُ المُحرّكات المُتوهِّجة،
الأسطوانات، المقود المنحوت من الخشب الأصيل،
الإطارات وروحها العسكريَّة.
كان يمضي العطلة مُتأمِّلًا،
بدهشةٍ بليدة
وهوانٍ عصيٍّ على التوقّع،
في سيَّارات السَّائحين الأوروبيِّين.
في حنايا تلك السيَّارات سرٌّ أليم،
وشكلٌ من أشكال الفقر،
وقدر.

1980

أنظر إلى نفسي كلّ صباح، ما زال الوقت ليلًا،
على الضوء الكهربائيّ،
في مرآة الحمَّام التعيس،
وأنا في الحادية والخمسين التي أتممتُها لتوِّي، في وحدتي المطبقة،
وإذا بي أراك أنت،
في العمر نفسه،
في شتاء 1980.
أراك في السَّابعة صباحًا تحمل الحقائب
والعيِّنات في حقيبة سيَّارتك السيات 1430.
ربَّما كانت سيَّارتي أفضل منها.
تُقدِّم صناعةُ السيَّارات الغربيَّة إلى الطبقة الدنيا طِرازًا
مُزوَّدًا بالسرعة السادسة،
بل ومُكيِّف الهواء أيضًا.
أمَّا الراتب، فلا يتبدَّل.
وحتى البلد لا يتبدَّل.
أرى الوجه نفسه على صفحة المرآة،
الفجر الطاحن،
والعمل التعيس، وأرباح العمولة التعيسة،
تركض وراء العمولة في العراء مدى الحياة،
تلك التي لم تعُد عليك بشيء،
لم تعُد عليك بأيّ شيءٍ مطلقًا.
حاولتُ الكتابة، بينما عملتَ أنت مُمثِّلًا تجاريًّا جائلًا مجهولًا،
كلانا الشخص نفسه.
أين مقصوراتنا في أشهر كاتدرائيات إسبانيا،
في كاتدرائيَّة ليون،
وإشبيليَّة،
وبورغوس،

ومدريد،
وسانتياغو دي كومپوستيلا؟
أين وجوهنا البرونزيَّة المنحوتة،
والجروح في جنبي وجنبك؟
أنت، تقطع قرًى عبثيَّةً في أراغون،
تناضل من أجل بيع الأنسجة الكاتالونيَّة،
أنسجة الشركات الكاتالونيَّة المزدهرة
ـ شركات برشلونة، الناجحة
التي توثَّقَت علاقاتها الدوليَّة ـ،
تبيعها لخيَّاطين صُمّ، مساكين، تغشاهم العتمة،
في قرًى مُتأخِّرة،
في إسبانيا المُتجهِّمة، المُشوَّهة، إسبانيا العصور الوسطى.
كان رؤساؤك الكاتالونيُّون في العمل يربحون من المال الكثير، أجل.
أمَّا أنت، فلا شيء.
كلانا يحلق ذقنه في آنٍ واحد، أنت في عام 1980،
وأنا في عام 2013، وقد تطوَّرَت صناعة الحلاقة قليلًا،
إن شئت القول،
قليلٌ من العطر، وقليلٌ من الماء على الشَّعر.
كلانا يخرج في آنٍ واحد،
ويستقلّ سيَّارته،
في سيَّارتي موسيقى وفي سيَّارتك راديو فحسب،
سيَّارتك السيات 1430، وربَّما كان ذلك هو الفارق الوحيد،
يساعدني المُغنِّيان لُو ريد وجوني كاش بأغنياتهما،
أمَّا أنت فلم يساعدك أحد.
رحلتَ في الخامسة والسبعين.
أمَّا أنا فلسوف أرحل بعد خمس دقائق.
كلَّا، لا أودّ رؤياك على الجانب الآخر من المرآة.
لن أحتمل نظرتك الناريَّة،
نظرة الإدانة القصوى.

كوكاكولا

اشربْ الكوكاكولا عن آخرها،
لا تترك منها شيئًا.
حتى الثلج واللَّيمون، حتى آخر قطرة.
رنين المُكعَّب الصغير
وهو يصطدم بزجاج الكوب،
اشربها عن آخرها،
لأنَّ أحدًا لن يأتي،
حتى الثلج أطحنه بأسناني،
وأستعجل ظلَّ الماء.

شربتُها مع أبي
منذ ما يربو على الأربعين عامًا.
وبالأمس، شربتُها مع ابني.
واليوم، أشربها وحيدًا.
اشربها عن آخرها، لا تترك منها ولا حتى قطرة.

دانييل

النوم في البيت نفسه،
أنت في حُجرتك الصغيرة،
وأنا في حُجرتي، الصغيرة بدورها،
ولكنَّها أكبر من حُجرتك قليلًا،
إنَّه امتياز.
العلم بأنَّك على الجانب الآخر من الجدار يبعث في نفسي سلامًا.
ولكنَّك اليوم استغرقتَ في النوم،
وتأخَّرتَ على المدرسة.
لا تدري كم يؤلمني
أن تتغيَّب ساعةً واحدةً عن دروسك.
إنَّ قوانين البشر ـ التي أعرفها ـ تفتقر إلى المرونة،
وينبغي لك أن تتعلَّم التعايش وإيَّاها،
مثلما فعلتُ أنا.
رحتُ أفكِّر في مستقبلك.
كنتُ على استعدادٍ لبذل حياتي كي أشملك بالحماية غدًا،
لئلَّا يلحق بك أدنى ألم، أدنى تعاسة، لئلَّا يصيبك أيُّ سُمٍّ من سموم البشر.
أفتحُ نافذةَ حُجرتك وألقي نظرةً على أشيائك مُتأثِّرًا.
أعشق أشياءك.
أعشق خطَّ يدك، الصغير، العذب، المتواضع،
خطٌّ يليق بروحٍ مُفعمةٍ بالخير.
أعشق ثيابك المُعلَّقة في خزانتي،
سترتك البنِّيَّة،
مفتونٌ أنا بتلك السترة.
تلك الهشاشة التي يعبِّر عنها جسدك
تبعث فيَّ رعدةً وبهجةً في آنٍ واحد.
تضع السمَّاعات على أذنَيْك طوال اليوم، أحدِّثك فلا تسمعني.

تعيش من أجل التليفون المحمول،
لا تعيرني من حياتك إلَّا قليلًا،
وأنا الذي أعيش من أجلك أنت.
أحبّ إعداد شطائرَ طيِّبة من أجلك.
يخطر على بالي أنَّك سوف تحسّ بالجوع والنهار ينتصف.
أحدس بضعفك، فأشقى.
فيك سوف أغدو رمادًا
وحياتك الجديدة سوف تشهد
سقوطَ جميع الأشياء
التي جرحَتني.

بابا

لا تشرب أكثر ممَّا شربتَ، يا بابا، أرجوك.
لقد مات كبدك، وما زالت عيناك زرقاوَيْن.
جئتُ أبحث عنك. ماما لا تدري.
في الحانة، ما عاد النادل يبيعك شيئًا على الحساب.
همّ بالاتصال بالشرطة،
ولكنَّه نبّهني أنا أوَّلًا،
من باب الشفقة.
بابا، أرجوك، هلَّا أبديتَ ردّ فعل؟
مضَت شهورٌ وأنت لا تذهب إلى العمل.
لا يريدك الناس، لا أحد يريدك.
مُت بعيدًا عنَّا، يا بابا.
لم نفتخر بك يومًا، يا بابا.
أرجوك، مُت بعيدًا عنَّا كلّ البعد.
أنت مدينٌ لنا بهذا.
لطالما كنتَ في مزاجٍ عكر.
نكاد لا نذكرك، ولكنَّ النادل يتَّصل بنا من الحانة.
ارحلْ بعيدًا، أنت مدينٌ لنا بهذا.
إنَّه الصنيع الذي لا أسألك سواه.

974310439

تلك التي جاءت بي إلى العالَم، رحلَت اليوم عن العالَم.
وهي التي كانت تهاتفني في كلِّ وقت، لتعرف كيف حالي.
كم أسأتُ معاملتها، وكم أساء كلانا معاملة الآخر،
على كلِّ هذا الحبّ الذي بيننا
لم تعرفي عن حياتي إلَّا قليلًا في الأيَّام الأخيرة،
أخفيتُ عنكِ أحوالي المزرية، في زواجي، وفي كلِّ مكان
بَيْد أنَّكِ عرفتِ، لأنَّكِ عرفتِ كلّ شيء، في خاتمة المطاف.
رأيتِني أعاقر الشرابَ القويّ،
رأيتِ ذلك العطش الشديد الغرابة الذي استبدّ بي،
ذلك العطش المجهول عندكِ تمامًا،
ذلك الذي طالما أفزعكِ وأخافك.
لن يعود هناك من يهاتفني، بمثل هذا الهَوَس،
حتى يعرف ما إذا كنتُ على قيد الحياة،
ومَن ذا الذي قد يهتمّ، حيًّا كنتُ أو ميِّتًا؟
دعيني أجِبك عن السُّؤال: لا أحد.
وإليك السرّ العظيم:
هأنذا في هجرانٍ مطبق،
جاثٍ على ركبتَيّ
أترقَّب أن يُضرَب عنقي،
أترقَّب الوداع المُرتقَب، وداع هذا الجسد،
وهذا الوجود الذي لا يعدو أن يكون وجودًا اجتماعيًّا، مع الجيران،
هذا الوجود الذي يحمل اسمي،
اسمنا.
لن أعاود رؤية رقمك ما حييت،
على شاشة هاتفي المحمول، أنتِ، وأنتِ التي شكوتِ حالكِ
لأنَّكِ لا تملكين هاتفًا محمولًا،
لأنِّي لم أهدِك واحدًا،

أقسم لكِ إنَّكِ ما كنتِ تستطيعين تشغيله،
بل كنتِ ستلقين به من النافذة،
كما سأفعل بهاتفي اللَّيلة، ليلة الهَذَيان الأقصى.
لأنَّكِ كنتِ رقم هاتف. خمسون عامًا ونحن حبيسان في تلك الأرقام: تسعة سبعة أربعة، واحد وثلاثون، صفر، أربعة، ثلاثة، تسعة.
اتَّصلي به الآن لو تجرئين، لو فعلتِ لأجابتكِ جميعُ الأسرار التي لا حدّ لها: الزمن والعدَم، الغضبُ الأحمر
غضبُ أشدّ الأعاصير السماويَّة،
العدَم القاحل الأبيض، وقد استحال يدًا سوداء.
أينما ذهبتِ كنتِ تتَّصلين: في أميركا كنتِ أو في الشرق،
كنتِ تتَّصلين بابنك دومًا،
لأنِّي كنتُ عندك ربًّا، ربًّا خارجًا على القانون،
قديرًا، قدُّوسًا، وحده واقعيٌّ وكافٍ،
ابنكِ الخارج على كلِّ النّظم دومًا، المهيمن دومًا،
فلطالما نال استحسانَكِ كلُّ ما فعلتُ،
استحسانك الذي ينطوي على أخلاقيَّاتٍ ليسَت من هذا العالَم.
اعلموا هذا.
أنتِ، يا من أحببتِني حتى اليأس.
أنتِ، يا من بذلتِ دماءك فداءً لي، ولحياتي الجدليَّة القاتمة،
الحافلة بطقوسٍ تجهلين مغزاها،
وحسنًا فعلتِ، فلم يكُن هناك شيءٌ لتعرفيه، كما عرفتُ أخيرًا.
وبتلك المعرفة،
صرتُ أنا وأعظمُ البشر حكمةً سواء.
وهأنذا الآن مرَّةً أخرى على درب المحرقة،
كما نظمتُ قصيدةً بهذا العنوان،
تحدَّثتُ فيها عن زوجكِ، أبي،
الذي أحرقناه هو الآخر.
تبلغ حرارة تلك المحارق ألف درجة.
أبي العظيم، الذي وقعتِ في حبّه
ـ من يدري السَّبب! ـ

عام 1959،
وأيّ شيطانٍ يأبه لذلك إن لم أكُن أنا!
أنا الذي أحببتُكما حبًّا جارفًا على الدوام،
ولسوف أحبّكما حتى آخر دقيقةٍ من دقائق العالَم.
طبعتُ قبلةً على جبينكِ المُقدَّس المُثلَّج،
صبيحةَ يوم أحد،
في الرابع والعشرين من مايو عام 2014،
والأمطار تتساقط،
ذات ربيعٍ باردٍ على غير المُتوقَّع،
بينما آلةٌ مُتطوِّرة تزجّ بنعشك الرَّخيص
ـ ما أفقرنا! ـ
في النيران الأخيرة،
تلك التي مضينا بكِ إليها،
أنا وأخي.
أحسستُ بجبينكِ العتيق الذي قضي أمره
على شفتَيّ العتيقتَيْن اللَّتيْن قُضيَ أمرهما،
وإن كانت شفتاي لم تغيبا عن الوعي بعد،
أمَّا شفتاكِ فمن حسن الحظّ أنَّهما قد غابتا عن الوعي.
لم يخطر لي على بالٍ قطّ أن يكون الشعور الأخير
هو الحسد الذي شعرتُ به نحوكِ، الطمع في موتكِ،
طمعتُ في موتك،
لأنَّكِ تركتِني هنا،
في وحدةٍ مطبقة
لأوَّل مرَّة
على مدى تاريخ حبّنا المديد،
وحيدًا إلى الأبد.
أذكر الآن كلّ النساء
اللَّاتي رغبن في مشاركتي الفراش،
ومطارحتي الغرام،
وذلك ما آلت إليه حياتي في آخر الأمر،

بينما لم أرغب سوى في البقاء معكِ إلى الأبد.
آه، يا ماما، لم أدرِ أنّي أحبّكِ كل هذا الحبّ.
أمَّا أنتِ فقد عرفتِ، لأنكِ طالما عرفتِ كلّ شيء.
كم حسنٌ أنَّ كلّ شيءٍ قد انقضى،
في أمسيةٍ مذنبةٍ من أمسيات الربيع
حيث يبتدئ العالَم،
حيث ينتهي عالَمك،
حيث عالَمي لا ينتهي ولا يبتدئ،
وإنَّما يثابر قسرًا.
ما أحسن ذلك الصمتَ القادر على كلِّ شيء، هنا، في بارباسترو،
حيث كُنَّا أمًّا وابنًا، إلى أبد الآبدين،
هنا، في بارباسترو، في ذلك المكان الذي كان لنا بقوَّة،
لنا بكلِّ بساطة: هنا جرى كلّ شيء، في هذه الشوارع.
أذكر كلّ شيء، ولسوف أذكر كلّ شيء.
وأخيرًا، أحبّك.
كما لم أحبّ أحدًا: فكلهنّ نسخٌ منكِ أنتِ.
آه، كدتُ أنسى: كان في يدكِ أن تتركي شيئًا لتغطية نفقات جنازتك،
لا تعرفين مدى صعوبة أحوالي، ومدى فقري،
كم كنتِ مُبذِّرةً ومسرفة،
لا تعرفين قيمةَ أرخص النعوش،
على حدّ قولهم، أولئك السادة المُهذَّبين، مُتعهِّدي الجنائز.
كم كُنَّا فقيرَيْن، بائسَيْن، أنا وأنتِ، ma mère، يا أمِّي،
في إسبانيا، بلد أولاد العاهرات الذين يكنزون الثروات الفاحشة،
ومع ذلك، مع أنَّنا كُنَّا فقيرَيْن كالجرذان، أنا وأنتِ،
حافظنا على رباطة الجأش،
وكأنَّنا عاشقان.
ما أحسن ذلك! ما أجمله! كم أحبّك!
وكم أحببتُكِ! ما عدتُ أدري، ومن يأبه لذلك،
من المُؤكَّد أنَّ تاريخ إسبانيا لا يأبه،
بلدنا، لو أنَّكِ علمتِ ما اسم بلدنا؟

ذلك العدَم المهيب التاريخيّ حيث عشنا، أبي، وأنتِ، وأنا.

Notes

[1←]
من مقابلة أجرَتها الأكاديميَّة الملكيَّة الإسبانيَّة مع الكاتب وأذيعَت في ديسمبر من عام 2019. (المترجم)

[2←]
الشامانيَّة: معتقدات وممارسات تقليديَّة مقترنة بعالَم الأرواح.

[3←]
التأسّل: الرجعيَّة التطوُّريَّة، أو ظهور صفات بعد أجيالٍ من اختفائها.

[4←]
نسبةً إلى فرانثيسكو فرانكو (1892 ـ 1975): دكتاتور عسكريّ فرض حكمه بعد الحرب الأهليَّة.

[5 ←]
كوليفلور Coliflor: تعني «قرنبيط» باللُّغة الإسبانيَّة.

[6←]
فرانثيسكو غوميث دي كيبيدو (1580 ـ 1645) ولويس دي غونغورا (1561 ـ 1627)، من أبرز شعراء العصر الذهبيّ الإسبانيّ.

[7 ←]
إيروس: إله الحب والجنس في الميثولوجيا الإغريقيَّة.

[8←]
حنة آرنت (1906 ـ 1975): فيلسوفة وسياسيَّة ومُنظِّرة ألمانيَّة.

[9 ←]
خامون دي بيّوتا: صنف فاخر من لحم الخنزير المُقدَّد في إسبانيا.

[10←]
جيوفاني باتيستا بيرغوليزي (1710 ـ 1736): موسيقار إيطاليّ، من أهمّ مُؤلَّفاته الستابت ماتر Stabat Mater، وهي عبارةٌ لاتينيَّة تعني «الأمّ واقفةً»، ويُشار بها إلى الأيقونات الدِّينيَّة التي تمثِّل العذراء مريم واقفةً قرب المسيح المصلوب.

[11←]
أنطونيو فيفالدي (1678 ـ 1741): موسيقار إيطاليّ ومن أهم رموز الموسيقى في عصر الباروك.
يوهانس برامز (1833 ـ 1897): موسيقار ألمانيّ من روّاد المدرسة الرومانتيكيَّة.

[12←]
خوان رامون خيمينيث (1881 ـ 1958): شاعرٌ إسبانيٌّ حصل على جائزة نوبل في الأدب.

[13←]
آرثر رامبو (1854 ـ 1891): شاعرٌ فرنسيٌّ له كبير الأثر على الآداب والفنون الحديثة.

[←14]
الباروك أو الباروكيَّة: اتِّجاهٌ فنِّيٌّ ازدهر في الغرب ابتداءً من مطلع القرن السابع عشر.

[15 ←]
بومرانغ: قطعة خشبيَّة ملويَّة يُتَّخذ منها قذيفة.

[16←]
كلاوديو مونتيفيردي (1567 ـ 1643): موسيقار إيطاليّ من روَّاد الأوبرا. ومن الجدير بالذكر أنَّ اسم مونتيفيردي يعني «الجبل الأخضر».

[17←]
لوپي دي بيغا (1562 ـ 1635): شاعر وكاتب مسرحيّ من رموز العصر الذهبيّ الإسبانيّ.

[18←]

يوهان سباستيان باخ (1685 ـ 1750)، وريتشارد فاجنر (1813 ـ 1883): كلاهما موسيقار ألمانيّ من عباقرة الموسيقى الكلاسيكيَّة.

[19 ←]
جوزيبي فيردي (1813 ـ 1901): موسيقار إيطاليّ.

[20←]
إل دورادو (وتعني الذهبيَّة باللُّغة الإسبانيَّة): مدينة أسطوريَّة قيل إنَّها مصنوعةٌ من الذهب.

[←21]
سُكّان جبال الألب قديمًا، سويسرا حاليًا.

[22←]
طريقة الاثنتي عشرة نغمة: من تقنيَّات التأليف الموسيقيّ، ابتكرها المؤلِّف النمساويّ جوزيف ماتياس هاور (1883 ـ 1959).

[23←]
ميشيل ستروغوف: بطل روايةٍ تحمل الاسم نفسه للكاتب الفرنسي جول فيرن (1828 ـ 1905).

[24←]

(1)

جورج فريدريك هاندل (1685 ـ 1759): موسيقار ألمانيّ من رموز الحقبة الباروكيَّة.

[25 ←]
بياتريس (1256 ـ 1290): معشوقة الشاعر الإيطاليّ دانتي (1256 ـ 1321) وملهمته.

[26←]
ماريو مورينو، الشهير بلقب كانتينفلاس (1911 ـ 1993): ممثِّل مكسيكيّ.

[27 ←]
ماريا كالاس (1923 ـ 1977): مغنِّية أوبرا يونانيَّة.

[28←]
بينيتو پيريث غالدوس (1843 ـ 1920): كاتب روائيّ ومسرحيّ وسياسيّ إسبانيّ.أمَّا كيبيدو، وغونغورا، ولوپي دي بيغا فقد ورد ذكرهم في مواضع سابقة.

[29 ←]

(1)

سيرجي رخمانينوف (1873ـ 1943): موسيقار وعازف بيانو روسيّ.

[30←]

في هذه القصيدة، وردَت عدَّة إحالاتٍ ثقافيَّة وإشارات إلى أحداث بعينها وقعَت في إسبانيا. وهكذا أدرجنا بعض الأسماء بالحرف اللَّاتينيّ حتى يبحث عنها القارئ الراغب في الاستزادة، تجنُّبًا للإسهاب والإطالة في الشَّرح.

[31←]
نسبة إلى الفنان الإسبانيّ فرانثيسكو غويا (1746 ـ 1828).